قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الجنوب الكاثوليكي

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد العاشر

٤٠

تونس

بيروت

الكتاب الثالث

الجنــوب الـكاثوليكى

١٧١٥ — ١٧٨٩

الفصل التاسع

إيطاليا السعيدة

١٧١٥ — ١٧٥٩

١ — المشهد العام

لم يكن فى استطاعة إيطاليا أن تتحد فى سبيل الدفاع عن نفسها وهى منقسمة إلى نحو اثنتى عشرة دولة متحاسدة متنابذة . وانصرف الإيطاليون إلى الاستمتاع بالحياة والتلذذ بها انصرافا جعلهم يتركون الأجانب الذين أعوزهم النضج يقتتلون طمعا فى ثمرة السياسة المرة ، وغنائم الحرب وأسلابها الملوثة . وهكذا غدت شبه الجزيرة الزاهرة ساحة قتال بين أسبانيا وفرنسا البوربونيتين والنمسا الهابسبورجية . ووضعت سلسلة متعاقبة من حروب الوراثة أوزارها فى ١٧٤٨ وقد استردت أسبانيا مملكة نابلى ودوقية بارما ، واحتفظ البابوات بسلطانهم على الدويلات البابوية ، وظلت سافوى والبندقية وسان مارينو حرة ، وكانت جنوه ومودينا محميتين فرنسيتين ، واحتفظت النمسا بميلان وتسكانيا . وكانت الشمس أثناء ذلك تشرق على ربوع إيطاليا والحقول والكروم والبساتين تجود بالطعام والشراب ، وكانت النساء رائعات الحسن مشبوبات العاطفة ، والأغانى والألحان تملأ أجواز الفضاء ، ووفد عليها الأجانب سائحين وطلاب علم ليستمتعوا بالمناخ ومشاهد الطبيعة ، وبالمسارح والموسيقى والفن ، وبمخالطة رجال ونساء أوتوا ثقافة قرون طوال . لقد كانت إيطاليا ، على الأقل فى شمالها ، أسعد بلد فى أوربا ، رغم أنها كانت نصف مغلوبة ، ونصف مسلوبة منهوبة .

وكان سكانها عام ١٧٠٠ يناهزون الأربعة عشر مليونا ، وعام ١٨٠٠ الثمانية عشر مليونا . وكان الصالح للزراعة من أرضها يقل عن النصف ولكن

كل شبر من هذا النصف كان يفلح بالجهد الصابر والرعاية الفائقة . وكانت الأرض المنحدرة تقسم إلى مصاطب لتحتفظ بالتربة . والكروم تتدلى من شجرة إلى شجرة فتزدان بها بساتين الفاكهة . أما الجنوب فكانت أرضه ضعيفة، وجففت الشمس المبتسمة فى سخرية الأنهار والتربة والإنسان ، ولم يرخ الاقطاع قبضته التى فرضها على الناس فى العصر الوسيط . وكان من الأمثال الساخرة قولهم «أن المسيح لم يتجاوز قط جنوبى إيبولى» — التى كانت إلى الجنوب تماما من سورينتو . أما وسط إيطاليا فكان خصب التربة ، يفلحه الزراع نظير حصة من المحصول باشراف كبار رجال الكنيسة . وأما فى الشمال — لاسيما فى وادى نهر بو — فقد أشبعت القنوات الأرض ريا ، وكانت هذه القنوات تتطلب رؤوس الأموال تنفق عليها ، والفلاحين المدربين على تطهير الصفاية وتقوية الشواطىء . وهنا أيضا زرع الفلاحون أرض غيرهم لقاء نصيب من المحصول . ولكن فى هذه الحقول المثمرة استطاع الناس أن يحتملوا كل شىء حتى الفقر وهم محتفظون بكرامتهم .

وقامت مئات القرى على السهول ، وفى التلال ، وعلى شاطىء البحر : قرى قذرة متربة فى الصيف ، صاخبة فى الصباح بأحاديث الفلاحين وهم يمشون الهوينا إلى وقدة الحر ، ساكنة فى الظهيرة ، شاغية فى المساء بثرثرة المثرثرين وبالموسيقى ولقاءات المحبين . وكان الإيطاليون يحبون القيلولة أكثر من حبهم للمال ، وهى فترة قال فيها الأب لابا «لا يرى المرء فى الشوارع أثناءها غير الكلاب والحمقى والفرنسيين .»[1] وكان هناك عشرات المدن الملأى بالكنائس والقصور والمتسولين والفن ، وست مدن تضارع باريس جمالا ، وألوف من مهرة الصناع ما زالوا فى قمة فنهم . وكانت الصناعة الرأسمالية تتطور من جديد فى مجال النسيج لاسيما فى ميلان وتورين وبرجامو وفتشنتا ، ولكن معظم العمل حتى فى النسيج كان يؤدى على أنوال بيتية جزءا من حياة الأسرة . وكانت هناك طبقة وسطى صغيرة (قوامها التجار والمصرفيون ورجال الصناعة والمحامون والأطباء والموظفون والصحفيون والكتاب والفنانون والكهنة) آخذة فى النمو وسطا بين الطبقة الأرستقراطية (طبقة ملاك

الأرض وكبار رجال الدين) وطبقة « العامة » (وهم أصحاب الحوانيت ومهرة الحرفيين والفلاحون) ، ولكن لم تحرز هذه الطبقة الوسطى أية قوة سياسية بعد .

ولم تكن الفوارق الطبقية واضحة ملحوظة إلى حد مؤلم ، اللهم إلا فى البندقية وجنوه . ففى معظم المدن الإيطالية دخل النبلاء بنشاط ميدان التجارة أو الصناعة أو المال . وكان فى إمكان وصول أى فلاح إيطالى إلى منصب الأسقفية أو البابوية ما أشاع عنصرا ديمقراطيا فى الحياة الاجتماعية ؛ وفى البلاط كان حامل لقب النبالة المهيب يلتقى بالأسقف المتواضع الأصل ويجالسه ، وفى الأكاديميات والجامعات كان النبوغ الفكرى يرجح الدعاوى الطبقية ، وفى صخب الكرنفال كان الرجال والنساء المطمئنون وراء أقنعتهم ينسون مراتبهم الاجتماعية كما ينسون نواميسهم الخلقية . وكان الحديث بين الناس يتسم بالمرح شأنهم فى فرنسا ، هذا إذا استثنينا إجماعا متفاهما عليه بعدم المساس بدين يأتى بالجزية الدولية لإيطاليا — حتى من فاتحيها — بنوع خاص .

على أن ذلك الدين كان بريئا من أى شائبة تزمت ، فقد تصالح مع طبيعة البشر ومناخ إيطاليا . وسمح فى الكرنفالات بفترة تعطيل للاحتشام ، ولكنه جاهد للمحافظة على مؤسستى الزواج والأسرة وحمايتهما من سذاجة النساء وأهواء الرجال . فكانت الفتيات فى الطبقات المثقفة يرسلن إلى أحد الأديرة فى سن مبكرة — فى الخامسة — لا للتعليم أولا بل لضمان الإشراف الخلقى عليهن . ولم تكن الفتاة التواقة إلى الحرية يطلق سراحها إلا إذا وفر لها صداق وهيىء لها خطيب يوافق عليه أبوها أو أولياؤها ويتقدم لزواجها . وإذا جاز لنا أن نصدق كازانوفا ، فإنه كان فى استطاعة راهبة شديدة الشوق إلى الرجال أن تغافل أحيانا الرئيسة الأم — أو تغافل الرئيسة الأم راهباتها — وتجد سبيلا للقاء رجل شديد الشوق إلى النساء بين الغسق والفجر ، ولكن هذه كانت مغامرات نادرة محفوفة بالخطر . على أننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم على أخلاقيات الرهبان .

وكان الذكر غير المتزوج إذا لم يستطع إغواء زوجة رجل آخر ، يتعامل

عموما مع البغايا . وقد قدر الكونت دكايلوس أن عددهن فى نابلى عام ١٧١٤ بلغ ثمانية آلاف من بين السكان البالغين ١٥٠,٠٠٠ . ووجد الرئيس دبروس فى ميلان « إنك لاتخطو خطوة فى الميادين العامة دون أن تتلقى بقوادين courtiers de galanterie يعرضون عليك نساء من كل لون أو جنس تشاء ، ولكن لك أن تثق بان النتيجة لا تكون دائما باهرة كالوعد .[٢] » وكان محظورا على البغايا فى روما أن يظهرن فى الكنائس أو المحافل العامة ، وحرم عليهن بيع مفاتنهن خلال صـــوم الميلاد ، والصوم الكبير ، وأيام الآحاد والعطلات الدينية .

وكان أشد ما يعاكس هؤلاء البغايا ويفسد عليهن حرفتهن أن طريق العشق الحرام كانت ميسرة إلى قلوب النساء المتزوجات . فهؤلاء النساء انتقمن لأنفسهن من فترة المرهقة التى ضيق عليهن فيها ، ومن الأزواج الذين لم يكن لهن رأى فى إختيارهن ، بالانغماس فى العلاقات الغرامية غير المشروعة ، وباتخاذ « سيد تابع » cavaliere servente . وقد سمحت عادة مرافقة المرأة المتزوجة هذه cicisbeatura ، بموافقة زوجها وفى غيبته ، (وهى عادة مستوردة من أسبانيا) بأن يقوم على خدمتها سيد يخدمها ، فيرافقها إلى العشاء وإلى المسرح وإلى المنتديات ، ولكن نادرا ما يصحبها إلى الفراش . واختيار بعض الأزواج مرافقين لزوجتهن لحمايتهن من علاقات العشق الحرام .[٣] وقد أفضى الانتشار الواسع لمذكرات كازانوفا ، والأخبار المتعجلة التى أذاعها الرحالة الفرنسيون الذين الفوا التحلل الفرنسى ، إلى مبالغة الأجانب فى فكرتهم عن فساد الأخلاق فى إيطاليا . صحيح أن جرائم العنف أو الجنس كثرت ، ولكن الإيطاليين كانوا بوجه عام أبناء أوفياء لوالديهم ، وأزواجا غيورين على نسائهم ، وزوجات مجدات فى بيوتهن ، وآباء متعلقين بأبنائهم ، يحيون حياة أسرية مترابطة ، ويواجهون متاعب الزواج والأبوة والأمومة بإباء فى الخلق وطلاقة فى الحديث وبشاشة حاضرة فى الطبع .

ولم يلق تعليم النساء تشجيعا ، لأن كثيراً من الرجال كانوا يرون التعليم خطرا على العفة . وتلقت قلة من البنات فى الأديرة تعليما فى القراءة والكتابة

والتطريز وفنون الحياكة والترفيه . ومع ذلك نسمع عن نساء راقيات التعليم يدرن صالونات يتجاذبن فيها الأحاديث فى يسر مع الكتاب والفنانين ورجال الأعمال . وفى بلرمو ترجمت « أنا جنتيلى » فولتير شعرا إيطاليا جيدا ، ونشرت « الرسائل الفلسفية » التى دافعت فيها بجرأة عن أخلاقيات هلفتيوس غير القائمة على الدين . وفى ميلان سمع الرئيس دبروس ماريا جايتانا اجنيزى ، البالغة من العمر عشرين عاما ، تحاضر باللاتينية فى علم السوائل[٤] ، وقد درست اليونانية والعبرية والفرنسية والإنجليزية وكتبت رسائل فى القطاعات المخروطية والهندسة التحليلية[٥] ، وفى جامعة بولونيا كانت السنيورة ماتسوكيني تدرس التشريح ، والسنيورة تامبرونى تدرس اليونانية[٦] . ومن تلك الجامعة ذاتها نالت لاورا باسى درجة الدكتوراه فى الفلسفة ولما تتجاوز الحادية والعشرين (١٧٣٢) ، وما لبثت أن ضربت فى العلم بسهم وافر حتى عينت استاذا فى الجامعة وحاضرت فى « بصريات » نيوتن والفت البحوث فى الفيزياء ، وأنجبت خلال ذلك لزوجها اثنى عشر طفلا قامت بنفسها على تربيتهم[٧] .

وظلت الكثرة العظمى من الجنسين أمية دون أن ينالها من ذلك أى غضاضة أو ازدراء من المجتمع . فاذا ظهرت مخايل الذكاء والنضج على غلام فى القرية وجد له القسيس عادة سبيلا إلى التعليم . ذلك أن شتى الجماعات الدينية أسست المدارس فى المدن . فكان لليسوعيين عدد كبير من الكليات فى إيطاليا — ست فى البندقية ، وسبع فى ميلان وست فى جنوه ، وعشر فى بيدمونت ، وتسع وعشرون فى صقلية وكليات كثيرة فى مملكة نابلى وفى الولايات البابوية . وقامت الجامعات فى تورين وجنوه وميلان وبافيا وبيزا وفلورنسه وبولونيا وبادوا وروما ونابلى وبلرمو ، وكلها تحت إشراف رجال الكنيسة الكاثوليك ، ولكن الكليات ضمت الكثير من العلمانيين . وكان المعلمون والطلاب على حد سواء يحلفون اليمين بالا يعلموا أو يقرؤا ويقولوا أو يفعلوا شيئا يخالف تعليم كنيسة روما . يقول كازانوفا « فى بادوا كانت حكومة البندقية تدفع المرتبات الكبيرة لمشاهير الأساتذة ، وتترك للطلاب كامل الحرية فى الانتظام فى حضور دروسهم ومحاضراتهم أو عدمه كما يشاءون »[٨] .

يضاف إلى هذا أن الفكر الإيطالى شحذه عدد كثير من الأكاديميات المخصصة للآداب أو العلوم أو الفنون ، المتحررة عادة من إشراف رجال الدين ، وأشهرها الأكاديمية الاركادية التى كانت فى الفترة التى نحن بصددها تموت موتا كريما . وكانت هناك مكتبات عامة مثل « دار الكتب الامبروزية » الجميلة فى ميلان ، أو دار كتب ماجليابكينانا (دار الكتب القومية الآن) فى فلورنسه ، وكان الكثير من المكتبات الخاصة كمكتبة بيزانى فى البندقية ، يفتح أبوابه للجمهور فى أيام معلومة من الأسبوع . وقد روى دبروس أن مكتبات إيطاليا كان يستخدمها القراء استخداما يفوق فى كثرته وحماسته استخدام القراء لمكتبات فرنسا . وأخيرا كانت هناك دوريات من جميع الأنواع — ثقافية ، أو أدبية ، أو فكاهية . وكانت مجلة الآداب الإيطالية التى أسسها أبوستولو تسينو وفرانشسكو سكيبيوتى دى ما فيي عام ١٧١٠ من أرقى المجلات فى أوربا ثقافة وأحظاها بالاحترام .

وصفوة القول أن إيطاليا كانت تنعم بحياة فكرية نشيطة ، فكثر عدد الشعراء الذين عاشوا على إهداء شعرهم لكبار القوم ، وتعطر الجو بأريج القصائد الغنائية التى ما برحت تقلد بترارك ، وتنافس المرتجلون فى إفراخ القريض فور دعوتهم إلى قرضه . ولكن العصر خلا من الشعر العظيم حتى أقبل ألفييرى فى ختام القرن . وقامت المسارح فى البندقية وفتشنتا وجنوه وتورين وميلان وفلورنسه وبادوا ونابلى وروما ، وأم هذه الأبنية الأنيقة الرشيقة صفوة القوم وعامة الشعب ليتجاذبوا الحديث ويسددوا نظرات الغرام . كما أتوها ليستمعوا إلى الأوبرا أو التمثيلية . وكان هناك دارسون كبار مثل مافيي ، ومؤرخون شديدو الاجتهاد مثل موراتورى ، وعما قليل سيأتى علماء عظام . غير أنها كانت ثقافة متكلفة بعض الشىء ، حذرة خشية الرقابة ، مهذبة مجاملة إلى حد أفقدها الجرأة .

ومع ذلك هبت عليها رياح متقطعة من الهرطقة عبر الألب أو البحر . فأسس الأجانب — لاسيما الإنجليز من أنصار جيمس الثانى — فى جنوه وفلورنسه وروما ونابلى ، من ١٧٣٠ فصاعدا محافل ماسونيه نزاعة إلى الربوبية . وقد أدانها البابوان كلمنت الثانى عشر وبندكت الرابع عشر ، ولكنها اجتذبت

الاتباع العديدين خصوصا من طبقة النبلاء وأحيانا من الأكليروس . وجلبت إلى إيطاليا بعض مؤلفات مونتسكيو وفولتير وريتال ومابلى وكونديلك وهلفتيوس ودولباخ ولامترى . ونشرت طبعات من « الموسوعة » بالفرنسية فى لوكا وليجهورن وبادوا . ووصلت حركة التنوير إلى إيطاليا بدرجة متواضعة وفى صورة ميسرة لمن يقرءون الفرنسية . ولكن الإيطالى أعرض عن الفلسفة ، وأعرض عنها عمدا ؛ وعن قناعة فى الأكثر الأعم . فلقد كان هواه ومهارته فى إبداع أو تذوق الفن والشعر أو الموسيقى ؛ وبدا له الجمال المحسوس أو المرئى أو المسموع أفضل من حقيقة رواغة لا يضمن اطلاقا إشاعتها البهجة فى نفسه . ومن ثم فقد ترك الدنيا تناقش وتجادل بينما انصرف هو إلى شدوه وغنائه .

٢ — الموســـيقى

اعترفت أوروبا للموسيقى الإيطالية بمكان الصدارة وقبلت آلاتها وأشكالها ، ورحبت بمزاياها ، وتوجت كبار مغنيها الخصان واستسلمت لأوبراها الشجة قبل جلوك وعلى الرغم منه وبعده . وأم جلوك وهاسى وموتسارت ومئات غيرهم إيطاليا ليدرسوا موسيقاها ، وليقفوا على أسرار « الغناء الجميل bel canté » (الملعلع) من بوربورا أو يتسلموا مدالية بادرى مارتينى .

يقول بيرنى فى معرض حديثه عن البندقية ، « إذا سار إثنان معاً يتأبط أحدهما ذراع الآخر ، بدا كأنهما لا يتحدثان الا غناء . فكل الأغانى هناك ثنائيات » .[٩] وكتب إنجليزى آخر « فى ميدان القديس مرقص يرفع رجل من عامة الشعب — حذاء أو حداداً مثلا — عقيرته بأغنية ، وللتو ينضم إليه أشخاص على شاكلته ويشدون بهذه الأغنية فى عدة أصوات ، بضبط وذوق ندر أن يصادفهما المرء فى أرقى المجتمعات فى بلادنا الشمالية[١٠] .

وكان العاشق الواقف تحت نافذة حبيبته يداعب أوتار قيثارة أو مندولين كما يداعب قلب عذرائه . وحمل مغنو الشارع أنغامهم إلى المقاهى والحانات ، وفى الجندول كانت الموسيقى تعانق هواء المساء ، والصالونات والأكاديميات

والمسارح تحيي الحفلات الموسيقية ، والكنائس ترجها أصوات الأراغن
وفرق المرتلين ، وفى الأوبرا كان الرجال ينتشون طربا والنساء يغبن عن الوعى
عند سماع لحن من المغنية الأولى أو الخصى المغنى . وفى حفلة سمفونية أحييت
فى روما فى مكان لا تغطيه غير نجوم السماء (١٧٥٨) سمع موريلليه عبارات
عاطفية مثل (إيه أيها المبارك ! يا للذة الكبرى ! أكاد أموت طربا ! . [١١]
ولم يكن من غير المألوف فى دار الأوبرا أن نسمع النشيج يتردد بين جمهور
النظارة .

وأحب القوم آلاتهم الموسيقية حبا فوق وفاءهم للجنس الآخر ، وسخوا
بالمال ليجعلوا منها تحفا صنعت بدقة من الخشب الثمين وطعمت بالعاج أو
المينا أو رصعت بالأحجار الكريمة ، وربما زين الهارب أو القيثارة بالماس . [١٢]
وكان سترايفارى قد ترك فى كريمونا تلاميذ له مثل جوزيبى انطونيو جوارنيرى
ودومنيكو مونتانيانا واصلوا العلم بسر صنع الفيولينات والفيولات والفيولنشلات
النابضة بالحياة . وظل الهاربسكورد (الذى كان الإيطاليون يسمونه كلافيتشمبالو)
إلى نهاية القرن الثامن عشر آلة المفاتيح المفضلة فى إيطاليا رغم أن بارتولوميو
كريستوفورى كان قد اخترع البيانو — فورتى بفلورنسه حوالى ١٧٠٩ .
وحظى كبار عازفى الهاربسكورد مثل دومنيكو سكارلاتى ، أو الفيولينه
مثل تارتينى وجمنيانى ، فى هذا الجيل بشهرة دولية . فكان فرانشسكو
جمنيانى بمثابة « لست » الفيولينة ، أو كما لقبه منافسه تارتينى « مجنون » القوس
(إلفوريبوندو) . وحين وفد على انجلترة فى ١٧١٤ حظى بشعبية فى الجزر
البريطانية أغرته بالإقامة هناك معظم سنيه الثانى عشرة الأخيرة .

وقد شجع ظهور أمثال هؤلاء العازفين المهرة على إنتاج الموسيقى الآلية ،
وكان هذا هو العصر الذهبي للمؤلفات الموسيقية الإيطالية للفيولينة . فاتخذت
شكلها الآن — خصوصا فى إيطاليا — الإفتتاحية ، والمتتالية ، والصوناتا ،
والكونشرتو ، والسمفونية ، وكلها ركز على اللحن والإيقاع ، لا على الكونترابنط
البوليفونى الذى كان آنئذ بالغاً أوجه ثم مختتما حياته مع يوهان سبستيان باخ .
وكما أن المتتالية أنبثقت من موسيقى الرقص فكذلك إنبثقت الصوناتا من

المتتالية . لقد كانت شيئا يعزف ، كما كانت الكنتاتا شيئاً ينشد . وأصبحت الصوناتا فى القرن الثامن عشر سلسلة من ثلاث حركات — سريعة (الليجرو أو بريستو) ، وبطيئة (أندانتى أو أداجو) وسريعة (بريستو أو الليجرو) ويدس فيها أحيانا سكيرتسو (دعابة) تذكر السامع برقصة الجيجة المرحة ، أو منويتة رشيقة تذكره بموسيقى الرقص . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كانت الصوناتا ، على الأقل فى حركتها الأولى ، قد طورت « شكل الصوناتا » — وهو عرض موضوعات متعارضة واطالتها بالتنويع ، ثم تلخيصها عند الختام . وبعد تجارب ج . ب . سامارتينى ورينالدودى كابوا فى إيطاليا ، ويوهان شتامتس فى ألمانيا ، تطورت السموفونية بتطبيق شكل الصوناتا على ما كان فى الماضى إفتتاحية أوبرالية أومصاحبة سردية . وبهذه الوسائل هيأ الملحن اللذة للعقل والحواس معا ، وأعطى الموسيقى الآلية ميزة فنية جديدة هى البنيان المحدد الذى يقيد ويربط اللحن بنظام ووحدة منطقيين . ذلك أنه إذا انعدم البناء فى فن ما — أى العلاقة العضوية بين الأجزاء والكل ، أو العلاقة بين البداية والوسط والنهاية — كان ذلك معناه انحطاط هذا الفن .

أما الكونشرتو (من اللفظ اللاتينى concertare ومعناه يتبارى) فقد طبق على الموسيقى مبدأ الصراع الذى هو روح الدراما . فعارض الأوركسترا بعازف منفرد ، وأدخل الاثنين فى مناظرة هارمونية . وكان شكله المفضل فى إيطاليا الكونشرتو جروسو (الكبير) ، حيث التعارض بين أوركسترا صغير من الوتريات ، و« كونشرتينو » (كونشرتو صغير) من عازفين أو ثلاثة . وكان لفيفالدى فى إيطاليا وهيندل فى انجلترا ، وباخ فى ألمانيا ، الفضل فى صقل شكل الكونشرتو جروسو صقلا مطردا ، وتحدت موسيقى الآلات تفوق الأغنية .

ومع ذلك ، ظل الصوت — خصوصا فى إيطاليا — هو الآلة المحببة التى لا ضريب لها . ففى إيطاليا أتيحت له ميزة لغة عذبة رخيمة ، تغلب فيها الصوت اللين على الساكن ، وتقليد طويل من الموسيقى الكنسية ، وفن بالغ الرقى من فنون التدريب الصوتى . هنا ظهر كبار مغنيات الأوبرا (البريمادونات) .

الفاتنات اللائى يرتقين كل عام سلم الثراء والبدانة ، والمغنون الطواشية ذوو الأجسام الريانة الذين كانوا يخرجون من إيطاليا ليأسروا الملوك والملكات . هؤلاء المغنون السوبرانو أك الكونترالتو الذكور جمعوا بين رئات الرجال وحناجرهم ، وبين أصوات النساء أو الغلمان . وكانوا بعد أن يطوشوا فى سن السابعة أو الثامنة ، ويخضعوا لنظام طويل دقيق من التدريب على التنفس والنطق ، يتعلمون ترعيشات الصوت وتحلياته وتهدجاته ، وتعاقب النغمات السريع ووقفات التقاط النفس — إلى آخر هذه الفنون التى جعلت جماهير السامعين الإيطالية تهذى طربا تعبر عنه أحيانا بهتاف هو « ليحى السكين الصغير »[١٣] . ذلك أن معارضة الكنيسة (لاسيا فى روما) فى استخدام النساء على خشبة المسرح ، وسوء تدريب المغنيات فى القرن السابع عشر ، كانا قد خلقا طلبا لباه هذا السكين الصغير الذى كان يقطع القنوات المنوية للذكر . وبلغ من عظم مكانة المغنين المطوشين إذا حالفهم الحظ أن بعض الآباء كانوا — بعد أن يغروا الصبى الضحية بالرضى بمصيره هذا — يسلمونه لهذه العملية بمجرد أن تبدو منه أول بادرة صوت رخيم . ولكن كثيرا ما كانت الآمال تخيب ، فكنت تجد فى كل مدينة بايطاليا كما ذكر بيرنى نفرا من هؤلاء الفاشلين « ولا صوت لهم على الاطلاق »[١٤] وبعد عام ١٧٥٠ اضمحلت بدعة الخصيان هذه ، لأن مغنيات الأوبرا تعلمن أن يتفوقن عليهم فى نقاء النغمة وينافسنهم فى قوة الصوت .

أما أشهر الأسماء فى موسيقى القرن الثامن عشر فلم يكن باخ ولا هيندل ولا موتسارت ، بل فارينللى — وهذا ليس اسمه الأصلى . والظاهر أن كارلو بروسكى اتخذ اسم خاله الذى كان آنئذ معروفا فى دوائر الموسيقى . وإذ كان كارلو قد ولد فى نابلى (١٧٠٥) لأبوين عريقى الأصل ، فما كان لمثله عاده أن يدخل صفوف المطوشين ؛ وروى أن حادثا أصابه وهو راكب جواده اقتضى إجراء العملية التى أثمرت أبدع صوت فى التاريخ . ثم درس الغناء فى على بوريورا ، وصحبه إلى روما ، وظهر هناك فى أوبرا بوريورا المسماة « إيومينى » . وفى أحد الألحان نافس عازفا على الناى فى إطالة نغمة وتضخيمها وغطى عليه

فى طول النفس ، فأتته الدعوات من أكثر من عشر عواصم . وفى ١٧٢٧ فى بولونيا لقى أول هزيمة له ؛ ذلك أنه قاسم أنطونيو برناكى لحنا ، فاعترف له بأنه (ملك المغنين) ، وتوسل إليه أن يكون معلمه . ووافق برناكى ، وسرعان ما بز التلميذ معلمه . وراح فارينللى الآن يحرز نصرا بعد نصر فى البلد تلو البلد — البندقية وفينا وروما ونابلى وفيرارا ولوكا وتورين ولندن وباريس . وكان تفننه الصوتى عجيبة العصر . وكان فن التنفس من أسرار براعته ، فقد عرف أكثر من أى مغن آخر كيف يتنفس بعمق وسرعة وهدوء ، وكان فى استطاعته أن يستمر فى غناء بنغمة ما بعد أن تتوقف جميع الآلات الموسيقية . وفى لحن son qual nave (على أى مركب) بدأ النغمة الأولى مخافتاً لا يكاد يسمع ، ومطها تدريجا إلى ملء حجمها ، ثم هبط بها شيئا فشيئا إلى خفوتها الأول . وكان جمهور السامعين أحيانا ، حتى فى انجلتره — ذلك البلد الرصين — يصفق لهذه العجيبة السعيدة تصفيقاً يمتد خمس دقائق .[١٥] وقد اكتسب قلوب سامعيه كذلك بحنانه وكياسته ورقته ، وكانت هذه الخلال فى فطرته كما كانت فى صوته . وفى ١٧٣٧ قام بزيارة لأسبانيا خالها قصيرة ، ولكن المكث طال به فى مدريد أو قربها ربع قرن .. وسوف نفتش عليه هناك فى فصل لاحق .

وبفضل المغنين الطواشية أمثال فارينللى وسينيزينو ، وكواكب الغناء من النساء أمثال فاوستينا بوردونى وفرنشسكا كوتسونى ، أصبحت الأوبرا صوت إيطاليا ، وبهذه المثابة استمع إليها الناس بابتهاج فى كل بلد أوربى إلا فرنسا حيث اشتعلت نار الحرب . وكلمة « أوبرا » كانت فى الأصل جمع « opus » ومعناها « أعمال » ولكن الجمع أصبح فى إيطاليا مفردا ، واحتفظ بمعناه « العمل » ، وما نسميه الآن أوبرا كان يسمى opera per musica — عملا موسيقيا . ولم تتخذ الكلمة معناها الحالى إلا فى القرن الثامن عشر . وإذ كانت متأثرة بتقاليد الدراما اليونانية ، فقد صممت أصلا على أنها تمثيلية تصاحبها الموسيقى ، ثم ما لبثت الموسيقى أن طغت على التمثيلية فى إيطاليا ، وطغت الأغانى (الآريا) على الموسيقى . وصممت أوبرات تتيح عروضا منفردة لكل

مغنية أولى وكل مغن أول فى الفرقة . وكان السامعون يتجاذبون الحديث فيما بين هذه القمم المثيرة ، وبين الفصول يلعبون الورق أو الشطرنج ، ويقامرون ، ويأكلون الحلوى أو الفاكهة أو العشاء الساخن ، ويتزاورون ويغازلون من مقصورة إلى مقصورة . فى مثل هذه المهرجانات كان النص عادة يغرق فى طوفان معترض فى الأغانى والثنائيات والكوارس والباليهات . وقد ندد المؤرخ لودفيكو موراتورى بطمس الشعر على هذا النحو (١٧٠١) [١٦] ووافقه كاتب النصوص أبوستولوتسينو ، وانتقد المؤلف الموسيقى بنديتو مارنشيللى هذا الاتجاه فى « تياترو على الموضة » (١٧٢١) . وأوقف متاستازيو حينا هذا السيل الجارف ، ولكن فى النمسا لا فى إيطاليا . وناضل جوميللى وترايتا ضده ، ولكن مواطنيهما أنكروا عليهما هذا النضال ، ذلك أن الإيطاليين آثروا فى فى غير مواربة الموسيقى على الشعر ، واتخذوا الدراما مجرد تكئة للأغنية .

وأغلب الظن أنه ما من شكل فنى آخر وعاه التاريخ حظى بالشعبية التى حظيت بها الأوبرا فى إيطاليا . وما من حماسة ضارعت حماسة جمهور إيطالى يرحب بلحن أو قفلة لنغمة يشدو بها مغن مشهور . ولو سعل أحد المستمعين فى حفلة كهذه لعد ذلك منه جريمة إجتماعية كبرى . وكان التصفيق يبدأ قبل أن تختم الأغنية المألوفة ، وتدعمه العصى تدق على الأرض أو على ظهور المقاعد ، وكان بعض المتحمسين يقذفون بأحذيتهم فى الهواء [١٧] . وكان لكل مدينة إيطالية تزهو بنفسها قليلا أو كثيرا (وأيها كانت مبرأة من الزهو ؟) دار للأوبرا ، وبلغ عدد هذه الدور فى الولايات البابوية وحدها أربعين . وبينما كانت الأوبرا فى ألمانيا حفلة رسمية تؤدى فى البلاط ويحرمها جمهور الشعب ، وبينما حد من مستمعيها فى انجلترة ارتفاع أسعار الدخول ، نجدها فى إيطاليا مفتوحة لكل شخص لائق الهندام نظير رسم متواضع ، وأحيانا دون رسم على الإطلاق . ولما كان الإيطاليون قوما يحبون الاستمتاع بالحياة فقد أصروا على أن يكون لأوبراتهم خاتمة سعيدة مهما كان فى هذه الأوبرات من فواجع . ثم أنهم أحبوا الفاكهة كما أحبوا رقة العاطفة . فما بينهم تقليد يقضى بدس فاصل هزلى بين فصول الأوبرا . ثم تطورت هذه الفواصل إلى

نوع قائم بذاته حتى لقد نافست (الأوبرا الجادة) فى شعبيها ، وأحيانا فى طولها . والذى فتن باريس فى ١٧٥٢ كان « أوبرا هازلة — opera buffa » هى الخادمة تنقلب ربة البيت la serva padrann لبرجوليزى ، التى أشاد بها روسو دليلا على تفوق الموسيقى الإيطاليا على الفرنسية .

أياً كانت الأوبرا الإيطالية ، هازلة أو جادة ، فإنها كانت قوة فى التاريخ . وكما غزت روما مرة غربى أوربا بجيوشها ، وكما غزتها كنيسة روما مرة ثانية بعقيدتها ، كذلك غزتها إيطاليا مرة ثالثة بالأوبرا . فأزاحت أوابراتها الإنتاج الوطنى فى ألمانيا والدنمرك وانجلترة والبرتغال وأسبانيا بل وروسيا ، وكان مغنوها معبودى كل عاصمة أوربية تقريبا . واتخذ المغنون الوطنيون أسماء إيطالية لكى يحظوا بالقبول فى وطنهم . وسيمضى هذا الغزو الساحر ما بقى للحروف اللينة التفوق فى الغناء على الحروف الساكنة .

٣ — الدين

كانت الطبقة المسيطرة فى إيطاليا هى طبقة الأكليروس بعد البريمادونات والمغنين الخصيان . وراح رجال الدين يمشون أو يركبون فى غفاراتهم المتميزه وقبعاتهم العريضة الحواف فى حرية تخالطها الكبرياء عبر المجتمع الإيطالى عالمين أنهم يوزعون أغلى نعمة عرفتها البشريه — هى نعمة الرجاء . وبينما كانت نسبة رجال الكنيسة إلى الشعب فى فرنسا فى هذا القرن على التقريب واحدا إلى مائتى نفس ، كانت النسبة فى روما واحداً لكل خمس عشرة ، وفى بولونيا واحداً لكل سبع عشرة ، وفى نابلى وتورين واحداً لكل ثمان وعشرين[١٨] . وقد شكا رجل معاصر من أهل نابلى من هذا الوضع ، وهو باعترافه رجل متمسك بالتقاليد :

« لقد إستفحل عدد الأكليروس بحيث أصبح لزاما على الأمراء أن يتخذوا الإجراءات للحد من عددهم وإلا ابتلعوا الدولة بأسرها . فأى

ضرورة لأن يهيمن على أصغر القرى الإيطاليه خمسون قسيسا أو ستون؟... أن العدد الضخم من أبراج الأجراس والأديره يحجب نور الشمس. وهناك مدن يبلغ فيها العدد خمسة وعشرين ديرا لرهبان أو راهبات الدومنكان وسبعة مجامع لليسوعيين، ومثلها للتياتين، ونحو عشرين أو ثلاثين ديراً للأخوة الفرنسسكان، وما لا يقل عن خمسين أخر من طوائف دينية مختلفة من الجنسين، هذا فضلا عن أربعمائه أو خمسمائة كنيسة ومصلى[١٩]».

ولعل هذه الأرقام بالغ فيها الكاتب دعما لحجته. ونحن نسمع عن أربعمائة كنيسة فى نابلى، و ٢٦٠ فى ميلان، و ١١٠ فى تورين، على أن هذه دخلت ضمنها المصليات الصغيرة. وكان الرهبان فقراء نسبيا، أما الأكليروس من غير الرهبان فكانوا فى جملتهم يملكون ثروة تفوق ثروة النبلاء. وكان الأكليروس فى مملكة نابلى يحصلون على ثلث الموارد. وفى دوقية بارما كان نصف الأرض يملكه الأكليروس، وفى تسكانيا ثلاثة أرباع الأرض تقريباً. وفى البندقية أضافت الوصايا الجديدة فى السنوات الأحدى عشرة من ١٧٥٥ إلى ١٧٦٥ إلى الكنيسه من الأملاك ما قيمته ٣,٣٠٠,٠٠٠ دوقاتية[٢٠]. وكان بعض الكرادلة والأساقفة من أغنى الرجال فى إيطاليا، ولكن هؤلاء الكرادلة والأساقفه كانوا أولا مديرين وحكاما، ولم يكونوا قديسين إلا أحيانا. من ذلك أن عدة رجال منهم فى النصف الثانى من القرن نزلوا عن ثروتهم وترفهم وعاشو حياة الفقر الاختيارى.

أما الشعب الإيطالى فلم يبد منه أى احتجاج ذى بال على ثراء الأكليروس، اللهم إلا قلة من المعلقين والهجائين. لقد كان الشعب فخورا بهاء كنائسه وأديرته وأحباره وبدت لهم مساهماتهم ثمنا زهيدا يدفعونه لقاء النظام الذى وفره الدين للاسرة والدولة. وكان فى كل بيت صورة أو تمثال للمسيح المصلوب، وآخر للعذراء، وأمامهما تركع الأسرة كلها فى صلاة كل مساء — الأبوان والأبناء والخدم. فأى شىء يستطيع الحلول محل التأثير الأخلاقى لتلك الصلوات الموحدة بين القلوب؟ وكان الأمتناع

عن أكل اللحم أيام الجمع ، وأيام الأربعاء والجمع فى الصوم الكبير ، ضبطا نافعا للشهوة — كما كان نعمة على الصحة وعلى صيادى السمك . أما القساوسة ، الواعون لمفاتن النساء ، فلم يغالوا فى إدانة خطايا الجسد، وأغضوا عن مظاهر التحلل فى الكرنفالات . لا بل أن البغايا كن فى السبوت يوقدن شمعه أيام العذراء ، ويودعن نقودا لترتيل قداس . وقد أدهش دبروس وهو يشاهد تمثيلية فى فيرونا أن يرى التمثيل يتوقف حين دقت أجراس الكنائس معلنة موعد الصلاة (الأنجيلوس) ، وركع كل الممثلين وصلوا ، وقامت ممثله كانت تتصنع الأغماء فى المسرحيه لتشارك فى الصلاة ثم عادت إلى أغمائها[٢١] . حقاً ندر أن أحب الناس دينا من الأديان حباً جما كما أحب الإيطاليون الكثلكة فى إيطاليا . على أنه كان للصورة وجه آخر — هو الرقابة على المطبوعات وديوان التفتيش . وقد طالبت الكنيسة كل إيطالى أو إيطاليه أن يؤدى مرة فى السنة على الأقل « واجب عيد القيامة » — أى يذهب للاعتراف على الكاهن فى سبت النور ، ويتناول القربان فى صباح القيامة . فإذا قصر فى هـذا الواجب — فى كل أرجاء إيطاليا باستثناء أكبر المدن — استوجب التوبيخ من الكاهن ، فإذا لم يجد مع العاصى التوبيخ والنصح سراً عوقب بنشر إسمه على أبواب كنيسة الأبرشيه، فإذا تمادى فى الرفض كان جزاؤه الحرم ، بل السجن فى بعض المدن[٢٢]. على أن ديوان التفتيش كان قد فقد الكثير من قـوته وشرته . وكان فى الأمكان تفادى الرقابة الكنسيه فى المراكز الكبرى ، فخفت الرقابة على المطبوعات ، وكان هناك إنتشار صامت للشك والهرطقه فى أوساط المثقفين لا بل بين رجال الأكليروس أنفسهم — لأن بعضهم كانوا جانسنيين فى دخيلة أنفسهم برغم أوامر البابا .

وإذا كان الكثير من القساوسة والرهبان قد عاشوا حياة الراحة والدعة، ولم يكونوا غرباء على الأثم ، فقد كان هناك أيضاً الكثيرون ممن وفـوا بنذورهم ، واحتفظوا بالإيمان حياً بالأخلاص لواجباتهم . وقامت المؤسسات الدينية الجديدة شاهدا على بقاء نبض الحياة فى الرهبنة . من ذلك أن القديس

الفونسودى لجيورى المحامى العريق الأصل أسس فى ١٧٣٢ جماعة « إتباع الفادى » (أى المسيح) ، كذلك أسس القديس بولس الصليبى (باولودانيى) ، الذى مارس أقسى ضروب النسك ، فى ١٧٣٧ « طائفة المتألمين » . أى إتباع صليب المسيح المقدس وآلامه .

وكانت جماعة اليسوعيين فى ١٧٣٠ تضم نحو ٢٣,٠٠٠ عضو . منهم ٣,٦٢٢ فى إيطاليا ، ونصفهم قساوسة[٢٣] . ولم يكن هناك تناسب قط بين سلطانهم وعددهم . فكثيراً ما أثروا فى السياسة الداخليه والدولة بحكم كونهم آباء الاعتراف للملوك والملكات والأسر المرموقة ، وكانوا أحياناً أكثر القوى إلحاحاً — بعد جماهير الشعب — فى اضطهاد الهرطقة . ومع ذلك كانوا أكثر اللاهوتيين الكاثوليك تحرراً ، وقد رأينا فى غير هذا الموضع كم حاولوا فى صبر ان يتوافقوا مع حركة التنوير الفرنسية . وقد تميزت بعثاتهم الخارجيه بمثل هذه المرونة . فى الصين حولوا مئات الألوف إلى الكاثولكية[٢٤] ، ولكن تنازلاتهم الذكية لعبادة الأسلاف ، وللكنفوشيه ، وللطاوية ، صدمت مبعوثى الطوائف الدينية الأخرى فاقنعوا البابا بندكت الرابع عشر بأن يكبح جماح اليسوعيين ويوبخهم فى مرسوم Ex quo singulari (١٧٤٣) . على أنهم ظلوا برغم ذلك أقدر وأعلم المدافعين على العقيدة الكاثوليكية ضد البروتستنتية والالحاد ، واخلص المؤيدين للبابوات ضد الملوك . وقد وجد الملوك فى جماعة اليسوعيين أثناء صراعات السيادة والسلطة بين الدول القومية والكنيسة التى تعلو على القوميات عدوا هو أشد أعدائهم دهاء والحاحاً . ومن ثم فقد صحت نيتهم على القضاء عليها . ولكن الفصل الأول فى هذه الدرامة مكانه البرتغال .

٤ — من تورين إلى فلورنسه

إذا دخلنا إيطاليا من فرنسا بطريق مون — سنى ، هبطنا جبال الألب إلى بيدمونت التى تسمى « سفح الجبل » ثم مررنا بكروم وحقول للحبوب وبساتين لأشجار الزيتون أو الكستناء حتى نبلغ توبرين ، القصبه القديمة لبيت ساقوى والتى يرجع عمرها إلى ألفى سنة . وهذا البيت من أقدم الأسر

الملكية الموجودة ، وقد أسسه فى ١٠٠٣ أومبرتو بيانكامانو — هومبرت ذو اليد البيضاء . وكان رأس الأسرة فى الحقبة التى نحن بصددها من أكفأ حكام العصر . فقد ورث فكتور أماديوس الثانى عرش دوقية سافوى فى التاسعة من عمره (١٦٧٥) وأضطلع بشئون الحكم فى الثامنة عشرة وقاتل من أجل الفرنسيين آنا وضدهم آنا فى حروب لويس الرابع عشر ، وشارك أوجين السافواوى فى طرد الفرنسيين من تورين وإيطاليا ، وخرج من معاهدة أوترخت (١٧١٣) وقد أضاف صقلية إلى تاجه . وفى ١٧١٨ استبدل سردنيا بصقلية ، واتخذ لقب ملك ساردنيا (١٧٢٠) ولكنه احتفظ بتورين عاصمة له . وحكم مملكته بكفاية تشوبها الخشونة ، وأصلح التعليم العام وزاد فى رفاهية الشعب ، وبعد أن حكم خمسة وخمسين عاماً تخلى عن العرش لابنه شارل إمانويل الأول (حكم ١٧٣٠ — ٧٣) .

كانت تورين خلال هذين الحكمين اللذين إمتدا قرابة قرن كامل مركزا قياديا للحضارة الإيطاليا . وقد وصفها مونتسكيو الذى شاهدها فى ١٧٢٨ بأنها « أجمل مدينة فى العالم[٢٥] » مع أنه أحب باريس . وإمتدح تشسترفيلد عام ١٧٤٩ بلاط سافوى لأنه خير بلاط فى أوربا يربى « أناسا مهذبين لطفاء[٢٦] » . وبعض الفضل فى بهاء تورين راجع إلى فليبو يوفارا ، المعمارى الذى كان لا يزال يتنفس وحى النهضه الاوربية . فعلى تل سوبرجا الشامخ الذى يعلو ٢,٣٠٠ قدم فوق المدينه بنى (١٧١٧ — ٣١) لفكتور أماديوس الثانى فى ذكرى تحرير تورين من احتلال الفرنسيين باسيليقا جميلة بطراز الأروقة والقباب الكلاسيكى إستخدمت مقبرة لأسرة سافوى الملكية قرنا من الزمان . ثم أضاف إلى قصر ماداما العتيق (١٧١٨) سلما فخما وواجهة ضخمة ، وفى ١٧٢٩ صمم قلعة ستوبينجى الهائلة (التى أكملها بنديتو ألفييرى) والتى أبرزبهوها الرئيسى كل فخامة الباروك الحالية . وظلت تورين عاصمة لأدواق سافوى حتى أنتقلوا بعد نصرهم النهائى (١٨٦٠ وما بعدها) إلى روما ليتربعوا على عرش إيطاليا الموحدة .

أما ميلان التى طالما خنقتها السيطرة الاسبانية فقد بعثت من جديد تحت

الحكم النمساوى الأكثر رفقا . ففى ١٧٠٣ أنشأ فرانتز تيفن ، وفى ١٧٤٦ و ١٧٥٥ أستكمل فيليتشى ورولكليريتشى بمعونه الحكومة ، مصانع للنسيج وسعت من إحلال الإنتاج الواسع النطاق الذى يموله ويديره رأس المـــال محل الحرف والنقابات الحرفية . أما التاريخ الثقافى لميلان فقد لمع فيه الآن أسم جوفانى باتيستا سامارتينى ، الذى نستطيع إلى الأن الاستماع إليه أحيانا على أمواج الأثير المتدفقة . ويلاحظ أنه فى سمفونياته وصوناتاته إستبدل بوقار موسيقى كبار الموسيقيين الإلمان الكونترابنطى تفاعلا ديناميكيا بين الموضوعات والحالات النفسية المتعارضه . وحين وفد الفتى جلوك على ميلان (١٧٣٧) ليشغل وظيفة موسيقى الحجرة للأمير فرانتشسكوملتسي ، أصبح تلميذ سامارتينى وصديقه واتخذ طريقه فى بناء هيكل الأوبرا . وفى ١٧٧٠ صاح المؤلف الموسيقى البوهيمى يوزف مزلفتشك ، وهو يصغى مع موتسارت الشاب إلى بعض سمفونيات سمارتينى فى ميلان « لقد وجدت الأب الذى أنجب أسلوب هايدن ! (٢٧) » — وهـــو إذن أحد آباء السمفونية الحديثة .

وأما جنوة فقد كابدت خطوبا فى القرن الثامن عشر . كانت تجارتها قد انحطت إثر منافسة المحيطات للبحر المتوسط ، ولكن موقعها الأستراتيجى على ربوة دفاعية تطل على ثغر حسن الاعداد لفت الأنتباه الخطر من الدول المجاورة . ووقعت الحكومة المحصورة بين أعداء من الخارج وشعب غضوب جاهل من الداخل فى أيدى أسر تجارية قديمة تحكم عن طريق مجلس مغلق ودوج مطيع . هذه الأولجركية العاملة على تخليد نفسها فى كراسى الحـــكم أثقلت كاهل الشعب بالضرائب حتى هـــوى إلى درك الفقر الكئيب الفاقد الصبر ، وسيطر عليها وابتزها هى الأخرى بنك سان جورجو . فلما حاصرت قوات سافوى والنمسا المتحالفة جنوه فى ١٧٤٦ لم تجرؤ الحكومة على تسليح الشعب ليقاوم خشية أن يقتل الحكام ، وآثرت أن تفتح أبوابها للمحاصرين الذين فرضوا تعويضات وفديات جرت عليها الخراب المالى . أما العامه الذين فضلوا المستغلين من بنى جلدتهم ، فقد ثاروا على الحامية

النمساوية ، وقذفوها بوابل من البـــلاط والطوب إنتزعوه من الأسطح والشوارع ، وطردوها طردا مخزيا ثم عاود الطغيان القديم سيرته الأولى .

وشيد نبلاء جنوه القصور الجديدة مثل قصر فيرارى ، وشاركت ميلان فى رعاية مصور بلغ شهرة من المرتبة الثانية فى عصرنا هذا . فتكاد كل صورة باقية من الصور التى رسمها الساندرو ماناسكو تروعنا باصالة أسلوبها القاتمة . فصورة « بنكينللو يعزف على القيثارة » — جسد مستطيل فى بقع مهملة سوداء وبنية ، واللوحة الرشيقة المسماة « فتاة وموسيقى أمام المدفأة[٢٩] » ولوحة « الحلاق[٣٠] » تبدو عليه اللهفة على قطع حلقوم زبونه ، ولوحة « حجرة طعام الرهبان » الضخمة الشاهدة على ازدهار مطبخ الكنيسة ، هذه كلها روائع فنية تذكرنا بالجريكو فى أجسادها النحيلة وحيلها الضوئية ، وترهص بجويا فى فضحها الرهيب لقساوات الحياة ، وتنزع إلى الحداثة فى احتقارها الخشن للتفاصيل المتكلفة المتزمته .

وشهدت فورنسة فى هذا العصر نهاية أسرة من أشهر أسر التاريخ . فقد كان حكم كوزيمو الثالث (١٦٧٠ — ١٧٢٣) الذى طال أمـــده أرشيدوقا لتسكانيا نكبة على شعب مازال فخورا بذكريات عظمة فلورنسة تحت حكم آل مديتشى الأسبقين . وقد سمح كوزيمو هذا الذى تسلط اللاهوت على تفكيره للاكليروس بأن يحكموه ويبتزوا من موارده الهزيله منحا سخية للكنيسة . وكان من أثر الحكم المستبد ، والإدارة العاجزة ، والضرائب الباهظة أن فقدت الحكومة التأييد الشعبى الذى حظيت به الأسرة المالكة طوال مائتين وخمسين عاما .

وآثر فرديناند بن كوزيمو الأكبر الغوانى على رجال حاشيته ، ودمر صحته بالافراط فى الملذات ، ومات أبتر لا عقب له فى ١٧١٣ . وكان لكوزيمو إبن كان يدعى جان (يوحنا) جاستونى أولع بالكتب ، ودرس التاريخ والنبات ، وعاش حياة هادئة . وفى ١٦٩٧ أكرهه أبوه على الزواج من آن أميرة ساكس لاونبرج ، وكانت أرملة فقيرة الثقافة . وذهب جان ليعيش معها فى قرية بوهيمية نائية ، واحتمل الملل عاما ،

ثم تعزى بالخيانات الزوجية فى براغ . فلما ساءت صحة فرديناند ، استدعى كوزيمو جان إلى فلورنسا ، ولما مات فرديناند أعلن جان وريثا لتاج الارشيدوقية . ورفضت زوجة جان أن تعيش فى إيطاليا . وخشى كوزيمو أن ينقرض بيت مديتشى ، فامتنع مجلس الشيوخ الفلورنسى بأن يصدر قراراً يقضى عند موت جان جاستونى دون عقب بأن يؤول العرش إلى شقيقة جان المدعوة آنا ماريا لودوفيكا .

وحامت الدول الأوربية فى لهفة حول الأسرة المحتضرة . ففى ١٧١٨ رفضت النمسا وفرنسا وانجلتره وهولنده الإعتراف بترتيب كوزيمو ، وأعلنت أنه يجب عند وفاة جان أن تعطى تسكانيا وبارما لدون كارلوس الابن الأكبر لاليزابث فارنيزى ملكة أسبانيا . واحتج كوزيمو ، وأعاد تنظيم دفاعات ليجهورن وفلورنسة الحربية ولكن متأخراً . وخلف موته لإبنة دولة أنهكها الفقر وعرشاً مزعزع الأركان .

وكان جان جاستونى الآن (١٧٣٢) فى عامه الثانى والخمسين . فجاهد ليصلح مساوىء الإدارة والاقتصاد ، وطرد الجواسيس والمتملقين الأذلاء الذين أثروا فى عهد أبيه وخفض الضرائب وأعاد المنفيين ، وأفرج عن السجناء السياسيين ، وعاون على إحياء الصناعة والتجارة ورد لحياة فلورنسة الاجتماعية الأمان والمرح . وبفضل اثراء كوزيمو الثانى وجان جاستونى لقاعة الأوفيتسى للفنون ، وازدهار الموسيقى تحت قيادة كمان فرانسشكو فيراتشينى ، والمراقص التنكرية ، ومواكب العربات المزخرفة ، ومعارك الحلوى والأزهار الشعبية — بفضل هذا كله أصبحت فلورنسة تنافس البندقية وروما فى جذب الزوار الأجانب ، مثال ذلك أنه اجتمع فيها حوالى عام ١٧٤٠ الليدى مارى ورتلى مونتاجو ، وهوراس ولبول ، وتوماس جراى حول الليدى هنرييتا بومفريت فى قصر ريدولفو . إن فى المجتمع المحتضر شيئاً يجذب اليه الناس جذباً حزيناً .

ولما أضنت جان جاستونى جهوده ، أحال فى ١٧٣١ تبعات الحكم إلى وزارئه وانزلق إلى هوة اللذات الحسية . وجردت أسبانيا جيشاً عدته

ثلاثون الف مقاتل لتضمن الخلافة لدون كارلوس ، وأرسل شارل السادس النمساوى خمسين الف جندى يرافقوا ابنته ماريا تريزا فى طريقها إلى عرش الأرشيدوقية . وأمكن تفادى الحرب باتفاق (١٧٣٦) ابرم بين النمسا وفرنسا وانجلترة وهولنده يقضى بأن يأخذ كارلوس نابلى ، وأن تأخذ ماريا وزوجها فرانسوا اللوزينى — وتسكانيا . وفى ٩ يوليو ١٧٣٧ قضى آخر المديتشيين نحبة وأصبحت تسكانيا تابعة للنمسا وازدهرت ناورنسة من جديد .

٥ . ملكة الادرياتيك

بين ميلان والبندقية استرخت بعض المدن الصغرى . فبرجامو اضطرت إلى أن تقنع فى نصف القرن الذى نحن بصدده بمصورين مثل جيسلاندى ، وبمؤلفين موسيقيين مثل لوكاتيللى . وقدمت فيرونا الأوبرات فى مسرحها الرومانى ، وكانت محظوظة برجل مرموق هو المركيز فرانشسكو سكيبيونى دى مافى . وقد قلد فولتير مسرحيته الشعرية (ميروبى) (١٧١٣) وأهداه فى كرم مسرحيته (ميروب) باعتباره «أول كاتب أوتى من الشجاعة والعبقرية ما أعانه على المغامرة بكتابة مأساة تخلوا من الغزل ، مأساة جديرة بأثينا فى عزها ، حيث تكون محبة الأم هى قوام المؤامرة كلها ، وينبعث أرق ضروب التشويق من أطهر الفضائل [٣٢] » . وهناك عمل آخر لمافى أبرز حتى من مسرحية تلك وهو « فيرونا المصورة » (١٧٣١ — ٣٢) وهو كتاب بدأ تحديد خطى علم الآثار . واعتزت مدينته به فأقامت له تمثالا فى حياته . وكانت فتشنتسا بمبانيها التى شيدها بلاديو كعبة يحج اليها المعماريون الذين يحبون الطراز الكلاسيكى . أما بادوا فكان بها جامعة اشتهرت بكليتى الحقوق والطب ولمع فيها جوزيبى تارتينى ، الذى اعترف به الجميع (عدا جمنيانى) إماما لعازفى الفيولينه الأوربيين ، ومن الذى لم يستمع إلى موسيقى تارتينى « رعشة الشيطان » ؟

هذه المدن كلها كانت جزءاً من جمهورية البندقية . وكذلك كانت تريفيزو وفريولى ، وفلترى ، وباسانو ، وأوديني ، وبللونو ، وترنتو ، وبولتسانو

فى الشمال ، واستريا فى الشرق ، وفى الجنوب امتدت دولة فينيتسيا مخترقة كيودجا وروفيجو إلى نهر بو ، وملكت عبر الأدرياتيك كتارو وبريفيتسا وأجزاء أخرى مما يقع اليوم فى يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانت تملك فى الأدرياتيك جزائر كورفو وكفالونيا وزنطه . وسكن هذا الملك المعقد نحو ثلاثة ملايين من الأنفس كل منها يعد نفسه مركز العالم .

١ — الحياة الفينيتسية

أما مدينة البندقية (فينتسيا) ذاتها عاصمة الجمهورية ، فكانت تضم ١٣٧,٠٠٠ — نسمة . وكانت الآن فى فترة اضمحلال سياسى واقتصادى ، بعد أن استولى الترك على امبراطوريتها الأيجية ، وانتزعت دول الأطلنطى الكثير من تجارتها الخارجية . وكان فشل الحروب الصليبية ، وإعراض الحكومات الأوربية بعد انتصارها فى ليبانتو (١٥٧١) عن تقديم المعونة للبندقية فى الدفاع عن مخافر العالم المسيحى الأمامية فى الشرق ، ولهفة تلك الحكومات على أن تقبل من تركيا امتيازات تجارية ضنت بها على أشجع أعدائها[٣٣] — هذه التطورات كلها كانت قد خلفت البندقية فى حال من الضعف أعجزها عن الاحتفاظ ببهائها أيام النهضة ، ومن ثم قررت أن ترعى بيتها هى — فتمنح ممتلكاتها الإيطالية والادرياتية حكومة صارمة فى القانون ، والرقابة السياسية ، والإشراف الشخصى ، ولكنها كفء فى الإدارة ، متسامحة فى الدين والأخلاق ، متحررة فى التجارة الداخلية .

وكانت تحكمها أولجركية شأن غيرها من جمهوريات أوربا فى القرن الثامن عشر . وفى هذا الخليط من حطام السلالات المختلفة — انطونيين وشيلوكيين وعطيليين ، وبين جماهير لم تصب من التعليم حظاً يذكر ، بطيئة التفكير سريعة الحركة ، تؤثر اللذة على السلطة ، كان معنى الديمقراطية — لو استقرت فيها — هو الفوضى المتوجة . ومن ثم قصر الحق فى عضوية المجلس الأعلى على نحو ستمائة أسرة تضمنها « الكتاب الذهبى » ولكن هذه الارستقراطية الوطنية أضيفت لها إضافات حكيمة من صفوف التجار ورجال المال وإن كانوا من دم غريب . وكان المجلس الأعلى يختار السناتو ، الذى

كان يختار مجلس العشرة القوى النفوذ . وكان جيش من الجواسيس يتنقل فى صمت بين المواطنين ويبلغ القضاه بأى تصرف أو كلام مريب يصدر من أى بندقى - حتى من الدوج نفسه. وكان الأدواج الآن عادة حكاماً صوريين وظيفتهم استقطاب الوطنية وتزيين الدبلوماسية .

وكان الاقتصاد يخوض معركة خاسرة ضد المنافسة الأجنبية ورسوم الاستيراد وقيود النقابات الحرفية . ولم تتوسع صناعة البندقية لتبلغ مرحلة المشروعات الحرة والتجارة الحرة والإدارة الرأسمالية ، بل قنعت بشهرة حرفها . ولم يبق فى صناعة الصوف التى كانت تشغل ألفاً وخمسمائة عامل فى عام ١٧٠٠ غير ستمائة فى نهاية القرن .واضمحلت صناعة الحرير فى الفترة ذاتها فلم يبق فيها غير ألف واحد بعد أن حفلت بأثنى عشر ألفاً(٣٤) . وقاوم صناع زجاج مورانو كل تغيير فى الطرق التى أذاعت فى الماضى شهرتهم فى طول أوربا وعرضها ، وتسربت أسرارهم إلى فلورنسة وفرنسا وبوهيميا وانجلترة ، واستجاب منافسوهم لما طرأ من تقدم على الكيمياء ، وللتجارب التى أجريت فى الصناعة ، وهكذا ولى زمان المورانو . وبالمثل استسلمت صناعة الدنتللا لمنافسيها وراء الألب ، فلم يحل عام ١٧٥٠ حتى كان البنادقة أنفسهم يلبسون المخرمات الفرنسية . وازدهرت صناعتان : مصايد الأسماك التى استخدمت ثلاثين ألف رجل ، واستيراد العبيد وبيعهم .

ولم يسمح للدين بالتدخل فى أرباح التجارة أو لذات الحياة . ونظمت الدولة جميع المسائل المتعلقة بممتلكات الكنيسة وبجرائم رجال الدين . وكان اليسوعيون قد أعيدوا فى ١٦٥٧ بعد طردهم فى ١٦٠٦ ، ولكن بشروط حدت من نفوذهم فى التعليم والسياسة. ووجدت تعاليم فولتير وروسو وهلفتيوس وديدرو طريقها إلى صالونات البندقية ولو بطريق الزوار رغم أن الحكومة حظرت استيراد مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين ، وداعبت الارستقراطية فى البندقية كنظيرتها فى فرنسا الأفكار التى استنزفت قوتها(٣٥) . وقبل الناس الدين على أنه عادة لاشعورية تقريباً من عادات الشعائر والإيمان ، ولكنهم كانو يلهون أكثر مما يصلون . وقد وصف مثل بندقى أخلاقيات البنادقة

يكل مافى الأجرام من قصور، « فى الصباح قداس صغير ، وبعد الغذاء لعبة قمار صغيرة ، وفى المساء امرأة صغيرة »[٣٦] . وذهب الشبان إلى الكنيسة لا ليصلوا للعذراء ولكن ليدققوا النظر إلى النساء . وكان النساء برغم الغضبات الكنسية والحكومية يرتدين « الديكولتيه » الذى يكشف عن نحورهن وظهورهن[٣٧] وكانت الحرب المتصلة بين الدين والجنس تهيء للجنس أسباب النصر .

وأجازت الحكومة البغاء المنظم إجراء واقيا لسلامة الشعب . واشتهرت غوانى البندقية بجمالهن ، ودماثة طباعهن ، وفخامة لباسهن ، وبذخ مساكنهن المشرفة على القناة الكبرى . وكان عـــدد المعروض من هؤلاء الغوانى (cortigiane) كبيرا ، ولكنه رغم ذلك قصر على الوفاء بالطلب . وكان المقتصدون من البنادقة ، والأغراب مثل روسو ، يتجمعون معا اثنين أو ثلاثة لينفقوا على محظية[٣٨] . ولكن النســـاء المتزوجات انغمسن فى العلاقات الغرامية الخطرة رغم هذه التسهيلات ، ولم يكتفين بمرافقيهن من « السادة الخدام » ، واختلف بعضهن إلى الكازينوات التى وفرت فيها كل أسباب اللقاءات الغرامية . ووبخت الحكومة علنا عدة نساء نبيلات لسلوكهن المنحل ، وأمرت بعضهن بأن يلزمن بيوتهن ، ونفت بعضهن خارج البلاد . ولكن الطبقات الوسطى كانت أكثر تعقلا ، وكان تعاقب النسل يشغل الزوجة ويشبع حاجتها لتلقى الحب وبذله . ولم تغدق الأمهات على أطفالهن فى أى بلد آخر ما أغدقته فى البندقية من عبارات الاعزاز الحارة . ومن عباراتهن المأثورة : (يا سبع القـــديس مرقص ! يا بهجتى ! يا زهرة ربيعى !) .

أما الجريمة فكانت فى البندقية أقل منها فى أى بلد آخر فى ايطاليا ، فقد كبح جماح العدوان كثرة ضباط الشرطة والأمن ويقظتهم . ولــكن القوم تقبلوا القمار على أنه عمل من أعمال الإنسان الطبيعية . ونظمت الحكومة يانصيبا فى ١٧١٥ . وافتتح أول ناد للقمار فى ١٦٣٨ ، وسرعان ما كثر عدد هذه الأندية العامة والخاصة التى تهرع إليها جميع الطبقات .

وكان فى استطاعة مهرة المقامرين المخادعين من أمثال كازانوفا أن يعيشوا على مكاسبهم من القمار ، فى حين يخسر غيرهم مدخرات عام بأكمله فى ليلة واحدة . وكان المقامرون ينحنون على مائدة القمار فى حب صامت أحر من عشق الناس . أما الحكومة فكانت تتفرج بعين الرضى (حتى ١٧٧٤) ، لأنها فرضت الضرائب على أندية القمار وبلغ ايرادها السنوى منها نحو ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه (٣٩) .

وأقبل العاطلون الأغنياء من شتى الدول لينفقوا مدخراتهم أو سنى شيخوختهم وسط الاسترخاء الخلقى والمرح الطلق فى الميادين والقنوات . وخفت حمى السياسة بعد أن تخلت الجمهورية عن امبراطوريتها . ولم يجر حديث الثورة هنا على أى لسان ، فقد كان لكل طبقة عاداتها وتقاليدها العاملة على الاستقرار ، واستغراقها فى الواجبات التى تقبلتها ، هذا فضلا عن المسرات المتاحة لها . وكان الخدم طيعين أوفياء ، ولكنهم لا يطيقون الأهانة أو الازدراء . وكان ملاحو الجندول فقراء ، ولكنهم ملوك البحيرات ، يقفون على زوارقهم المذهبة فى فخر وثقة بمهارتهم الموروثة عن الأسلاف ، أو يدورون حول المنحنيات وهم يصيحون صيحات قوية غريبة أو يدندنون بأغنية تصاحب تمايل أجسادهم ، وإيقاع مجاديفهم .

واختلطت الجنسيات المختلفة الكثيرة فى الميادين . واحتفظ كل منها بميزة من زى ولغة وتبذل ، وظلت الطبقات العليا ترتدى ما ارتدته فى عز أيام النهضة ، من قمصان من أرق الكتان ، وسراويل من المخمل ، وجوارب حريرية ، وأحذية ذات مشابك ، ولكن البنادقة هم الذين أدخلوا إلى غربى أوربا فى هذا القرن لباسا تركيا هو السراويل الطويلة (البنطلونات) . وكانت الباروكة قد وفدت من فرنسا حوالى ١٦٦٥ . وعنى المتأنقون من الشباب عناية بالغة بلباسهم وشعرهم وروائحهم حتى لقد صعب تمييز جنسهم؛ أما النساء العصريات فقد رفعن فوق رؤوسهن أبراجا عجيبة من الشعر المستعار أو الطبيعى . وكان الرجال والنساء جميعا يشعرون كأنهم عراة إذا لم يتحلوا بالجواهر والحلى . وكانت المراوح تحفا فنية ، ترسم فى تأنق ،

وكثيرا ما كانت تغشى بالأحجار الكريمة أو تحوى منظارا لعين واحـــدة (مونوكل) .

وكان لكل طبقة أنديتها ، ولكل شارع مقهاه ، يقول جولدونى « فى ايطاليا نتناول عشرة أقداح من القهوة كل يوم » (٤٠) وازدهرت كل ضروب الملاهى ، من معارك الجوائز (pugni) إلى المراقص التنكرية . وكلمة « بألوان » (balloon) مشتقة من لعبة كانت تسمى باللونى pallone — فيها تنطط كرة منفوخة براحة اليد . وكانت رياضات المـــاء تتكرر بانتظام . فمنذ ١٣١٥ كان يقام سباق regatta فى ٢٥ يناير على القناة الكبرى ، بين زوارق تسير بخمسين مجدافا وتزين كما تزين عرباتنا فى المعارض ، ويبلغ الاحتفال ذروته بلعبة بولو مائية ينقسم فيها مئات البنادقه إلى جماعات متصاحبة متنافسة . وكان الدوج فى عيد الصعود يمخر عباب الماء فى أبهة من « سان ماركو » إلى الليد وعلى متن سفينة الدولة الفاخرة الزينة المسماة « بوتشنتورو » بين مئات من السفن الأخرى ليزف البندقية إلى البحر من جديد .

واتخذت العطلات الكثيرة أسماء وذكريات القديسين والمناسبات السنوية التاريخية ، لأن مجلس شيوخ البندقية وجد أن الخبز والسرك بديل مقبول عن الانتخابات . فى مثل هذه المناسبات كانت المواكب البهية تنتقل من كنيسة إلى كنيسة ومن ميدان إلى ميدان ، وكانت الأبسطة الزاهية الألوان ، وأكاليل الزهر والحرائر تتدلى من النوافذ أو الشرفات على الطريق ، وكان هناك موسيقى سهلة ، وأغنية دينية أوغرامية ، ورقص رشيق فى الشوارع . وألف النبلاء الذين يختارون للمناصب المرموقة أن يحتفلوا بانتصاراتهم بالعروض ، والأقواس ، وتذكارات النصر ، والمهرجانات ، وأعمال البر التى تكلفهم أحيانا ثلاثين ألف دوقاتية . وكان كل عرس مهرجاناً ، ومأتم الوجيه من القوم أفخم حدث فى حياته .

ثم كان هناك الكرنفال — ذلك التراث المسيحى من « ساتورناليـــا » روما الوثنية . وكانت الكنيسة والدولة تأملان أنهما إذا سمحتا بأجازة

من الأخلاق استطاعتنا التخفيف بقية العام من التوتر القائم بين الجسد والوصية السادسة . وكان الكرنفال فى ايطاليا عادة لايستغرق إلا اسبوعاً واحداً هو الأسبوع السابق للصوم الكبير ، وفى بندقية القرن الثامن عشر امتد من ٢٦ ديسمبر أو ٧ يناير إلى «الثلاثاء السمين» Mardi Gras–Martedi Grasso وربما اتخذ المهرجان اسمه من ذلك اليوم الأخير من الأيام التى يسمح فيها بأكل اللحم Carne Vale أى وداعا للحم » وكان البنادقة فى كل ليله تقريبا من أسابيع الشتاء تلك ، والزوار المتجمعون من طول أوربا وعرضها — يتدفقون على الميادين ، يرتدون ملابس فاقعة الألوان ، ويخفون سنهم ورتبهم وشخصياتهم وراء الأقنعة . وفى ذلك التخفى هزأ الرجال والنساء بالقوانين ، وراجت سوق البغايا ، وتطايرت قطع الحلوى ، وقذف البيض الصناعى هنا وهناك لينشر ماءه المعطر حين ينكسر . وكانت شخصيات بانتالونى ، وارلكينو ، وكولمبينو ، وغيرها من الشخصيات المحببة من المسرح الكوميدى تتبختر وتثرثر لتسلى الجمع المحتشد ، ورقصت الدمى ، وبهر السائرون على الحبال مئات الأنفاس . وكانت تجلب الحيوانات الغريبة لهذه المناسبه ، كوحيد القرن الذى شوهد لأول مرة بالبندقية فى مهرجانات ١٧٥١ وفى منتصف الليلة السابقة لأربعاء الرماد (Mercoledi della Conoi) تدق أجراس كنيسة القديس مرقص الضخمة مؤذنة بانتهاء الكرنفال ، هنا يعود المعربد المنهك إلى فراشه الحلال ، ويعد نفسه للاستماع إلى القسيس يقول له فى الغد: «Memento, homo, quia pulvis es et in pulverem redieris» « تذكر يا ابن آدم أنك تراب وإلى التراب تعود » .

٢ — فيفالدى

كانت البندقية ونابلى مركزى الموسيقى المتنافسين فى ايطاليا . فاستمعت البندقية فى مسارحها إلى الف ومائتى أوبرا مختلفة فى القرن الثامن عشر . هناك خاضت أشهر كواكب الغناء فى ذلك العصر ، فرانشسكا كوتزونى

وفاوستينا بوردونى ، معاركهما المشجية فى سبيل التفوق ، وكانت كل منهما تهز العالم من خشبة المسرح . فأما كوتزونى فكانت تغنى أمام فارينللى فى مسرح ، وأما بوردونى فأمام برناكى فى مسرح آخر ، وانقسمت البندقية بأسرها بين المعجبين بهؤلاء المغنين . ولوقد غنى أربعتهم معاً لذابت ملكة الأدرياتيكى طربا فى بحيراتها .

ومقابل قلاع الأوبرا والبهجة هذه قامت الملاجىء الأربعة ospedali التى رعت فيها البندقية بعض فتياتها اليتيمات أو غير الشرعيات . ورغبة فى شغل هؤلاء الأطفال المشردات واضفاء المغزى على حياتهن كن يدربن على الموسيقى الصوتية والآلية ، وعلى الغناء فى فرق الانشاد ، وأحياء الحفلات الموسيقية العامة من خلف حواجز ذات قضبان كحواجز الأديرة . وقد قال روسو انه لم يسمع فى حياته شيئاً أثر فيه كأصواتهن الرقيقة وهن يغنين فى إيقاع مدرب [41]، وذكر جوته أنه لم يسمع قط سوبرانو بهذا الاتقان ، أو موسيقى « لها هذا الجمال الذى لايوصف[42]» . وكان يعلم فى هذه المعاهد نفر من أعظم الملحنين الايطالين ويؤلفون لها الموسيقى ، ويفودون حفلاتها ، أمثال مونتيفردى ، وكافاللى ، ولوتى ، وجالوبى ، وبوربورا ، وفيفالدى . . .

واتجهت البندقية إلى مدن إيطاليا ، وأحياناً النمسا وألمانيا ، لتزود مسارحها بالأوبرات وتمد ملاجئها وأوركستراتها وعازفيها المهرة بالموسيقى الصوتية والآلية . وكانت هى ذاتها الأم أو الحاضنة لانطونيو لوتى ، عازف الأرغن ثم رئيس فرقة المرتلن فى كنيسة القديس مرقص ، ومؤلف أوبرات غير ذات بال ، ولكنه أيضاً ملحن قداس ذرفت له عينا بيرنى البروتستنتى ، ولبلدا سارى جالوبى الذى اشتهر بأوبراته الهازلة وببهاء الحانه الأوبرالية ورقتها ، ولألساندرو مارتشيللو الذى تتبوأ كونشرتاته مقاما عالياً فى مؤلفات عصره الموسيقية ، ولأخيه الأصغر بنديتو الذى قيل عن تلحينه لخمسين مزمورا أنه « من أبدع المؤلفات الموسيقية قاطبه[43]» ولانطونيو فيفالدى .

ولقد كان استماع بعضنا لكونشرتو من تأليف فيفالدى أول مرة مفاجأة أشعرتنا بالخزى . فلم جهلناه طوال هذا الزمن ؟ هنا انسياب جليل للنغم ، وتموجات ضاحكة من اللحن ، ووحدة فى البناء ، وتماسك للأجزاء كان خليقا بأن يكسب هذا الرجل مدخلا أسبق من هذا إلى علمنا ، ومكاناً أرفع فى تواريخينا الموسيقية (*) .

ولد حوالى ١٦٧٨ لعازف فيولينة فى أوركسترا مصلى الدوجات بكتدرائية القديس مرقص . وعلمه أبوه الفيولينه ؛ وحصل له على وظيفة فى الأوركسترا . وفى الخامسة عشرة كرس تكريسا مبدئياً للدين ، وفى الخامسة والعشرين أصبح قسيساً ولقب « البريتى روسو » لحمرة شعره . ولعل ولعه بالموسيقى تعارض مع واجباته الكهنوتيه . وقال الأعداء إنه « ذات يوم بينما كان فيفالدى يتلو القداس ، خطر له موضوع يصلح لفوجه ، وللتو غادر المذبح . . . وذهب إلى غرفة المقدسات والملابس ليدون الموضوع ، ثم عاد ليكمل القداس[٤٤] » . واتهمه قاصد بابوى بأنه يحتفظ بعدة نساء ، وأخيراً نهاه ديوان التفتيش (كما زعموا) عن تلاوة القداس . وقد روى انطونيو فى سنوات لاحقة قصة تختلف عن هذه تمام الإختلاف . وقال :

« كانت آخر مرة تلوت فيها القداس منذ خمسة وعشرين عاماً ، لا بسبب منعى من تلاوته . . . ولكن بناء على قرار منى اتخذته بسبب علة أرهقتنى منذ ولادتى . فبعد أن رسمت قسيساً كنت أتلو القداس عاماً أو أكثر بقليل ، ثم توقفت عن تلاوته لأن هذا المرض اضطرنى ثلاث مرات إلى مغادرة المذبح دون أن أتمه .

(*) خصصت له طبعة ١٩٢٨ من « قاموس جروف للموسيقى والموسيقيين » عمودا واحدا وخصصت له طبعة ١٩٥٤ اثنى عشر عمودا ، وأحكم من هذا على الذيوع الفجائى لشهرة فيفالدى ، فهل الشهرة نزوة من نزوات الصدفة ؟

« ولهذا السبب ذاته أقضى وقتى كله تقريباً فى بيتى ولا أبرحه إلا راكباً زورقاً أو عربة لأننى لم أعد قادراً على المشى بسبب حالة الصدر التى أعانيها ، أو على الأصح شعور الضيق والتوتر فى صدرى (strettzza di petto) ربما كانت هى الربو) ولا يدعونى أى نبيل لبيتـــه ، لا ولا حتى أميرنا ، لأن الجميع عليمون بمرضى ، وقد كانت أسفارى دائماً غالية النفقة جداً لأننى كنت مضطراً دائماً أن أصحب معى أثناءها أربع نساء أو خمساً ليساعدننى . « ثم أضاف أن هؤلاء النسوة كن نقيات السيرة » يسلم الناس فى كل مكان بعفتهن . . وكن يؤدين الصلاة كل يوم من أيام الأسبوع [٤٥]» .

على أنه حتى لوشاء لما إستطاع أن تغلب الخلاعة على خلقة لأن معهد الموسيقى الملحق بالملجأ الدينى احتفظ به طـــوال سبعة وثلاثين عاماً عازفاً للفيولينه ومعلما وملحنا أو رئيسا للكورس . وقد لحن لتلميذاته البنات معظم أعماله غير الأوبرالية . وتكاثرت الطلبات عليه ، ومن ثم كان يكتب فى عجلة ثم يصحح فيما يتاح له من فراغ ، وقد اخبر دبروس أن فى استطاعته أن « يلحن الكونشرتو بأسرع مما يستطيع ناسخ أن ينسخه[٤٦] » . وبالمثل كانت أوبراته تلحن على عجل ؛ وقد سجلت احداها على صفحة الغلاف عبارة تشى بالفخر (أو الاعتذار) هى (Fatto in cinque giorni) كتبت فى خمسة أيام . وقد وفـــر الوقت كما وفره هندل بالأستعارة من نفسه ، فأقتبس من موسيقاه القديمة ما يلبى حاجاته الحاضرة .

وفى فترات فراغه من عمله فى الملجأ ألف أربعين أوبرا . وأتفق كثير من معاصريه مع تارتينى على أنها متوسطة الجودة ، وقد سخر منها بنديتو مارتشيللو فى (تياترو على الموضة) ولكن جماهير النظارة فى البندقية ، وفتشنتسا ، ومانتوا ، وفلورنسة ، وميلان، وفيينا ، رحبوا به ، وكثيراً ما كان فيفالدى يترك بناته ليسافر مع نسائه مخترقا شمالى إيطاليا ، بل حتى إلى فيينا وامستردام ليعزف الفيولينه أو ليقود أحدى أوبراته أو ليشرف على إخراجها وديكورها . وأوبراته الأن ميتة ، ولكن هذا مصير معظم

ألاوبرات التى ألفت قبل جلوك . فقد تغيرت الأساليب والعادات والإبطال، والأصوات ، والجنسان .

ويعرف التاريخ ٥٥٤ من مؤلفات فيفالدى ، منها ٤٥٤ كونشرتو . وقد قال ناقد ماكر أن فيفالدى لم يكتب ستمائة كونشرتو ، بل هـــو كونشرتو واحد أعاده ستمائه مرة[٤٧] . ويبدو الأمر كذلك أحيانا . ففى هذه القطع قدر كبير من نشر الاوتار ونغمات الأرغن اليدوى المتصلة ، وقياس للوقت أشبه بحركات البندول ، بل أننا نجد حتى فى السلسلة الشهيرة المسماة (الفصول) (١٧٢٥) صحارى من الرتابة ، ولكن فيها أيضاً قمما من الحيوية المشبوبة والعواصف القارسة ؛ وواحات من الصراع الدرامى بين العازفين المنفردين والأوركستر ا ؛ وجداول سائغة من الالحان . فى قطع كهذه[٤٨] ، أبلغ فيفالدى الكونشرتو الكبير مكانة ممتازة لاسبق لها ولايبزها إلا باخ وهيندل .

وكان فيفالدى يعانى كمعظم الفنانين من الحساسية التى غذت عبقريته . وقد عكست قوة موسيقاه طبعه النارى ، وعكست رقة نغماته تقواه . فلما تقدم به العمر استغرق فى واجباتة الدينية حتى لقد وصفته رواية مبالغة بأنه لا يترك مسبحته إلا ليلحن[٤٩] . وفى ١٧٤٠ فقد وظيفته فى الملجأ الدينى أو استقال منها ، ولأسباب نجهلها الآن نزح من البندقيه إلى فيينـــا . ولا نعرف المزيد عنه ؛ اللهم إلا أنه مات هناك بعد سنة ودفن كما يدفن فقراء الناس .

ومرموته دون أن تلحظه الصحف الإيطاليه ، لأن البندقية كانت قد كفت عن الاهتمام بموسيقاه ؛ ولم يقدره أحد قدرا يقرب من قمة فنه لا فى وطنه ولا فى جيله . على أن مؤلفاته لقيت الترحيب فى المانيـــاً . فاستورد كوانتسى الذى كان عازفا للفلوت وملحنا لفردريك الأكبر ؛ كونشرتات فيفالدى ؛ وقبلها بصراحة نماذج تحتذى . وأشتد أعجاب باخ بها حتى نقل تسعه منها على الأقل للهاربسكورد ، وأربعة للارغن ، وواحدا

لأربعة هاربسكوردات ومجموعة وتريات[٥٠] . وواضح أن باخ أخذ عن فيفالدى وكوريللى البناء الثلاثى لكونشرتاته .

وكاد فيفالدى أن يكون نسياً منسيا طوال القرن التاسع عشر إلا من الدارسين الذين تتبعوا تطور باخ . ثم رده إلى مكان مرموق فى ١٩٠٥ أرنولد شيرنج فى كتابه « تاريخ الكونسيرات الآلالية » ؛ وفى عشرينات القرن العشرين دافع أرتورو توسكانينى عن قضية فيفالدى بكل عواطفه ومكانته . واليوم يحتل « القسيس الأحمر » مؤقتا أرفع مكان بين الملحنين الإيطاليين فى القرن الثامن عشر .

٣ — ذكريات

من صيف الفن البندقى المؤذن بالأفول يبرز نحو أثنى عشر مصوراً ويلتمسون أن نذكرهم . ونكتفى هنا بتحية نقرئها حبامبتستا بيتونى ؛ الذى لم ترفع البندقية فوقه غير تيبولو وبياتسيتا ؛ وياكوبو آميجونى الذى أورث بوشيه أسلوبه الشهوانى ؛ وجوفانى أنطونيو بللجرينى ، الذى حمل الوانه إلى انجلترة وفرنسا والمانيا ، وهو الذى زين قلعة كمبولتن وقلعة هوارد ، وبنك فرنسا . وألفت للنظر من هؤلاء ماركو ريتشى لأنه قتل أحد النقاد ثم انتحر . ففى عام ١٦٩٩ ، حين كان فى الثالثه والعشرين ، طعن ملاح جندول إستخف بصوره طعنات قضت عليه ، ثم فرالى دلماشيا ، وأغرم بمشاهدها الطبيعية ، وبلغ من حذقه فى التقاطها بالوانه أن غفرت له البندقية جريمته وهللت له كأنه تنتوريتو مبعوثاً من جديد . وصحبه عمه سبستيانو ريتشى إلى لندن ، حيث تعاونا على تصوير مقبرة دوق ويفونشير . وكان ككثيرين جداً من فنانى القرنين السابع عشر والثامن عشر يحب أن يرسم الأطلال الحقيقية أو الخيالية ولا ينسى فى ذلك نفسه . وفى ١٧٢٩ ، وبعد عدة محاولات ، أفلح فى الانتحار . وفى ١٧٣٣ بيعث إحدى لوحاته بخمسمائة دولار ؛ وفى ١٩٦٣ بيعت من جديد بتسعين ألف دولار[٥١] ، وهو مايبين مبلغ تقدير قيمة الفن وهبوط قيمة النقود .

وتأمل شخصية روزاليا كاريرا أدعى إلى السرور . فقد بدأت حياتها العملية برسم نماذج للمخرمات الفينيسيه Point de venise ؛ ثم رسمت علب السعوط (كما فعل رينوار الصغير) ثم المنمنمات ، وأخيراً وجدت فى الوان الباستيل قمة تفوقها . ولم يحل عام ١٧٠٩ حتى كانت قد أكتسبت من الشهرة ما جعل فردريك الرابع ملك الدنمرك يدعوها حين أعتلى العرش ليختارها لترسم له لوحات بالباستيل تمثل أجمل سيدات البندقيه أو أبعدهن صيتا . وفى ١٧٢٠ دعاها إلى باريس بيير كروزا جامع التحف المليونير . وهناك لقيت من الترحيب والحفاوة مالم يلقه فنان أجنبى آخر منذ برتينى . وكتب الشعراء فيها الصونيتات ؛ وزارها الوصى فليب أورليان ، وصورها فاتو ، وصورته هى ، وجلس إليها لويس الخامس عشر لتصوره ؛ وانتخبت عضوا فى أكاديمية التصوير ؛ وقدمت لوحة الدبلوم «ربة الفنون» المعروضه فى اللوفر . وبدا للناس كأن روح الروكوك قد تجسدت فيها .

وفى ١٧٣٠ ذهبت إلى فيينا ؛ حيث رسمت صورا بالباستيل لشارل السادس ؛ والإمبراطورة ، والأرشيدوقة ماريا تريزا . فلما عادت إلى البندقيه أستغرقت فى فنها أستغراقاً إنساها أن تتزوج . وفى أكاديمية البندقية ملء حجرة من اللوحات التى رسمتها ، وفى قاعة الفنون بدرسدن ١٥٧ ، معظمها يتميز بالوجوه الوردية ، والخلفيات الزرقاء ، والبراءة المشرقة ، ورقة الوجوه ذات الغمازات ؛ بل أنها حين رسمت هوراس وليول[٥٢] ، جعلته يبدو كأنه فتاة . وكانت ترضى غرور كل من يجلس إليها لتصوره إلا نفسها ، وصورتها الذاتية المعلقة فى قلعة وندزر تظهرها فى سنها الأخيرة وقد أبيض شعرها وشابها شىء من الاكتئاب كأنها تتوقع أن يكف بصرها بعد قليل . وقد اضطرت طوال الأعوام الأثنى عشر الأخيرة من عمرها البالغ أثنين وثمانين عاماً أن تعيش محرومة من النور واللون اللذين كانا لها بمثابة رحيق الحياة . وقد تركت بصمتها على فن جيلها : ولعل لا تور قد أستلهم الحرارة منها ، وتذكر جروز تمثيلها لشباب النساء فى صورة مثالية ؛ وانحدرت الوانها الوردية — الحياة بلون الورد — إلى بوشيه ورنوار .

أما جوفانى باتستا بياتسيتا فكان فنانا أعظم يسمو فوق العواطف الهشة ويحتقر الزخرف ولا يسعى وراء ارضاء الجمهور بقدر سعيه إلى تذليل صعاب صناعته والتمسك بأرفع تقاليدها . وتبين زملاءه الفنانون هذه النزعة فيه ، ومع أن تيبولو كان له فضل السبق فى تأسيس أكاديمية البندقيــة للتصوير والنحت (١٧٥٠) ، فإن بياتسيتا هو الذى اختاروه أول رئيس لها . ولوحته المسماة « رفقة عند البئر » [٥٣] جديرة بتتسيانو ، وهى أقل حتى من تتسيانو اكتراثا بمفاهيم الجمال المتعارف عليها . واللوحة تكشف من جسد رفقة قدرا يكفى لاثارة غريزة المتوحش ، ولكن وجهها الهولندى وأنفها الأفطس لم يصورا لينتشى بهما الايطاليون . فالذى يثير عواطفنا هنا هو الرجل ، إنه شخصية جديرة بفن النهضة : وجه قوى ، ولحية ملمعة وقبعة ذات ريش وومضة إغراء ماكر فى عينيه . واللوحة كلها آية من آيات اللون والنسيج والتصميم ، وقد تميز بياتسيتا بأنه كان أكثر المصورين البنادقة احتراما فى جيله ، وأنه مات أفقرهم جميعاً .

وأشهر منه انطونيو كانالى ، الملقب كاناليتو ، لأن نصف العالم يعرف البندقية بفضل مناظره vedute . أما انجلترا فعرفته دما ولحما . وقد نهج حينا نهج أبيه الذى امتهن رسم المناظر للمسارح ، ثم درس العمارة فى روما ، فلما عاد إلى البندقية طبق الفرجار والزاوية على رسمه ، وجعل العمارة ملمحا من ملامح صوره . وفى هذه الصور عرفنا ملكة الادرياتيك كما كانت تبدو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . ونلحظ من لوحة باتشينو دى سان ماركو Baccino بحيرة القديس مرقص [٥٤] مبلغ ازدحام البحيرة الكبرى بالمراكب ، ونبصر سباق الزوارق Regatta على القناة الكبرى [٥٥] ونرى أن الحياة كانت زاخرة مشبوبه شأنها من قبل دائماً ، ويبهجنا أن نجد « جسر الريالتو » [٥٦] وميدان القديس مرقص [٥٧] والميدان الصغير [٥٨] وقصر الادواج [٥٩] وكنيسة سانتا ماريا ديللا سالوتا [٦٠] كما نجدها اليوم تقريباً ، إذا استثنينا البرج الذى أعيد بناؤه . وصور كهذه هى التى احتاج إليهـــا السياح فى الشمال الملبد بالغيوم ليذكروا فى عرفان شمس البندقية الشديدة

الصفاء وسحرها الفتان . وقد اشتروا هذه الصور ودفعوا أثمانها ثم حملوا هذه التذكارات إلى بلادهم ، وسرعان ما طالبت إنجلترة بكاناليتو نفسه ؛ فذهب إليها فى ١٧٤٦ ورسم مناظر مستفيضة لهوا يتهول[٦١] ، « ونهر التيمز من قصر رتشموند » ، واللوحة الأخيرة بجمعها المدهش بين الاتساع والتناسب والتفصيل هى تحفة كاناليتو الرائعة . ولم يعد إلى البندقية إلا فى ١٧٥٥ . وظل هناك عاكفا بهمة على عمله حتى عام ١٧٦٦ حين كان قد بلغ التاسعة والستين . وقد كتب بفخر على لوحته داخل كتدرائية القديس مرقص هذه العبارة « رسمت بدون منظار » . [٦٢] وقد أسلم أساويه فى القياس الدقيق إلى ابن أخيه برناردو بللوتو كاناليتو ، وولعه بالمناظر إلى « تلميذه الطبيب » فرانشسكو جواردى الذى سنلتقى به ثانية .

وكما ابرز كاناليتو المنظر الخارجى للمدينة الفخمة ، كشف بييترو لنجى عن الحياة داخل جدرانها باستخدامه أسلوب تصوير مناظر الحياة اليومية فى رسم الطبقة الوسطى . فالسيدة التى تتناول فطورها فى ثوبها الفضفاض الطويل ، والأب الراهب يعلم ابنها ، وابنتها الصغيرة تدلل كلبا لعبة ، والخياط يعرض فستانا ، ومعلم الرقص يدرب السيدة على خطوات المنويت ، والأطفال وعيونهم تحملق فى معرض للوحوش ، والصبايا يمرحن فى لعبة « الاستغماية » (الغميضة) ، والتجار فى حوانيتهم ، والمتنكرون بالأقنعة فى الكرنفال ، والمسارح ، والمقاهى ، « والجمعيات » الأدبية ، والشعراء يتلون أشعارهم ، ودجاجلة الطب ، وقارئات البخت ، وباعة السجق والبرقوق ، والتمشى فى الميدان ، وفريق القنص ، وجماعة صيد السمك ، والأسرة فى عطلتها : كل نشاط بورجوازى يستحق الذكر هناك ، وفى إفاضة ، تفوق حتى ما فى كوميديات جولدونى ، صديق لونجى . إنه ليس فنا عظيما ، ولكنه فن يشرح الصدر ، ويرينا مجتمعاً أكثر نظاما وتهذيبا مما كنا نتصوره من ارستقراطى أندية القمار أو أعمال شحن السفن وتفريغها الشتامين السبابين .

٤ — تيبولو

أما البندق الذى أوهم أوربا لحظة أن النهضة قد عادت فهو جامباتستا تيبولو . ومن المشاهد المألوفة فى أى يوم من أيام الصيف أن ترى موكبا من الطلاب والسياح يدخلون مسكن أسقف فورتسبورج ليرى بيت السلم والسقف اللذين رسم تيبولو صورهما الجصيه فى ١٧٥٠ —٥٣ ، هذه الصور هى قمة التصوير الإيطالى فى القرن الثامن عشر . أو تأمل لوحة « الثالوث يظهر للقديس كلمنت » فى متحف الفن القومى بلندن ، ولاحظ تكوينها البارع ، ورسمها الدقيق ، وتناولها الحاذق للضوء ، وعمق لونها وتوهجه ، أليس هذا قريباً لفن تتسيانو ؟ ربما ، ولولا أن تيبولو قد طوف كثيرا لكان واحداً من عمالقة التصوير .

أو لعل ثراءه هو الذى عوقه . ذلك أنه كان آخر طفل لتاجر بندقى غنى خلف ثروة كبيرة عند وفاته . ومالبث جان ، الذى كان وسيما ذكيا مرحاً « أن اكتسب الازدراء الارستقراطى لكل ماهو شعبى »[٦٣] . وفى ١٧١٩ حين بلغ الثالثة والعشرين تزوج تشيشيليا أخت فرانشسكو جواردى ، فولدت له أربع بنات وخمسة أولاد ، أصبح اثنان منهم مصورين وعاشوا جميعاً فى بيت أنيق فى أبرشية سانتا ترينيتا . وكانت موهبته قد تفتحت . فى ١٧١٦ عرض لوحة « تضحية اسحق »[٦٤] ، وهى لوحة فجة ، ولكنها قوية ، ووضح أنه كان فى تلك الحقبة متأثراً بفن بياتسيتا . وقد درس فيرونيزى أيضاً ، واتخذ أسلوب باولى فى الملابس الفخمة والألوان الدافئة والخطوط الشهوانية . وفى ١٧٢٦ دعاه رئيس أساقفة أودينى ليزين كتدرائيته وقصره . واختار تيبولو مواضيعه من قصة إبراهيم ، ولكن التناول لم يكن كتابياً تماماً . فوجه سارة المنبعث من طوق مكشكش من أطواق عصر النهضة ، هو غضون وتجاعيد تكشف عن سنين أثريتين ، ولكن الملاك رياضى إيطالى له ساق فاتنة . ويبدو أن تيبولو أحس أن فى استطاعته ، فى قرن بدأ يسخر من الملائكة والمعجزات ، أن يسمح لمزاجه باللهو بالتقاليد المبجلة ، وقد أتاح له رئيس الأساقفة اللطيف هذا اللهو . ولكن كان على الفنان

أن يكون حذراً ، لأن الكنيسة لم تزل يومها من أهم مصادر تمويل المصورين فى العالم الكاثوليكى .

أما المصدر الآخر فكان العلمانيين أصحاب القصور التى يراد تزيينها بالصور . وقد روى جان فى قصر كازالى — دونيانى بميلان (١٧٣١) قصة سكيبيو بالصور الجصية . ولم تكن هذه الصور معبرة عن فن تيبولو النموذجى ، لأنه لم يكن بعد قد شكل أسلوبه المتميز ، أسلوب الأشخاص الذين يتحركون فى يسر وانطلاق فى حيز غير محدد ، ولكنها دلت على براعة أثارت ضجة فى شمالى إيطاليا . ولم يحل عام ١٧٤٠ حتى اهتدى إلى موطن النبوغ فى فنه ، وانجز ماعتبره البعض[٦٥] رائعته الكبرى — وهى سقف قصر كليرنتى بميلان وبهو ولائمه . واختار لهذه الرائعة مطايا لخياله « أركان الأرض الأربعة » و « مسيرة الشمس » و « أبوللو والآلهة الوثنية » وأسعده أن يترك عالم الأساطير المسيحية الكابى ويمرح على قمم أولمب حيث يستطيع استخدام الآلهة اليونانية الرومانية شخوصاً فى عالم متحرر من قوانين الحركة واغلال الجاذبية بل من قواعد الرسم الأكاديمية . لقد كان فى صميمه وثنياً كأكثر الفنانين الذين يذوب قاموسهم الأدبى فى حرارة مشاعرهم ، ثم أن الجسم الجميل قد يكون نتاج روح قوية العزيمة قادرة على التشكيل ، ومن ثم يكون هو ذاته واقعاً روحياً . وراح تيبولو الآن يطلق من جعبته على مدى ثلاثين عاما أرباباً وربات رافلين فى غلائل من الشاش ، عراة فى غير اكتراث ، يسرحون ويمرحون فى الفضاء ، أو يطارد بعضهم بعضا بين الكواكب أو يتطارحون الغرام على وسادة من السحب .

فلما قفل إلى البندقية عاد إلى المسيحية ، وكفرت صوره الدينية عن أساطيره الوثنية . فرسم لمدرسة سان روكو لوحة قماشية سماها « هاجر واسماعيل » يلفت النظر فيها جمال الطفل النائم . وفى كنيسة الجزواتى التى سماها الدومنكان من جديد كنيسة « سانتا ماريا ديل روزاريو » رسم لوحة « تأسيس التسبحة » ورسم لمدرسة الرهبان الكرمليين « عذراء جبل الكرمل » وكادت هذه الصورة تضارع تتسيانو « البشارة » . ورسم لكنيسة القديس الفيزى ثلاث

صور ، إحداها المسماة « المسيح حاملا الصليب » تزدحم بشخوص قوية صورت تصويراً نابضاً بالحياة . وهكذا سدد تيبولو دينه لعقيدة وطنه .

على أن خياله كان أكثر تحرراً على جدران القصور . في قصر بربارو رسم « تمجيد فرانشسكو برباوو » — واللوحة الآن في متحف المتربوليتان للفنون بنيويورك . ورسم لقصر الأدواج لوحة « نبتون يقدم لفينوس خيرات البحر » . وقدم لقصر بابا دوبولى لقطتين مبهجتين للبندقية في الكرنفال — « المنويته » و « المشعوذ » . ثم توج كل صور القصور التي رسمها في البندقية بزخرفة قصر لابيا بصور جصية تحكي قصة انطونيوس وكيلوباتره في مشاهد بهية نفذت تنفيذا رائعا . ورسم زميل له يدعى جيرولامو منجوتسي كولونا الخلفيات المعمارية في فورة من بهاء الطراز البلاديوي . فعلى جدار ترى لقاء الحاكمين ، وعلى الجدار المقابل وليمتهما ، وعلى السقف حشد جامع من شخوص طائرة تمثل بيجاسوس ، والزمن ، والجمال ، والرياح التي تثيرها عفاريت نفاخه مرحة . وفي لوحة « اللقاء » تهبط كيلوباتره من زورقها في ثياب تبهر الأبصار ، تكشف عن صدر ناهد لتفتن حاكما مرهقا في الحكومة الثلاثية ، حتى يسكن إليها في راحة عطرة . وفي لوحة « الوليمة » وهي أشد تألقا حتى من هذه تسقط كيلوباتره لؤلؤة غالية الثمن في خمرها ، ويؤخذ انطونيوس بهذا الثراء الذي لايعبأ بشيء . وعلى شرفـــة يعزف الموسيقيون قياثيرهم ليضاعفوا الخطر مرتين والثمل ثلاثا ، وهذه الرائعة التي تذكر بفيرونيزي وتنافسه كانت إحدى الصور التي نسخهـــا رينولدز في ١٧٥٢ .

هذا الإنتاج الذي تميز بالأسلوب الفخم رفع تيبولو إلى قمة ترى من وراء الألب . فاذاع الكونت فرانشسكو الجاروتي صديق فردريك وفولتير اسمه في أوربا . وفي تاريخ مبكر (١٧٣٦) أبلغ الوزير السويدي في البندقية حكومته أن تيبولو هو أصلح رجل يرسم القصر الملكي في أستوكهولم ، « كله ذكاء وغيرة » ، سهل المعاملة ، يتدفق أفكارا ، موهوب في أختيار الألوان الساطعة ، سريع في عمله سرعة خارقة ، يرسم صوره في زمن يقل.

عما يستغرقه مصور آخر فى مزج الوانه(٦٦) » . وكانت استوكهولم آنذاك مدينة جميلة ولكنها بدت بعيدة جداً .

وفى ١٧٥٠ جاءته دعوة أقرب ، فقد طلب إليه كارل فليب فون جرايفنكلاو أمير فورتسبرج الأسقف أن يرسم صورا للقاعة الأمبراطورية لقصره الإدارى الذى بناه مؤخراً . وأغرى الأجر المعروض بالحاح الفنان المسن . فلما وصل فى ديسمبر بصحبة أبنيه دومنيكو البالغ أربعة وعشرين عاماً ولورنتسو ذى الرابعة عشرة وجد تحديا لم يتوقعه فى بهاء قاعة القصر التى صممها بلتازار نويمان ، فأنى لأى صورة أن تخطف العين وسط ذلك الضياء الباهر ؟ وكان نجاح تيبولو هنا القمة التى توجت عمله . فقد رسم على الجدران قصة الإمبراطور فردريك بربروسا (الذى كان قد ذهب فى لقاء مع بياتريس أميرة برجنديا فى فورتسبرج عام ١١٥٦) وعلى السقف رسم « أبوللو مصطحبا العروس » ؛ هنا راح يصول ويجول فى مهرجان من الخيول البيضاء والأرباب المرحين والضياء يتألق فوق ملائكة تطفو وغيوم شفافة . وعلى منحدر فى السقف رسم « الزفاف » : وجوه مليحة ، وأجسام مهيبة ، وأغطية وأستار مزدانة بالزهر ؛ وأثواب تذكر بالبندقية أيام فيرونيزى لا بالطرز الوسيطة . وانشرح صدر الأسقف فوسع العقد ليحتوى سقف بيت السلم الكبير ونقوش مذبحين اكتدرائيته . وعلى طريق السلم الفخم رسم تيبولو القارات وجبل أولمب — مرتع خياله السعيد — وصورة رائعة لا بوللو إله الشمس يجوب السماوات .

وقفل جامباتستا إلى البندقية (١٧٥٣) غنيا مرهقا ، وترك دمنيكو ليكمل المهمة فى فورتسبرج . وما لبث أن انتخب رئيسا للاكاديمية . وكان فيه لطف فى الطبع جعل حتى منافسيه مولعين به ، فلقبوه (تيبولو الطيب) . ولم يستطع مقاومة جميع المطالب التى تكاثرت على وقته المتضائل ، فنحن نجده يرسم فى البندقية ، وترفيزو ، وفيرونا ، وبارما ، فضلا عن لوحة قماشية كبيرة طلبها « بلاط موسكوفيا » . وما كنا للنتظر منه فى هذه الحالة أن ينتج عملا كبيراً آخر ، ولكنه فى ١٧٥٧ ، حين كان فى الحادية

والستين ، أضطلع برسم صور ڤيلا فالمارانا قرب فيتشنتسا . ورسم منجوتسى كولونا الإطار المعمارى ووقـــع دومنيكو على بعض الصور فى المضيفة ، أما جامباتستا فقد نشر الوان فرشاته فى الفيلا ذاتها . واختار موضوعات من ملاحم الالياذه ، والأنياده ، وأورلندو الغاضب ، والقدس المحررة ، وأطلق العنان لخداعيته المرحة فتاه اللون فى الضوء ، والمكان فى اللانهاية ، وترك أربابه ورباته يطفون على هواهم فى جنة سمت فـــوق كل الشواغل والأزمان . وقد أخذ العجب جوته وهو يتأمل هذه الصور الخصبة فقال فى دهشة » :

« غاية فى البهجة والجرأة » ، وكانت هـــذه آخر انتصار مثير لتيبولو فى إيطاليا .

وفى ١٧٦١ طلب إليه شارل الثالث ملك أسبانيا أن يحضر ويرسم صورا فى القصر الملكى الجديد بمدريد . وأعتذر هذا التسيانو المتعب بشيخوخته ؛ ولكن الملك رجا مجلس شيوخ البندقية أن يستعمل نفوذه . فانطلق على مضض مرة أخرى مع ولديه الوفيين ونموذجه كرستينا ؛ تاركا زوجته مرة أخرى لأنها كانت تحب كازينوات البندقية . وسوف نلقاه راكبا سقالة الرسم فى أسبانيا .

٥ — جولدونى وجوتسى

يبرز فى إدب البندقية فى هذا العصر أربعة اشخاص كل أثنين منهم معا : أبوستولو تسينو وبييترو متاستازيو وكلاهما كاتب نصوص لأوبرات كانت شعرا ؛ ثم كارلو جولدونى وكارلو جوتسى اللذان أقتتلا ليحلا محل الكوميديا البندقية كوميديا أصبحت مأساة جولدونى . وقد كتب جولدونى عن الأثنين الأولين يقول :

« لقد أثر هذان المؤلفان المشهوران فى إصلاح الأوبرا الإيطالية . فقبل مجيئهما لم يكن غير الأرباب والشياطين والآلات والعجائب فى هذه الملاهى المنغمة . وكان تسينو أول من فكر فى أمكان تمثيل المأساة بشعر

غنائى دون أبتذال ، وإنشادها دون أن يرهق الأنشاد السامعين . وقد أنقذ فكرته بطريقة رضى عنها الجمهور رضاء عظيما ، مما حقق له ولأمتـه مفخرة كبرى[٦٧] » .

وحمل تسينو اصلاحاته إلى فيينا فى ١٧١٨ ، ثم اعتزل راضيا ليخلى الجـو لمتاستازيو فى ١٧٣٠ وعاد إلى البندقية وعشرين عاماً من السلام . أما متاستازيو فقد لعب دور راسين لكورنيى تسينو كما قال جولدونى ، فاضاف الصقل إلى القوة ، وأرتفع بالشعر الأوبرالى إلى قمة لم يرتفع إليها من قبل . وقد وضعه فولتير فى مصاف كبار الشعراء الفرنسيين ؛ وعده روسو الشاعر المعاصر الوحيد الذى يصل شعره إلى القلب . وأسمه الأصلى بييترو تراباسى (بيتر كروس) . وقـد سمعه ناقد مسرحى يدعى جان فنتشنتو جرافينا يغنى فى الشوارع ؛ فتبناه ؛ وسماه من جديد متاستازيو (وهو المقابل اليونانى لترا باسى) . وأنفق على تعليمه : وخلف له ثروة عند مماته . وراح بييترو يبدد هذه الثروة فى غير تحرج ، ثم تعاقد مـع محام فرض عليه شرطا هو ألايقرأ أو يكتب بيتا واحداً من الشعر . ومن ثم أخذ يكتب تحت اسم مستعار .

وفى نابلى طلب إليه المبعوث النمساوى أن يكتب غنائيات لكنتاتا ؛ وألف بوريورا الموسيقى ، وغنت الدور الرئيسى ماريانا بولجاريللى المشهورة يومها باسم لا رومانينا ، وسار كل شىء عـلى ما يرام . ودعت المغنية الـكبرى الشاعر إلى صالونها ، وهناك التقى بليو وفنتشى وبرجوليزى وفاريناللى وهاسى والساندرو ودومنيكو سكارلاتى ؛ وتطور متاستازيو سريعا فى تلك الصحبة المثيرة . ووقعت لا رومانينا فى غرامه وكانت فى الخامسة والثلاثين أما هو ففى الثالثة والعشرين . وخلصته من شباك المحاماه واخذته رفيقا مـع زوجها الكيس المتسامح ؛ وأوحت إليه بكتابة أشهر نصوصه « ديدونى المهجورة » Didone abandonata التى لحنهـا أثنا عشر ملحنا متعاقبا بين ١٧٢٤ و ١٨٢٣ . وفى ١٧٢٦ كتب « سيروى » لحبيبته وبنى عليها فنتشى وهاسى وهندل أوبرات مستقلة . وأصبح متاستازيو الآن أكثر كتاب النصوص رواجا فى أوربا .

وفى ١٧٣٠ قبل دعـــوة إلى فيينا وترك لا رومانينا . وحاولت أن تلحق به . وخاف أن يعرضه وجودها معه للفضيحة ، فحصل على أمر بمنعها من دخول الأراضى الأمبراطورية فطعنت صدرها محاولةالانتحار ، واخفق هذا الجهد الذى بذلته لتلعب دور ديدو ، ولكنها لم تعش أكثر من أربع سنين أخرى .

وعند موتها خلفت لأينياسها الخائن كل ثروتها . ولكن متاستازيو رفض قبول التركة متأثرا بتأنيب ضميره ونزل عنها لزوجها . وكتب يقول « لم يعد لى أى أمل فى أن أوفق إلى السلوى . واعتقد أن ما بقى لى من عمرى سيكون حزينا لا لذة فيه » (٦٧) . وكان يستمتع بالنصر تلو النصر فى حزن حتى قطعت حرب الوراثة النمساوية عروض الأوبرا فى فيينا . وبعد ١٧٥٠ كان يكرر نفسه دون هدف. لقد استهلك الحياة قبل موته (١٧٨٢) بثلاثين عاما .

طردت الأوبرا الدراما التراجيدية من المسرح الإيطالى كما تنبأ فولتير من قبل وتركه للكوميديا . ولكن الكوميديا الإيطالية كانت تسيطر عليها الكوميديا ديللارتى — وهى مسرحية الحديث المرتجل والأقنعة المميزة . وكانت معظم الشخوص قد تقولبت منذ زمن طويل : بنتالونى البورجوازى الطيب ذو السراويل ، وتارتاجليا الخادم النابوليتانى المتهته ، وبريجيللا الدساس الساذج الذى يقع فى شراك دسائسه ، وتروفالدينو الأكول الشهوانى اللطيف ، وأرلكينو — ويقابله هارلكوين (المهرج) عندنا ، وبولتشنيللو — ويقابله عندنا بنش ، وأضافت مختلف المدن والأجيال مزيدا من الشخوص . وترك معظم الحوار والكثير من الأحداث فى الحبكة للاختراع المرتجل . يقول كازانوفا « كان الممثل فى تلك الكوميديات المرتجلة إذا توقف لأن كلمة غابت عنه ، لم يعفه رواد مؤخرة الصالة والشرفات العليا الرخيصة من صياح السخرية والاستهجان(٦٨) » .

وكانت المسارح العاملة فى البندقية عادة سبعة ، كلها مسماه بأسماء قديسين ، ويؤمها جمهور من النظارة شائن السلوك . فكان النبلاء فى

مقاصيرهم لا يهمهم ما يلقونه على العامة تحتهم . وكانت الأحزاب المتخاصمة ترد على التصفيق بالصفير أو التثاؤب أو العطس أو السعال أو صيحات الديكة أو مواء القطط(٦٩) . وفى باريس كان أكثر رواد المسرح من علية القوم ، وأرباب المهن أو المثقفين والأدباء ، أما فى البندقية فكانوا أساسا من الطبقة الوسطى ، يتخللهم هنا وهناك الغوانى المتبرجات ، وملاحو الجندولات البذيئون ، والقساوسة والرهبان متنكرين ، وأعضاء الشيوخ المتغطرسون فى عباءاتهم وباروكاتهم . وكان عسيرا أن ترضى مسرحية هذه العناصر كلها فى مثل هذا الخليط من البشر ، ومن ثم نزعت الكوميديا الإيطالية إلى أن تكون مزيجا من الهجاء والهزل الرخيص والتهريج والتوريات ، وقد أعجز الممثلين عن التنويع والتميز طول ما دربوا عليه من تصوير شخصيات ثابتة . هذا هو الجمهور وهذا هو المسرح الذى جاهد جولدونى فى رفعه إلى مكانة الكوميديا المشروعة المتحضرة .

ويسر القارىء ما كتبه فى « مذكراته » من استهلال بسيط . قال : « ولدت فى البندقية فى ١٧٠٧ . . . . جاءت بى أمى إلى العالم دون كبير ألم مما زاد حبها لى . ولم تعلن مولدى صيحات كالعادة ، وبدأ هذا اللطف آنئذ دليلا على الخلق الهادىء الذى احتفظت به دائماً منذ ذلك اليوم »(٧٠) .

وكان هذا القول تفاخرا منه ولكنه حق ، فجرلدونى من أحب الرجال فى تاريخ الأدب ، وكان من بين فضائله التواضع رغم هذا الاستهلال — وهى خلة ليست فى طبيعة الكتاب . ولنا أن نصدقه إذ يقول « كنت معبود الأسرة » وذهب الأب إلى روما ليدرس الطب ، ثم إلى بروجيا ليمارسه ، وتركت الأم فى البندقية لتربى ثلاثة أطفال .

وكان كارلو طفلا نابغة . استطاع أن يقرأ ويكتب فى الرابعة ، وألف كوميديا فى الثامنة . واقنع الأب الأم أن تسمح لكارلو بالذهاب إليه والعيش معه فى بروجيا . وهناك درس الغلام على اليسوعيين ، وتفوق ، ودعى للانضمام إلى الجماعة ، ولكنه رفض . ولحقت الأم وابن آخر بالأب ،

ولكن هواء الجبل البارد فى بيروجيا لم يلائمها ، فانتقلت الأسرة إلى ريميني ، ثم إلى كيودجا . ودخل كارلو كية دومنيكية فى ريميني ، ثم إلى كيودجا. ودخل كارلو كلية دومنيكية فى ريميني ، حيث كان يتلقى كل يوم جرعات من كتاب القديس توما الاكويني « قمة اللاهوت » . وإذ لم يجد شيئا يثير مشاعره فى تلك الرائعة من روائع العقلانية فقد قــرأ أرستوفان ، وبلوتس ، وترنس ، فلما قدمت فرقة من الممثلين إلى ريميني انضم إليها فترة طالت إلى حد ادهش أبويه فى كيودجا . فوبخاه ، وعانقاه ، ثم أرسلاه ليدرس القانون فى بافيا . وفى ١٧٣١ نال درجته الجامعية وبدأ ممارسة المحاماه ، ثم تزوج ، « وكان الآن أسعد رجل فى العالم » (٧١) ، اللهم إلا أنه أصيب بالجدرى فى ليلة زفافه .

وجذبته البندقية فعاد إليها ، ونجح فى المحاماة ، وأصبح قنصلا هناك لجنوه . ولكن المسرح ظل يستهويه ، وهفت نفسه للكتابة ، واشتهى أن تخرج مسرحياته . ومثلت مسرحيته « بلزاريوس » فى ٢٤ نوفمبر ١٧٣٤ بنجاح ملهم ، وظلت تعرض يوميا حتى ١٤ ديسمبر ، وضاعف سروره افتخار أمه العجوز به . على أن البندقية لم تكن تستسيغ التراجيديا ، ففشلت مسرحياته التالية التى من هذا النوع ، فانصرف حزينا إلى الكوميديا . ولكنه رفض كتابة الفارصات « للكوميديا ديللارتى » ، وأراد أن يؤلف كوميديات السلوك والأفكار على طريقة موليير ، وألا يعرض على خشبة المسرح شخوصا ثابتة تجمدت فى أقنعة ، بل شخصيات ومواقف مشتقة من الحياة المعاصرة . واختار بعض الممثلين من فرقة كوميديا البندقية ، ودربهم ، واخرج فى ١٧٤٠ « مومولو » رجل البــلاط . « ونجحت التمثيلية نجاحا مدهشا ، وكان فى هذا ما ارضانى » (٧٢) . ولكنه لم يرض تماما ، لأنه كان قد نزل عن بعض أفكاره بتركه الحوار كله دون أن يكتبه إلا للدور الرئيسى ، ويخلفه أدوارا لأربعة من الشخوص المقنعة التقليدية .

وراح يدفع اصلاحاته خطوة خطوة . ففى مسرحية « المرأة الشريفة » كتب لأول مرة الحركة والحوار كاملين . وهبت فرق معادية لتنافس

تمثيلياته أو تسخر منها . وتآمرت عليه الطبقات التي هجاها ، مثل التشيشسبي (مرافقي الزوجات) فحاربها كلها وعقد له النصر . ولكن لم يمكن العثور على مؤلف آخر يزود فرقته بالكوميديات المناسبة . ومن ثم فقدت تمثيلياته هو رضاء الجمهور لكثرة تكرارها . واكرهته المنافسة على أن يكتب ست عشرة تمثيلية في سنة واحدة .

وبلغ أوجه في ١٧٥٢ ، وأشاد به فولتير « بوصفه موليير إيطاليا » . ولقيت مسرحيته « لا لوكانديرا » (صاحبة الفندق) في ذلك العام « نجاحا رائعا حتى ..... فضلت على أي عمل انجز في ذلك النوع من الكوميديا » . وقد اعتز بأنه راعى « الوحدات الارسطاطاليه في الحركة والمكان والزمان » وفيما عدا ذلك كان يحكم على تمثيلياته بواقعية ، فيقول « انها جيسدة » ولكنها لم ترق بعد إلى مستوى موليير »[٧٣] . وكان قد تعجل في كتابتها تعجلا لا يتيح له أن يجعلها أعمالا فنية ، فكانت ذكية البناء ، مرحة على نحو سار ، مطابقة للحياة بوجه عام ، ولكن أعوزها ما ميز موليير من اتساع الأفكار ، وقوة الحديث ، وبراعة العرض ، ومن ثم ظلت على سطح الشخوص والأحداث . ومنعته طبيعة جمهوره من أن يحاول التحليق في أجواء العاطفة أو الفلسفة أو الأسلوب ، وكان في فطرته من البشر ما منعه من سبر الأغوار التي عذبت موليير من قبل .

وقد صدم مرة واحدة على الأقل صدمة أخرجته عن لطفه وجرحته في الصميم ، وذلك حين تحداه كارلو جوتسي على مكان الصدارة المسرحية في البندقية وفاز في المعركة . وكان هناك رجلان باسم جوتسي شاركا في الضجة الأدبية التي أثيرت في ذلك العهد ، أحدهما جسبارو جوتسي الذي الف تمثيليات أكثرها مقتبس من الفرنسية ، وكان محررا للدوريتين بارزتين وقد بدأ حركة احياء دانتي . أما الثاني وهو أخوه كارلو فلم يكن فيه هذا اللطف والأنس ، كان رجلا طويل القامة وسيما مغرورا متحفزا للعراك على الدوام . وكان أذكى عضو في أكاديمية جرانلليسكي « التي شنت حملة لإستعمال الإيطالية التسكانية النقية في الأدب بدلا من اللهجة التي استعملها

جولدونى فى معظم تمثيلياته . ولعله — وهو العشيق (أو المرافق الخادم) لتيودورا ريتشى — أحس بوخز موجع حين هجا جولدونى مرافقى الزوجات هؤلاء . وقد كتب هو أيضاً « مذاكرات » هى البيان المفصل للحروب التى خاضها . وقد حكم على جولدونى كما يرى مؤلفاً آخر فقال :

« تبينت فى جولدونى وفرة فى الدوافع الكوميدية ، والصدق والطبيعية. ولكنى اكتشفت فيه فقرا وحقارة فى الحبكة » ، وهذه محاسن ومساوىء متنافرة ، والمساوىء كثيراً ما تكون الغالبة ، ثم هناك عبارات سوقية ذات توريات منحطة ... ونتف وأقوال فيها تنطع ، مسروقة لا أدرى من أين ومجلوبة لتخدع جمهورا من الجهال ، وأخيرا فهو بوصفه كاتباً للايطالية (إلا أنه يكتب باللهجة البندقية التى دل على تمكنه منها) لم يبد غير جدير بأن يوضع فى مصاف أغبى المؤلفين الذين استخدموا لغتنا وأحقرهم وأقلهم دقة وصواباً ... وعلى أن أضيف فى الوقت ذاته أنه لم يخرج قط تمثيلية دون أن يكون لها سمة كوميدية ممتازة . وقد بدا لعينى أن له دائماً مظهر رجل ولد باحساس فطرى بالطريقة التى يجب أن تؤلف بها الكوميديات الأصيلة ، ولكنه — لعيب فى تعليمه ، ولافتقار إلى التمييز ، ولضرورة ارضاء الجمهور وتقديم بضاعة جديدة للكوميديين المساكين الذين يكسب قوته على حسابهم ، وللعجلة التى كان ينتج بها هذا العدد الوفير من التمثيليات كل سنة ليقى نفسه من الغرق — أقول أنه لهذا كله لم يستطع قط أن يبتكر تمثيلية واحدة لاتزخر بالاغلاط (٧٤) » .

وفى ١٧٥٧ أصدر جوتسى ديوان شعر يعرب عن انتقادات مماثلة فى « أسلوب كبار كتاب التسكانية القدامى » . ورد جولدونى بشعر مثلث القافية (على طريقة دانتى) بما معناه أن جوتسى أشبه بالكلب الذى ينبح القمر (Come il cane che abbaja la luno)

ورد عليه جوتسى بالدفاع عن « الكوميديا ديللارتى » ضد انتقادات جولدونى القاسية ، واتهم جولدونى بأن تمثيلياته تفوق كوميديا الأقنعة مائة مرة فى فجورها ونبوها وعدوانها على مكارم الأخلاق ، وصنف معجماً من « العبارات الغامضة ، والتوريات البذيئة . . وغيرها من القذارات »

أخذها من أعمال جولدونى . يقول مولمنتى أن الجدل « آثار فى المدينة ضربا من الهوس ، فكان الخلاف يناقش فى المسارح والبيوت والحوانيت والمقاهى والشوارع[٧٥] » .

وتحدى كاتب مسرحى آخر يدعى (أباتى كيارى) جوتسى أن يكتب تمثيلية خيرا من التمثيليات التى ندد بها ، وكان هذا الكاتب قد لدغه من قبل صل جوتسى التسكانى . ورد جوتسى أن هذا يسير عليه ، حتى عن أتلفه المواضيع وباستخدام كوميديا الأقنعة التقليدية دون غيرها . وفى يناير ١٧٦١ أخرجت فرقة فى تياترو سان صموئيلى تمثيليته المسماه « خرافة حب البرتقالات الثلاث » وهى مجرد سيناريو أظهر بنتالونى ، وترتاجليا ، وغيرهما من أصحاب (الأقنعة) يبحثون عن ثلاث برتقالات يعتقد أن لها قدرات سحرية ، وأما الحوار فترك للارتجال . وكان نجاح هذه (الخرافة) حاسما : ذلك أن الجمهور البندقى العاشق على الضحك استطاب خيال القصة والهجاء الضمنى لحبكات كيارى وجولدونى . وأردفها جوتسى بتسع (خرافات) أخرى فى خمس سنوات ، ولكنه قدم فيها حواراً شعرياً ، وبهذا سلم جزئيا بنقد جولدونى للكوميديا ديللارتى . على أية حال بدا انتصار جوتسى كاملا . وظل جمهور مسرح القديس صموئيل شديد الاقبال عليه ، فى حين هبط الإقبال على مسرح جولدونى (سانت انجيلو) إلى ما يقرب من الإفلاس . وانتقل كيارى إلى بريشا ، أما جولدونى فقبل دعوة إلى باريس (*) .

وتوديعا للبندقية أخرج جولدونى (١٧٦٢) «أمسية من أمسيات الكرنفال الأخيرة » وتروى قصة مصمم منسوجات هو السنيور انتسوليتو الذى كان على وشك أن يفارق وهو حزين فى البندقية النساجين الذين طالما زود أنوالهم بالرسوم . وسرعان ما تبين الجمهور فى هذا رمزاً للكاتب المسرحى الذى يترك آسفا الممثلين الذين طالما زود مسرحهم بالتمثيليات . فلماظهر انتسوليتو فى المشهد الأخير ضج المسرح (كما يقول جولدونى) « بتصفيق

---

* حولت « خرافتان » من خرافات جوتسى إلى أوبرات : « ري تورانادوت » لفيبر وبوزونى ، و « حب البرتقالات الثلاث » : لبروكوفيف .

كهزيع الرعد تسمع خلاله هتافات . . . (رحلة سعيدة) (عد الينا ثانية) (لا يفتك أن تعود الينا) [٧٦]. وغادر البندقية فى ١٥ ابريل ١٧٦٢ ولم يرها بعد ذلك قط .

وفى باريس شغل عامين بتأليف كوميديات لمسرح الإيطاليين ، وفى ١٧٦٣ رفعت عليه دعوى إغواء[٧٧] ، ولكن بعد سنة كلف بتعليم الإيطالية لبنات لويس الخامس عشر . وقد كتب بالفرنسية ، بمناسبة زفاف مارى انطوانيت والأمير الذى أصبح فيما بعد لويس السادس عشر ، مسرحية من أفضل مسرحياته ، واسمها (الجلف الخير) وكوفىء عليها بمعاش قدره ١٢٠٠ فرنك ، الغته الثورة حين بلغ الحادية والثمانين . وقد واسى فقره باملاء مذاكراته لزوجته (١٧٩٢) — وهى مذكرات غير دقيقه ، خصبة الخيال ، مثيرة ، مسلية ، وفى رأى جولدونى أنها (درامية على نحو أصدق من كوميديانه الإيطالية[٧٨]) ، ومات فى ٦ فبراير ١٧٩٣ . وفى ٧ فبراير ، بناء على اقتراح قدمه الشاعر مارى — جوزف دشنييه ، رد اليه المؤتمر الوطنى معاشه . وإذ لم يجده المؤتمر فى حال تسمح له بتسلمه ، فقد أعطاه لارملته بعد أن خفضه .

كان انتصار جوتسى فى البندقية قصير الأجل. فقبل أن يموت (١٨٠٦) بسنين طويله اختفت (خرافاته) من خشبة المسرح ، وبعثت كوميديات جولدونى فى مسارح ايطاليا . ومازالت تمثل عليها فى كثرة تكاد تقارب كوميديات موليير فى فرنسا . ويقوم تمثاله فى الـكامبوسان بارتولوميو بالبندقية ، وفى اللارجو جولدونى (بفلوزنسه) . ذلك لأن الإنسانية كما كتب فى مذكراته واحدة فى كل مكان ، والحسد يعلن عن نفسه فى كل مكان ، وفى كل مكان يكسب الرجل الهادىء الطبع فى النهاية محبـــة الشعب ويبلى خصومه[٧٩] » .

٦ — روما

فى جنوبى نهربو ، وعلى طول الادرياتيك وعبر الأبنين ، كانت تقوم ولايات الكنيسة — فيرارا وبولونيا وفورلى ورافنا وبروجه وبتفنتو وروما — فتكون بهذا القسم الأوسط والأكبر من الحذاء السحرى .

أما فيرارا فحين أدمجت فى الولايات البابويه (١٥٩٨) جعل أدواقها آل استنسى مودينا مقرا لهم ، وجمعوا فيها محفوظاتهم وكتبهم وفنونهم . وفى ١٧٠٠ أصبح لودوفيكو موراتورى القسيس والباحث وفقيه القوانين أمينا على هذه الكنوز . واستطاع خلال خمسة عشر عاماً من العمل الدءوب ، ومن ثمانية وعشرين مجلدا ، أن يصنف « كتاب الشئون الإيطاليه » (١٧٢٣ — ٣٨) ، وأضاف بعد ذلك عشرة مجلدات للآثار والنقوش الإيطاليه . وكان أثرياً أكثر منه مؤرخا ، وما لبث كتابه « الحوليات الإيطالية » الذى أصدره فى أثنى عشر مجلدا أن تقادم . ولكن أبحاثه فى الوثائق والنقوش جعلته الأب والمصدر للتأليف التاريخى الحديث فى إيطاليا .

وكانت بولونيا أكثر هذه الولايات ازدهارا باستثناء روما . وظلت مدرسة تصويرها الشهيرة حية فى عهد جوزيبى كرسبى (الأسبانى) ، وكانت جامعتها لا تزال من خير الجامعات الأوربيه . وكان قصر بفيلاكوا (١٧٤٩) من أعظم أبنية القرن أناقة . وسمت أسرة ممتازه تركزت فى بولونيا بالعمارة والمسرحية ورسم المناظر المسرحية إلى ذرى الأتقان فى العصور الحديثة . فبنى فرديناندو جاللى دابيبينا (التياترو ريالى) فى مانتوا (١٧٣١) وكتب نصوصا شهيرة عن فنه ، وأنجب ثلاثة أبناء وأصلوا مهارته فى الزخرفة الخداعة الفاخرة . وصمم أخوه فرانشسكو المسارح فى فيينا ونانسى وروما ، والتياترو فيلارمونيكا بفيرونا — الذى كثيرا ما يعتبر أجمل مسرح فى إيطاليا . وأصبح الساندرو بن فردیناندو كبير معمارى ناخب البلاتينات . وصمم ابن ثان يدعى جوزيبى مدخل دار الأوبرا فى بايرويت (١٧٤٨) — أجمل بناء موجود من نوعه[٨٠] » . ورسم أنطونيو الأبن الثالث تصميمات « التياترو كومونالى » فى بولونيا .

وقد ترددت فى ذلك المسرح وفى كنيسة سان بترونيو القديمة الضخمه أفضل الموسيقى الآليه التى عزفت فى إيطاليا ، لأن بولونيا كانت المركز الإيطالى الرئيسى للتعليم والنظريه الموسيقين . فهناك كان بادرى جوفانى بأتستا مارتينى يعقد مجلسه المتواضع الصارم كأجل معلم للموسيقى فى أوربا . وكان يقتنى مكتبة موسيقيه تضم سبعة عشر ألف مجلد ، وقد ألف نصوصا ممتازة فى الكونترابنط وتاريخ الموسيقى ، وراسل عشرات من مشاهير الرجال فى أكثر من عشر دول . وكان وسام الأكاديميا فيلارمونيكا التى ترأسها سنين كثيرة مشتهى جميع الموسيقيين . فإلى هنا سيأتى الصبى موتسارت فى ١٧٧٠ ليواجه الاختبارات المقررة ، وهنا سيعلم روسينى ودونيتستى . وكان المهرجان السنوى للمؤلفات الموسيقية الجديدة ، التى يؤديها أوركسترا الأكاديميه ذو المئة عازف ، فى نظر إيطاليا الحدث الأعظم للسنه الموسيقية .

قدر جيبون سكان روما فى ١٧٤٠ بنحو ١٥٦,٠٠٠ نسمة . وحين تذكر زهوة ماضيها الأمبراطورى وتناسى فقراء هذا الماضى وأرقاءه ، وجد أن سخر العاصمة الكاثوليكية يجافى ذوقه :

« فى داخل الأسوار الأوريلية الفسيحه تغشى القسم الأكبر من التلال السبعة الكروم والأطلال . ولعل جمال المدينه الحديثة وبهاءها راجع إلى مفاسد الحكومة وتأثير الخرافة . فقد تميز كل حكم (إلا فيما ندر) بصعود أسرة جديدة صعودا سريعا ، أثرت بفضل الحبر الذى لا عقب له على حساب الكنيسة والدولة . وقصور أبناء الأخوة والأخوات المحظوظين هؤلاء هى أغلى صروح الأناقة والعبودية ، فقد سخرت لها أسمى فنون المعمار والتصوير والنحت ، وأبهاؤها وحدائقها تزينها أنفس الآثار القديمة التى جمعوها تذوقا أو غرورا[٨١] » .

وقد تميز بابوات هذا العهد بسمو الخلق ، وكانت فضائلهم تسمو كلما هبط سلطانهم . وكانوا كلهم إيطاليين ، لأن احدا من الملوك الكاثوليك أبى أن يسمح لأى من الآخرين أن يقتضى البابويه . وقد برر كلمنت الحادى عشر (حكم ١٧٠٠ — ٢١) أسمه (ومعناه الرحيم) باصلاحه سجون روما .

أما إنوسنت الثالث عشر (١٧٢١ — ٢٤) فهـو فى رأى رانكى البروتستنتى :

« كان يملك مؤهلات رائعة للحكم الروحى والزمنى معا ، ولكن صحته كانت هشه جداً . وقد وجدت الأسر الرومانية المتصلة به بصلة القرابة ، والتى راودها الأمل فى أن يرفع من شأنها ، أنها واهمة كل الوهم : لا بل إن ابن اخيه لم يستطع الظفر بالأثنى عشر ألف دوقاتيه كل عام (التى أصبحت الآن الدخل العادى لابن الأخ) دون مشقة[٨٢] » .

أما بندكت الثالث عشر (١٧٢٤ — ٣٠) فكان « رجلا ذا تقوى شخصية عظيمه[٨٣] » . ولكنه (كما قال مؤرخ كاثوليكى) سمح بقدر كبير جداً من السلطة لمحاسيب غير جد يرين بعطفه[٨٤] » . وأغرق كلمنت الثالث عشر (١٧٣٠ — ٤٠) روما بأصدقائه الفلورنسيين ، وسمح لنفسه حين شاخ وكف بصره أن ينقاد لأبناء أخيه الذين زاد تعصبهم الصراع بين اليسوعيين والجانسنيين فى فرنسا مرارة فوق مرارة .

وفى رأى ماكولى أن بندكت الرابع عشر (١٧٤٠ — ٥٨) «كان أفضل وأحكم خلفاء القديس بطرس المائتين والخمسين[٨٥] » وهـو حكم فضفاضى ، ولكن البروتستنت والكاثوليك وغـير المؤمنين على السواء مجمعون على الثناء على بندكت لأنه كان رجلا واسع العلم ، ذا شخصية محببة ونزاهة خلقية . ولم ير وهو رئيس لأساقفة بولونيا أى تناقض بين الاختلاف إلى دار الأوبرا ثلاث مرات فى الأسبوع والاهتمام الصارم بواجباته الاسقفية[٨٦] ، وقد وفق أثناء ولايته منصب البابوية بين حياته الشخصية ومرح الطبع وتحرر الحديث وتذوق الأدب والفن تذوقا يكاد يكون وثنيا . وقد أضاف تمثالا لفينوس عارية إلى مجموعته ، وقال للكردينال دتنسان أن أمير وأميرة فورتمبرج خطا إسميهما على جزء فى التشريح جميل الأستداره لا يذكر كثيراً فى المراسلات البابويه[٨٧] . وكاد يشبه فولتير فى حدة الذكاء والظرف ، ولكن هـذا لم يمنعه من أن يكون إداريا حازما ودبلوماسيا بعيد النظر .

وقد وجد مالية البابوية تشكو الفوضى : فنصف الإيرادات يضيع فى الانتقال من بلد إلى بلد وثلث سكان روما كنسيون يفوق عددهم كثيرا ما تحتاج إليه شئون الكنيسه ، ويكلفونها من النفقة ما لا تطيقه . فأنقص بندكت موظفيه الشخصيين ، وطرد أكثر جنود الجيوش البابويه ، وأنهى محسوبية الأقارب ، وخفض الضرائب ، وأدخل الاصلاحات الزراعية ، وشجع المشروعات الصناعيه ، ولم يمـــر طويل وقت حتى أثمرت أمانته واقتصاده وكفائته فائضا للخزانة البابوية . أما سياسته الخارجية فقد قدمت تنازلات ودية للملوك المشاغبين ، فوقع مع سردينيا والبرتغال ونابلى وأسبانيا إتفاقات سمحت لحكامها الكاثوليك بالترشيح لكراسى الأسقفية . وجاهد ليهدىء الضجة العقائدية فى فرنسا ، بالتراخى فى تنفيذ الأمر البابوى unigenitus (الوحيد الجنس) الصادر ضد الجانسنيين ، « ما دام الإلحاد يزداد كل يوم فعلينا أن نسأل إن كان الناس يؤمنون بالله لا إن كانو يقبلون الأمر البابوى[٨٨] » .

وبذل جهودا شجاعة ليعثر على حل وسط مؤقت modus vivendi مع حركة التبرير . وقد لاحظنا تقبله الودى لإهداء فولتير مسرحية (محمد) إليه رغم أن المسرحية كانت تسلط عليها نيران الكنيسة فى باريس (١٧٤٦) ، وعين لجنة لمراجعة كتاب الصلوات اليومية ولتخليصه من بعض الأساطير الأبعد تصديقا ، على أن توصيات اللجنة لم تنفذ . واستطاع بنشاطه الشخصى أن يحقق انتخاب دالمبير لمجمع بولونيا[٨٩] . » وكان يثبط التحريم المتعجل للكتب . فلما أشار بعض مساعديه عليه بشجب كتاب لامترى « الإنسان الآلة » أجاب أليس من واجبكم أن تكفوا عن ابلاغى بوقاحات الحمقى ؟ ثم أردف « اعلموا أن للبابا يدا مطلقه ليمنح البركات فقط [٩٠] » وقد تخلت قائمة الكتب المحرمة التى أصدرها فى ١٧٥٨ عن جميع محاولات تعقب المؤلفات غير الكاثوليكية . واقتصرت ... فيما عدا استثناءات قليلة على حظر بعض الكتب التى ألفها كتاب كاثوليك . وأمر بألا يدان كتاب قبل أن يعطى مؤلفه أن وجد فرصة للدفاع عن نفسه ، ولا يدان كتاب فى موضوع علمى إلا بعد استشارة الخبراء ، وينبغى أن يؤذن لرجال العلم أو الدرس دون

ابطاء بقراءة الكتب المحرمة[٩١] . واتبعت هذه القواعد فى طبعات القائمــة الثالثة ، وأكدها ليو الثالث عشر فى ١٩٠٠ .

وقد ألفى البابوات حكم روما عسيرا عسرا يقرب من عسرحكم العالم الكاثوليكى . ولعل جمهور المدينة كان اشد الجماهير فظاظة وعنفاً فى ايطاليا وربما فى أوربا . فأى سبب يمكن أن يفضى إلى مبارزة بين النبلاء أو إلى صراع دام بين الزمر المتحزبه التى قسمت المدينة المقدسة ، وأما فى المسرح فان حكم النظارة كان يمكن أن يكون قاسياً لارحمة فيه خصوصا إذا أخطأ ، وسنرى مثالا عليه فى حالة برجوليتزى . وجاهدت الكنيسة لتهدىء الشعب بالأعياد والمواكب والغفرانات والكرنفال ، وسمحت للناس فى الأيام الثمانية السابقة للصوم الكبير بأن يرتدوا ملابس تنكرية مرحة غريبة الأشكال ، وأن يسرحوا ويمرحوا على (الكورسو) والتمس النبلاء رضى الجماهير باستعراضاتهم على الخيل أو العربات تحمل راكبين مهرة أو نساء حسانا فى أبهى زينة ، وعرضت البغايا بضاعتهن لقاء أجور رفعتها مؤقتا ، وخففت المغازلات المقنعة من ثقل الزواج الأحادى بضع ساعات . فإذا انقضى الكرنفال عاودت روما مسيرتها المتناقضة من التقوى والإجرام .

أما الفن فلم يزدهر وسط العائدات المتناقصة التى يغلها إيمان مضمحل . لقد أسهمت العمارة ببعض الاسهامات الصغيرة : مثال ذلك أن الساندرو جاليلى أضاف لكنيسة سان جوفانى القديمة فى اللاتيرانو واجهة فخمة ، وخلع فرديناند وفوجا على كنيسة سانتا ماريا مادجورى وجها جديداً ، وشيد فرانشسكو دى سانكتيس « السكالا دى سبانيا الفسيحة المهيبة من ميدان أسبانيا إلى مزار « الثالوث الأقدس » فى مونتى . وأضــاف النحت أثرا مشهوراً هو « الفونتانا دى تريفى » - حيث يلقى السائح المسرور قطعة نقود من وراء كتفه فى الماء ليضمن عودته لزيارة روما ثانية . وكان لنافورة المخارج الثلاثة تاريخ طويل . ولعل برنينى ترك رسما تخطيطيا لها ، وافتتح كلمنت الثانى عشر مسابقة لإنشائها ، وقدم التصميمات لها أدمى بوشاردان الباريسى ولا مبير سجبير آدم النانسى ، واختير جوفانى ماينى ليصممها ،

ونحت بييترو براتشي مجموعة نبتون وفريقه الوسطى (١٧٣٢) ، ونحت فليبو ديللافاللى أشكالا تمثل الخصوبة والشفاء ، وقدم نيكولو سالفى الخلفية المعمارية ، وأكمل جوزيبى يانينى العمل فى ١٧٦٢ ، وربما أوحت مشاركة العقول والأيدى الكثيرة على هذا النحو خلال ثلاثين سنة بأنه كان هناك شيء من التخاذل فى الإرادة أو الفقر فى الموارد ، ولكنها تدحض أى فكرة بأن الفن فى روما كان ميتاً . وأضاف براتشى إلى مآثره مقبرة (هى الآن فى كتدرائية القديس بطرس) لماريا كلمنتينا سوبيسكا ، الزوجة التعسة لجيمس الثالث المطالب الاستيوارتى بالعرش ، وخلف ديللافاللى فى كنيسة القديس أغناطيوس نقشاً بارزاً رقيقاً يمثل البشارة ، جديرا بالنهضة الأوربية فى أوجها .

أما التصوير فلم يتمخض عن عجائب فى روما فى هذا العصر ، ولكن جوفانى باتستا بيرانيزى جعل الحفر فناً من الفنون الكبرى . ولد لبناء بالحجر قرب البندقية ، وقرأ باللاديو وحلم بالقصور وأضرحة القديسين . على أن البندقية كانت تحوى من الفنانين أكثر مما تحوى من المال ، أما روما فكان فيها مال أكثر من الفنانين ، ومن ثم نزح جوفانى إلى روما وبدأ عمله معماريا . غير أن الطلب على المبانى كان ضعيفا . ولكنه صمم المبانى على أى حال ، أو على الأصح رسم مبانى غريبة الأشكال تبدو كأن « السلالم الأسبانية » سقطت فوق « حمامات دقلديانوس » . ونشر هذه الرسوم فى ١٧٥٠ باسم « رسوم مختلفة » و « كارتشيرى » (المسجون) ، واشتراها الناس كأنهم يشترون الألغاز أو الأسرار الغامضة . ولكن بيرانيزى وجه مهارته فى حالاته النفسية الأنبل إلى حفر رسومه التخطيطية للآثار القديمة . فقد عشقها كما عشقها بوسان وروبير ، وأحزنه أن يرى هـــذه الأطلال الرائعة تزداد تحللا يوما بعد يوم بفعل النهب أو الاهمال ، وظل طوال خمسة وعشرون عاما ، فى كل يوم تقريبا ، يخرج ليرسمها ، ويفوته أحيانا تناول وجباته من الطعام ، بل أنه حتى وهو يموت من السرطان واصل الرسم والنقش والحفر . وقد ذاع مؤلفاه « الآثار الرومانية » و « مناظر

روما » فى شكل نسخ مطبوعة فى أوربا كلها وشاركت فى الإحياء المعمارى للأساليب الكلاسيكية .

وقد وجد ذلك الاحياء حافزا قويا فى الحفائر التى أجريت فى هركولانيوم وبومبى وهما مدينتان أغرقهما ثوران فيزوف فى ٧٩ م ففى ١٧١٩ أبلغ بعض الفلاحين أنهم وجدوا تماثيل مدفونة فى التراب فى هركولانيوم . وأنقضت تسعة عشر عاما قبل أن يمكن الحصول على المال اللازم لارتياد الموقع على نحو نسقى . وفى ١٧٤٨ بدأت حفائر مماثلة تكشف عن عجائب بومبى الوثنية ، وفى ١٧٥٢ كشف عن معابد بايستوم الضخمة الجليلة بعد اجتثات الأجمة التى غطتها . وأقبل الأثريون من شتى البلاد ليدرسوا الكشوف ويصفوها ، وأثارت رسوم هذه الآثار اهتمام الفنانين والمؤرخين جميعاً ، وسرعان ما غزا المتحمسون للفن الكلاسيكى روما ونابلى ، وقدموا على الأخص من ألمانيا . فأتى منجز فى ١٧٤٠ ، وفنكلمان فى ١٧٥٥ . وهفت نفس لسنج للذهاب إلى روما ، « لامكث هناك على الأقل سنة ، وإلى الأبد أن امكن »[٩٢] . ثم جوته — ولكن لنرجى هذه القصة الآن .

إما أنطون رفائيل منجز فمن العسير أن نضعه فى مكان واحد ، لأنه ولد فى بوهيميا (١٧٢٨) ، وخص بجهوده إيطاليا وأسبانيا ، واختار روما موطنا له . وسماه أبوه باسم كوريدجو ورفائيل ، وكان رساما للمنمنمات فى درسدن ، ونذره للفن ، وظهرت على الصبى مخايل النجابة فأخذه أبره وهو فى الثانية عشرة إلى روما . ويروى أنه حبسه هناك فى فى الفاتيكان يوما بعد يوم ولا غداء له إلا النبيذ والخبز ، وأخبره أن أراد مزيداً أن يطلعم على آثار رفائيل وميكلانجلو والعالم الكلاسيكى . وبعد أن أقام أنطون برهة قصيرة فى درسدن عاد إلى روما واسترعى الأنظار بلوحة رسمها للعائلة المقدسة ، وكانت نموذجه فيها مارجاريتا جواتسى « عذراء فقيرة فاضلة جميلة »[٩٣] وتزوجها فى ١٧٤٩ ، وفى المناسبة ذاتها دخل فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وعاد ثانية إلى درسدن ، وعين مصورا لبلاط أوغسطس الثالث براتب قدره ألف طالر فى العام . ووافق

على أن يرسم لوحتين لكنيسة بدرسدن ، ولكنه أقنع الملك الغاضب بأن يسمح له برسمهما فى روما ، وفى ١٧٥٢ استقر هناك وهو بعد فى الرابعة والعشرين . ولما بلغ السادسة والعشرين عين مديرا لمدرسة الفاتيكان للتصوير . وفى ١٧٥٥ التقى بفنكلمان ، واتفق معه على أن الباروك غلطة ؛ وأن الفن يجب أن يطهر نفسه ويهذبها بأشكال الكلاسيكية الجديدة . ولعله فى هذه الفترة أو نحوها رسم بالباستل صورته الذاتية الموجودة الآن فى متحف فن درسدن — وجه فتاة وشعرها ، ولكن العينين تلمعان بكبرياء رجل واثق من أن فى استطاعته أن يهز العالم .

وحين طارد فردريك الأكبر أوغسطس من سكسونيا (١٧٥٦) توقف راتب منجز الملكى ، وكان عليه أن يعيش على الأجور المتواضعة المعروضة عليه فى إيطاليا . وجرب العمل فى نابلى ، ولكن الفنانين المحليين هددوا حياته باعتباره دخيلا ، وذلك عملا بتقليد نابولتانى قديم ، فقفل منجز إلى روما سريعا . وزين فيللا ألبانى بصور جصية حظيت بالشهرة ذات يوم ، وما زالت ترى هناك لوحته « برناس » (١٧٦١) الممتازة فنيا ، الكلاسيكية هدوءا ، الميتة عاطفيا . ومع ذلك أحس الوزير الأسبانى فى روما أن هذا هو الرجل الذى يصلح لرسم صور يزدان بها القصر الملكى فى مدريد . وأرسل شارل الثالث فى طلب منجز ووعده بألفى دبلون فى العام مضافا إليها مسكن ومركبة ورحلة مجانية على بارجة أسبانية موشكة على الاقلاع من نابلى . وفى سبتمبر ١٧٦١ وصل منجز إلى مدريد .

٧ — نابلى

(أ) الملك والشعب

أصابت مملكة نابلى التى ضمت كل إيطاليا جنوب الولايات البابوية اللطمات الشديدة فى الصراع على السلطة بين النمسا وأسبانيا وانجلترا وفرنسا . ولكن هذا دأب التاريخ فى تمزيقه الكئيب للمنطق ، والتأرجح الدامى بين النصر والهزيمة ، وحسبنا هنا أن نلاحظ أن النمسا استولت على نابلى فى ١٧٠٧ ،

وأن دوس كارلوس ، دوق بارما البوربونى وابن فليب الخامس ملك أسبانيا ، طرد النمساويين فى ١٧٣٤ ، وحكم حتى ١٧٥٩ باسم شارل الرابع ملك نابلى وصقلية . وكانت عاصمته التى ضمت ٣٠٠,٠٠٠ من الأنفس أكبر مدينة فى إيطاليا .

وبلغ شارل النضج فى فن الملك ببطء . ففى أول عهده اتخذ الملكية جوازا للبذخ : فأهمل شئون الحكومة ، وأنفق نصف أيامه فى القنص ، وأسرف فى الأكل حتى أصبح بدينا . ثم حوالى ١٧٥٥ ، وبوحى من وزير العدل والشئون الخارجية المركيز برناردو دى تانوتشى اضطلع بالتخفيف من مظالم الاقطاع القاسى الذى توارى خلف كد الحياه النابولية ونشوتها .

وكانت تحكم المملكة طويلا ثلاث جماعات متشابكة . فالنبلاء يملكون ثلثى الأرض تقريبا ويستعبدون أربعة أخماس الملايين الخمسة الذين يسكنونها ويسيطرون على البرلمان ، ويتحكمون فى نظام الضرائب ، ويعرقلون كل إصلاح . والأكليروس يملكون ثلث الأرض ، ويسترقون الشعب روحيا بلاهوت قوامه الرعب ، وكتب حافلة بالأساطير ، وشعائر تستغل المصلين ، ومعجزات على شاكلة تسييحهم المصطنع كل نصف سنة لدم القديس ياتيوارس (حامى نابلى) المتخثر . وكانت الإدارة فى يد قانونيين يدينون بالطاعة للنبلاء أو الأحبار ، ومن ثم التزموا بالوضع الموروث من العصر الوسيط . وكانت الطبقة الوسطى الفقيرة المؤلفة أكثرها من التجار عاجزة سياسياً . وعاش الفلاحون والبرولتاريا فى فقر أكره بعضهم على قطع الطريق وكثيراً منهم على التسول ، وكان هناك ثلاثون ألف شحاذ فى نابلى وحدها[٩٤] . وقد وصف دبروس جماهير العاصمة بأنهم « أبغض الرعاع ، وأقذر الحشرات »[٩٥] — وهو حكم أدان النتيجة دون أن يدمغ السبب . على أننا يجب أن نعترف بأن هؤلاء النابوليين المهلهلى الثياب ، المتشبثين بالخرافات ، الخاضعين لسلطان الكهنة ، يبدو أنهم كانوا يملكون من نكهة الحياة وبهجتها أكثر من أى جمهور آخر فى أوربا .

وكبح شارل قوة النبلاء باجتذابهم إلى بلاطه حتى يكونوا تحت ناظرى الملك ، وبإقامة نبلاء جدد يلتزمون بتأييده. وثبط تدفق الشباب على الأديرة، وانقص جموع الكنسيين من ١٠٠,٠٠٠ إلى ٨١,٠٠٠ ، وفرض ضريبة قدرها اثنان فى المائة على ممتلكات الكنيسة ، وحد من حصانات الاكليروس القانونية . وضيق تانوتشى من سلطة النبلاء القضائية ، وحارب الفساد فى القضاء ، وأصلح الإجراءات القضائية ، وخفف من صرامة قانون العقوبات . وأبيحت حرية العبادة لليهود ، ولكن الرهبان أكدوا لشارل أن افتقاده الوريث الذكر لعرشه هو العقاب الذى أنزله به الله جزاء تسامحه الآثم فسحب الغفران من اليهود (٩٦) .

وكان لوبع الملك بالبناء الفضل فى إقامة صرحين شهيرين فى نابلى . وأحدهما هو « التياترو سان كارلو » الشاسع ، وقد أقيم فى ١٧٣٧ ومازال واحداً من أوسع وأجمل دور الأوبرا الموجودة . وفى ١٧٥٢ بدأ لويجى فانفيتلى يبنى الصرح الآخر فى كازوتا على واحد وعشرين ميلا شمالى العاصمة، وهو قصر ملكى هائل صمم لينافس فرساى وليقوم بوظيفته فى إيواء الأسرة المالكة ونبلاء الحاشية وأهم الموظفين الإداريين . وقد اقتضى بناؤه كد العبيد سودا وبيضاً طوال اثنين وعشرين عاماً . وكانت الأبنية ذات المنحيات تقوم على جانبى مدخل فسيح إلى الصرح الأوسط الذى مد واجهته ٣٠ قدماً. وقام فى الداخل مصلى ومسرح وغرف لا حصر لها وسلم مزدوج عريض كانت كل درجة فيه لوحة رخام واحدة . وامتدت وراء القصر على طول نصف ميل الحدائق المنسقة ، وعدد غفير من التماثيل ؛ ونافورات فخمة تغذيها قناة طولها سبعة وعشرون ميلا .

ولم يكن فى نابلى فن متميز فى هذا العصر غير قصر كازيرتا هذا (لأن القصر أطلق عليه اسم مدينته شأن الأسكوريال وفرساى) ، ولا كان هناك شىء يستحق الذكر فى الدراما أو الشعر . لقد ألف رجـــل كتابا جريئا « التاريخ المدنى لملوك نابلى » (١٧٢٣) وهو هجوم متواصل على جشع الأكليروس ، ومفاسد المحاكم الكنسية ، وسلطة الكنيسة الزمنيه ، ودعوى

البابويه بحقها فى نابلى كأقطاعية بابوية ، أما المؤلف واسمه بييترو جانونى فقد حرمه رئيس أساقفة نابلى ، وفر إلى فيينا ، وزج به ملك سردانيا فى السجن ، ثم مات فى تورين (١٧٤٨) بعد أن قضى أثنتى عشرة سنة حبيسا(٩٧) . وفقد انطونيو جينوفيزى إيمانه وهو يقرأ لوك ، وحاول فى كتابه « مبادىء الميتافيزيقا » (١٧٤٣) أن يدخل سيكولوجية لوك إلى إيطاليا . وفى ١٧٥٤ أنشأ رجل أعمال فلونسى فى جامعة نابلى أول كرسى أوربى للاقتصاد السياسى بشرطين ، إلا يشغله كنسى أبدا ، وأن يكون أول شاغل له أنطونيو جينوفيزى . ورد جينوفيزى صنيعه (١٧٥٦) بأول بحث اقتصادى نظامى فى اللغة الإيطالية « دروس فى التجارة » ، ردد صرخة التجار ورجال الصناعة المطالبين بالتحرر من القيـود الاقطاعية والكنسية وغيرها على المشروعات التجارية الحرة . وفى العام نفسه أعرب كزنيه عن هذا المطلب ذاته للطبقه الوسطى الفرنسية فى مقالاته ، التى كتبها لموسوعة ديدرو .

ولعل بعض الاتصال كان قد تم بين جينوفيزى وكزنيه على فرديناندو جاليانى النابولى الباريسى . وقد نشر جاليانى فى ١٧٥٠ « بحثا فى النقود » قرر فيه ببراءة اقتصادى فى الثانية والعشرين من عمره ثمن السلعة حسب تكلفة إنتاجها . وألمع منه كتابه « حوار حول تجارة الغلال » الذى ذكرناه من قبل نقدا لكزنيه . فلما اضطر إلى العودة إلى وطنه بعد السنين المثيرة التى قضاها فى باريس ، أحزنه إلا يجد فى نابلى صالونات ، ولا امرأة كمدام جوفران تطعمه وتثير ذكاءه وظرفه . على أنه كان فيها على أية حال فيلسوف ترك بصمته على التاريخ .

(ب) جامباتيستا فيكو

تروى ترجمته الذاتية أنه حين كان فى السابعة سقط من على سلم نقالى ، فصدم الأرض برأسه أولا ، وظل غائبا عن الوعى خمس ساعات . وأصيب بكسر فى الجمجمة تكون من حوله ورم ضخم . وكان الورم

يخفف بشقه بمبضع المرة تلو المرة . ولكن الصبي فقد من الدم في هذه العملية ما جعل الجراحين يتوقعون موته القريب . ولكنه بقي على قيد الحياة « بفضل الله ، ولكن نتيجة لهـــذه البلية شببت بمزاج مكتئب حاد[٩٨] » . كذلك أصيب بالدرن . ولو كانت العبقريه رهنا بمعوق بدني لكان ڤيكو موفور الحظ .

وحين بلغ السابعة عشرة (١٦٨٥) كسب قوته بإعطاء الدروس الخصوصية في فاتوللا (قرب سالرنو) لأبناء أخي أسقف اسكيا . ومكث هناك تسع سنين ، ولكنه كان أثناءها عاكفا في خماسة محمومة على دراسة القانون وفقه اللغة والتاريخ والفلسفة . وافتتن على الأخص بقراءة أفلاطون وأبيقور واوكريتيوس ومكيافللي وفرانسيس بيكن وديكارت وجروتيوس ، وخرج من هذا كله بشيء من الأذى لإيمانه الديني . وفي ١٦٩٧ حصل على كرسي أستاذ البيان في جامعة نابلي ، ولم يؤجر عليه بأكثر من مائة دوقاتيه في العام ، زادها باعطاء الدروس الخصوصية ، ومن هذا الدخل كان يعول أسرة كبيرة . وماتت إبنة له في ريعان الصبي ، وظهرت على ابن له ميول شريرة اقتضت إرساله إلى إصلاحية للأحداث ، أما زوجته فكانت أمية عديمة الكفاية ، فكان على فيكو أن يكون الأب والأم والمعلم جميعاً[٩٩] . وفي وسط هذة الشواغل المشتته للفكر كتب فلسفته للتاريخ .

وقد قدم كتابه « مبادىء علم جديد في الطبيعة المشتركة للأمم » (١٧٢٥) ، وحاول إن يجد في فوضى التاريخ انتظامات من التعاقب قد تنـــير الماضي والحاضر والمستقبل . ورأى فيكو أن في استطاعته أن يتبين ثلاث فترات رئيسية في تاريخ كل شعب :

(١) عصر الأرباب الذي إعتقدت فيه الأمم (غير اليهود) انها تعيش في ظل حكومات إلهيـــة ، وان كل شيء كان بأمر الأرباب عن طريق التكهن والوحي .

(٢) عصر الأبطال حين كانوا يسيطرون على جمهوريات ارستقراطية ، بحكم تفوق في طبيعتهم اعتقدوا أنهم يمتازون به على للعامه ه

(٣) عصر البشر ، وفيه أقر الجميع بأنهم متساوون فى الطبيعة البشرية فأقاموا أولى الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات[١٠٠] .

وقد طبق فيكو الفترة الأولى على التاريخ (الأممى واللاديني) (غير الكتابى) ، فما كان فى استطاعته أن يقول إن يهود العهد القديم إنما « اعتقدوا أنهم) يعيشون فى ظل حكومات إلهية » دون المساس بالتقاليد المقدسة . ولما كان ديوان التفتيش (وهو فى نابولى أشد صرامة منه فى شمال ايطاليا) قد حاكم باحثين نابوليين لأنهم تكلموا على بشر وجدوا قبل آدم، فإن فيكو وفق بجهد بين صيغته وبين سفر التكوين بالافتراض بأن جميع ذرارى آدم ، إلا اليهود ، قد ارتدوا بعد الطوفان إلى حالة أقرب إلى الوحشية فسكنوا الكهوف وتسافدوا دون تمييز فى شيوعية نساء . ومن (حالة الطبيعة)الثانية هذه تطورات الحضارة بطريق الأسرة والزراعة والملكية والأخلاق والدين . وكان يذكر الدين أحيانا على أنه طريقه أرواحية (لتفسير الأشياء والأحداث) وأحيانا يشيد به باعتباره قمة التطور .

ويقابل مراحل التطور الإجتماعى الثلاث ، ثلاث (طبائع) أوطرق لتفسير الكون : اللاهوتية ، والأسطورية والعقلية .

كانت الطبيعة الأولى ، بحكم خداع الخيال (وهو أقوى ما يكون فى أضعف الناس قدرة على التدليل العقلى) ، طبيعة شعرية أوابداعية ، قد نسميها على سبيل التجوز إلهية ، لأنها تصورت الأشياء المادية على أنها تحيا بقوة الآلهة . . . وكان الناس نتيجة لخطأ خيالهم هذا يخافون خوفاً رهيباً من الأرباب التى خلقوها هم أنفسهم . . . . أما الطبيعة الثانية فهى الطبيعة البطولية ، فقد اعتقد الأبطال أنهم من أصل إلهى . . . . وأما الثالثة فالطبيعة (الطريقة) البشرية ، طبيعة ذكية . ومن ثم متواضعة ، معتدلة، منطقية ، تسلم بأن الضمير والعقل والواجب كلها نواميس[١٠١] » .

وقد حاول فيكو أن يفسح لتاريخ اللغة والأدب والقانون والحكومة

مكاناً ملائماً فى هذا النظام الثلاثى. ففى المرحلة الأولى كان الناس يتواصلون بالإشارات والإيماءات، وفى الثانية بالرموز والتشبيهات والصور ، وفى الثالثة ـ بالكلمات التى اتفق عليها القوم . . . ليحددوا بهذا معنى القوانين . ومر القانون نفسه بتطور مقابل لهذا : فكان أول الأمر إلهياً ؛ منزلا كما كان الحال فى ناموس موسى ، ثم بطولياً كقانون ليكورجوس ، ثم بشريا — أملاه العقل البشرى المكتمل النمو[١٠٢] كذلك مرت الحكومة بثلاث مراحل: التيوقراطية ؛ وفيها زعم الحكام أنهم صوت الله ، والارستقراطية ،وفيها اقتصرت جميع الحقوق المدنية على طبقة الأبطال الحاكمة ، والبشرية ، وفيها يعتبر الجميع سواء أمام القوانين ، . . ، وهذه هى الحال فى المدن الشعبية الحرة ، . . ، وكذلك فى الملكيات التى تجعل جميع رعاياها سواء أمام قوانينهم[١٠٣] . وواضح أن فيكو استعـــاد تلخيص أفلاطون للتطور السياسى من الملكية إلى الإرستقراطية إلى الديمقراطية إلى الدكتاتورية (حكم الطغاة) ، ولكنه غير الصيغة لتقرأ : تيوقراطية وارستقراطية،وديمقراطية، وملكية . وقد اتفق مع أفلاطون فى أن الديمقراطية تنزع إلى الفوضى ، واعتبر حكم الرجل الواحد علاجاً ضرورياً للخلل الديمقراطى ، « أن الملكيات هى الحكومات النهائية ، ، التى تصل إليها الأمم لتستريح[١٠٤] .

وقد ينبعث الخلل الإجتماعى من التدهور الخلقى ، أو الترف ، أوتركيز الثروة تركيزاً يمزق الأمة ، أو الحسد العدوانى بين الفقراء . ومثل هذا الخلل يفضى عادة إلى الدكتاتورية ، كما نرى فى حكم أوغسطس الذى كان فيه الشفاء من الفوضى الديمقراطية فى الجمهورية الرومانية . فإذا عجزت حتى الدكتاتوية عن وقف الإنحلال ، فان أمة أشـــد قوة وعنفواناً تدخل فاتحة للبلاد .

« وإذا كان الناس الذين بلغ منهم الفساد هذا المبلغ قد انقلبوا عبيداً لشهواتهم الجامحة . . . فإن العناية الآلهية تقضى بأن يصيروا عبيداً بحكم القانون الطبيعى للأمم ، . . . فيستعبدوا لأمم أفضل منهم يحكومنهم بعد أن يغلبوهم كما يحكم الغالب الأقاليم الخاضعة له . . . وهنا يسطع ضوءان عظيمان من أضواء النظام الطبيعى . أولها أن من يعجز عن حكم نفسه يجب

أن يدع القادر على حكمه أن يحكمه ، والآخر أن العالم يحكمه دائماً من هم بالطبيعة أصلح الحاكمين[١٠٦] .

وفى مثل هذه الحالات يرتد الشعب المغلوب إلى مرحله التطور التى وصل إليها غالبوه . وهكذا إرتد سكان الإمبراطورية الرومانية إلى الهمجية والتخلف بعد غزوات الشعوب الهمجية واضطروا إلى أن يبدأوا بالتيوقراطية (حكم الكهنه واللاهوت) ؛ وتلك كانت العصور المظلمة . ثم جاء عصر بطولة آخر بمجيء الحروب الصليبية ؛ وأمراء الأقطاع يقابلون إبطال هومر . ودانتى هو هومر مكرراً .

ونسمع فى ڤيكو أصداء للنظرية التى تزعم أن التاريخ تكرار دائر ، ولقانون مكيافللى « corsi e ricorsi التطور والتقهقر » وفكرة التقدم تضار فى هـذا التحليل ، فليس التقدم الأنصف حركة دورية نصفها الأخر الانحلال ؛ والتاريخ ، شأنه شأن الحياة ، هـو تطور وإنحلال فى تعاقب وحتمية لا محيص عنهما .

وقدم ڤيكو فى الطريق إلماعات مدهشه . فقد رد الكثيرين من أبطال الاساطير الـكلاسيكية إلى الأسماء البعدية eponyms والتشخيصات التالية لعمليات ظلت طويلا لاشخصيه أو متعددة الشخصيات ، فأورفيوس مثلا كان المدمج الوهمى لموسيقيين بدائيين كثيرين ، وليكورجوس كان التجسيد لسلسلة القوانين والعادات التى جمدت اسبرطة ، وروملس كان ألف رجل جعلوا من روما دولة .[١٠٧] وبالمثل رد ڤيكو هومر إلى الخرافة ، مدللا على ذلك — قبـل كتاب فريدريك ڤولف « مقدمات نقدية لهومر (١٧٩٥) بنصف قرن — بأن الملاحم الهومرية إنمـا هى حصيلة تجمعت وادمجت شيئاً فشيئا لجماعات وأجيال من رواة الملاحم الذين كانوا ينشدون بطولات طرواده وأوديسيوس فى مدن اليونان[١٠٨] . وقبـل قرن تقريباً من صور كتاب بارتهولد نيبور « تاريخ روما » (١٨١١ — ٣٢) رفض ڤيكو الفصول الأولى من تاريخ ليفى لأنها أسطورية . « كل تواريخ

الأمم غير اليهوديه كان لهـا بدايات خرافية[١٠٩] » (وهنا أيضاً يتجنب ڤيكو فى حذر أن يمس تاريخية سفر التكوين) :

وهذا الكتاب الخطير يكشف عن عقل قسوى تزعجه المضايقات المتصلة ، يكافح لصياغة أفكار أساسيه دون أن يقضى به المسير إلى سجن من سجون ديوان التفتيش . وقد بذل فيكو قصاراه المرة بعد المرة ليعلن ولاءه للكنيسة وأحس أنه جدير بثناء الكنيسة لتفسيره مبادىء القانون بطريقة تتفق واللاهوت الكاثوليكى[١١٠] . ونحن نسمع نغمة أكثر إخلاصا فى رأيه فى الدين دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والفضلية الشخصية : « أن للأديان دون غيرها القوة على جعل الناس يعملون الأعمال الفاضله[١١١]...» ومع ذلك ، ورغم تكرار استعماله للفظ « العناية الألهيه » ، يبدو انه يبعد الله عن التاريخ ويرد الأحداث إلى التفاعل الحر بين الأسباب والنتائج الطبيعية. وقد هاجم دارس دومنيكى فلسفة ڤيكو لأنها ليست مسيحية بل لوكريتيه .

ولعل العلمانية المنبعثه من تحليل ڤيكو كان لها بعض الصله بأخفاقها فى أن تظفر بالأستماع إليها فى أيطاليا ، وما من شك فى أن ما شاب عمله من استطراد فوضوى وعاب فكره من اختلاط قد قضى على «علمه الجديد» ، بأن يولد ميتا وأن تكون ولادته مؤلمة . فلم يوافقه أحد على إعتقاده بأنه كتب كتابا عميقا أو مثيراً . وعبثا نأشد جان لكلير ولو ليذكره فى دورية « أخبار عالم الأدب » ، وبعد عشر سنوات من ظهور كتاب العلم الجديد خف شارل الرابع لنجدة ڤيكو ، فعينه مؤرخا رسميا للملك براتب سنوى قدرة مائة دوقاتية . وفى ١٧٤١ قرت عين جامباتستا برؤية ولده جنارو يخلفه أستاذا فى جامعة نابلى . وفى سنواته الأخيره (١٧٤٣ — ٤٤) ضعف عقله فتردى فى غيبية أشرفت على الجنون .

وكان فى مكتبة مونتسيكو نسخه من كتابه[١١٢] ، وقد أقر الفيلسوف الفرنسى فى هوامش مذكرات خاصه بدينه لنظرية فيكو فى التطور والأنحلال الدورى ، ويظهر هـذا الدين الذى لم يفصح عنه فى كتاب مونتسيكو « عظمة الرومان وإنحطاطهم » (١٧٣٤) . وفيما عدا هذا ظل فيكو مجهولا

فى فرنسا حتى نشر جول ميشليه (١٨٢٧) ترجمة مختصرة لكتاب العلم الجديد . وقد وصف ميشليه أيطاليا بأنها « الأم الثانيه والحاضنه التى غذتنى فى صباى بفرجل ، وفى شبابى بفيكو[١١٣] » . وفى ١٨٢٦ بدأ أوجست كونت المحاضرات التى أصبحت فيما بعد « مجموعة محاضرات فى الفلسفه الوضعية » (١٨٣٠ - ٤٢) ، وفيها يشعر القارىء بتأثير فيكو فى كل خطوة .

أما الأنصاف الكامل لفيكو فلم يأت إلا على يد رجل نابولى هو بنديتو كروتشى[١١٤] ، الذى ألمع هــو الآخر إلى أن التاريخ يجب أن يتخذ مكانه إلى جوار العلم أساساً ومدخلا للفلسفة .

ج — موسيقى نابلى

تليت نابلى قول فيثاغورس ، قرأت أن الموسيقى أرفــع ضروب الفلسفه . وقد كتب لالاند ، الفلكى الفرنسى ، بعد جولة فى أيطاليا فى ١٧٦٥ — ٦٦ يقول :

« إن الموسيقى هى الأنتصار الأعظم للنابوليين ، وكأن أغشية طبلة الأذن فى ذلك البلد أشد توترا وتناغما ورنينا منها فى أى بلد آخر فى أوربا . فالأمه كلها تغنى . وإيماءات الجسد ، والنبرة ، والصوت ، وإيقاع المقاطع بل والحديث نفسه . . كلها تتنفس الموسيقى . ومن ثم كانت نابلى المصدر الرئيسى للموسيقى الايطاليه ، ولكبار الملحنين ، وللأوبرات الممتازة ، ففيها أخرج كيريللى وفنتشى ورينالدو وجوميللى ودورانتى وليو وبرجوليزى . . . وكثير غيرهم من أعلام الملحنين روائعهم[١١٥] » .

على أن نابلى تفوقت فى الأوبرا الألحان الصوتيه فقط ، أما فى الموسيقى الآليه فقد عقدت الزعامة للبندقية ، وشكا هواة الموسيقى من أن أهل نابلى أحبوا جميل الصوت أكثر من لطائف الهارمونى (التوافق) والكونترابنط . هنا ملك نيكولو برريورا ، « الذى ربما كان أعظم من عاش من معلمى الغناء[١١٦] » . وكان كل شاد أيطالى يصبو إلى أن يكون تلميذه ، فإذا قبله

احتمل فى ذلة شذوذاته العاتية ؛ روى أنه أبقى جايتانو كفاريللى خمس سنوات فى صفحه تمارين واحدة ، ثم صرفه مؤكدا له أنه الآن أعظم المغنين فى أوربا[١١٧] . وكان هناك معلم غناء آخر يدعى فرانشيسكو دورانتى ، لم يفوقه مرتبة غـير بوربورو ، وقد علم الغناء لفنتشى ، وجوملى ، ويرجوليزى ، وبايزيللو ، ويتشينى .

أما ليونارد وفنتشى فقد بدأ معوقا بسبب أسمه ، ولكنه ظفر بالغناء المبكر بتلحينه أوبرا متاستازيو Didone abband onate. وقال الجاروتى « أن فرجل نفسه كان يبهجه أن يسمع تلحينا فيه هذه الحيويه وهذا التعذيب ؛ تهجم فيه على القلب والروح كل قـوى الموسيقى[١١٨] » . وأشهر منه ليوناردو ليو ، فى الأوبرا الجادة والهازله ، والاوراتوربو ، والقداسات والموتيتات ، وقد ترددت نابلى فترة بين الضحك على أوبراه الكوميديه La finta Fracastana (الضجة المفتعلة) والبكاء على لحن Misercnr (ارحمنى) الذى لحنه لخدمات الصوم الكبير فى ١٧٤٤ .

وحين استمع ليو حوالى عام ١٧٣٥ إلى كنتاتا من تلحين نيكولو جوميللى قال فى عجب « لن يمض طويل زمن حتى يغدو هذا الفتى محط عجب أوربا واعجابها . . »[١١٩] وقد حقق جوميللى النبؤة تقريباً . فى الثالثة والعشرين من عمره ظفر باطراء نابلى الحماسى على أوبراه الأولى ، وفى السادسة والعشرين حقق نصرا مماثلا فى روما . وحين مضى إلى بولونيا قدم نفسه على أنه تلميذ لبادرى مارتينى ، ولكن حين سمعه ذلك المعلم المبجل يرتجل فوجيه بكل تطورها الكلاسيكى صاح « إذن فمن أنت ؟ أتراك تسخر منى ؟ إننى أنا الذى يجب أن يتعلم منك »[١٢٠] . وفى البندقية أثارت أوبراته من الحماسة ما حمل مجلس العشرة على تعيينه مديرا للموسيقى فى مدرسة ذوى الأمراض المستعصية ، وهناك كتب قطعا من أفضل موسيقى ذلك الجيل الدينية . وحين انتقل إلى فيينا (١٧٤٨) أخذ يلحن مع متاستازيو الذى ارتبط معه برباط صداقة وثيقة . وبعد أن حقق مزيدا من الانتصارات فى البندقية وروما استقر فى شتوتجارت ولود فجسبرج

(١٧٥٣ — ٦٨) رئيساً لفرقة مرتلى دوق فورتمبرج . وهنا عدل أساوبه الأوبرالى فى اتجاه ألمانى ، فزاد من توافقه تركيبا ، واضفى مزيداً من المادة والثقل لموسيقاه الآلية ، وتخلى عن تكرار الألحان من البداية da capo وأضاف مصاحبة أوكسترالية للسرديات وأحل الباليه محلا بارزا فى أوبراته ، ربما متأثرا بجان جورج نوفير ، أستاذ الباليه الفرنسى فى شتوتجارت ، وقد مهدت هـــذه التطورات فى موسيقى جوميللى ، إلى حد ما ، لاصلاحات جلوك .

فلما عاد الملحن المسن إلى نابلى (١٧٦٨) أنكر الجمهور ميوله التيوتونية ، ورفضوا أوبراته رفضا باتا . وقد قال موتسارت بعد أن سمع إحداها هناك فى ١٧٧٠ — « إنها جميلة ، ولكن أسلوبها أرفع وأقدم ممـــا يحتمله المسرح » ، [١٢١] ولقى جوميللى حظا أفضل بموسيقاه الكنسية . فرتلت موسيقى لحن « ارحمنى » و « قداسة للموتى » فى العالم الكاثوليكى طولا وعرضا . وقد كتب وليم بكفورد بعد استماعه إلى القداس يرتل فى لشبونه فى ١٧٨٧ « لم أسمع قط ولعلى لن أسمع ثانية مثل هذه الموسيقى المهيبة المؤثرة » . [١٢٢] واعتزل جوميللى فى بلدته أفرسا بعد أن ادخر لمستقبله بحرص تيوتونى ، وأنفق سنواته الأخيرة شيخا بدينا ثريا . وفى ١٧٧٤ شيع جثمانه جميع موسيقيى نابلى البارزين .

ولقد ضحكت نابلى أكثر حتى مما غنت . فبأوبرا كوميدية غـــزا برجوليزى باريس بعد أن أبت تلك المدينة المستكبرة دون سائر العواصم الأوربية أن تخضع لأوبرا إيطاليا الجادة . ولم يخض جوفانى باتستا برجوليزى تلك المعوكة بشخصه ، لأنه مات فى ١٧٣٦ فى السادسة والعشرين من عمره . وقد ولد بقرب أنكونا ، ووفد على نابلى وهو فى السادسة عشرة . وما أن بلغ الثانية والعشرين حتى كان قد كتب عدة أوبرات ، وثلاثين صوناتا ، وقد اسين ، حظيت كلها بالاعجاب الشديد ، وفى ١٧٣٣ قدم أوبرا تسمى il prigioniero « السجين » وقدم لها بمقدمة « الخادمة التى تنقلب ســـيدة البيت » : والنص قصة مرحة تحكى كيف تحتالى الخادمة سربينا على سيدها

حتى يتزوجها ، أما الموسيقى فساعة حافلة بالمرح والألحان الرشيقة . وقد أسلفنا كيف أسر هذا المرح البارع مزاج باريس وقلبها فى « حرب المهرجين » فى ١٧٥٢ ، التى عرضت فى الأوبرا مائة مرة ، ثم ستا وتسعين مرة أخرى فى ١٧٥٣ فى التياتر فرانسيه . وقاد برجوليزى أثناء ذلك أوبراه « الأولمبياد » فى روما (١٧٣٥) ، فقوبلت بعاصفة من صفير الاستهجان ، وببرتقالة صوبت بدقة على رأس الملحن . [١٢٣] وبعد سنة ذهب إلى بوتسرولى ليعالج من اصابته بالسل . الذى ازداد فداحة من جراء أسلوب حياته الخليع . وقد كفر موته الباكر عن آثامه ، ودفنه فى الكتدرائية المحلية الرهبان الكبوشيون الذين أنفق معهم أيامه الأخيرة . أما روما التى ندمت على فعلتها فقد بعثت « الأولمبياد » من جديد ، وصفقت لها فى طرب شديد ، واليوم تحفظ له إيطاليا ذكرى مجيدة لا لفواصله المرحة بقدر ما تحفظها له لرقة العاطفة فى « آلام العذراء » التى لم يعش ليكملها . وقد جعل برجوليزى نفسه موضوعا لأوبراوين .

وقد أصاب دومنيكو سكاربونى ما أصاب برجوليزى من مبالغة طفيفة نفختها فيه رياح الذوق ، ولكن من ذا الذى يستطيع مقاومة تألق براعته وخفة يده ؛ ولد فى عام العجائب ، عام هندل وباخ (١٦٨٥) ، وكان الطفل السادس لألساندرو سكارلاتى ، الذى كان آنئذ فردى الأوبرا الإيطالية . وقد تنفس الموسيقى منذ ولد . فقد كان أخوه بييترو ، وابن عمه جوزيبى ، وعماه فرانشيسكو وتومازو موسيقيين . وكانت أوبرات جوزيبى تخرج فى نابلى وروما وتورين والبندقية وفيينا . وخشى الأب أن تختنق عبقرية الفتى دومنيكو بهذه الوفرة فى المواهب فبعث به إلى البندقية وهو فى العشرين وقال ، ان ابنى هذا نسر كبر جناحاه ، فيجب ألا يبقى فى العش ، وعلى ألا أعطل طيرانه [١٢٤] .

وفى البندقية واصل الشاب دراساته والتقى بهندل . ولعلهما قصدا روما معا حيث دخلا بتحريض من الكردينال أوتوبونى فى مباراة ودية على الهاريسكورد ثم على الأرغن . وكان دومنيكو يومها أفضل عازف على

الهاريسكورد فى إيطاليا ، ولكن يروى أن هندل لم يكن دونه مهارة عليه ، أما على الأرغن فإن سكارلاتى اعترف بصراحة بتفوق « السكسونى العزيز » عليه . وتوثقت الصداقة بين الرجلين ، وهذا أمر عسير جدا على كبار المارسين لفن واحد ، ولكن يقول معاصر لهما أن « دومنيكو كان صاحب طبع غاية فى اللطف وسلوك غاية فى النبل » [١٢٥] . أما هندل فكان قلبه كبيرا كهيكله . ومنع الإيطالى تواضعه وحياؤه من عرض براعته فى العزف على الهاريسكورد أمام الجماهير . ونحن نعرفها من أخبار السهرات الموسيقية الخاصة فقط . وقد خيل لأحد سامعيه فى روما (١٧١٤) « أن عشرة آلاف شيطان كانوا يعزفون على الآلة » إذ لم يسمع قط من قبل « مثل هذه الفقرات تنفيذا وتأثيرا » [١٢٦] وكان سكارلاتى أول من طور امكانات لوحة مفاتيح اليد اليسرى بما فى ذلك إمرارها فوق اليد اليمنى . قال « ان الطبيعة منحتنى عشرة أصابع ، وبما أن آلتى تتيح تشغيلها جميعا ، فلست أرى سبباً فى ألا استعملها » [١٢٧] .

وفى ١٧٠٩ قبل وظيفة « مايسترو دى كابللا » لملكة بولندة السابقة ماريا كازيمرا . ذلك أنها بعد موت زوجها جان سوبيكى نفيت لاعتبارها دساسة مثيرة للقلاقل . فلما قدمت إلى روما فى ١٦٩٩ صممت على إنشاء ندوة تحفل بالعبقريات كصالون كرستينا ملكة السويد التى ماتت قبل ذلك بعشر سنين . فجمعت الكثير من رواد صالون كرستينا السابقين فى قصر على ميدان « ترينيتا دى مونتى » وفيهم عدة أعضاء فى الأكاديمية الأركادية . وهناك (١٧٠٩ — ١٤) أخرج سكارلاتى عدة أوبرات . ولما شجعه نجاحها ، قدم « أمليتو » (هاملت) على مسرح الكابرانيكو . ولم تلق قبولا حسناً من الجمهور ، ولم يعد دومنيكو بعدها قط لتقديم أوبرا لجمهور إيطالى . فلعل وضع أبوه مستوى للأوبرا كان أعلى من أن يدركه .

وظل أربع سنين (١٧١٥ — ١٩) يقود الكابيلا جوليا بالفاتيكان ، ويعزف الأرغن فى كتدرائية القديس بطرس ؛ ثم لحن الآن « آلام العذراء » التى حكم الجمهور عليها بأنها « رائعة أصيلة » [١٢٨] وفى ١٧١٩ ، قاد أوبراه

« نار تشيزو » فى لندن . ثم نجده بعد عامين فى لشبونة قائداً لفرقة المنشدين للملك يوحنا الخامس ومعلما لإبنة الملك ماريا بربارة ، التى أصبحت بفضل تعليمه عازفة ماهرة على الهاريسكورد ، ومعظم صوناتاته الباقية ألفهـا لاستعمالها . فلما عاد إلى نابلى (١٧٢٥) تزوج وهو فى الثامنة والأربعين بماريا جنتيلى التى لم تتجاوز السادسة عشرة ، وفى ١٧٢٩ اصطحبها إلى مدريد . فى تلك السنة تزوجت ماريا بربارة من فرديناند ، ولى عهد أسبانيا . فلما انتقلت معه إلى إشبيليه رافقها سكارلاتى وظل فى خدمتها إلى أن ماتت .

وماتت زوجة سكارلاتى فى ١٧٣٩ مخلفة له خمسة أطفال . وتزوج ثانية ، وسرعان ماأصبح الخمسة تسعة . فلما اصبحت ماريا بربارة ملكةعلى أسبانيا (١٧٤٦) جلبت أسرة سكارلاتى معها إلى مدريد . وكان فارنيللى الموسيقى الأثير لدى الملك والملكة ، ولكن المغنى والعازف أصبحا صديقين حميمين . وكانت وظيفة سكارلاتى وظيفة خادم مميز ، عمد البلاط الأسبانى بالموسيقى . وحصل على إذن بالذهاب إلىدبلن فى ١٧٤٠ وإلى لندنفى ١٧٤١ ؛ ولكنه كان أكثر الوقت يعيش فى قناعة هادئة بمدريد أو قربها ، متوارياًعن العالم تقريباً ، لا يخامره الظن على الأرجح بأنه سيكون أثيراً لدى عازفى البيان فى القرن العشرين .

ولم ينشر سكارلاتى فى حياته سوى ثلاثين صوناتا من بين ٥٥٥ صوناتا تستند الآن إليها شهرته استناداً قلقاً بفضل حلياتها النغمية . وقد دل عنوانها المتواضع (تمارين على الهاريسكورد) على هدفها المحدود ، وهو ارتياد إمكانات التعبير بتقنية الهاريسكورد . وهى ليست صوناتات إلا بالمعنى الأقدم للفظ ، أى قطع آلية « تعزف » ولا تغنى . ولبعضها موضوعات متعارضة ، وبعضها تزاوج فى مقامات كبيرة وصغيرة ، ولكنها كلها فى حركات مفردة لم تبذل فيها أى محاولة لتفصيل الموضوع وتلخيصه . وهى تمثل تحرر موسيقى الهاريسكورد من تأثير الأرغن ، وتلقى التأثيرات من الأوبرا بمؤلفات للوحة المفاتيح . وقد تفوقت على حيوية أصوات السوبرانو والمغنين الخصيان ورقتها ورعشاتها وحيلها بالأصابع الخفيفةالرشيقة الطيعةلخيال لعوب مسرف .

لقد « لعب» سكارلاتى الهاريسكورد بمعنى الكلمة الحرفى . يقول فى هذا : « لا تتوقعوا أى عمق فى العلم ، بل معابثة بارعة بالفن » (١٢٩) . وهناك أثر فى الرقص الأسبانى وما فيه من أرجل طافرة وتنورات مدومة وصاجات رنانة تحسه فى هذه التموجات والتدفقات ؛ وفى كل موضع من الصوناتات تجد استسلام العازف للذة التحكم فى آلته (١٣٠) .

ولا بد أن هذا الفرح بالآلة كان من بواعث السلوى لسكارلاتى فى سنوات خدمته تلك فى أسبانيا . وقد نافسته لذة لعب الميسر الذى أتى على الكثير من معاشه ، واضطرت الملكة إلى سداد ديونه غير مرة . ثم ساءت صحته بعد ١٧٥١ ، وزادت تقواه وورعه . وفى ١٧٥٤ عاد إلى نابلى ومات فيها بعد ثلاث سنين . وتولى فارنيللى الطبيب إعالة اسرته المعوزة .

وقد أرجأنا الكلام على سيرة فارنيللى الغريبة فى أسبانيا حتى فصل لاحق . وقد كان هو ودومنيكو سكارلاتى ، وجامباتستا ودومنيكو تيبولو ، من الإيطاليين الموهوبين الذين كان لهم الفضل ، هم ومنجز المتطللين تقريبا ، فى استخدام الموسيقى والفن الإيطاليين فى البعث الأسبانى . وفى ١٧٥٩ لحق بهم ملك نابلى أو سبقهم . ففى ذلك العام مات فرديناند السادس دون عقب ، وورث أخوه شارل الرابع ملك نابلى العرش الأسبانى باسم شارل الثالث . وأسفت نابلى على رحيله عنها . وكان هذا الرحيل فى أسطول من ست عشرة سفينة يوم عطلة حزينة لأهل نابلى ، فاجتمعوا فى حشود كبيرة بطول الشاطئ ليشاهدوه وهو يقلع ، ويروى أن كثيرين منهم بكوا وهم يودعون « ملكا أثبت أنه أب لشعبه» (١٣١) . وقد كتب له أن يتوج أعماله يبث الشباب فى حياة أسبانيا .

الفصل العاشر

البرتغال وبومبال ١٧٠٦ — ٨٢

١ — يوحنا الخامس : ١٧٠٦— ٥٠

لم اضمحلت البرتغال بعد أيامها المجيدة التى أنجبت ماجلان وفاسكو داجاما وكاموئيس ؟ لقد كان فى جسدها وروحها يوما ما من الهمة ما يكفى لإرتياد نصف الكرة وانشاء المستعمرات الجريئة فى ماديرا ، والأزور ، وأمريكا الجنوبية ، وافريقيا ، ومدغشقر ، والهند وملقا ، وسومطرة : أما الآن ، فى القرن الثامن عشر ، فقد باتت نتوءاً ضئيلا لأوربا ، مقيدة إلى انجلترة فى التجارة والحرب ، ويغذيها ذهب البرازيل وماسها اللذان يصلان إليها بإذن الأسطول البريطانى . فهل أنهكت قواها لفرط ما قدمت من الرجال البواسل لتملك هذا العدد العديد من المخافر الأمامية القلقة التوازن على أطراف المعمورة ؟ أم لعل تدفق الذهب عليها نزح الحديد من عروقها وأوهن طبقاتها الحاكمة فانتكست من حياة الأقدام والمغامرة إلى حياة اللين والدعة ؟

أجل ، لابل أنه أوهن من قوة الصناعة أيضاً . فأى جدوى فى محاولة تبذلها لتنافس مهرة الصناع أو ملتزمى الصناعة الإنجليز أو الهولنديين أو الفرنسيين فى الحرف أو الصناعات ، ما دام فى طاقتها شراء ما تستورده من الكساء والغذاء وأسباب الترف والنعيم بالذهب المستورد ؟ فأما الأغنياء اللذين يتاجرون بالذهب فقد أصبحوا أكثر غنى ، وازادوا فخامة ملبس وبهاء زينة ، وأما الفقراء الذين حيل بينهم وبين ذلك الذهب فقد ظلوا يترددون فى فقرهم لايحثهم على الكد والعرق غير حافز الجوع . وأدخل

تشغيل الرقيق فى مزارع كثيرة ، وملأ المتسولون المدن ضجيجا بصيحاتهم.
وقد كتب عنهم وليم بكفورد حين سمعهم فى ١٧٨٧ بقول « ليس بين الشحاذين قاطبة من يضارع شحاذى البرتغال قوة رئات ، ووفرة قروح ، وكثرة حشرات ، وتنوع أسماك ، وترتيب خرق ، ومثابرة لاتهاب .. أن عددهم لايحصى ، عمى ، صم ، جرب[1] » .

ولم تكن لشبونة يومها هذه المدينة الجميلة التى نعهدها اليوم . لقد كانت الكنائس والأديرة غاية فى البهاء ، وقصور النبلاء فسيحة ضخمة ، ولكن نسبة لاتقل عن عشر السكان بغير مأوى ، وكانت الأزقة الملتوية تفوح منها رائحة القمامة والقذارة[2] . ومع ذلك فهنا ، كما فى سائر بلاد الجنوب ، عوض الفقر بأسباب العزاء من الأيام المشمسة ، والأمسيات المزدانة بالنجوم ، والموسيقى ، والدين ، والنساء المتدينات ذوات العيون التى تعذب الناظرين . وكان القوم يتدفقون فى الشوارع بعد أن تخف وقدوة القيظ لايعوقهم لدغ البراغيث فى أجسامهم ولا طنين البعوض فى الهواء ، فيرقصون ويغنون ويعزفون على القياثير ويقتتلون للفوز بابتسامة من عذراء .

وكانت المعاهدات (١٦٥٤ ، ١٦٦٢ ، ١٧٠٣) قد قيدت البرتغال بانجلترة فى تكافل عجيب حالف بينهما فى الاقتصاد والسياسة الخارجية وابقاهما فى الوقت نفسه أشد ماتكونان تبايناً فى العادات وخصومة فى العقيدة. وتعهدت انجلترة بحماية استقلال البرتغال والسماح باستيراد النبيذ البرتغالى (البورت من أوبورتو) برسم جمركى مخفض جداً . أما البرتغال فتعهدت بالسماح باستيراد المنسوجات الانجليزية معفاة من الرسوم ، وبالوقوف فى صف انجلترة فى أى حرب تنشب . ونظر البرتغاليون إلى الانجليز على أنهم زنادقة هالكون يملكون أسطولا قوياً ، ونظر الانجليز إلى البرتغال على أنهم قوم جهلة متعصبون يملكون الموانى الاستراتيجية . وسيطر رأس المال البريطانى على الصناعة والتجارة البرتغاليتين . كتب بومبال يشكو من هذه الأوضاع فى شيء من المبالغة : —

« فى سنة ١٧٥٤ لم تكد البرتغال تنتج أى شيء يعينها على الاستكفاء .

فثلثا الضروريات المادية تزودهما انجلترة . وغدت انجلترة السيد المتصرف في تجارتنا كلها، وكان الوكلاء الانجليز يديرون تجارتنا الخارجية بجملتها . . فهم يملكون كل شحنات السفن المقلعة من لشبونة إلى البرازيل ، ومن ثم يملكون الثروة العائدة بديلا عن هذه الشحنات . فلم يكن شيء برتغالياً إلا بالاسم فقط[٣] » .

ومع ذلك وصل إلى يد الحكومة البرتغالية من ذهب المستعمرات وفضتها وأحجارها الكريمة ما يكفى لتمويل مصروفاتها ولجعل الملك مستقلا عن مجلس الشعب وسلطانه الضريبي . وهكذا عاش يوحنا الخامس ، طوال ملكه الذى امتد أربعة وأربعين عاماً ، يرفل فى رغـد من العيش كأنه أحد سلاطين الشرق ؛ ويلطف من تعدد نسائه بالثقافة ويجمله بالولاء للكنيسة . فوهب الأموال الطائلـة أو أقرضها للبابوية ، وتلقى نظير ذلك لقب « صاحب الجلالة العظيم الإيمان » بل نال حتى حق تلاوة القداس . . دون حق تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . قال فردريك الأكبر « كانت لذاته فى الوظائف الكهنوتية ، ومبانيه أديرة ، وجيوشه رهباناً وخليلاته راهبات[٤] » .

وأثرت الكنيسة بفضل هذا الملك الذى يدين لهـا بالكثير جدا من الغفرانات . فملكت نصف الأراضى[٥] ، وشغل اتباعها تسعمائة دار دينية. وبلغ عدد الكنسيين من مختلف الرتب أوالملحقين بالمؤسسات الدينية زهاء ٢٠٠٫٠٠٠ فى أمة تعد مليونين من الأنفس . واختص اليسوعيون بمكان الصدارة المرموق سواء فى أرض الوطن وفى المستعمرات ، فلقد ساهموا فى الفوز بالبرازيل للبرتغال ، وكان الناس — حتى فولتير — مسرورين بإدارتهم لبارجواى ، ولقى نفر منهم الترحيب فى البلاط ، وتمكن بعضهم التسلط على الملك . وكان الملك فى موكب (عيد القربان) العظيم يحمل أحد أعمدة الظلة التى حمل تحتها بطريرك لشبونة السر المقدس . فلما تعجب الانجليز لمنظر طريق الموكب يصطف على جانبيه الجند والمصلون وكلهم عارى الرأس جاث على ركبتيه ، قيل لهم فى تفسير هذا المشهد أن مثل هذه

المراسم ، وعرض الآنية التفسية والرفات المعجز فى الكنائس ، عامل رئيسى فى حفظ النظام الاجتماعى بين الفقراء .

وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها. وقد كبح يوحنا الخامس من سلطان هذه المؤسسة بحصوله على مرسوم من البابا بندكت الثالث عشر يسمح لسجنائها بأن يدافع عنهم المحامون ويشترط مراجعة الملك لجميع أحكامها(٦) . ومع ذلك كان لهـــذه المحكمة من النفوذ والسلطان ما مكنها من إحراق ستة وستين شخصا فى لشبونه على مدى أحد عشر عاماً (١٧٣٢ — ٤٢) من بينهم أنطونيو خوزيه دا سيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين ، الذى أتهم بأنه يضمر اليهودية . وفى يوم إعدامه (١٩ أكتوبر ١٧٣٩) مثلت احدى مسرحياته فى ملهى لشبونى(٧).

وأحب يوحنا الخامس الموسيقى والأدب والفن . فاستقدم الممثلين الفرنسيين والموسيقيين الايطاليين إلى عاصمة ملكه . ثم انشأ أكاديمية التاريخ الملكية . ومول القناة الكبرى التى تمد لشبونة بالماء . وانفق خمسين مليونا من الفرنكتات ليشيد دير مافرا (١٧١٧ — ٣٢) ، الذى يفوق الأسكوريال سعة ، والذى ما زال من أروع ما تحويه شبه الجزيرة الأيبيرية من صروح . ورغبة فى تزيين داخل الدير استعار من أسبانيا أعظم مصورى القرن البرتغاليين .

وكان هذا المصور — فرانسسكو فييرا — البالغ آنذاك الرابعة والثمانين من عمره يمزج العشق والفن فى شاعرية إفتتنت بها البرتغال بأسرها . ولد بلشبونة فى ١٦٩٩ ، ووقع فى غرام اجنيز إيلينا دى ليما وهما بعد طفلان . وإذ كان مولعا بالتصوير أيضاً ، فقد ذهب إلى روما فى التاسعة ودرس فيها سبع سنين ، ولما بلغ الخامسة عشرة فاز بالجائزة الأولى فى مسابقة قدمتها أكاديمية القديس لوقا . وحين عاد فى ١٧١٥ اختاره يوحنا الخامس ليرسم صورة « سر التناول » وروى أنه أتمها فى ستة أيام . ثم إنطلق باحثا عن أجنيز ، فرده عنها أبوها النبيل وحبس الفتاة فى دير للراهبات . فلجأ فرانسسكو إلى الملك ، ولكنه أبى أن يتدخل فى الأمر . فقصد روما وحصل على مرسوم

بابوى يلغى نذور اجنيز الديرية ويصرح بزواجه منها . ولكن السلطات البرتغالية تجاهلت المرسوم . فتنكر فرانسسكو فى زى بناء بعد أن عاد إلى لشبونه ، ودخـــل الدير وخطف حبيبته وتزوجها . فأطلق عليه أخوها الرصاص ، ولكنه شفى من إصابته وغفر لمهاجمه . وعينه يوحنا الخامس مصورا للبلاط . ولم يكتف بتكليفه تزيين دير مافرا بل وكل إليه تجميل القصور الملكية . وبعد موت اجنيز (١٧٧٥) انفق فرانسسكو ما بقى من أجله فى الأعتكاف الدينى وأعمال البر . كم من قصص كهذه تروى مغامرات الروح والدم ضاعت وراء وأجهات التاريخ ؟

٢ - بومبال واليسوعيون

مات يوحنا الخامس عام ١٧٥٠ بعد أن قضى ثمانية أعوام يعانى الشلل والعتة، وبدأ ابنه يوسف الأول (خوزيه مانويل) حكما حافلا بالأحداث فعين فى وزارته وزيراً للحرب والشئون الخارجية يدعى سباستيا وخوزيه دى كارفالو اى ميللو ، الذى يعرفه التاريخ باسم المركيز بومبال ، أعظم وأرهب من حكم البرتغال من الوزراء فى أى عهد من عهودها .

كان قد بلغ الحادية والخمسين من عمره حين ارتقى يوسف العرش . تلقى العلم على أيدى اليسوعيين فى جامعة كويمبرا ، واكتسب أول شهرته رياضياً وزعيما مشاغباً لعصابة « الموهوك » التى عاثت فساداً فى شوارع لشبونة . وفى ١٧٣٣ أغرى النبيلة دونا تريزا دى نورونها بالفرار معه . فتبرأت منها أسرتها ، ثم تبينت موهبته فأعانته على الترقى فى حرفة السياسة . وأتته زوجته بثروة صغيرة ، وورث مالا آخر من عم له . وشق طريقه بالوساطة والالحاح والكفاية الواضحة . وفى ١٧٣٩ عين وزيراً مفوضاً لدى لندن ، واعتكفت زوجته فى أحد الأديرة حيث ماتت فى ١٧٤٥ وخلال السنوات الست التى قضاها بومبال فى لندن درس الاقتصاد ونظام الحكم الانجليزيين ولحظ طاعة الكنيسة الانجلكانية للدولة ، ولعله نفض عنه بعض إيمانه الكاثوليكى . ثم عاد إلى لشبونة (١٧٤٤) ، وأوفد مبعوثاً إلى فيينا (١٧٤٥) ، وهناك تزوج

ابنة أخ للمرشال داون للذى كتب له الظفر بالخلود لأنه هزم فردريك مرة، وقد ظلت عروسه الجديدة وفية له طوال ما أحرز من انتصارات وما منى به من هزائم .

وكان يوحنا الخامس عديم الثقة به لأن له « قلباً فظاً »[٨] .ولأنه « سليل أسرة قاسية محبة للثأر »[٩] ولأن فيه القدرة على أن يتحدى ملكاً . ومع ذلك استدعى بومبال إلى أرض الوطن عام ١٧٤٩ ، ورقى إلى منصب الوزارة بفضل تأييد اليسوعيين . وثبته يوسف الأول فى وظيفته . وسرعان ما أتاح له ذكاؤه المقرون بالجد والاجتهاد أن يسيطر على الوزارة الجديدة . كتب قائم بالأعمال فرنسى يقول « يمكن اعتبار كارفالو الوزير الأول، فهو سريع البت وافر النشاط لا يعتريه كلل . ولقد كسب ثقة مولاه الملك ، ولم يظفر بها أحد أكثر منه فى جميع شئون السياسة »[١٠] .

وظهر تفوقه واضحاً جلياً فى الزلزال الكبير الذى زلزل لشبونة فى أول نوفمبر ١٧٥٥ . ذلك أنه فى الساعة ٩,٤٠ صباح عيد جميع القديسين بينما كان معظم السكان يصلون فى الكنائس ، زلزلت المدينة بهزات أربعة أحالت نصفها أنقاضاً ، وقتلت أكثر من خمسة عشر ألف شخص ، ودمرت أكثر الكنائس ، وأبقت على معظم المواخير[١١] وعلى بيت بومبال . وهرع كثير من السكان فزعاً إلى شواطئ تاجه ، ولكن موجة مد بلغ ارتفاعها خمس عشرة قدماً أغرقت مزيداً من الأنفس ، وحطمت السفن الراسية فى النهر . وحصدت الحرائق التى اندلعت فى أحياء المدينة كلها مزيداً من الأنفس . وفى غمار الفوضى التى ضربت أطنابها بدأ السفلة من الغوغاء يسرقون ويقتلون وهم آمنون . أما الملك الذى لم يفلت هو نفسه من الموت إلا بشق النفس، فقد طلب إلى وزرائه أن يشيروا عليه بما ينبغى صنعه . ويقال أن بومبال أجاب « علينا أن ندفن الموتى ونقدم الغوث للأحياء » . وأطلق يوسف يده ، واستعمل بومبال سلطته بما تميز به من همة وسرعة . فعين الجند لحفظ النظام وأقام الخيام والمعسكرات لإيواء من باتوا بغير مأوى. وأمر بأن يشنق فوراً كل من وجد يسرق الموتى . ثم حدد أسعار المؤن بمالا يزيد على أسعارها

السائدة قبل الزلزال ، وألزم جميع السفن الوافدة أن تفرغ شحناتها من الطعام وتبيعها بتلك الأسعار . وأعانه تدفق الذهب البرازيلي الذى لم ينضب ، فأشرف على إعادة بناء لشبونة سريعاً بطرق مشجرة عريضة وشوارع جيدة الرصف والإضاءة . وقلب المدينة كما نراه اليوم من صنع المعماريين والمهندسين الذين اشتغلوا تحت إشراف بومبال (١٢) .

وكان لنجاحه فى هذه الكارثة التى أضعفت معنوية الأمة الفضل فى ترسيخ قدمه فى الوزارة واضطلع الآن بعملين بعيدى الأثر : أولهما تخليص الحكم من سيطرة الكنيسة ، والآخر تحرير الاقتصاد من سيطرة بريطانيا .وتطلبت المهمتان رجلا أوتى صلابة الفولاذ إلى صفات الوطنية والإباء ومضاء العزيمة التى لا تعرف شفقة أو رحمة .

وإذا كان عداؤه للاكليريكية قد تركز على اليسوعيين فإنما السبب الأول هو أنه توجس منهم إثارة المقاومة لتملك البرتغال للأقاليم البراجوانية التى كان اليسوعيون منذ عام ١٦٠٥ ينظمون فيها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ هندى فى إحدى وثلاثين مستوطنة ، على أساس شبيه بالأنظمة الشيوعية فى خضوع شكلى لأسبانيا (١٣) . وكان الرواد من الأسبان والبرتغال قد سمعوا بوجود الذهب (الأسطورى تماماً) فى تربة براجواى ، وشكا التجار من أن الآباء اليسوعيين يحتكرون تجارة الصادر البراجوية ويضيفون الأرباح إلى أموال طائفتهم . وفى ١٧٥٠ فاوض بومبال لعقد معاهدة نزلت البرتغال بمقتضاها لأسبانيا عن مستعمرة سان سكومنتو الغنية (على مصب الريودى لابلاتا) بديلا عن سبع من المستوطنات اليسوعية المجـاورة للحدود البرازيلية . واشترطت المعاهدة أن يهاجر الثلاثون ألف هندى المقيمون فى هذه المستوطنات إلى أقاليم أخرى ويتخلوا عن الأرض للبرتغال الوافدين . وأمر فرديناند السادس ملك أسبانيا يسوعيي باراجواى بالرحيل عن المستوطنات وبإصدار الأمر لرعاياهم بالرحيل فى هدوء . وزعم اليسوعيون أنهم امتثلوا لهذه الأوامر ، أما الهنود فقاموا فى إصرار غاضب عنيف اقتضى التغلب عليه جيشا برتغاليا ثلاث سنين . واتهم بومبال جماعة اليسوعيين بتشجيع هذه المقاومة سراً .

فعقد العزم على أن ينهى كل مشاركة لليسوعيين فى الصناعة والتجارة والحكومة البرتغالية . فلما أدرك يسوعيو البرتغال نيته تضافرت جهودهم للإطاحة به .

وكان قائدهم فى هذه الحركة جابرييل مالاجريدا ، الذى ولد بمنادجو (على بحيرة كومو) عام ١٦٨٩ ، وتميز على أقرانه فى المدرسة بما مارس من عض يديه حتى يدميهما ، وكان يقول أنه بهذه الطريقة يعد نفسه لتحمل آلام الاستشهاد . ثم التحق بجمعية اليسوعيين ، وأبحر إلى البرازيل مبعوثاً. وراح يبشر الهنود فى الأدغال بالإنجيل من ١٧٢٤ إلى ١٧٣٥ . وأفلت من الموت عدة مرات — من أكلة لحوم البشر ، ومن التماسيح ، ومن الغرق فى السفينة ، ومن المرض . وابيضت لحيته فى بواكير كهولته . ونسبت إليه قوى خارقة ، وكانت الجموع المترقبة تتبعه أينما ظهر فى مدن البرازيل . وبنى الكنائس والأديرة ، وأسس المدارس اللاهوتية . وفى ١٧٤٧ قدم على لشبونة فى طلب المال من الملك يوحنا . وحصل عليه ، ثم أبحر قافلا إلى البرازيل وأسس المزيد من البيوت الدينية . وكثيرا ماشارك بيديه فى أعمال البناء . وفى ١٧٥٣ عاد إلى لشبونة ثانية ، لأنه كان قد وعد بأن يعد الملكة الأم للقاء ربها . وقد عزا زلزال ١٧٥٥ لخطايا الشعب ، وطالب بإصلاح الأخلاق ، وتنبأ مع غيره من أفراد طائفته بمزيد من الزلازل إن لم تنصلح الأخلاق . وأصبح بيت خلوته الدينية بؤرة للمؤامرات ضد بومبال .

وكان بعض أسر النبلاء ضالعين فى هذه المؤامرات . واحتجوا بأن ابن مالك أرض ريفى حقير قد سود نفسه على البرتغال ، وقبض على مقاليد حياتهم ومقدراتهم . وكان أحد هذه الأحزاب الأرستقراطية تحت زعامة دوم خوزيه دى ماسكارينهاس ، دوق أفيرو ، وآخر يرأسه ابن أخى الدوق وهو دوم فرانسيسكو دى أسيز ، مركيز طابوره . وكانت زوجة طابوره ، وهى المركيزة دونا ليونور ، إحدى زعيمات المجتمع البرتغالى ، تلميذة شديدة التحمس للأب مالاجريدا كثيرة التردد عليه . وكان أكبر أبنائها ، الدوم لويز برناردو ، « مركيز طابوره الأصغر » متزوجاً من عمته . فلما رحل

رحل لويز إلى الهند جنديا ، أصبحت هذه « المركيزة الصغيرة » الفاتنة الرائعة الجمال خليلة ليوسف الأول ، وهذا أيضا لم ينسه قط آل أفيرو وطابوره . وافقوا اليسوعيين صادقين على أنه لو أزيح بومبال لتحسن الموقف .

ورد بومبال باقناع يوسف بأن جمعية اليسوعيين تشجع سراً المزيد من الثورة فى بارجواى ، وأنها لاتتآمر على الوزرة فحسب بل على الملك أيضاً . ففى ١٩ سبتمبر ١٧٥٧ أقصى مرسوم ملكى عن البلاط أباء اعتراف الأسرة المالكة اليسوعيين . وأمر بومبال ابن عمه ، فرانسيسكو دى المادا أى مندونسا ، المبعوث البرتغالى لدى الفاتيكان ، بألا يضن بالمال فى سبيل تشجيع وتمويل الحزب المناوىء لليسوعيين فى روما . وفى اكتوبر قدم المادا لبندكت الرابع عشر قائمة بالتهم الموجهة إلى اليسوعيين : اتهموا بأنهم « ضحوا بكل العهود والواجبات المسيحية ، والدينية ، والطبيعية ، والسياسية فى رغبة عمياء ... فى جعل أنفسهم سادة على الحكومة » . وبأن الجمعية مدفوعة « بشره لايشبع لإقتناء الأموال الأجنبية وتكديسها ، بل حتى لإغتصاب أملاك الملوك [١٤] » ، وفى أول ابريل ١٧٥٨ أمر البابا الكردينال دى سالدانها ، بطريرك لشبونة ، بالتحقيق فى هذه التهم . وفى ١٥ مايو نشر سالدانها مرسوما يعلن أن اليسوعيين البرتغال يمارسون التجارة . « مخالفين بذلك جميع القوانين السماوية والبشرية » ، وأمرهم بالكف عنها . وفى ٧ يونيو ، بتحريض من بومبال فى أغلب الظن ، أمرهم بالامتناع عن سماع الإعترافات أو عن الوعظ . وفى يوليو نفى رئيس يسوعى لشبونه إلى مسافة ستين فرسخا عن القصر الملكى : وخلال ذلك (٣ مايو ١٧٥٨) مات بندكت الرابع عشر ، فعين خليفته كلمنت الثالث عشر لجنة تحقيق أخرى ، قررت أن اليسوعيين براء من التهم التى رماهم بها بومبال [١٥] .

وخامر الناس بعض الشك فى أن يوسف الأول سيؤيد وزيره فى هجومه على اليسوعيين ، ولكن تحولا فجائياً فى الأحداث دفع الملك دفعاً تماماً إلى صف بومبال . ذلك أن يوسف كان فى ليلة الثالث من سبتمبر ١٧٥٨ قافلا إلى قصره القريب من بيليم من لقاء غرام سرى مع مركيزة

طابوره فى أغلب الظن[١٦] . وقبيل منتصف الليل انبعث ثلاثة رجال مقنعين من عقد قناة وأطلقو النار على المركبة دون أن يصيبوا هدفهم ، وأطلق السائق لجواده العنان ، وما هى إلا لحظة حتى انطلقت رصاصتان من كمين آخر ، وأصابت الأولى السائق والأخرى الملك فى كتفه وذراعه اليمينين . وقررت محكمة تحقيق لاحقة أن كمينا ثالثاً أعده أفراد من آل طابوره كان ينتظر المركبة على مسافة أبعد على الطريق العام إلى بيليم . ولكن يوسف أمر السائق أن يحيد عن الطريق الرئيسى ويقصد بيت جراح الملك ، الذى ضمد جراح الرجلين . ولعل الأحداث التالية التى أحدثت ضجة فى جميع أرجاء أوربا ، كانت تختلف كل الاختلاف لو نجح الكمين الثالث فى الاغتيال المبيت .

وتصرف بومبال بتدبر ودهاء . فنفيت أشاعات الهجوم رسميا ، وعزى اعتكاف الملك المؤقت إلى كبوة كباها ، وظل جواسيس الوزير ثلاثة أشهر يجمعون الأدلة . فوجدوا رجلا شهد بأن انطونيو فريرا استعار بندقية منه فى ٣ أغسطس وردها اليه فى ٨ سبتمبر . وقيل أن رجلا آخر قال أن فريرا استعار مسدسا منه فى ٣ سبتمبر ورده بعد أيام . وقال الشاهدان أن فريرا فى خدمة دوق أفيرو وشهد سلفادور دوراو ؛ وهو خادم فى بيليم ، بأنه فى ليلة الهجوم، بينما كان فى لقاء خارج بيت أفيرو ، سمع عفوا أفرادا من أسرة أفيرو عائدين من مغامرة ليلية .

وأعد بومبال لقضيته فى حيطة وجرأة . فضرب صفحاً عن الإجراء الذى يتطلبه القانون ، والذى كان سيحاكم الأشراف المشبوهين أمام محكمة من كبار النبلاء ؛ ومحكمة كهذه لن تدينهم أبدا . وبدلا من هذا ، أصدر الملك فى ٩ ديسمبر مرسومين ، وكان هذا الإصدار أول كشف علنى عن الجريمة : فعين المرسوم الأول الدكتور بدرو جونسا لفيس بريرا قاضياً يرأس محكمة خاصة بقضايا الخيانة العظمى ، وأمره الآخر بأن يميط اللثام عن المسئولين عن محاولة قتل الملك ويقبض عليهم ويعدمهم . وخول جونسا لفيس بريرا سلطة أغفال جميع الأشكال المألوفة للمحاكمات ، وأمرت المحكمة

بتنفيذ أحكامها يوم إعلانها . وأضاف بومبال إلى المراسيم بياناً رسمياً علق في جميع أرجاء المدينة ، يروى أحداث ٣ سبتمبر ، ويعد بمكافأة أى شخص يقدم الأدلة التى تعين على القبض على القتلة [١٧] .

وفى ١٣ ديسمبر قبض ١٣ موظفاً حكوميا على دوق أفيرو ، وعلى ابنه المركيز جوفيا البالغ من العمر سته عشر عاما ، وعلى خادم أنطونيو فريرا ، وعلى مركيزى طابوره الأب والابن ، وعلى مركيزة طابورة الأم ، وعلى كل خدم الأسرتين ، وعلى خمسة نبلاء آخرين . وطوق الجند فى ذلك اليوم جميع الكليات اليسوعية ، وأودع السجن مالاجريدا واثنا عشر آخرون من زعماء اليسوعين . وتعجيلا للفصل فى الأمر ، أباح مرسوم ملكى صادر فى ٢٠ ديسمبر (بخلاف ما جرى عليه للعرف فى البرتغال) استعمال التعذيب لإستخلاص الاعترافات من المتهمين . وفحص خمسون سجيناً بالتعذيب أو التهديد بالتعذيب . وورطت عدة اعترافات دوق أفيرو ، واعترف هو نفسه بذنبه تحت وطأة التعذيب ، واعترف أنطونيو فريرا أنه أطلق النار على المركبة ، ولكنه أقسم أنه لم يكن يعلم أن ضحيته المحتمل هو الملك . وتحت وطأة التعذيب عرض عدة خدم تلك الأسرة بجملتها للخطر ، واعترف المركيز الابن باشتراكه ، أما المركيز الأب الذى عذب حتى كاد يلفظ أنفاسه فقد أنكر أنه مذنب . وكان بومبـــال ذاته يحضر فحص الشهود والمسجونين . وكان قد أمر بتفتيش البريد ، فزعم الآن أنه وجد ضمنه أربعا وعشرين رسالة كتبها دوق أفيرو ، وعدة أفراد من آل طابوره ، ومالاجريدا وغيره من اليسوعين ، لا حاطة أصدقائهم أو أقربائهم فى البرازيل بالمحاولة الفاشلة ، واعدينهم بمزيد من الجهود لقلب الحكومة . وفى ٤ يناير ١٧٥٩ عين الملك الدكتور أوزيبيوتافاريس دى سكوبرا للدفاع عن المتهمين . ودفع سكوبرا بأن الاعترافات التى انتزعت تحت التعذيب عديمة القيمة فى الدلالة على الجريمة ، وأن جميع النبلاء المتهمين يستطيعون اثبات غيابهم ليلة الجريمة . على أن المحكمة قضت بأن الدفاع غير مقنع ، ورأت أن الرسائل المعترضة صحيحه وأنها تؤيد الاعترافات ،وفى ١٢ يناير حكمت المحكمة بأن جميع المتهمين مذنبون .

وأعدم تسعة منهم فى ١٣ يناير فى ميدان بيليم العام . وأول من تقرر إعدامه كان مركيزة طابورة الأم . فانحنى الجلاد ليوثق قدميها وهى على المقصلة فدفعته قائلة « لاتمسنى إلا لتقتلنى » [١٨] وبعد أن أكرهت على رؤية العدة التى سيموت بها زوجها وابناها — وهى دولاب التعذيب ، والمطرقة والحطب — ضرب عنقها . وحطم ولداها على الدولاب ثم شنقاً ، وظلت جثتاهما على المشنقة حين صعد إليها دوق أفيرو ومركيز طابوره الأب . وذاقا مرارة الضربات المحطمة ذاتها ، وترك الدوق ليطول عذابه حتى تم إعدام آخر المتهمين — وهو أنطونيو فريرا الذى أحرق حيا . ثم أحرقت جميع الجثث وذر رمادها فى نهر تاجه . ومازال الجدل قائما فى البرتغال حول هؤلاء النبلاء ، هل تعمدوا حقاً قتل الملك أم لا ؟ هذا مع التسليم بعدائهم لبومبال .

أكان اليسوعيون ضالعين فى تلك المحاولة ؟ لم يكن هناك شك فى أن مالاجريدا فى غضباته المضريه كان قد تنبأ بسقوط بومبال وبموت الملك وشيكا ، [١٩] ولم يكن هناك شك فى أنه هو وآخرون من اليسوعيين كانوا قد اجتمعوا مرات بأعداء الوزير من الأشراف . وكان قد دل ضمنا على علمه بمؤامرة ما بكتابته إلى إحدى نبيلات البلاط يرجوها أن تنبه يوسف إلى الحذر من خطر وشيك . فلما سئل وهو فى السجن كيف علم بهذا الخطر أجاب فى « كرسى الاعتراف » . [٢٠] وفى غير هذا (كما يقول مؤرخ من خصوم اليسوعين) « ليس هناك دليل إيجابى يربط اليسوعيين بهذا الاعتداء » [٢]. ولكن بومبال اتهمهم بإثارة حلفائهم بوعظهم وتعاليمهم إثارة دفعتهم إلى محاولة الاغتيال. وأقنع الملك أن الموقف يتيح للملكية الفرصة لتعزيز قوتها إزاء الكنيسة . وعليه فى ١٩ يناير أصدر يوسف مراسيم بضم جميع ممتلكات اليسوعيين فى المملكة ، وبإلزام جميع اليسوعيين بيوتهم أو مدارسهم حتى يفصل البابا فى التهم الموجهة إليهم . واستعمل بومبال أثناء ذلك مطبعة الحكومة ليطبع — ويوزع عماله على نطاق واسع فى الداخل والخارج — كراسات تبسط الحجج التى تدين الأشراف واليسوعيين ، وكانت هذه فيما يبدو أول مرة استخدمت فيها حكومة من الحكومات المطبعة

لتفسر تصرفاتها للأمم الأخرى . وربما كان لهذه المنشورات بعض الأثر فى المعاونة على طرد اليسوعيين من فرنسا وأسبانيا .

وفى صيف ١٧٥٩ استأذن بومبال كلمنت الثالث عشر فى تقديم اليسوعيين المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة الخيانة العظمى ، وزاد بالاقتراح بأن يحاكم جميع الكنسيين المتهمين بجرائم ضد الدولة ، منذ الآن ، أمام محاكمة مدنية لاكنسية . وصرحت رسالة شخصية من يوسف إلى البابا بعزم الملك على طرد اليسوعيين من البرتغال ، وأعربت عن الأمل فى أن يوافق البابا على هذا الإجراء بإعتباره إجراء تبرره تصرفاتهم ، وضروريا لحماية الملكية . وصدمت هذه الرسائل كلمنت ، ولكنه خشى أن قاومها صراحة أن يقنع بومبال الملك بقطع الصلات جميعها بين الكنيسة البرتغالية والبابوية . وتذكر مافعله هنرى الثامن عشر فى انجلترة ، وكان يعرف أن فرنسا أيضاً تزداد عداء لجماعة اليسوعيين ، فنى ١١ أغسطس بعث بالإذن بمحاكمة اليسوعيين أمام المحكمة المدنية ، ولكنه قصر بوضوح موافقته على تلك الحالة بعينها . ثم وجه إلى الملك نداء شخصياً يدعو للرأفة بالقساوسة المتهمين ، وذكر يوسف بانجازات هذه الطائفة الماضية ، وأعرب عن رجائه بألا يؤخذ جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم .

ولكن نداء البابا فشل . فنى ٣ سبتمبر ١٧٥٩ — وكان اليوم ذكرى الاغتيال المبيت — أصدر الملك مرسوما ضمنه قائمة طويلة بجرائم منسوبة لليسوعيين ، وأمر بما يأتى :

« أن هؤلاء الرهبان ، نظراً إلى فسادهم وسقوطهم المؤسف بعيداً عن رهبنتهم المقدسة ، ولما أصابهم من عجز واضح عن العودة إلى شعائرها بسبب هذه الرذائل البشعة المتأصلة ، يجب أن ينفوا نفياً حقيقياً فعالا . . وأن يحاكموا ويطردوا من جميع أملاك جلالته ، باعتبارهم عصاة سيئى السمعة وخونة ، وأعداء ، اعتدوا على شخصه الملكى وعلى مملكته . . ويقتضى الأمر ألا يقبلهم أى شخص كائناً ماكانت مكانته أو وضعه فى أى

من ممتلكاته وألا يتصل بهم بتاتا سواء بالحديث أو المراسلة ، وإلا كان جزاؤه الموت الذى لا رجوع فيه (٢٢) .

واستثنى من المرسوم اليسوعيون الذين لم ينذروا أنفسهم النذر الوثيق للرهبنة ، والذين يجب عليهم أن يلتمسوا إعفاءهم من نذورهم الأولية . وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها ، ومنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية (٢٣) . واقتيدوا من جميع أرجاء البرتغال فى مركبات أوسيرا على الأقدام إلى سفن أقلتهم إلى ايطاليا . وتم ترحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغيرها من الممتلكات البرتغالية . ووصلت أول شحنة من المنفيين إلى تشيفيتافكيا فى ٢٤ أكتوبر ، ورثى لحالهم حتى ممثل بومبال هناك . كان بعضهم ضعيفا لكبره ، وبعضهم يكاد يتضور جوعا ، وبعضهم مات فى الطريق . ورتب قائد الجماعة ، لورنتسو ريكى ، استقبال الأحياء منهم فى بيوت يسوعية فى ايطاليا ، وشارك الأخوة الدومنيكان فى استضافتهم . وفى ١٧ يونيو ١٧٦٠ أوقفت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان .

وبدا نصر بومبال نصراً مؤزراً ، ولكنه كان عليما بأنه نصر لاتحبه الأمة ، وأفضى به الشعور بعدم الأمان إلى توسيع سلطته إلى الدكتاتورية الكاملة ، فبدأ حكما من الاستبدادية والارهاب حتى عام ١٧٧٧ . وكان جواسيسه يبلغونه بكل ما يكشفونه من ألوان المقاومة لسياساته أو أساليبه ، وسرعان ما اكتظت سجون لشبونة بالمسجونين السياسيين . وقبض على الكثيرين من الأشراف والكهنة لإتهامهم بمؤامرات جديدة على الملك ، أو باشتراكهم فى المؤامرة القديمة . وأصبحت قلعة جنكيرا ، المتوسطة الموقع بين لشبونه وبيليم ، سجناً خاصاً للاشراف زج فيه كثير منهم حتى قضوا نحبهم . وفى سجون أخرى أودع اليسوعيون المجلوبون من المستعمرات والمتهمون بمقاومة الحكومة — وظل بعضهم نزيلها تسعة عشر عاماً .

أما مالاجريدا فقد ظل يذوى فى سجنه اثنين وثلاثين شهرا قبل أن

يمثل أمام المحكمة . وسلى الشيخ سجنه بتأليفه كتاب « حياة القديسة حنه البطولية ، أم مريم ، أملتها القديسة حنه ذاتها للأب المبجل ما لاجريدا » ، وصودر المخطوط بأمر بومبال ، وقد وجد فيه عدة سخافات يمكن أن ترصف بالهرطقه : فقد قال مالاجريدا أن القديسة حنه حبل بها كما حبل بمريم ، دون أن تلوثها الخطيئة الأصلية ، وأنها كانت تتكلم وتبكى فى بطن أمها[٢٤]. وبعد أن عين بومبال أخاه بول دى كارفالو رئيساً لديوان التفتيش فى البرتغال ، أمر بأن يستدعى مالاجريدا للمثول أمامه ، وكتب بيده ورقة اتهام تتهم اليسوعيين بالجشع ، والرياء ، والدجل ، وانتهاك المقدسات ، وبتهديدهم الملك بالتنبؤ مراراً بموته . وإذ كان مالاجريدا — الذى بلغ الآن الثانية والسبعين — قد أصبح نصف مخبول لشدة ما كابد من عذاب ، فقد أخبر قضاة التفتيش بأنه تكلم مع القديس أغناطيوس لويولا والقديسه تريزا[٢٥] . وأراد قاض منهم أن يقف المحاكمة اشفاقاً على الشيخ فنحى بأمر بومبال . وفى ١٢ يناير ١٧٦١ حكمت المحكمة المقدسة بأن ما لاجريدا مذنب بالهرطقه ، والتجديف ، والضلال ، وبخداع الشعب بما زعم من اعلانات إلهية له . ومد فى أجله ثمانية شهور أخر . وفى ٢٠ سبتمبر سيق إلى مشنقة فى البراسا روسيو ، فشنق ، وأحرق مشدودا إلى خازوق . وقال لويس الخامس عشر معقبا بعد سماعه بالإعدام « لكأنى أحرقت الشيخ المخبول نزيل مستشفى البتيت (ميزون) الذى يزعم أنه الله الآب[٢٦] . وكان رأى فولتير فى الحادث وهو يسجله « أنه حماقة وسخف مقرونان بشرغاية فى البشاعة[٢٧] .

ولم يرق جماعة الفلاسفة الفرنسيين ما طرأ على بومبال من تطور ، بعد أن كان رأيهم فيه فى ١٧٥٨ أنه « مستبد مستنير » . لقد رحبوا بالاطاحة باليسوعيين ، ولكنهم استنكروا الأساليب التعسفية التى انتهجها الدكتاتور ، والنغمة العنيفة التى سرت فى نشراته ، والوحشية التى لوثت عقوباته . وصدمتهم معاملة اليسوعيين خلال ترحيلهم ، واعدام الأسر العريقة بالجملة ، والمعاملة غير الإنسانية التى لقيها مالاجريدا . على أنه لم

يصلنا أى سجل يثبت احتجاجهم على حبس أسقف كويمبرا ثمانى سنوات لأنه أدان لجنة بومبال للرقابة على المطبوعات التى سمحت بتداول مؤلفات متطرفه ، كقاموس فولتير الفلسفى وعقد روسو الاجتماعى .

بيد أن بومبال نفسه لم يبشر بهرطقات ، وكان يختلف إلى القداس بانتظام . ولم يكن هدفه القضاء على الكنيسة بل اخضاعها للملك ، فلما وافق كلمنت الرابع عشر عام ١٧٧٠ على السماح للحكومة بالترشيح لمناصب الأسقفيه ، اصطلح مع الفاتيكان : وأسعدت يوسف الأول — وقد دنا أجاه — فكرة الظفر بعد هذا كله بكامل البركات الكهنوتية حين يموت . وبعث البابا بقبعة الكردينالية إلى بول أخى بومبال ، وأتحف بومبال نفسه بخاتم يحمل صورة البابا ، ومنمنمة إطارها من الماس ، ورفات كامل لأربعة قديسين .

٣ — بومبال المصلح

وترك الدكتاتور أثناء ذلك بصمته على اقتصاد البرتغال وإدارتها وحياتها الثقافية . وأعاد تنظيم الجيش بمساعدة الضباط الانجليز والألمان ، وقد صد هذا الجيش غزوا أسبانيا فى حرب السنين السبع . وانتهج ما انتهجه ريشليو فى فرنســة القرن السابع عشر ، فحد من سلطان الارستقراطية الممزق للأمة ، ومركز الحكومة فى ملكية تستطيع أن تمنح هذه الأمة الوحدة السياسية ، والتطور التعليمى ، وبعض الحماية من تسلط الكنيسة وكف النبلاء بعد اعدام آل طابوره عن التآمر على الملك ، وخضع الأكليروس للدولة بعد طرد اليسوعيين . وفى فترة الجفوة مع الفاتيكان كان بومبال يعين الأساقفة ، وكان أساقفته يرسمون القساوسة دون الرجوع إلى روما . وحد مرسوم ملكى من اقتناء الكنيسة للأرض ، وقيد حرية الرعايا البرتغاليين فى تحمــيل تركاتهم بوصايا لإقامة القداديس[١٨] وأغلق الكثير من الأديرة وحظر على الباقى منها قبول رهبان جدد تقــل أعمارهم عن الخامسة والعشرين . وأخضــع ديوان

التفتيش لإشراف الحكومة . وحوّلت محكمته إلى محكمة عامة خاضعة للقواعد التي تخضع لها محاكم الدولة ، وجردت من سلطات الرقابة على المطبوعات ، وألغى ما جرت عليه من تمييز بين قدامى المسيحيين وجددهم (أى اليهود أو المغاربة الذين دخلوا في المسيحية وذريتهم) ، لأن بومبال افترض أن في دماء معظم الأسبان والبرتغال الآن عرقا ساميا[٢٩] . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين للاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية[٣٠] ، ولم تحرق محكمة التفتيش انسانا بعد احراق مالاجريدا عام ١٧٦١ [٣١] .

فى تلك السنة ألغى بومبال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة التي كانت تعوق سير القضاء ، ويسرت الطريق إلى المحاكم وجعل التقاضى أقل كلفه . وفى ١٧٦١ أعاد تنظيم الخزانة ، وألزمها بموازنة حساباتها كل أسبوع ، وأمر بأن تراجع ايرادات ومصروفات البلديات كل سنة ، وحقق بعض التقدم فى أشد الاصلاحات كلها عسرا — وهو خفض عدد الموظفين فى البلاط الملكي والحد من الاسراف فى نفقاته . فتخلص من الثمانين طاهيا الذين كانوا يطعمون يوحنا الخامس وبطانته ، واضطر يوسف الأول أن يقنع بعشرين فقط . وبمقتضى مرسوم صدر فى ٢٥ مايو ١٧٧٣ ألغى الرق فى الواقع فى البرتغال ولكن سمح باستمراره فى المستعمرات .

وامتدت يد المصلح إلى كل ركن . فبذل الدعم الحكومى للزراعة ومصايد الأسماك ، وأدخل دودة القز فى المقاطعات الشمالية . وأنشأ الفواخير ، ومصانع الزجاج ، ومصانع القطن والصوف والورق ، لينهى اعتماد البرتغال على استيراد هذه الحاصلات من الخارج . وألغى المكوس الداخلية فى انتقال السلع ، وأقام التجارة الحرة بين البرتغال ومستعمراتها الأمريكية ، وأسس كلية للتجارة يدرب فيها الرجال على إدارة الأعمال . ونظم وأعان بالمال الشركات لتتلقى تجارة البرتغال من الأجانب الذين يتجرون فيها وينقلونها ، وفى هذا فشل — أو فشلت البرتغال — لأن

تجارة البرتغال فى ١٧٨٠ كان أكثرها لايزال فى أيدى الأجانب لاسيما البريطانيين .

واقتضى طرد اليسوعيين بناء التعليم من جديد بناء شاملا . فانشرت فى البلاد المدارس الأولية والثانوية الجديدة التى بلغ عـددها ٨٣٧ — وحولت الكلية اليسوعية فى لشبونة إلى كلية للاشراف يديرها العلمانيون . ووسع منهج الدراسة فى كويمبرا وأضيفت إليه مقررات فى العلوم ، وأقنع بومبال الملك بتشييد دار للاوبرا ودعوة المغنين الايطاليين لقيادة الفرق ، وفى ١٧٥٧ أسس « أركاديا لشبونة » لتشجيع الأدب .

وحظى الأدب البرتغالى طوال نصف قرن مثير (١٧٥٥ — ١٨٠٥) بحرية نسبية فى الأفكار والأشكال . وبعد أن حرر نفسه من النماذج الايطالية ، أقر بسحر فرنسا ، وأحس بنسائم تهب عليه من حركة التنوير . وظفر انطونيو دينيز داكروز أى سيلفا بالشهرة فى وطنـه كله بكتابة هجاء سماه « أو هسوبى » (١٧٧٢) ، ووصف فيه فى ثمانية أقسام شجارا بين أسقف وكبير كهنة ، وترجم خواو أنستاسيودا كونها بوب فولتير ، وعلى هذه الترجمة أدانته محكمة التفتيش (١٧٧٨) عقب سقوط بومبال . وأولع فرانسسكو مانويل دوناسكيمنتو بالكتب ، وكان ابن عامل فى تفريغ السفن وشحنها ، وأصبح قطبا لجماعة تمردت على الاكاديمية الاركادية لأنها عائق لتطور الشعر القومى . وفى ١٧٧٨ أمرت محكمة التفتيش بالقبض عليه (مغتنمة ثانية فرصة سقوط بومبال) متهمة اياه بالولع بالفلاسفة المحدثين من اتباع العقل الطبيعى « ففر إلى فرنسا ، حيث انفق تقريباً كل سنيه الواحدة والأربعين الباقية من عمره ، وهناك كتب معظم قصائده التى تتقد بحب الحرية والديمقراطية ، وفيها قصيده غنائيـة « لحرية الولايات المتحدة واستقلالها » وقد عده أنصاره أماما للشعر البرتغالى لايميزه فيه غير كاموئيس . وحوى مجلد فى قصائد الحب يسمى « أماريليا » أرشق وأرخم شعر العصر ، الذى خلفه توماز أنطونيو جونزاجا الذى عانى السجن (١٧٨٥ — ٨٨) بتهمة التآمر السياسى ومات فى المنفى ، أما خوزيه

أجوستينودى ما سيدو ، الراهب الأوغسطيني الذى جرد لفسقه ، فقد اتخذ فى جرأة ، لقصيدته « أو أورينتى » الموضوع الذى اتخذه من قبل كاموئيس — وهو رحلة فاسكودا جاما إلى الهند . وكان يرى قصيدته أعظم من اللويزياده « والإلياذه » ولكنهم يؤكدون أنها عمل كئيب . وأطرف منها هجاء كتبه فى ستة أقسام « أوس بورروس » شهر فيه ماسيدو صراحة برجال ونساء من جميع المراتب ، الأحياء منهم والأموات . وكان ألد خصومه ما نويل ماريا باربوزا دى بوساجى ، الذى سجنته محكمة التفتيش (١٧٩٧) بتهمة إذاعة الأفكار الفولتيرية فى شعره وتمثيلياته . وقد رده إعدام مارى انطوانيت إلى المحافظة فى الدين والسياسة ، فاستعاد تدينه أيام الشباب ، ورأى فى البعوضة دليلا على وجود الله[٣٢] .

أما الحدث العظيم فى تاريخ الفن فى حكم بومبال فهو التمثال الذى صنع ليوسف الأول ، والذى مازال قائماً فى ميدان الحصان الأسود بلشبونة . وقد صممه يواكيم مكادو دى كاسترو ، وصبه بالبرونز ترتولوميو داكوستا وهو يمثل الملك راكباً جواداً مطهما ، ظافرا فوق أفاعى ترمز إلى القوى الشريرة التى غلبها فى حكمه . وجعل بومبال من إزحة الستار عن هذا الأثر (٦ يونيو ١٧٧٥) احتفالا بوزارته المنتصرة . فاصطف جنود الجيش فى الميدان ، واجتمع رجال السلك السياسى ، والقضاء ، ومجلس الشيوخ وغيرهم من كبار القوم مرتدين الملابس الرسميه ، ثم أقبلت الحاشية ، ثم الملك والملكة ، وأخيراً تقدم بومبال وأزاح الستار عن التماثيل والقاعدة الضخمة التى صورت ميدالية عليها الوزير لابساً صليب المسيح . وفهم الكل إلا الملك أن الموضوع الحقيقى للاحتفال هو بومبال .

وبعد أيام من إزاحة الستار أرسل إلى يوسف الأول وصفا وردى اللون للتقدم الذى حققه بومبال منذ ١٧٥٩ : نشر التعليم والإلمام بالقراءة والكتابة ، ونمو الصناعة والتجارة ، وتطور الأدب والفن ، وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة ، على أن توخى الصدق لابد أن يختزل الكثير من وصفه هذا ، فالصناعة والتجارة كانتا تنموان ، ولكن فى بطء شديد ،

وكلتا تعانيان المصاعب المالية ، أما الفنون فركدت ، وكان نصف لشبونة لا يزال (١٧٧٤) فى الخرائب التى سببها زلزال ١٧٥٥ . وكان تعلق الشعب الفطرى بأهداب الدين يعيد سلطان الكنيسة إلى سابق عهده . وكان صلف بومبال وأساليبه الدكتاتورية تخلق له أعداء جدداً كل يوم . وكان قد اقتنى لنفسه ولأقربائه ثروة طائلة وبنى لنفسه قصراً غالى التكلفة . ولم تكد توجد أسرة نبيلة فى المملكة بغير عضو محبوب من أعضائها يذوى فى غياهب السجن . وكان الناس فى طول البرتغال وعرضها يصلون ويتضرعون إلى الله سرا بأن يسقط بومبال عن عرشه .

٤ — انتصار الماضى

فى سنة ١٧٧٥ بلغ الملك الستين . وكانت العلل والخليلات قد أشبنه قبل أوانه ، وراح ينفق الساعات متأملا فى الخطيئة والموت . وسأل نفسه أكان على حق فى انتهاج سياسات وزيره ، وهل كان منصفاً لليسوعيين ؟ ثم ماخطب أولئك الأشراف والقساوسة نزلاء السجون ؟ بوده أن يغفر لهم وهو يطلب الآن المغفرة لنفسه . ولكن أنى له أن يذكر فكرة كهذه لبومبال الذى لا تلين له قناة ، وماذا تراه صانعاً بغير بومبال ؟ وفى ١٢ نوفمبر ١٧٧٦ أصيب بنوبة فالج ، وكان البلاط يغتبط توقعاً لحكم ملك جديد ووزارة جديدة . وكانت وريثة العرش ابنته ماريا فرنسسكا التى كانت زوجا لأخيه بدرو . وكانت امرأة صالحة ، وزوجا وأما صالحة ، وإنسانا عطوفاً باراً ، ولكنها كانت إلى ذلك كاثوليكية غيوراً ، كرهت عداء بومبال للأكليروس كرها حملها على ترك البلاط لتعيش فى هدوء مع بدرو فى كيلوذ على أميال من العاصمة . وأحاط الدبلوماسيون الأجانب حكوماتهم بأن تتوقع انقلاباً وشيكا فى السياسات البرتغالية .

وفى ١٨ نوفمبر تناول الملك الأسرار المقدسة ، وفى ٢٩ نوفمبر أصبحت ماريا وصية على العرش . وكان من أول أفعالها أنهاء سجن أسقف كويمبرا ، ورد الحبر البالغ من العمر أربعة وسبعين عاما إلى كرسيه وسط مظاهر الفرح

الشاملة تقريباً . ورأى بومبال سلطانه يتضائل ، ولحظ فى نذر قاتمة أن أفراد الحاشية الذين كانوا بالأمس اتباعاً أذلاء له، يرونه الآن وقدقضى على نفوذه السياسى . وفى عمل أخير من أعمال الاستبداد انتقم انتقاماً وحشياً من قرية تريفاريا التى عارض أهلها — وكانوا صيادى سمك — تجنيد أبنائهم بالقوة، فأمر فصيلة من الجند بأن يحرقوا القرية : فأحرقوها بإلقاء المشاعل الملتهبة من نوافذ الأكواخ الخشبية فى ظلام الليل (٢٣ يناير ١٧٧٧) .

وفى ٢٤ فبراير مات يوسف الأول ، وأصبحت الوصية الآن الملكة ماريا الأولى (حكمت ١٧٧٧ — ١٨١٦) ، وأصبح زوجها الملك بدرو الثالث (١٧٧٧ — ٨٦) . وكان بدرو رجلا ضعيف العقل ، واستغرقت ماريا فى التقوى وأعمال البر . وسرعان ما استعاد الدين سلطانه ، وقد كان نصف حياة الشعب البرتغالى . واستأنفت محكمة التفتيش نشاطها فى الرقابة وقمع الهرطقة . وأرسلت الملكة ماريا إلى البابوية أربعين ألف جنيه لرد بعض ما أنفقت فى رعاية اليسوعيين المنفيين . وفى غداة دفن يوسف أمرت الملكة بالإفراج عن ثمانمائة سجين ،وكان أكثرهم قد سجنه بومبال لمعارضته سياسته . وكان كثير منهم قد قضى عشرين عاما فى غياهب السجون ، فلما خرجوا لم تحتمل عيونهم ضوء الشمس وكانوا كلهم تقريباً فى أسمال بالية ، وبدا الكثيرون منهم فى ضعفى سنهم ، وكان المئات من السجناء قد قضوا نحبهم فى سجونهم . ولم يبق على قيد الحياه من بين ١٢٤ يسوعيا زج بهم فى السجون قبل ثمانية عشر عاما سوى خمسة وأربعين (٣٣) . ورفض خمسة من الاشراف الذين أدينوا بتهمة الاشتراك المزعوم فى مؤامرة قتل يوسف أن يبرحوا السجن حتى تعلن براءتهم رسمياً .

وكان لمشهد ضحايا عداء بومبال المفرج عنهم ، ولنبأ تحريق تريفاريا ، أثرهما فى تفاقم كره الشعب لبومبال إلى حد لم يعد يجرؤ فيه على الظهور علانية . وفى أول مارس أرسل إلى الملكة ماريا كتابا يستقيل فيه من جميع وظائفه ويستأذن فى الاعتكاف فى ضيعته بمدينة بومبال . وطالب

الاشراف المحيطون بالملكة بسجنه وعقابه ، ولكن حين تبين لها أن جميع القوانين التى استنكرتها كان قد وقعها الملك السابق ، قررت أنها لاتستطيع عقاب بومبال دون أن تلطخ أمام الناس ذكرى أبيها . فقبلت استقالة الوزير وسمحت له بالاعتزال فى بومبال ، ولكنها أمرته أن يلزمها وفى ٥ مارس غادر لشبونة فى عربة خفيفة مستأجرة آملا أن يفلت من أنظار الناس ، ولكن بعضهم تبينه فحصبوا عربته ولكنه هرب منهم . ولحقت به امرأته عند مدينة أوبرس ، وكان يومها فى السابعة والسبعين .

والآن وقد غدا مواطنا عاديا تكاثر عليه الهجوم من كل صوب بدعاوى تطالبه بديون أغفل سدادها ، وأضرار أوقعها بالشاكين ، وممتلكات استولى عليها دون تعويض أصحابها تعويضا كافياً . وحاصر المحضرون أبوابه فى بومبال بسلسلة من الأوامر القضائية . كتب يقول « ما من دبور أو بعوضة فى البرتغال إلا طارا إلى هذه البقعة النائية وطنا فى أذنى . وساعدته الملكة بأن واصلت اجراء الراتب الذى كان يتقاضاه وزيراً عليه مدى الحياه وزادت عليه معاشاً متواضعاً . بيد أن اعداء لا حصرلهم الحوا على الملكة فى تقديمه للمحاكمة بتهمتى الانحراف والخيانة . وقد اتخذت اجراء وسطا بسماحها للقضاة بأن يزوروه ويسائلوه فى أمر هذه التهم . فظلوا يحققون معه ساعات كل مرة على مدى ثلاثة أشهر ونصف حتى التمس الدكتاتور العجوز الرحمة . وأجلت الملكة التصرف فى تقرير الفحص ، آملة أن يعفيها موت بومبال من هذا الحرج ، وسعت فى الوقت نفسه إلى تهدئة خصومه بأن أمرت باعادة محاكمة المتهمين الذين أدينو بالاشتراك فى محاولة اغتيال أبيها . وأيدت المحكمة الجديدة الحكم بذنب دوق أفيرو وثلاثة من خدمه ، ولكنها برأت ساحة باقى المتهمين أجمعين وأعلنت براءة الطابوريين . وردت كل ألقابهم وممتلكاتهم للأحيـاء منهم (٣ ابريل ١٧٨١) . وفى ١٦ أغسطس أصدرت الملكة مرسوما يدين بومبال « مذنبا بجرائم شائنة » ويضيف قراراً بتركه آمنا فى منفاه محتفظا بثروته مادام قد التمس الصفح .

وكان بومبال يمضى حثيثا إلى مرض الموت . فقد غشى جسده كله تقريباً قروح صديدية يبدو أن سببها الجذام[٣٥] . ومنعه الآلم من النوم أكثر من ساعتين فى اليوم ، وأضعفته الدوسنتاريا ، وأقنعه أطباؤه بشرب حساء مصنوع من جلد الثعابين ، وكأنما أرادوا أن يزيدوه عذابا على عذاب . وتمنى الموت ، وتناول الأسرار المقدسة ، وانتهت آلامه فى ٨ مايو ١٧٨٢ وبعد خمسة وأربعين عاما ، وقفت بقبره جماعة من اليسوعيين كانت تجتاز المدينة ، وتلت الجماعة ، بشعو الانتصار والرأفة ، صلاة جنائزية تطلب الراحة لنفسه .

* * *

الفصل الحادى عشر

أسبانيا وحركة التنوير

١٧٠٠ — ٨٨

١ — البيئة

أوصى شارل الثانى ، آخر الهابسبورجيين الأسبان ، عند وفاته عام ١٧٠٠ ، بأسبانيا وكل امبراطوريتها العالمية لفرنسا البوربونية — العدو القديم لآل هابسبورج ، وقد قاتل حفيد لويس الرابع عشر ، الذى لقب بفليب الخامس ملك أسبانيا ، ببسالة خلال حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٣ — ١٢) للاحتفاظ بوحدة تلك الامبراطورية كاملة ، وامتشقت أوربا كلها تقريباً الحسام للحيلولة دون هذا التوسع الخطر فى قوة البوربون . وأخيراً أكرهت أسبانيا على النزول عن جبل طارق ومينورقة لانجلترة ، وصقلية لسافوى ، ونابلى وسردانيا وبلجيكا للنمسا .

ثم إن فقد أسبانيا لقوتها البحرية لم يترك لها سوى قبضة ضعيفة على المستعمرات التى كانت تغذى تجارتها وثروتها . فقمح أمريكا الأسبانية مثلا كان يعطيها غلة بلغت من خمسة إلى عشرين ضعفاً فى الفدان لقلة الأرض الأسبانية . وجادت تلك الأراضى المشمسة بالزئبق والنحاس والزنك والزرنيخ والأصباغ واللحوم والجلود والمطاط والقرمز والسكر والكاكاو والبن والتبغ والشاى والكينين وكثير من العقاقير الأخرى . وفى ١٧٨٨ صدرت أسبانيا لمستعمراتها الأمريكية بضائع قيمتها ١٥٨,٠٠٠,٠٠٠ ريال ، واستوردت منها بضائع قيمتها ٨٠٤,٠٠٠,٠٠٠ ريال ولكن هذا « الخلل فى الميزان التجارى الذى لم يكن فى مصلحة أسبانيا محاه سيل متدفق من الفضة والذهب الأمريكيين . وأرسلت الفلبين شحنات سفن من الفلفل والقطن والنيلة وقصب السكر . وقد بلغ سكان الفلبين فى تقرير الكسندر فون همبولت

فى ختـــام القرن الثانى عشر ١,٩٠٠,٠٠٠ ، وسكان أمريكا الأسبانية ١٦,٩٠٢,٠٠٠ ، أما أسبانيا نفسها عام ١٧٩٧ فقد بلغ سكانها ١٠,٥٤١,٠٠٠ [1]. وأنه لفضل يعزى لحكم البوربون أن هذا الرقم الأخير يعنى تضاعف السكان الذين لم يزيدوا على ٥,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٧٠٠ .

لم تسخ الجغرافيا على أسبانيا إلا بميزة التجارة البحرية . كانت الأرض فى الشمال خصبة تغذرها الأمطار والثلوج الذائبة من جبال البرانس ، وكانت قنوات الرى (وأكثرها خلفه المغاربة للغالبين) قد استصلحت الأراضى الجدباء فى بلنسية ومرسية والأندلس ، ولكن باقى أراضى أسبانيا كان جبليا أو قاحلا إلى درجة مثبطة للهمم . ولم يتح لهبات الطبيعة أن تنمو وتتطور بفضل الإقدام الاقتصادى ، فذهب أكثر الأسبان حباً للمغامرة إلى المستعمرات ، وفضلت أسبانيا أن تشترى المنتجات الصناعية من الخارج بذهب مستعمراتها وماتغله مناجم الفضة أو النحاس أو الحديد أو الرصاص فى أسبانيا ذاتها . وتخلفت صناعاتها التى كانت لاتزال فى المرحلة النقابية أو البيتية تخلفاً شديداً عن صناعات أقطار الشمال النشيطة ، وكان الكثير من مناجمها الغنية تشغله الإدارة الأجنبية لفائدة المستثمرين الألمان أو الإنجليز . واحتكرت «المستا» إنتاج الصوف ، وهى اتحاد من ملاك قطعان الغنم ميزته الحكومة ، ورسخت التقاليد قدمه ، وسيطرت عليه فئة قليلة من النبلاء والأديرة ، وخنقت المنافسة ، وتخلفت أسباب التحسين . وتعفنت بروليتاريا ضئيلة فى المدن ، تشتغل خدماً لكبار القوم أو عمال مياومة فى النقابات الحرفية ، وكانت منازل الأثرياء تزدان ببعض العبيد الزنوج أو المغاربة . وعاشت طبقة وسطى صغيرة معتمدة على الحكومة أو الأشراف أو الكنيسة .

وكان ٥١,٥٪ من الأرض الزراعية تملكه الأسر الشريفة فى مساحات شاسعة و ١٦,٥٪ تملكه الكنيسة ، و ٣٢٪ تملكه الكومونات (المـــدن) أو الفلاحون . وتأخر نمو ملكية الفلاحين للأرض بفعل قانون وقف قديم يشترط وقف الأرض كاملة على الإبن الأكبر ويمنع رهن أى جزء منها أو بيعه . وكان ثلاثة أرباع الأرض خلال معظم هذا القرن فيما عدا إقليم

الماسك يفلحه مستأجرون يؤدون ضريبة على صورة إيجار ، أو رسوم ، أو خدمات ، أو عينا للملاك من الأشراف أو رجال الدين الذين ندر أن رأوهم ولما كانت الإيجارات تجبى حسب إنتاجية المزرعة ، فإن المستأجرين افتقدوا الحافز على الابتكار أو الاجتهاد[٢] . ودافع الملاك عن هذا النظام بالزعم بأن الهبوط المطرد فى قيمة العملة يكرههم على رفع الإيجارات لتتمشى مع الأسعار والتكاليف المتصاعدة . ثم أن ضريبة مبيعات فرضت على ضروريات الحياة كاللحم والنبيذ وزيت الزيتون والشموع والصابون كانت أثقل وطأة على الفقراء (الذين أنفقوا معظم دخلهم على الضروريات) وأخف وقعا على الأغنياء . وترتب على هذه الإجراءات ، وعلى الامتيازات الوراثية ، وعلى الفوارق الطبيعية فى القدرة البشرية ، أن تركزت الثروة فى القمة ، وران على القاع فقر كئيب اتصل جيلا بعد جيل ، تخففه وتسرى به التعزيات فوق الطبيعية .

وكانت طبقة النبلاء منقسمه إلى درجات من الشرف انقساما يملؤه التحاسد والتنابذ . ففى القمة (فى ١٧٨٧) ١١٩ من كبار النبلاء (Grandes de Espana) . وقد نحزر مبلغ ثرائهم من تقرير مبالغ فيه على الأرجح كتبه الرحالة البريطانى المعاصر جوزف تاونسند وذكر فيه أن ثلاثة من كبار النبلاء . وهم دوق أوزونا ، ودوق ألبا ، ودوق مدينا سلى يملكون إقليم الأندلس بجملته[٣] . وكان دخل دوق مدينا من مصايد أسماكه وحدها مليون ريال فى العام ، ودخل دوق أوزنا السنوى ٨,٤٠٠,٠٠٠ ريال . ودخل كونت أراندا قرابة ١,٦٠٠,٠٠٠ ريال فى السنة[٤] . ويلى كبار النبلاء ٥٣٥ من أصحاب الألقاب titulos — وهم رجال منحهم الملك القابا وراثية بشرط أداء نصف دخلهم للتاج . ويلى هؤلاء الفرسان caballeros الذين يعينهم الملك فى عضوية مجزية فى أحدى طبقات أسبانيا الحربيه الأربع : وهى سنتياجو ، والقنطرة ، وكالاترافا ومونتيزا . أما أدنى النبلاء مرتبة فكانوا الـ ٤٠٠,٠٠٠ هيدلج hidalgo الذين يملكون مساحات متواضعه من الأرض ، والذين أعفوا من الخدمه العسكرية ومن

السجن للمدين ، وكان لهم الحق فى أن يلبسوا شعار النباله وأن يخاطبوا بلقب « الدون » . وكان بعضهم فقراء ، وبعضهم أنضم إلى المتسولين فى الشوارع. وكان معظم النبلاء يعيشون فى المدن ، ويعينون موظفى الإقاليم .

أما الكنيسة الأسبانية فقد أدعت الحق فى نصيب مريح من جملة الناتج القومى بوصفها الحارس الألهى للوضع الراهن . وقد قدر مصدر أسبانى موثوق أن دخلها السنوى بعد الضرائب يبلغ ١,١٠١,٧٥٣,٠٠٠ ريال ، ودخل الدولة يبلغ ١,٣٧١,٠٠٠,٠٠٠ ريال(٥) . وكان ثلث إيرادها يأتيها من الأرض ، ومبالغ طائله تجمعها من العشور وبواكير الثمار ، ومبالغ صغيرة من مراسيم العماد ، والزيجات ، والجنائز ، والقداديس على أرواح الموتى ، والحلل الديرية تباع للأتقياء الذين ظنوا أنهم أن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجنه دون مساءلة . وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ ٥٣,٠٠٠,٠٠٠ ريال . على أن أوساط القساوسه كانوا بالطبع فقراء لكثرة عددهم من جهة ، فقد كان فى أسبانيا ٩١,٢٥٨ من رجال الكهنوت ، منهم ١٦,٤٨١ كانوا قسسا » و ٢,٩٤٣ رهبانا يسوعيين(٦) . وفى ١٧٩٧ كان ستون ألف راهب وثلاثون ألف راهبة يعيشون فى ثلاثة الأف دير . وكان رئيس أساقفة أشبيلية وموظفوه البالغون ٢٣٥ مساعدا يتمتعون بدخل سنوى مقداره ستة ملايين ريال ، أما رئيس أساقفة طليطلة — وكان له ستمائة مساعد — فبلغ دخله تسعة ملايين ريال . وهنا ، كما فى إيطاليا والنمسا، لم تثر ثروة رجال الدين أى احتجاج من الشعب ، فالكاتدرائيه من خلقهم ، وقد أحبوا أن يروها فى زينة بهية .

وقد ضرب تدينهم المثل والقدوة للعالم المسيحى . فلم يلق اللاهوت الكاثوليكى فى بقعة أخرى فى القرن الثانى عشر مثل هذا الإيمان الشامل به ، ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية من هـــذا الاحترام الشديد . ونافست الممارسات الدينية السعى وراء العيش ، ولعلها فاقت السعى وراء الجنس ، باعتبارها جزءا من صميم الحياه . وكان أفراد الشعب بما فيهم البغايا ، يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم . وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح

بكثير ، وانتشرت صورها وتماثيلها فى كل مكان ، وكان النساء يخطن الأرواب لتماثيلها فى شغف ، ويتوجن رأسها بالأزهار النضرة ، وفى أسبانيا أكثر من غيرها ارتفع صوت الشعب مطالبا بجعل ، « حملها غير الدنس » — أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية — جزءا من العقيدة المحددة المشترطة. وكان الرجال يساوون النساء تمسكا بإهداب الدين . فكثير من الرجال ، كالنساء ، كانوا يختلفون إلى القداس يومياً . وكان الرجال من الطبقات الدنيا يجلدون أنفسهم فى بعض المواكب الدينيه (حتى حرم هذا الجلد فى ١٧٧٧) بحبال فيها عقد تنتهى بكرات من الشمع تحوى زجاجا محطما ، وزعموا أنهم يفعلون هذا برهانا على حبهم لله أو مريم أو امرأة ما ، ورأى بعضهم أن هذا القصد مفيد للصحه(٧) وأنه يهدىء من شبق إيروس .

وكانت المواكب الدينية كثيرة ، مثيرة ، غنية بالألوان ، وقد شكا ظريف من أنه لم يستطع أن يخطو فى مدريد خطوة دون أن يصادف هذا المشهد المهيب ، وكان فى الأمتناع عن الركوع إذا مر الموكب مجازفة بالأعتقال أو الأعتداء . فحين قام أهل سرقسطة بثورة عام ١٧٦٦ وراحوا ينهبون ويسلبون ظهر موكب دينى على رأسه أسقف يحمل بين يديه القربان المقدس ، فكشف العصاة رؤوسهم وجثوا فى الشوارع ، فلما عبر الموكب استأنفوا سلب المدينة(٨) . وكانت كل مصالح الحكومه تشارك فى موكب « عيد القربان » العظيم ، يتقدمهم الملك أحيانا . وكانت مدن أسبانياً تجلل بالسواد طوال أسبوع الآلام ، والملاهى والمقاهى تغلق ، والكنائس تغص بالعابدين ، والمذابح الأضافية تقام فى الميادين العامة إستجابة لتدفق التقوى والورع . ففى أسبانياً كان المسيح ملكا ، ومريم ملكة ، والأحساس بالحضرة الألهية فى كل لحظة من لحظات اليقظه ، جزءا من صميم الحياة .

وزكت طائفتان دينيتان أكثر من غيرهما فى أسبانياً . فسيطر اليسوعيون على التعليم بفضل علمهم ولباقتهم فى الحديث وأصبحوا آباء الإعتراف للأسرة المالكة . أما الدومنكان فسيطروا على ديوان التفتيش ، ومع أن هذه المؤسسه كانت قد ودعت عصرها الذهبى منذ أمد بعيد ، فقد بقى لها

من القوة ما يكفى لأرهاب الشعب وتحدى الدولة . فلما ظهرت فلول لليهوديه بسبب تراخى البوربون قطع ديوان التفتيش دابرهم بإحراقهم علنا ، وعلى مدى سبع سنوات (١٧٢٠ — ٢٧) أدان الديوان ٨٦٨ شخصا ، أتهم ٨٢٠ منهم بأنهم يبطنون اليهودية ، وأحرق ٧٥ ، وزج غيرهم فى سفن تشغيل العبيد أو أكتفى بجلدهم[٩] . وفى ١٧٢٢ أظهر فليب الخامس تبنية لأساليب الحياة الأسبانية إذ ترأس مهرجانا فخما لاحراق المهرطقين ، أحرق فيه تسعه منهم أحتفالا بمقدم أميرة فرنسية إلى مدريد[١٠] . أما خلفه فرديناند السادس فقد أبدى روحا أكثر إعتدالا ، ففى عهده (١٧٤٦ — ٥٩) أحرق عشرة « فقط » أحياء ، وكلهم من اليهود « المرتدين[١١] » .

ومارس ديوان التفتيش رقابة خانقة على كل ضروب النشر . وقد قدر راهب دومنيكى أن المطبوع فى أسبانيا خلال القرن الثانى عشر كان أقل من المطبوع فى القرن السادس عشر[١٢] . وكان أكثر الكتب دينيا ، واحبها الشعب بوصفها هذا . وكانت الطبقات الدنيا أمية ، ولم تشعر بحاجة للقراءة أو الكتابة . وكانت المدارس فى قبضة رجال الدين ، ولكن آلافا من الأبرشيات كانت خلوا من المدارس . أما الجامعات الأسبانية التى كانت يوما ما جامعات عظيمة فقد تخلفت تخلفا شديداً عن نظيراتها فى إيطاليا أو فرنسا أو انجلترة أو المانيا فى كل ناحية إلا اللاهوت التقليدى . وكانت مدارس الطب فقيرة ، رديئة الإعداد بالأساتذة ، ناقصة الأجهزة ، وأعتمد العلاج على الحجامة ، وأعطاء المسهلات ، والأستعانة ببركات القديسين ، والصلاة . وكان الأطباء الاسبان خطرا على حياة الناس . وكان العلم علم العصر الوسيط ، والتاريخ أساطير ، وزكت الخرافه وكثرت النذر والمعجزات . وظـل الإيمان بالسحر حيا إلى نهاية القرن ، وظهر بين الأهوال التى صورها الرسام جويا .

تلك كانت أسبانيا التى قدم البوربون من فرنسا ليحكموها .

٢ — فليب الخامس ١٧٠٠ - ٤٦

كان فليب الخامس (Felipe Quinto) رجلا طيبا فى حدود فلسفة حياته التى ضيقها تعليمة . كان إبنا أصغر للدوفان ، فدرب على التواضع ، والتقوى ، والطاعة ، فلم يتغلب قط على هذه الفضائل إلى حد يكفى للتصدى لنصف قرن من التحديات فى الحكم والحرب . وأفضت به تقواه إلى أن يتقبل فى أسبانيا ظلامية دينية كانت تحتضر فى فرنسا ، وجعلته سهولة إنقياده مطواعا لوزرائه وزوجاته .

وكانت ماريا لويزا جابرييلا ، أبنة فكتور أماديوس الثانى ملك سافوى ، لا تعدو الثالثة عشرة يوم تزوجت فليب (١٧٠١) ، ولكنها كانت رغم حداثتها حاذقه لمكر النساء وكيدهن ، وإستطاعت بجمالها وحيويتها وبغضباتها ودموعها ، أن تخضع الملك فيستسلم بعد أرهاق ، بينما تدير هى وكبيرة وصيفاتها سياسة وطنهما الجديد . وكانت هذه الوصيفة — مارى آن دلا تريموال ، أميرة أورسان ، والأرمله الفرنسيه لنبيل أسبانى كبير ، قد أعانت الملكة الصبية على الزواج والقبض على السلطة . ومكنها طموحها الممزوج باللباقة من أن تصبح قوة وراء العرش خلال عشرة أعوام . وما كان فى أستطاعتها أن تعتمد على الجمال لأنها كانت فى التاسعه والخمسين فى ١٧٠١ ، ولكنها إمدت الملكة بما تفتقر إليه من معرفة ودهاء ، وبعد عام ١٧٠٥ كانت تقرر السياسة . وفى ١٧١٤ ماتت ماريا لويزا فى السادسه والعشرين ، وتردى فليب الذى تعلم أن يحبها حباً صادقا فى أكتئاب مرضى . ورأت مدام ديزورسان أن تنقذ سلطانها بترتيب زواجه من إيزابيلا (اليزابيث) فارنيزى ، أبنة أودواردو الثانى دوق بارما وبياسنزا . وذهبت للقاء الملكة الجديدة عند الحدود الأسبانية ، ولكن إيزابيلا أمرتها فى إقتضاب أن ترحل عن أسبانيا ، فاعتزلت فى روما وماتت بعد ثمانى سنوات مغمورة منسية رغم ثرائها .

لم تعترف إيزابيلا بأن النهضة الأوربية قد ولت ، فقد وهبت كل قوة

الإرادة ، وشدة الذكاء ، وحدة الطبع ، واحتقار الوساوس الذى تميزت به النساء كما تميز الرجال الذين هيمنوا على إيطاليا القرن السادس عشر . وقد وجدت فى فليب رجلا عاجزا عن الحسم ؛ عاجزا عن النوم منفردا ، ومن ثم أصبح فراشها عرشها الذى تحكم منه أمة ، وتدير جيوشا ، وتظفر بامارات إيطالية . ولم تكن قد عرفت أى شىء تقريباً عن أسبانيا . ولم تألف قط الخلق الاسبانى ولكنها درست ذلك الخلق ، ونجحت فى التعرف على حاجات البلد ؛ وادهش الملك أن يجدها لا تقل عن وزرائه إطلاعا وسعة حيلة .

وكان فليب فى سنوات حكمه الأولى قد استخدم جان أورى وغيره من المساعدين الفرنسيين لأعادة تنظيم الحكومه على الأسس التى وضعها لويس الرابع عشر : إدارة ومالية ممركزتان مراقبتان ، مع بيروقراطية مدربه ونظار إقليميين ؛ وكلهم خاضعون لسلطة المجلس الملكى التشريعية والقضائية والتنفيذيه ؛ وأسمه هنا « مجلس تشتاله » Consejo de Castilla ؛ فقل الفساد ؛ وحد من الاسراف — إلا فى عمليات البناء الخاصه بالملك . ثم خلف هؤلاء الوزراء الفرنسيين فى ١٧١٤ إيطالى كفء طموح هوالاباتى جوليو البيرونى ، الذى جعل نشاطه الأسبانيين يرتعدون . وكان أبنا لبستانى فى بياتشنزا ، وصل إلى أسبانيا بوصفه سكرتيرا لدوق فندوم . وكان أول من إقترح إيزابيللا فارنيزى زوجة ثانية لفليب . فيسرب وصوله إلى السلطه سرفانا بصنيعه . وقد وفقا معا فى اقصاء الملك عن شئون الدولة . وعن أى مشورة غير مشورتهما . وخططا معاً لبناء قوات أسبانيا المسلحه واستخدامها لطرد النمساويين من إيطاليا وأستعادة النفوذ الأسبانى فى نابلى وميلان ، وإقامة عروش للأدواق يزينها يوما ما أبناء إيزابيللا البعيدة النظر .

وطلب البيرونى خمس سنين للاستعداد ، فأحل فى المناصب الرئيسية رجالا أكفاء من الطبقة الوسطى محل الكسالى من حملة الألقاب ، وفرض الضرائب على الاكليروس وسجن القساوسة المتمردين (١٣) ، وخرد السفن البالية وبنى خيراً منها ، وأقام القلاع والترسانات على طول السواحل

والحدود ، وأعان الصناعة بالمال ، وشق الطرق ، وزاد من سرعة المواصلات وألغى ضرائب المبيعات ومكس المرور . وقد أنذر السفير البريطانى فى مدريد حكومته بأن أسبانيا لن تنقضى عليها بضع سنين أخر من أمثال هذه الخطى حتى تغدو خطرا على غيرها من دول أوربا[١٤] . ورغبة فى تهدئة هذه المخاوف تظاهر البيرونى بأنه يجند القوات ليعين بها البندقية والبابوية على الترك . والواقع أنه أرسل ست سفن كبيرة إلى كلمنت الحادى عشر ، الذى كافأه بقبعة الكردينالة الحمراء (١٧١٧) . كتب فولتير « أن الملكية الأسبانية قد استأنفت حياة جديدة تحت حكم الكردينال البيرونى[١٥] » .

ومنح كل شيء إلا الوقت . كان يرجو أن يكسب رضاء الفرنسيين والانجليز عن الأهداف الأسبانية فى ايطاليا ، وعرض تنازلات قيمة مقابل هذا الرضا ، ولكن الملك المهمل أفسد هذه المناورات بكشفه عن رغبته فى الحلول محل فليب أورليان حاكما لفرنسا . وانقلب هذا على فليب ، وانضم إلى انجلترا والاقاليم المتحدة فى ميثاق للحفاظ على الترتيبات الاقليمية التى حددتها معاهدة أوترخت . وانتهكت النمسا تلك المعاهدة باكراهها سافوى على اعطائها صقلية مقابل سردانيا . واحتج البيرونى بأن هذا يضع عبر البحر المتوسط دولة ما زال رئيسها يطالب بتاج أسبانيا . ولعن تطور الأحداث بهذه العجالة على غير ما يبغى ثم أذعن لدخول حرب قبل الأوان . واستولى أسطوله الوليد على بلرمو (١٧١٨) . وسرعان ما أخضع جيشه صقلية كلها لسلطة أسبانيا وهنا انضمت النمسا إلى انجلتره وفرنسا وهولنده فى حلف رباعى ضد أسبانيا . وفى ١١ أغسطس ١٧١٨ دمر أسطول بريطانى بقيادة الأميرال بنج الأسطول الأسبانى تجاه ساحل صقلية ، وحبس خيرة جنود أسبانيا فى تلك الجزيرة بينما غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا . وطلب فليب وايزابيللا الصلح ، فأجيب الطلب شريطة أن ينفى البيرونى . نفر إلى جنوه (١٧١٩) ، وشق طريقه متخفيا إلى روما عبر لومبارديا التى يملكها النمساويون ، وشارك فى تجمع

الكراولة الذى انتخب البابا انوسقت الثالث عشر ، ومات عام ١٧٥٢ وقد بلغ الثامنة والثمانين . وفى ١٧ فبراير ١٧٢٠ وقع مبعوث أسبانى بلندن معاهدة نزل فيها فليب عن كل حق يدعيه فى عرش فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن صقلية للنمسا ، ووعدت انجلتره برد جبل طارق إلى أسبانيا ، وتعهدت الحلفاء بأن يكون لنسل ايزابيللا الحق فى وراثة بارما وتوسكانيا .

وفى مجال السياسة الدولية سرعان ما ينقلب الحلفاء أعداء ، ويصبح الخصوم أصدقاء رسمياً . ودعما للسلام مع فرنسا ، كان فليب قد خطب ابنته ماريا أنا فكتوريا التى لم تسلخ من عمرها سوى عامين، للويس الخامس عشر فى ١٧٢١ ، وأرسل بها إلى فرنسا (١٧٢٢) وسط دهشة الجمع . ولكن فى ١٧٢٥ ردتها فرنسا لعل لويس أن يتزوج امرأة تستطيع الاضطلاع فورا بمهمة انجاب وريث له . ورأت أسبانيا فى هذا الرد اهانة ، فتحالفت مع النمسا ، ووعد الإمبراطور شارل السادس بمساعدة أسبانيا على استعادة جبل طارق ، فلما حاول جيش أسبانى الإستيلاء على ذلك المعقل لم يأت العون من النمسا ؛ وفشلت المحاولة ، ولم تصطلح أسبانيا مع انجلتره وحسب ، بل ردت لهـا احتكار الازينتو **Asiento** الذى يبيح لها بيع العبيد للمستعمرات الأسبانية ، ومقابل هذا تعهدت بريطانيا بأن تجلس الدون كارلوس ، ابن ايزابيللا ، على عرش دوقية بارما . وفى ١٧٣١ اتجه كارلوس وستة آلاف أسبانى إلى ايطاليا فى حراسة أسطول انجليزى . ونزلت النمسا عن بارما وبياتشنزا لكارلوس رغبة فى الحصول على تأييد بريطانيا وأسبانيا لها فى ارتقاء ماريا تريزا للعرش الامبراطورى. وفى ١٧٣٤ رفع كارلوس نفسه إلى عرش نابلى . وهكذا اكتمل نصر ايزابيللا .

على أن فليب أصابته نوبة من الأكتئاب أخذت بعد عام ١٧٣٦ تنحدر أحيانا إلى درك الجنون . فقبع فى ركن من حجرته ، ظانا أن كل الداخلين عليه ينوون قتله ، وعافت نفسه الأكل مخافة أن يدس له السم فيه . وظل

ر دحا طويلا يأبى أن يبرح فراشة أو يحلق لحيته . وجربت إيزابيللا عشرات الوسائل لشفائه أو تهدئته ، ولكنها أخفقت كلها إلا واحدة . ففى ١٧٣٧ أقنعت فارنيللى بأساليب الملاطفة والتملق أن يجيء إلى أسبانيا . وذات ليلة ، فى جناح ملاصق لجناح الملك ، رتبت حفلا موسيقيا غنى فيه « الخصى » العظيم لحنين من تأليف هاسى . ونهض فليب من فراشة لينظر خلال باب ويرى أى قوة أستطاعت أن تشدو بهذه الأصوات الساحرة . وجاءته ايزابيللا بفارينللى ، فأثنى عليه الملك وعانقه وأمره بأن يطلب ما شاء من مكافأة فتوهب له مهما غلت . وكانت الملكه قد أوصت المغنى بما يجيب ، فلم يطلب إلا أن يسمح الملك بأن تحلق لحيته وأن يرتدى ثيابه ويحضر المجلس الملكى . ووافق الملك وخفت مخاوفه . وبدا أنه شفى كأنما بمعجزة . ولكن حين أقبل المساء التالى أرسل فى طلب فارنيللى ورجاه أن يغنى هاتين الأغنيتين ذاتهما ثانية ، إذ لم يكن فى الأمكان تهدئته لينام إلا بهذه الطريقة . وهكذا أستمرت الحال ليلة إثر ليلة طوال عشر سنين . وكان أجر فارنيللى ٢٠٠,٠٠٠ ريال فى العام ، ولكن لم يسمح له بالغناء إلا فى البلاط . وتقبل هو الشرط شاكرا ، ومع أن نفوذه على الملك كان أقوى من نفوذ أى من وزرائه ؛ فأنه لم يستغلة وأستعمله دائماً للخير ؛ وظل بريئا من روح الرشوة وأكتسب أعجاب الجميع[١٦] .

وفى ١٧٤٦ أمر فليب أن يقام ١٠٠,٠٠٠ قداس لخلاص نفسه . فإذا لم يكن ثمة حاجة لهذا العدد الكبير ليدخل به الجنه فليوهب الفائض للنفوس المسكينة التى لم يتح لنا مثل هذا الأستعداد[١٧] . فى ذلك العام قضى فليب نحبه .

٣ — فرديناند السادس

١٧٤٦ — ٥٩

وخلفه على العرش ثانى أبنائه من زوجته الأولى ، فأعطى أسبانيا ثلاثة عشر عاماً من الحكم الشافى من عللها . وعمرت إيزابيللا حتى سنة ١٧٦٦ ،

ولقيت من ابن زوجها معاملة رقيقة مجاملة ، ولكنها فقدت سلطانها على التأثير فى الأحداث . وأصبحت زوجة فرديناند ، ماريا بربارة ، تلميذة سكارلاتى ، هى المرأة التى تقف وراء العرش . ومع أنها كانت مفرطة الولع بالطعام والمال ، فإنها كانت روحاً أرق من إيزابيلا ، وبذلت أكثر همتها لتشجيع الموسيقى والفن . وواصل فارنيللى غناءه للحكام الجدد ، ولم يستطع هاريسكورد سكارلاتى أن ينافسه . وعمل الملك والملكة على إنهاء حرب الوراثة النمساوية ، فقبلا معاهدة إكس — لا — شابل (١٧٤٨) ، مع إنها أعطت توسكانيا للنمسا ، وبعد عام أنهيا اتفاق الازينتو الذى عمر ١٣٦ سنة بدفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه لشركة بحر الجنوب تعويضاً عن خسارة امتيازاتها فى تجارة الرقيق .

كان فرديناند رجلا حسن النية ، لطيفاً أميناً ، ولكنه ورث جسدا رقيقاً وكان معرضاً لنوبات من الغضب كان يخجل منها خجلا مؤلما . (١٨) وحمله الوعى بعيوبه على ترك الحكم لوزيرين قديرين — دون خوزيه دى كارفاخال وزينون دى سومو ديفللا ، مركيز انسنادا . وحسن انسنادا أساليب الزراعة ، وأعان بالمال التعدين والصناعة ، وشق الطرق والقنوات ، وألغى المكوس الداخلية ، وأعاد بناء البحرية واستبدل بضريبة البيوع البغيضة ضريبة على الدخل والممتلكات ، ونظم المالية من جديد ، وحطم عزلة أسبانيا الفكرية بإيفاده البعوث من الطلبة إلى الخارج . ويرجع بعض الفضل إلى دبلوماسية انسنادا فى إبرام اتفاق مع البابوية (١٧٥٣) احتفظ للملك بحق فرض الضرائب على الأملاك الكنسية وتعيين الأساقفة للكراسى الأسبانية . وقد حد من سلطان الكنيسة ، وأخضع ديوان التفتيش ، وألغيت الاحتفالات العلنية بإحراق المهرطقين .

واختلف الوزيران فى سياستهما الخارجية . فأما كارفاخال فقد أثر فيه لطف السفير البريطانى المخلص ، السير بنجامن كين ، فاستن سياسة مؤيدة للبريطانيين مسالمة لهم ، وأما انسنادا فقد حابى فرنسا ، وتحرك نحو محاربة انجلترة . وطال صبر فرديناند عليه لأنه قدر نشاطه وكفايته ، ولكنه أقاله

فى النهاية . وبينما كانت كل أوربا تقريباً تتردى فى سنوات سبع من الحرب ، منح فرديناند شعبه فترة من السلام والرخاء أطول مما حظيت به أسبانيا منذ أيام فليب الثانى .

وفى ١٧٥٨ ماتت ماريا بربارة . وكان الملك يحبها حباً يوحى بأن السياسة لم يكن لها دخل فى زواجهما ، ومن ثم اعترته حالة من الاكتئاب وتشعث الشعر وإطلاق اللحية ذكرت الناس باكتئاب أبيه من قبل ، وأصابته هو الآخر لوثة فى آخر سنة من عمره . وفى أخريات أيامه كان يأبى الذهاب إلى فراشه مخافة ألا ينهض منه أبدا . ومات فى كرسيه فى ١٠ أغسطس ١٧٥٩ وبكى الجميع الملكين الحبيبين لأن حكمهما كان بركة نـدر أن حظيت بها أسبانيا .

٤ — التنوير يدخل أسبانيا

قصة التنوير فى أسبانيا مثال لقوة عرضة للمقاومة تصطدم بجسم ثابت لا يقبل الحركة . فالخلق الأسبانى ، ووفاؤه لإيمانه الوسيط وفاء كتبه بالدم ، كان يصد كل رياح الهرطقة أو الشك عاجلا أو آجلا ، ويرفض كل دخيل من الزى أو العادات أو الاقتصاد . ولم يحبذ الفكر الدخيل غير قوة اقتصادية واحدة — هى التجار الأسبان الذين كانوا يتعاملون مع الأجانب كل يوم ، ويعرفون أى قوة وثراء حققهما ونظراؤهم فى انجلترة وفرنسا . وكانوا راغبين فى استيراد الأفكار إذا استطاعت أن تضعف من السلطة التى ورثها النبلاء والأكليروس على أرض أسبانيا وحياتها وعقلها . وقد علموا أن الدين فقد سلطانه فى انجلترة ، وسمع بعضهم بنيوتن ولوك ، لا بـل أن جبون قدر له أن يجد بعض من يقرؤنه فى أسبانيا (١٩) .

وبالطبع هبت أقوى رياح التنوير من فرنسا . وكان النبلاء الفرنسيون الذين تبعوا فليب الخامس إلى مدريد قد مستهم الزندقة التى أخفت رأسها أيام لويس الرابع عشر ، ولكنها استشرت أيام الوصاية . وفى ١٧١٤ أسس

بعض الدارسين الأكاديمية الملكية الأسبانية محاكاة للأكاديمية الفرنسية ؛ وسرعان ما بدأت وضع معجم لغوى ؛ وفى ١٧٣٧ أضطلعت صحيفة « دياريو دى لوس لتراتوس دى أسبانيا » بمنافسة « الجورنال دى سافان » الفرنسية . وكان الدوق ألبا الذى أشرف على الأكاديمية الملكية عشرين عاماً (١٧٥٦ — ٧٦) شديد الأعجاب بجان — جاك روسو [٢٠] . وفى ١٧٧٣ أكتتب بثمانية جنيهات ذهبية (لوى دور) لتمثال فولتير الذى كان يصنعه بيجال . كتب إلى دالامبير يقول « أننى وقد قضى على بتثقيف عقلى سراً أغتنم هذه الفرصه للشهادة علانية بعرفانى وإعجابى بالرجل العظيم الذى كان أول من دلنى على الطريق [٢١] » .

وحظى كتاب روسو « إميل » بإعلان مجانى حين أحرق فى أحتفال رسمى بكنيسة من كنائس مدريد (١٧٦٥) [٢٢] . وعاد شباب من الأسبان الذين عرفوا باريس كالمركيز دى مورا الذى عشق جولى دلسبيناس إلى أسبانيا يحملون شيئاً من آثار الشكوكية التى التقوا بها فى الصالونات . وهربت إلى أسبانيا نسخ من أعمال فولتير أوديدرو أو رينال ؛ فأيقظت بعض العقول المخدرة . وكتب صحفى أسبانى فى ١٧٦٣ يقول « كان من أثر الكتب المؤذية الكثيرة التى راجت بين الناس ؛ ككتب فولتير وروسو وهلفتيوس ؛ أن كثر فتور الإيمان فى هذا البلد [٢٣] » . وكان بابلو أولافيدى يجهر بالأفكار الفولتيرية فى صالونه بمدريد (حوالى ١٧٦٦) [٢٤] . وحوت رفوف «الجمعية الاقتصادية لأصدقاء السلام» أعمالا لفولتير وروسو وبيل ودالامبير ومونتسكيو وهوبز ولوك وهيوم [٢٥] . وذكر الأبيه كليمان الذى جاب أرجاء أسبانيا عام ١٧٦٨ أنتشار اللامبالاة بالدين أنتشارا واسعا ، لا بل الكفر بالعقيدة ، المستتر وراء مراعاة الطقوس الكاثوليكية فى الظاهر [٢٦] . وقد أبلغ ديوان التفتيش فى ١٧٧٨ أن كبار موظفى البلاط يقرءون لجماعة الفلاسفة الفرنسيين [٢٧] .

وكان من الأهمية بمكان للتاريخ الأسبانى أن يصبح بدرو أباركا ، كونت أراندا ، خلال رحلة قام بها فى فرنسا ، صديقا لفولتير . وقد تحكم

على علاقاته من نشاطه اللاحق سفيراً لأسبانيا لدى فرساي ، وقد اختلط فى غير تحرج بالموسوعيين فى باريس وقامت بينه وبين دالامبير صداقة ملؤها الأعجاب به ، وعبر فرنسا ليزور فولتير فى فرنيه . وكان يصرح بولائه للكنيسة فى أسبانيا ، ولكنه هو الذى أقنع شارل الثالث بطرد اليسوعيين ، وبأرشاده انضم شارل إلى صفوف « المستبدين المستنيرين » الذين كان يتطلع إليهم جماعة الفلاسفة باعتبارهم خير معوان لهم فى نشر التعليم والحرية والعقلانية .

٥ — شارل الثالث ١٧٥٩ — ٨٨

١ — الحكومة الجديدة

حين وصل من نابلى كان يناهز الثالثة والأربعين . ورحب به الجميع إلا اليسوعيين [٢٨] الذين ساءهم بيع أسبانيا لمستوطناتهم فى برجواى إلى البرتغال (١٧٥٠) ، وفيما عدا هذا كسب جميع القلوب بإعفاء الناس من الضرائب المتأخرة ، ورد بعض الامتيازات التى فقدتها الأقاليم فى ظل سياسة المركزية التى انتهجها فليب الخامس . وقد جلل موت زوجته ماريا أماليا بالحزن سنة حكمه الأولى لأسبانيا . ولم يتزوج بعدها قط وإنه لمما يشرف آل بوربون الأسبان فى القرن الثامن عشر أنهم ضربوا لملوك أوربا المثل فى الوفاء لأزواجهم والثبات على حبهم .

وقد رسم دبلوماسى بريطانى صورة بريطانية لشارل الذى كانت له مواجهات مع الانجليز فى نابلى .

« للملك مظهر غريب سواء شخصه أو زيه . فهو ضئيل القامة ولون بشرته شبيه بلون المحنة ولم يفصل له سترة طوال هذه السنين الثلاثين ، لذلك يبدو فى سترته وكأنها أركيبة ، وصدريته وسراويل ركوبه من الجلد عادة ، وعلى ساقيه طماق يقيهما من البلل . وهو يخرج للرياضة كل يوم من أيام السنة غير عابىء بمطر أو ريح [٢٩] .

ولكن إيرل برستول — أردف فى ١٧٦١ ، « إن للملك الكاثوليكى مواهب جيدة ، وذاكرة مواتية ، وسيطرة غير عادية على نفسه فى جميع المناسبات . وقد بات يتشكك فى الناس لكثرة ما خدعوه . وهو يفضل دائماً أن ينال موافقة الآخرين على رأيه باللين ، وله من طول الأناة ما يجعله ينصح محدثه المرة بعد المرة دون أن يستعمل سلطته ... ومع ذلك فرغم سيماء اللطف العظيم البادى عليه استطاع أن يبث الرهبة فى قلوب وزرائه وحاشيته . » (٣٠)

ولم يكن فى تقواه الشخصية ما ينذر بأنه سيهاجم اليسوعيين أو يضطلع بالإصلاحات الدينية . كان يختلف إلى القداس كل يوم . وقد أدهش عدوا إنجليزياً « وفاؤه الأمين العنيد بكل معاهداته ومبادئه وارتباطاته » (٣١) وكان يخصص جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام الأسبوع (عدا الأحد) لشئون الحكم . يستيقظ فى السادسة ، ويزور أبناؤه ، ويفطر ، ويعكف على العمل من الثامنة إلى الحادية عشرة ، ويجتمع بوزرائه ، ويستقبل كبار القوم ويتناول غداءه مع غيره ، ويخصص عدة ساعات للصيد ، ويتعشى فى التاسعة والنصف ، ويطعم كلابه ، ويتلو صلواته ، ثم يمضى إلى فراشه . ولعل الصيد كان وقاء صحيا قصـــد به أن يصرف عنه الاكتئاب الموروث فى الأسرة .

وبدأ ببعض الأخطاء الخطيرة . ذلك أنه لجهله بأسبانيا التى لم يرها منذ كان فى السادسة عشرة اتخذ اثنين من الايطاليين كانا قد أخلصا فى خدمته بنابلس مساعدين أثيرين لديه : المركيز دى جريمالدى فى السياسة الخارجية ، والمركيز دى سكللاتشى فى الشئون الداخلية .

وقد وصف ايرل برستول سكللاتشى هذا بأنه « غير ذكى . أنه مولع بالعمل ولا يشكو أبدا من كثرته رغم تنوع إدارات الحكومة التى تتركز فيه ... وأعتقد أنه غير قابل للارتشاء ، ولكننى لا أريد أن أكون مسئولا بهذا القدر عن زوجته » (٣٢) ولم يحب جرائم مدريد ولا روائحها الخبيثة ولا ظلمتها ؛ ومن ثم فقد نظم لها شرطة نشيطة وفرقة لتنظيف شوارعها ، وأنار

العاصمة بخمسة آلاف مصباح . وأباح الاحتكارات لتزويد المدينة بالزيت والخبز وغيرهما من الضروريات . وحدث أن الجفاف رفع الأسعار ، فطالبت الجماهير برأس سكللاتشى . وقد أغضب رجال الدين بلوائح حدت من امتيازاتهم وسلطتهم . وفقد المئات من المؤيدين حين صادر الأسلحة المخبأة . وأخيرا أثار ثائرة الشعب بمحاولته تغيير زى الشعب . فقد أقنع الملك بأن العباءة أو الكاب الطويل الذى يخفى البدن والقبعة العريضة ذات الحافة المقلوبة التى تخفى كثيرا من الوجه ، يسهلان إخفاء السلاح ويعوقان الشرطة عن التعرف على المجرمين . ومن ثم حظرت سلسلة متعاقبة من المراسيم الملكية الكاب والقبعة ، وزود رجال الضبط بالمقصات الكبيرة يقصون بها العباءات المخالفة حتى يصلوا بها إلى الطول القانونى(٣٣) . وكان فى هذا من التحكم فوق ما يطيقه المدريديون الأباة . فثاروا فى أحد الشعانين ، ٢٣ مارس ١٧٦٦ ، واستولوا على مخازن الذخيرة ، وأطلقوا السجناء ، وتغلبوا على الجنود والشرطة ، وهاجموا بيت سكللاتشى ، وحصبوا جريمالدى ، وقتلوا الحرس الولونى الذين يحرسون القصر الملكى ، وجابوا الشوارع يرفعون رءوس هؤلاء الدخلاء الممقوتين على الرماح متوجة بقبعات عريضة الحواف . وظل الرعاع يومين يواصلون التقتيل والنهب . وهنا أذعن شارل ، وألغى المراسيم ، وأعاد سكللاتشى إلى إيطاليا محروسا . وكان فى غضون ذلك قد اكتشف مواهب الكونت أراندا ، وعينه رئيساً لمجلس قشتاله . فجعل أراندا العبـــاءة والصمبريرة Sombrero أى القبعة العريضة الحافة الزى الرسمى للبلاد . وكان فى هذا المعنى الجديد المتضمن ما زهد الناس فى ارى القديم ، ومن ثم اتخذ معظم أهل مدريد الزى الفرنسى .

كان أراندا سليل أسرة عريقة غنية فى أراجون . رأيناه يتشرب التنوير فى فرنسا ، كذلك ذهب إلى بروسيا حيث درس التنظيم العسكرى ثم عاد إلى أسبانيا متشوقا إلى العمل على أن يصل وطنـــه إلى مستوى تلك الدول الشمالية . وأفرط أصحابه الموسوعيون فى الجهر باغتباطهم لتقلده السلطة ، وأحزنه أنهم بذلك زادوا مهمته صعوبة ، (٣٤) وود لو أنهم درسوا

الدبلوماسية من قبل . وقد عرف الدبلوماسية السياسية بأنها فن « اعادة تنظيم قوة مختلف السلطات ، ومواردها ، ومصالحها ، وحقوقها ، ومخاوفها وآمالها ، حتى إذا سمحت المناسبة استطعنا أن نهدئ من هذه القوى ، أو نفرق بينها ، أو نهزمها أو نتحالف معها ، وذلك رهن بكيفية خدمتها لمصالحنا وزيادتها لأمننا » (٣٥) .

وكان الملك فى حالة نفسية مواتيه لإصلاحات الكنيسة لتوجسه من أن الاكليروس شجعوا الثورة على سكللاتشى سراً (٣٦). وكان قد أذن للمطبعة الحكومية فى أن تطبع عام ١٧٦٥ مقالا غفلا من اسم الكاتب عنوانه Tratado de la regalia de l'amortizaction.
تشكك فى حق الكنيسة فى جمع الثروة العقارية ، وزعم أن الكنيسة ينبغى أن تكون خاضعة للدولة فى جميع الأمور الزمنية .وكان المؤلف هو كونديه بدرو رودريجز دى كومبومانيس ، وكان عضواً فى مجلس قشتالة . وكان شارل قد أصدر عام ١٧٦١ أمراً يشترط موافقة الملك على نشر الأوامر أو الرسائل البابوية فى أسبانيا ، وفى تاريخ لاحق ألغى هذا الأمر . ولكنه عاد فجدده فى ١٧٦٨ . وأيد الآن أراندا وكومبومانيس فى سلسلة من الإصلاحات الدينية شكلت من جديد وجه أسبانيا الفكرى طوال جيل مثير .

٢ – الإصلاح الدينى الأسبانى

لم يكن فى نية المصلحين الأسبان أن يقضوا على الكاثوليكية فى أسبانيا – ربما باستثناء أراندا . وكانت الحروب الطويلة التى خاضتها البلاد لطرد العرب (كالكفاح الطويل لتحرير إيرلنده) قد جعلت الكاثوليكية جزءاً من الوطنية وكثفتها إلى درجة إحالتها إلى إيمان قدسته تضحيات الأمة تقديساً لا يتيح التحدى الناجح أو التغيير الجذرى. وكان أمل المصلحين أن يخضعوا الكنيسة لإشراف الدولة ، وأن يحرروا عقل أسبانيا من رهبة محكمة التفتيش . وقد بدأوا بمهاجمة اليسوعيين .

كانت جماعة اليسوعيين قد ولدت بأسبانيا فى عقل اغناطيوس لويولا

وبجاربه ، وكان نفر من أعظم قادتها من أسبانا . وكما حدث فى البرتغال ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والنمسا اضطلعت الجماعة بالتعليم الثانوى ، وزودت الملوك والملكات بآباء الاعتراف ، وشاركت فى تشكيل السياسات الملكية . وقد أثار سلطانها المتسع غيرة الأكليروس الكاثوليكى غير الرهبانى ، وأحياناً عداءه .وكان بعض هؤلاء يؤمنون بأن سلطة المجامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات ، أما اليسوعيين فقد دافعوا عن سمو سلطة البابوات على سلطة المجامع والملوك . وشكا رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل مايتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب ، وقرروا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية . وآمن شارل بأن اليسوعيين مازالوا يشجعون مقاومة هنود براجواى لأوامر الحكومة الأسبانية (٣٧) ؛ وروعه أن يطلعه أراندا وكامبومانيس وغيرهما على خطابات أدعوا أنهم وجدوها بين رسائل اليسوعيين ، وقد صرح أحد هذه الخطابات الذين زعموا أن كاتبه هو الأب ريكى قائدالطائفة اليسوعية ، بأن شارل ابن غير شرعى ويجب أن يحل محله أخوه لويز . وقد رفض الكاثوليك وغير المؤمنين على السواء صحة هذه الخطابات (٣٩) ، ولكن شارل ظنها صحيحة وانتهى إلى أن اليسوعيين يأتمرون لخلعه ، وربما لقتله(٤٠). ولحظ أن محاولة — زعموا أن اليسوعيين كانوا ضالعين فيها — بذلت لاغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (١٧٥٨)، فصحت نيته على أن يحذو حذو يوسف ويطرد الطائفة من مملكته .

وحذره كامبومانيس من أن خطوة كهذه لن يتاح لها النجاح إلا بالإستعدادات المستورة تتبعها ضربه فجائيه مدبرة ، وإلا إستطاع اليسوعين الذين كانوا يحظون بتبجيل الشعب أن يثيروا ضجه مؤذية فى الأمه وممتلكاتها جميعا . وعملا بأقتراح أراندا أرسلت رسائل مختومة ممهورة بتوقيع الملك فى مطلع عام ١٧٦٧ إلى الموظفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا فى ٣١ مارس فى أسبانيا ، وفى ٢ أبريل فى المستعمرات ،

وألا كان الموت عقاب المخالفين . وفى ٣١ مارس أستيقظ اليسوعيون الأسبان ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، ويجدوا أنفسهم معتقلين. وأمروا بالرحيل فى هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطيقون حمله ، أما سائر ممتلكات اليسوعين فقد صادرتها الدولة . ومنح كل مبعد معاشا صغيرا يوقف أن عارض أى يسوعى فى طرده . ثم أخذوا فى عربات تحت الحراسه العسكرية إلى أقرب ميناء وأركبوا السفن إلى إيطاليا . وبعث شارل بكلمة إلى البابا كلمنت الثالث عشر يخبره أنه « ينقلهم إلى الأراضى الكنسية ليظلوا تحت أشراف قد استه الحكيم العاجل . . . . وأنى أرجو من قد استكم إلا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطا مدنيا لا غنى عنه ، لم أتخذه إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق[٤١] » .

فلما حاولت أولى السفن التى كانت تحمل سمائة من اليسوعيين ، أن تنزلهم فى تشيفبتافكيا ، رفض الكردينال توريجيانى ، السكرتير البابوى ، السماح لهم بالرسو محتجا بأن إيطاليا لا تستطيع بهذه السرعه المفاجئة أن تعنى بهذا العدد الكبير من اللاجئين[٤٢] . وظلت السفينة الأسابيع تجوب البحر المتوسط باحثة عن ميناء مضياف بينما يعانى ركابها البائسون من رداءة الجو ومن الجوع والمرض . وأخيرا سمح لهم بالنزول فى قورسقه ، وبعد حين أستوعبتهم الولايات البابوية فى جماعات سهلة القيادة . ولقى اليسوعيون فى غضون هذا النفى المماثل من نابلى وپارما وأمريكا الأسبانية والفلبين . وناشد كلمنت الثالث عشر شارل الثالث أن يلغى هذه المراسيم التى سيصعق العالم المسيحى كله لا محالة لما فيها من مباغتة وقسوة . فأجاب شارل « أننى لرغبتى فى أن أعفى العالم من فضيحه كبرى سأظل ما حييت مخبئا فى قلبى سر المؤامرة النكراء التى أقتضت هذه الصرامة . وينبغى لقداستكم أن تصدقوا كلمتى . فسلامة حياتى تفرض على الصمت العميق[٤٣] » .

ولم يفصح الملك قط عن الأدله التى أقام عليها مراسيمه . وفى التفاصيل من التناقض والغموض ما يجعل المرء عاجزا عن الحكم عليها . وقد اعترض

دالامبير على الطريقة التى نفى بها اليسوعيون ، ولم يكن بصديق لهم . فنى ٤ مايو ١٧٦٧ كتب إلى فولتير يقول :

« ما رأيك فى مرسوم شارل الثالث الذى طرد اليسوعين على هذا النحو المفاجىء ؟ ألا ترى ، رغم إقتناعى بأن لديه مبررات كافية ووجيهة ، بأنه كان ينبغى أن يفصح عنها لا أن يحبسها فى « قلبه الملكى » ؟ إلا ترى أنه كان ينبغى له أن يسمح لليسوعيين بتبرير أنفسهم ، لا سيما لأن الجميع واثقون أنهم ما كانوا يستطيعون هذا ؟ وألا ترى أيضا أن من الظلم البين لهم أن يتركوا جميعا ليموتوا جوعا بينما الواجب على أخ علمانى واحد ، ربما يقطع الكرنب الآن فى المطبخ ، أن يقول كلمة بطريقة أو بأخرى فى الدفاع عنهم ؟ . . . إلا يبدو لك أنه كان مستطيعا أن يتصرف بتعقل أكثر فى تنفيذ أمر هو رغم كل شيء أمر معقول(٤٤) » ؟

أكان طردهم اجراء محببا لدى الشعب ؟ بعد عام من إستكمال هذا الطرد وفى عيد القديس شارل ، طلع الملك على شعبه من شرفة قصره ، فلما سألهم جريا على عادة مألوفه عندهم أى منحة يرغبون فى أن يهبهم صاحوا « بصوت واحد » أن يسمح لليسوعين بالعودة ، وأن يلبسوا رداء الأكليروس غير الرهبانى — فأبى شارل ، ونفى رئيس أساقفة طليطلة متهما أياه بأنه المحرض على الإلتماس الذى أشتبه فى أنه يهدف إلى التوفيق(٤٥) . ولما طلب البابا فى ١٧٦٩ إلى أساقفة أسبانيا رأيهم فى طرد اليسوعين ، وافق عليه أثنان وأربعون ، وعارضه ستة ، ولم يبد ثمانية رأيا فى الأمر(٤٦) . وأغلب الظن أن الكهنة من غير الرهبان كانوا مغتطين باعفائهم من منافسة اليسوعين لهم . ووافق الآخوة الأوغسطينيون فى أسبانيا على الطرد ، ثم أيدوا بعد ذلك مطالبة شارل الثالث بفض جماعة اليسوعين بجملتها(٤٧) .

أما ديوان التفتيش فلم يكن فى الأمكان إتخاذ إجراء معجل كهذا معه ، فقد كان أعمق من جمعية اليسوعين تغلغلا فى رهبة وتقاليد الشعب الذى عزا إلى الديوان الفضل فى صيانة الأخلاق والاحتفاظ بنقاء إيمانهم — بل حتى

تقاء دمائهم . وحين ولى شارل العرش كان الديوان يسيطر على عقل أسبانيا برقابة صارمة ساهرة . فأى كتاب تظن به الهرطقه الدينية أو الإنحراف الخلقى يقدم إلى الفاحصين ، فإذا رأوه خطرا بعثوا بتوصياتهم إلى مجلس ديوان التفتيش ، وللمجلس سلطة الأمر بمصادرة الكتاب وعقاب مؤلفه . وكان الديوان يصدر دوريا فهرسا بالكتب المحرمة ، وكان احراز كتاب منها أو قراءته دون إذن كنسى جريمة لا يغفرها إلا ديوان التفتيش ، وقد يعاقب مرتكبها بالجرم . وكان على القساوسة خصوصا فى الصوم الكبير أن يسألوا جميع المعترفين بذنوبهم أن كانوا يملكون أو يعلمون أن أنسانا يملك كتابا محظورا. وكل مقصر فى الإبلاغ عن أنتهاك للفهرس يعتبر مذنبا كمنتهكه ، وما كان لأية روابط أسرية أو علاقات ودية أن تعفيه من العقاب[٤٨] .

ولم ينجز وزراء شارل فى هذا المضمار سوى أصلاحات صغيرة . ففى ١٧٦٨ حد من سلطة الديوان فى رقابة المطبوعات باشتراط الحصول على التصديق الملكى على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها . وفى ١٧٧٠ أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والإرتداد دون غيرهما ، وإلا تسجن إنسانا ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع . وفى ١٧٨٤ أمر بأن تعرض عليه اجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء ، وأعضاء مجلس الوزراء والموظفين الملكيين ، لمراجعتها . ثم عين رئيسا عاما للديوان أبدى موقفا أكثر تحررا بأزاء خلافات الفكر[٤٩] .

وكان لهذه الاجراءات المتواضعة بعض الأثر ، لأن الرئيس العام لديوان التفتيش قرر فى حزن أن الخوف من اللوم الكنسى على قراءة الكتب المحرمة يكاد يصبح فى خبر كان[٥٠] ، وكان وكلاء الديوان بعد ١٧٧٠ بوجه عام أقل غلوا ، وعقوباته أرحم من ذى قبل . ومنح التسامح الدينى للبروتستنت فى عهد شارل الثالث ، وللمسلمين فى ١٧٧٩ ، وأن لم يمنح لليهود[٥١] . وفى عهد شارل الثالث أحتفل بأحراق المنحرفين أربع مرات ، آخرها عام ١٧٨٠ فى أشبيلية حين أحرقت عجوز أتهمت بالسحر ، وأثار إعدامها

هذا من النقد فى كل ارجاء أوربا[٥٢] ما مهد الطريق لالغاء ديوان التفتيش الأسبانى فى ١٨١٣ .

ومع ذلك ظلت حرية الفكر إذا أعرب صاحبها عنها حتى فى عهد شارل الثالث تعاقب قانونا بالموت . ففى ١٧٦٨ أتهم بابلو أولافيدى أمام ديوان التفتيش بحيازته صورا بذيئه فى بيته بمدريد ، وربما كانت نسخا من عرايا بوشيه ، لأن أولافيدى كان قد جاب فرنسا حتى فرنيه . ثم رمى بتهمه أخطر فى ١٧٧٤ ، هى أنه لم يسمح بأقامة أديرة فى القرى النموذجيه التى أنشأها فى سيرا مورينا ، وأنه حظر على الكهنه تلاوة القداس فى غير يوم الأحد أو طلب الصدقات . وأحاط ديوان التفتيش الملك بأن هذه الجرائم وغيرها قد أثبتت بشهادة ثمانين شاهدا . وفى ١٧٧٨ أستدعى أولافيدى لمحاكمته وأتهم بتأييده نظرية كوبرنيق الفلكية وتراسله مع فولتير وروسو . فرجع الرجل عن أخطائه وتصالح مع الكنسيه ، وصودرت كل أملاكه ، وحكم عليه بالحبس فى دير ثمانية أعوام . وفى ١٧٨٠ تداعت صحته . وسمح له بالأستشفاء بمياه منتجع معدنى فى قتلونيه ، ومنها فر إلى فرنسا . حيث أستقبله أصحابه الفلاسفة فى باريس استقبال الأبطال . ولكنه لم يقض فى منفاه بضع سنوات حتى أستبد به الحنين إلى مغانيه الأسبانيه . فألف كتابا مشربا بروح التقوى عنوانه « الإنجيل المنتصر أو الفيلسوف المهدى » وعليه أذن ديوان التفتيش بعودته[٥٣] .

ونلاحظ أن محاكمة أولافيدى جرت بعد سقوط أراندا من رآسة مجلس قشتالة وفى أخريات حكم أراندا أنشأ مدارس جديدة يقوم بالتدريس فيها أكليروس غير رهبانى لملء الفراغ الذى خلفه اليسوعيون ، وأصلح العمله باحلال نقود من نوع جيد وتصميم أرقى محل العملات الممذوقه (١٧٧٠). على أن إحساسه بأستنارته الفائقة جعله بمضى الزمن نزقا متغطرسا وقحا . فبعد أن جعل سلطة الملك مطلقة سعى إلى تقييدها بزيادة نفوذ الوزراء . وفقد القدرة على الرؤية المتناسية وتقدير الأمور فى أوضاعها الصحيحة ، وحلم باخراج أسبانيا بعد جيل واحد من كتلتها المطمئنه إلى تيار الفلسفه

الفرنسية . وأعرب فى جرأة مغالية عن أفكاره المهرطقة ، حتى لكاهن اعترافه . ومع أن الكثير من رجال الأكليروس غير الرهبان أيدوا بعض إصلاحاته الكنسيه لمـــا فيها من نفع للكنسيه[٥٤] ، فأنه أخاف عددا أكبر بالكشف عن أمله فى حل ديوان التفتيش جملة[٥٥] . وأشتد كره الناس له حتى أنه لم يجرؤ على الخروج من قصره دون حرس . وراح يكثر من الشكوى من ثقل أعباء وظيفته حتى أخذه شارل آخر الأمر عند كلمته فأوفده سفيرا إلى فرنسا (١٧١٣ — ٨٧) وهناك تنبأ بأن المستعمرات الانجليزيه فى أمريكا ، التى بدأت ثورتها آنذاك ، ستصبح فى الوقت المناسب من أعظم دول العالم[٥٦] .

٣ — الاقتصاد الجديد

سيطر على الوزارة بعد رحيل أراندا ثلاثة من الرجال الأكفاء . فخلف خوزيه مونينو ، كونت فلوريدا بلانكا ، جريمالدى وزيراً للشئون الخارجية (١٧٧٦) ، وسيطر على مجلس الوزراء حتى عام ١٧٩٢ . وقد تأثر بالفلاسفة الفرنسيين كما تأثر أراندا ولكن بدرجة أقل . وأرشد الملك فى اجراءات لتحسين الزراعة والتجارة والتعليم والعلوم والفنون ، ولكن الثورة الفرنسية أخافته فانتكس محافظا ، وقاد أسبانيا إلى أول تحالف ضد فرنسا الثورة (١٧٩٢) . أما بدرو دى كامبومانيس فقد ترأس مجلس قشتالة خمس سنين ، وكان المحرك الأول فى الاصلاح الاقتصادى . وأما جسبار ملكور دى خوفللانوس ، أرفع الأسبان فى جيله[٥٧] » فقد عرفته الجماهير أول ما عرفته قاضيا رحيما نزيها فى أشبيلية (١٧٦٧) ومدريد (١٧٧٨) . وجاء أكثر نشاطه فى الحكومة المركزية تاليا لعام ١٧٨٩ ، ولكنه أسهم إسهاما قوياً فى السياسية الاقتصادية أيام شارل الثالث بكتاب ألفه فى الاصلاح الزراعى (١٧٨٧) . وقد أذاع اقتراحه مراجعة القانون الزراعى ، وهو الاقتراح الذى كتبه برشاقة أسلوب كاد يدانى بها رشاقة أسلوب شيشيرون ، شهرته فى أوروبا طولا وعرضا . هؤلاء الثلاثة ، بالاضافة إلى أراندا ، كانوا أباء التنوير الأسبانى والاقتصاد الجديد . ويرى دارس انجليزى ، بوجه عام ، أن النتيجة الطيبة التى حققوها تضارع ما تحقق فى مثل هذا

الزمن القليل فى أى بلد آخر ، ولا ريب فى أن تاريخ أسبانيا لا يحوى فترة يمكن مقارنتها بحكم شارل الثالث[٥٨] .

كانت العقبات التى اعترضت الاصلاح فى أسبانيا لاتقل خطرا فى الاقتصاد عنها فى الدين . فقد بدأ تركيز الملكية الثابته فى الأسر الشريفه أو الجماعات الكنسية ، واحتكار « المستا » لإنتاج الصوف ، حاجزين فى وجه التغيير الاقتصادى لاسبيل إلى التغلب عليهما . وكان ملايين الأسبان يفخرون بحياة الكسل التى يحيونها ، ولا يخجلون من التسول ، وكانوا لايثقون فى التغيير لأنه خطر يهدد التبطل(*). وكان المال يختزن فى خزائن القصور والكنائس بدلا من استثماره فى التجارة أو الصناعة. وكان طرد المغاربة واليهود والموريسكو قد أزال كثيرا من مصادر تحسين الزراعة وتطوير التجارة . وقد نجم عن صعوبات الاتصال والنقل الداخليين أن تخلف داخل البلاد قرنا عن برشلونه واشبيلية ومدريد .

على أن فريقا من صادق النية — نبلاء وقساوسه وأفرادا من طبقة العامة رجالا ونساء — كونوا رغم هذه المعوقات « جمعية اقتصادية لأصدقاء السلام » لدراسة وتشجيع التعليم والعلوم والصناعة والتجارة والفنون . فأنشأوا المدارس والمكتبات ، وترجموا الأبحاث الأجنبية وقدموا الجوائز على المقالات والأفكار ، وجمعوا المال لمشروعات وتجارب اقتصادية تقدمية. وقد أدانوا تكديس الأمة للذهب باعتباره أثراً مذكراً بالركود ، وذلك اعترافاً منهم بتأثير الطبيعيين الفرنسيين وآدم سمث . وأكد واحد منهم : « ان الأمة التى تملك معظم الذهب هى أفقر الأمم ... كما أثبتت أسبانيا[٦٠]. ورحب خوفللانوس بـ « علم الاقتصاد المدنى » باعتباره « علم الدولة الحقيقى». وكثرت المقالات الاقتصادية . وكان مقال كاميومانيس عن الصناعة الشعبية إلهاما للآلاف ومنهم الملك .

(*) قرر قانون أراجونى أن يزود كل نبيل من طبقة الهيدلج كلا من أبنائه بمعاش لأنه « لا يليق بالنبيل أن يشتغل » (٥٩) .

وبدأ شارل باستيراد الغلال والبذور للأقاليم التى اندثرت فيها الزراعة. وحث المدن على أن تؤجر أراضيها المشاع غير المزروعة للفلاحين بأقل إيجار عملى . وأنشأ فلوريدا بلايكا ببعض إيرادات التاج من دخول الرتب الكنسية الشاغرة أرصدة دينية فى بلنسية وملقا لاقراض المال للمزارعين بفائدة منخفضة . ولكى يحد شارل من ازالة الغابات وتعرية التربة أمر جميع الكومونات بأن تزرع كل سنة عدداً محدداً من الاشجار . ومن هنا ذلك الاحتفال السنوى بـ « يوم الشجرة » الذى ظل فى نصفى الكرة تقليداً صحياً أيام شبابنا . وقد شجع اغفال الأوقاف القديمة ، وثبط وقف الجديد منها ، وبهذا يسر تجزئة الضياع الكبيرة إلى ملكيات للفلاحين . ثم اختزلت امتيازات إحتكار أغنام المستا اختزالا حاداً وأبيح زرع مساحات كبيرة من الأرض كانت من قبل حكرا للرعى . واستقدم المستعمرون الأجانب لتعمير المناطق الخفيفة السكان ، مثال ذلك أن أولافيدى انشأ (١٧٦٧ وما بعدها) فى اقليم سبيرا مورينا بجنوب غربى أسبانيا ، الذى كان إلى ذلك الحين متروكا للصوص والوحوش ، أربعا وأربعين قرية وإحدى عشرة مدينة مأهولة بالوافدين الفرنسيين أو الألمان ، وأصبحت هذه المستوطنات مشهورة برخائها . وشقت القنوات الطويلة لربط الأنهار ورى مساحات واسعة من الأرض كانت من قبل جرداء قاحلة . ثم شقت شبكة من الطرق الجديدة كانت فى فترة خير الطرق فى أوربا [٦٢] ، فربطت القرى والمدن فى تيسير يعين على سرعة المواصلات والنقل والتجارة .

ومدت الحكومة يد العون للصناعة . ورغبة فى إزالة الوصمة التى الصقتها التقاليد بالعمل اليدوى ، أعلن مرسوم ملكى أن لاتعارض بين الأعمال الحرفية وشرف المكانة الاجتماعية ، وأن الحرفيين يصح منذ الآن اختيارهم للوظائف الحكومية . وانشئت المصانع النموذجية : للمنسوجات فى وادى الحجارة وسقوبية ، وللقبعات فى سان فرناندو ، وللحرائر فى طلبيره ، وللصينى فى بوين رتيرو ، وللزجاج فى سان إلدفونسو ، وللزجاج والأثاث الخشبى الفاخر وقطع النسيج المرسوم فى مدريد . وشجعت المراسيم الملكية تطور

الإنتاج الرأسمالي على نطاق واسع ، لاسيما فى صناعة النسيج . فكان فى وادى الحجارة عام ١٧٨٠ ثمانمائة نول تستخدم أربعة آلاف نساج ، وأدارت شركة واحدة فى برشلونه ستين مصنعا تضم ٢ر١٦٢ نولا نساج القطن ، وكان فى بلنسيه أربعة آلاف نول تنسج الحرير ، وأخذت تنافس تجارة ليون فى الحرير لما حظيت به من امكانات التصدير . وفى ١٧٩٢ كان فى برشلونة ثمانون الف نساج ، ولم يفقها فى انتاج الأقمشة القطنية غير أقاليم إنجلترة الوسطى .

وكانت أشبيلية وقادس تتمتعان منذ عهد بعيد باحتكار تحميه الدولة للتجارة مع الممتلكات الأسبانية فى الدنيا الجديدة ، فانهى شارل الثالث هذا الامتياز وسمح لمختلف الثغور بالاتجار مع المستعمرات ، ثم أبرم بعد التفاوض مع تركيا معاهدة (١٧٨٢) فتحت الموانى الإسلامية للسلع الأسبانية . وكانت النتائج مجزية لجميع الأطراف . وازداد ثراء أمريكا الأسبانية سريعا ، وارتفع دخل أسبانيا من أمريكا ثمانمائة فى المائة فى عهد شارل الثالث ، وتضاعفت تجارة صادرها ثلاث مرات[٦٣] .

وتطلبت أنشطة الحكومة المتسعة دخـولا أكبر . وقد أمكن الحصول عليها إلى حد ما باحتكار الدولة لبيع البراندى ، والتبغ ، وورق اللعب ، والبارود ، والرصاص ، والزئبق ، والكبريت ، والملح . وفى بداية العهد كانت هناك ضرائب مبيعات نسبتها خمسة عشر فى المائة فى قتلونيا ، وأربعة عشر فى قشتاله . وقد وصف خوفللانوس ضرائب المبيعات بحق إذ قال « إنها تفاجىء ضحيتها ... عند ميلادها ، وتطاردها وتعترضها حين تدور ، ولا تغفل عينها عنها أبدا أو تدعها تفلت منها حتى تقضى عليها . »[٦٤] وفى عهد شارل الثالث الغيت ضريبة المبيعات فى قتلونيا ، وفى قشتالة خفضت إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة فى المائة[٦٥] . وفرضت ضريبة متدرجة معتدلة على الدخول . وضمانا للمزيد من المـــال بتشغيل مدخرات الشعب ، أقنع فرانسسكو دى كاباروس الخزانة بأن تصدر سندات حكومية تقل فائدة . فلما هبطت هذه السندات إلى ثمانية وسبعين فى المائة من قيمتها الأسمية ،

أسس (١٧٨٢) أول مصرف قومى أسبانى — بنكو دى سان كارلوس — استهلك السندات بقيمتها الأسمية وأعاد الثقة المالية بالدولة .

وأثمر حسن الإدارة وروح الأقدام زيادة محسوسة فى ثروة الأمة فى جملتها . وكان أكثر الطبقات انتفاعا هى الوسطى ، لأن منظماتها هى التى أعادت تشكيل الاقتصاد الأسبانى . ففى مدريد كون ٣٧٥ من رجال الأعمال خمس نقابات تجارية كبرى سيطرت على معظم تجارة العاصمة . ونستطيع الحكم على مبلغ ثرائها من استطاعتها أن تقرض الحكومة عام ١٧٧٦ ثلاثين مليون ريال [٦٦] .

وقد حبذت الحكومة بوجه عام ظهور طبقة رجال الأعمال هذا باعتباره أمراً لاغنى عنه لتحرير أسبانيا من الاعتماد الاقتصادى والسياسى على دول ذات اقتصاد أرقى . ولم تحظ البرولتاريا الناشئة ، هنا شأنها فى تلك الدول ، بنصيب مذكور فى الثراء الجديد . وارتفعت الأجور لاسيما فى قتلونيه حيث شكا الأغنياء من صعوبة العثور على الخدم والاحتفاظ بهم [٦٧] ، ولكن يمكن القول بوجه عام أن الأسعار ارتفعت بأسرع من ارتفاع الأجور ، وإن الطبقات العاملة كانت فقيرة فى ختام العهد فقرها فى مطلعه . وقد لاحظ إنجليزى حساب بلنسيه فى ١٧٩٧ ذلك التناقض بين (ثراء . . التجـــار ، وأصحاب المصانع ، ورجال الدين ، والعسكريين ، والسادة من ملاك الأرض و « الفقر ، والبؤس ، والأسمال » التى ترى فى كل شارع [٦٨]. وعليـــه فقد رحبت الطبقات الوسطى بالتنوير Luees الآتى من فرنسا وإنجلترة فى حين كان موظفوهم الذين ملأوا الكنائس ولثموا المزارات يعزون أنفسهم بالنعمة الآلهية وبآمال الفردوس .

واتسعت المدن فى ظل الاقتصاد الجديد . وكان يعيش فى المراكز البحرية الكبرى — برشلونه وبلنسيه واشبيليه وقادس — سكان يتفاوتون من ٨٠٫٠٠٠ إلى ١٠٠٫٠٠٠ (١٨٠٠). وكان يسكن مدريد (فى ١٧٩٧) ١٦٧٫٦٠٧ ، بالإضافة إلى ٣٠٫٠٠٠ من الأجانب . وحين ولى شارل الثالث العرش كانت المدينة تشتهر بأنها أقذر عواصم أوربا . وكان الناس من سكان

الأحياء الفقيرة لا يزالون يفرغون قمامتهم فى الشوارع معتمدين على الريح أو المطر لتبديدها ، فلما حظر شارل هذه العادة رموه بالطغيان . قال « إن الأسبان أطفال يبكون حين يحممون[٦٩] » . وقد أقام موظفوه رغم هذا نظاما لجمع القمامة وللصرف ، ونظم الزبالون لجمع النفاية لاستخدامها سمادا[٧٠] ، وبذل جهد لمنع التسول ولكنه باء بالفشل ، ورفض الشعب السماح للشرطة بالقبض على المتسولين — لا سيما المكفوفين منهم الذين شكاوا نقابة قوية فيما بينهم .

وأصلح شارل من أمر عاصمته عاما بعد عام . فجيء لها بالماء من الجبال إلى سبعمائة نافورة ، حمله منها ٧٢٠ سقاء فى مشقة وعناء لتوزيعه على بيوت المدينة . وأضيئت الشوارع بمصابيح الزيت من الغسق إلى نصف الليل طوال شهور ستة فى الخريف والشتاء ، وكان أكثر الشوارع ضيقا ملتويا يتبع دروبا عتيقة متعرجة ويتوارى من شمس الصيف ، ولكن بعض الشوارع المشجرة العريضة الجميلة شقت ، وتمتع الشعب بالبساتين الفسيحة والمماشى الظليله . وكان أحبها إلى الناس (باسيوديل برادو) أو متنزه المرج ، الذى لطفت هواءه النوافير والأشجار ، وفضله العشاق للاستطلاع ولقاءات الغرام . وهناك فى ١٧٨٥ بدأ خوان دى فيللا نوفا تشـييد متحف البرادو . وهناك فى أى يوم تقريبا كانت تجرى أربعمائة مركبة ، وفى أى عشية كان يتجمع ثلاثون ألف مدريدى . وحظـر عليهم التغنى بالأغانى البذيئة ، أو الاستحمام عراة فى النوافير ، أو عزف الموسيقى بعد منتصف الليل ، ولكنهم كانوا يستمتعون بأصوات النساء الرخيمة وهن ينادين على البرتقال والليمون والبندق . ذكر الرحالة أن المشهد الذى كان يرى كل يوم على البرادو فى أخريات القرن الثامن عشر كان يعدل ما يرى فى مدن أخرى فى الفترة نفسها فى الآحاد والعطلات فقط[٧١] ، وأصبحت مدريد آنئذ ، كما عادت فى عصرنا هذا ، من أجمل مدن أوربا .

لم ينجح شارل الثالث فى السياسة الخارجية نجاحه فى الشئون الداخلية . وبدا أن ثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا تتيح فرصة الانتقام للخسائر التى منيت بها أسبانيا فى حرب السنين السبع ؛ فحث أراندا شارل على تقديم

العون للثوار ، فبعث لهم الملك سرا بمليون جنيه (يونيو ١٧٧٦) . وأفضت هجمات القراصنة الإنجليز على السفن الإسبانية آخر الأمر إلى إعلان أسبانيا الحرب على إنجلترا (٢٣ يونيو ١٧٧٩) . واستعادت قوة أسبانية مينورقه ، ولكن محاولة الأسبان الاستيلاء على جبل طارق باءت بالفشل . واتخذت العدة لغزو إنجلترا ، ولكن الغزو عطلته العواصف (البروتستنتية) وفى صلح فرساى (١٧٨٣) سحبت أسبانيا مطالبتها بجبل طارق ولكنها استعادت فلوريدا .

وأحـزن الملك فى سنيه الأخيرة إخفاقه فى استرداد وحدة الأراضى الأسبانية وكانت الحروب قد أتت على شطر كبير من الثروة التى انتجها الاقتصاد الجديد . ولم يستطع وزراؤه الأكفاء أن يتغلبوا قط على قوتين شديدتين من قوى المحافظة — كبار النبلاء بضياعهم الشاسعة ، والاكليروس بما لهم من مصلحة راسخة فى سذاجة الشعب . أما شارل نفسه فندر أن تذبذب فى ولائه الأصيل للكنيسة . ولم يعجب به شعبه قط إعجابه حين يراه — وقد لقى موكبا دينيا — يعطى مركبته للأسقف حامل القربان ثم ينضم إلى الموكب سائراً على قدميه . وأكسبه ورعه المحبة التى افتقدها من الشعب وهو الغريب الوافد من إيطاليا — فى العقد الأول من حكمه . فلما وافته منيته (١٤ ديسمبر ١٧٨٨) ، بعد أربعة وخمسين عاما حكم فيها نابلى وأسبانيا ، كان كثيرون يرون فيه أبر ملوك أسبانيا إن لم يكن أعظمهم . وقد تجلت فطرته الطيبة الرقيقة حين سأله الأسقف القائم على خدمته وهو على فراش الموت هل غفر لأعدائه جميعاً ، فقال متسائلا « كيف انتظر جواز المرور هذا قبل أن أغفر لهم ؟ لقد غفرت لهم أجمعين فى اللحظة التالية للإساءة [٧٢] » .

٦ — الخلق الأسبانى

أى طراز من الناس كان أسبان القرن الثامن عشر هؤلاء ؟ الأجماع على أنهم كانوا قوما أفاضل إذا قيسوا بنظرائهم فى إنجلتره أو فرنسا . وكان لهم من تدينهم الشديد ، ومن شجاعتهم وإحساسهم بالشرف ، ومن تماسكهم ونظامهم الأسريين ، عوامل تصحيح قوية لحساسيتهم الجنسية وكبريائهم

العدوانية ، حتى مع تكريسهم شوفينية مشبوبة فى مسائل العرق والدين . وقد أعاق الانتخاب الجنسى الشجاعة لأن النساء الأسبانيات وهن يطلبن الحماية كن يمنحن أرق ابتساماتهن للرجال الذين يواجهون الثيران فى الحلبة أو الشوارع ، أو الذين يبادرون برفض الإهانة والثأر لأنفسهم ، أو الذين يعودون من الحرب مكللين بغار الانتصار .

ولانت الفضائل الجنسية بتدفق الأفكار والعادات الفرنسية . وكانت الصبايا يحرسن حراسة مشددة ، وكان رضا الوالدين (بعد١٧٦٦) شرطاً قانونياً للزواج ، ولكن النساء فى المدن الكبيرة كن بعد الزواج ينغمسن فى الغزل والمعابثة وأصبح « الفارس التابع » ملحقا ضرورياً للسيدة العصرية ، وازداد الفجور (٧٣) . وابتدعت جماعة صغيرة تدعى « الماخو » و« الماخا » مظهراً فذا من مظاهر الحياة الأسبانية . وكان الماخو رجالا من الطبقة الدنيا يلبسون كالغنادير ، ويرتدون العباءات الطويلة ، ويطيلون شعورهم ، ويغطون رؤوسهم بقبعات عريضة الحافة ، ويدخنون السيجار الكبير ، وكانوا على استعداد دائم للعراك ، يعيشون عيشة بوهيمية على نفقة خليلاتهم — الماخا — كلما أمكن ذلك . ولم يعبأوا بالقانون فى اتصالاتهم الجنسية ؛ وكان للماخا فى كثير من الحالات زوج يعولها بينما تعول هى خليلها الماخو ، ويعرف نصف العالم الماخا ، كاسية أو عارية من فرشاة جويا .

أما الفضيلة الاجتماعية فكانت عالية المستوى نسبياً . لقد وجد الفساد السياسى والتجارى ، ولكن ليس على النطاق الواسع المعروف آنئذفى فرنسا أو انجلترة ، ذكر رحاله فرنسى أن « الأمانة الأسبانية مضرب الأمثال وتتجلى واضحة فى العلاقات التجارية » (٧٤) . فكانت كلمة السيد الأسبانى مستنداً أدبياً سارى المفعول من اشبونة إلى سانت بطرسبرج . وكثيراً ما كانت الصداقة فى أسبانيا أبقى من الحب . أما البر بالفقراء فوفور . ففى مدريد وحدها كانت المؤسسات الدينية توزع كل يوم ثلاثين ألفاً من قصاع الحساء المغذى على الفقراء(٧٥) . وأسس الكثير من المستشفيات والملاجىء الجديدة ،

ووسع الكثير من القديم منها أو حسن . وكان جل الأسبان كرماء رحماء إلا مع المهرطقين والثيران .

وكان قتال الثيران ينافس الدين والجنس والشرف والأسرة محلا لحب الأسبان . وكان الدفاع عن هذه المعارك ، شأنه شأن العاب المجالدة فى روما القديمة ، يقوم على أساسين ، أن الشجاعة يجب أن ترنى فى الرجال ، وأن الثيران لا بد أن تموت قبل أن تؤكل . وقد حرم شارل هذه المعارك ، ولكنها أستؤنفت بعد موته بقليل . وكان مهرة المصارعين الفرسان ومغامروهم معبودى الطبقات كلها. وكان لكل منهم أنصاره، فدوقة ألبا تؤثر كوستيللاريس ودوقه أوزونا تؤثر روميرو، وقسم الحزبان مدريد كما قسم جلوك ويتشيني باريس . وراهن الرجال والنساء بأرزاقهم على مصير الثيران ، وعلى كل شيء آخر تقريباً .وكان القمار محرماً بالقانون ولكنه شائع ، لا بل كانت البيوت الخاصة تدير أمسيات للقمار وكانت المضيفات يقبضن رسوم اللعب .

وتخلت ملابس السادة شيئاً فشيئاً عن العباءة السوداء المقبضة والياقة الصلبة التى تزيا بها الجيل السابق ، واستبدلت بها الزى الفرنسي — وهو السترة الملونة والصدرة الطويلة من الساقان أو الحرير ، وسراويل الركوب ، والجوارب الحريرية الطويلة ، والحذاء ذو المشبك ، يتوج هذا كله باروكة وقبعة مثلثة الأركان . أما المرأة الأسبانية فألفت أن تجعل من مفاتنها سراً غامضاً مقدسا تلفها فى صدرات من الدنتللا وتنورات طويلة، ذات أطواق موسعة أحياناً . وتستعمل براقع من قماش الطرح إخفاء لعيونهن التى يود المعجب الأسبانى لو أغرق روحه فى أعماقها المظلمة. وكانت السيدة فى القرن السابع عشر نادراً ماتكشف عن قدميها لأنظار الرجال . أما الآن فقد قصرت الجونلة إلى بضع بوصات فوق الأرض ، واستعيض عن الخفين المستويين بحذاء مدبب عالى الكعب . وقد أنذر الوعاظ بأن تعرية النساء لأقدامهن على هذا النحو غير المهذب إنما يزيد نار الرجال المتقدة اشتعالا . ولكن النساء ابتسمن ، وزين أحذيتهن ، ونشرن تنوراتهن ، ورو حن بمراوحهن

حتى فى أيام الشتاء . وكانت ازابيللا فارنيزى تملك ذخيرة من ١٦٢٦ مروحة زين بعضها برسوم لرسامين ذوى شهرة قومية .

وكانت الحياة الاجتماعية مقيدة فى كل شىء إلا المراقص . فاجتنبت المجتمعات فى الأمسيات النقاش الجاد مؤثرة عليه الألعاب والرقص والغزل . وكان الرقص غراماً كبيراً فى أسبانيا ، وقد أفرخ ألواناً أشتهرت فى أوربا . فكانت « الفاندانجو » ترقص على ميزان ثلاثى بالصاجات . أما السجيديللا فيؤديها زوجان أو أربعة أزواج من الراقصين ، بمصاحبة الصاجات وبالغناء عادة ، وقد اتخذت رقصة مشتقة منها تسمى البوليرو شكلها حوالى ١٧٨٠ ، وسرعان ما اكتسبت شعبية مجنونة . وفى رقصة الكونترادانزا كان صف من الرجال يواجه صفاً من النساء فى تقدم وتأخر متناوبين ، وكأنما يرمز هذا إلى تكتيك الحرب الأبدية بين المرأة والرجل ، أو كان أربعة أزواج يؤلفون ويحيطون مربعاً فى رقصة فخمة تدعى الكونترا دانزا كوادرادا — أى الكدريل . وكانت حفلات الرقص المقنع تجتذب أحياناً ٣,٥٠٠ من الراقصين المتحمسين ، وكان القوم فى المرافع يرقصون حتى مطلع الفجر .

وجعلت هذه الرقصات الحركة شعرا حيا وحافزاً جنسيا. قيل إن المرأة الأسبانية التى ترقص السجيديللا كان فى رقصها من الإغراء ما يخرج البابا ومجمع الكرادلة بأسره عن وقارهم (٧٦). وقد وجد كازانوفا نفسه شيئاً يتعلمه فى أسبانيا فقال :

« حين أوشك الليل أن ينتصف بدأت أعنف الرقصات وأكثرها جنونا ... وهى الفندانجو ، التى ظننت فى سذاجتى اننى طالما شهدتها ، والتى فاقت (هنـــا) أشد تصوراتى جموحا ... فى إيطاليا وفرنسا يحرص الراقصون على تجنب الايماءات التى تجعل هـــذه الرقصة أكثر الرقصات شهوانية . ويخطو الزوجان — راقص وراقصة — ثلاث خطوات فقط ، ثم يرتميان فى مختلف الأوضاع الفاجرة وهما يصاحبان الموسيقى بالمصاحبات ويعرضان قصة العشق كلها من مولده إلى ختامة ومن أول تنهيده إلى آخر نشوه . فلم أملك لشدة انفعالى إلا أن أصيح عاليا . » (٧٧)

وقد عجب من سماح ديوان التفتيش برقصة مثيرة إلى هذا الحــد ، فقيل له أنها « محرمة تحريما باتا ، ولولا أن الكونت اراندا اذن بها لما جرؤ أحد على رقصها » .

وارتبطت بالرقص ألوان من الموسيقى الأسبانية كانت من أحبها إلى الشعب ، مثال ذلك أن الكانتى فلامنكو أو الغناء الغجرى (الفلمنكى) استخدم نغمة شاكية عاطفية كان كل المغنين الغجــر يصاحبون بها « السجيديللا جيتانا » . ولعل هذه الأغانى الشعبية كانت أصداء لألحان مغربية ، أو لعلها عكست النوعية المكتئبة للدين والفن الأسبانيين ، أو العجز المسخط عن الوصول إلى جسد المرأة ، أو انقشاع الوهم عقب الوصال . وقد وفدت نغمة أبهج بوفود الأوبرا الإيطالية (١٧٠٣) وأغانى فازينللى . ولكن « الخصى » العجوز فقد الحظوة فى عهد شارل الثالث بعد أن ظل يشدو بأغانيه طوال عهدين ، وقد أنزله شارل عن عرشه بهذا السطر « أن الديوك المخصية لا تصلح إلا للأكل [٧٨] » . واتصل النفوذ الإيطالى بمجىء سكارلاتى ، وانتصر مرة أخرى بمجىء بوكيرينى الذى قدم فى ١٧٦٨ ، وسيطر على موسيقى البلاط على عهد شارل الثالث وشارل الرابع ، ومكث بأسبانيا حتى وافاه الأجل (١٨٠٥) .

وبحركة عكس هذه الحركة وفق فنشنتى مارتن أى سولار ، بعد أن حقق لنفسه الشهرة فى أسبانيا ، فى أن يخرج الأوبرا الإيطالية فى فلورنسه ، وفيينا ، وسانت بطرسبرج ونافست صوناتات أنطونيو ســولر على الهاربسكورد صونتات سكارلاتى ، وحول دون لويز ميسون « التونادا » أو السولو الصوتية ، إلى « التوناد يللو » فاصلا من الغنــاء بين فصول المسرحية . وفى ١٧٩٩ أنهى أمر ملكى حكم الموسيقى الإيطالية فى أسبانيا بحظر أداء أى تمثيلية ما لم تكتب باللغة القشتالية ويمثلها ممثلون أسبان[٧٩] .

والخلق الأسبانى لا يمكن صبه فى قالب متماثل واحد . فالروح الأسبانية تتفاوت بتفاوت المشهد الطبيعى من ولاية إلى ولاية ، وكان الأسبان المتفرنسون الذين تجمعوا فى مدريد طرازا يختلف كل الاختلاف عن المواطنين الذين

تجمدوا فى العادات الأسبانية . ولكننا قد نستطيع بعد أن نغض النظر عن الأقليات الدخيلة أن نتبين فى الشعب الأسبانى طبعا أصيلا متفردا . فقد كان فى الأسبانى كبرياء ولكن فى قوة صامته لا تستمد الكثير من الشوفينية أو القومية ، كانت كبرياء الفردية ، واحساسا مصمما بالكفاح المنفرد ضد الأذى الدنيوى أو الإهانة الشخصية أو الهلاك الأبدى . ولمثل هذه الروح كان يمكن أن يتبدى العالم الخارجى أمرا ذا أهمية ثانوية لا يستحق القلق أو الكد فى سبيله ، فلا أهمية إلا مصير النفس فى الصراع مع الإنسان والبحث عن الله . إذن فما أتفه مشكلات السياسة ، والسباق على المال ، والاعلاء من قدر الشهرة أو المنصب ، وحتى انتصارات الحرب لا مجد يكللها ما لم تكن انتصارات على أعداء الدين . اما وقد ضربت جذور الأسبانى فى صميم هذا الدين ، فقد كان فى استطاعته أن يقابل الحياة بهدوء رواقى ، وبإيمان بالقضاء والقدر ينتظر فى اطمئنان ثواب الجنة بعد المات .

٧ — العقل الأسبانى

حين قبل لويس الرابع عشر ما عرضه آخر ملوك الهابسبورج فى أسبانيا من الايصاء بتاجه لحفيد الملك العظيم ، صاح سفير أسبانى بفرساى فى ابتهاج « لم يعد الآن وجود لجبال البرانس ! » ولكن تلك الكتل الرهيبة لم تتزحزح عن موقفها عقبة كؤودا فى سبيل التنوير الفرنسى ، ورمزا للمقاومة التى ستلقاها محاولة قلة مخلصة أن تصبغ العقل الأسبانى بالصبغة الأوربية .

وقد فاجأ كامبومانيس الشيوخ بمقال فى التعليم الشعبى (١٧٧٤ — ٧٦) ، جعل من التوسع فى التعليم الشعبى أساسا لا غنى عنه لحيوية الأمة ونموها . ولم ير بعض كبار رجال الدين وملاك الأرض معنى لإزعاج الشعب بمعرفة لا لزوم لها قد تفضى فى النهاية إلى الهرطقة الدينية أو الثورة الاجتماعية . ولكن خوفيللانوس الذى لم يثنه هذا الاعتراض كافح لنشر الإيمان بالتعليم ، وكتب يقول « كثيرة هى الجداول المؤدية إلى الرخاء الاجتماعى ، ولكنها كلها تنبع من منبع واحد هو التعليم العام . »[٨١] وكان يعلل نفسه بأن التعليم

سيعلم الناس أن يفكروا ، وإن التفكير سيحررهم من سلطان الخرافة والتعصب ، وإن العلم الذى يطوره أمثال هؤلاء سيستخدم موارد الطبيعة لقهر المرض والفقر . وتقبل بعض كرائم النبيلات هذا التحدى ، والفن Junta de Damas لتمويل المدارس الإبتـــدائية . وانفق شارل الثالث مبالغ كبيرة فى إنشاء المدارس الأولية المجانية . وشارك أفراد غير رسميين فى تأسيس الأكاديميات لدراسة اللغات أوالأدب أو التاريخ أو الفن أو القانون أوالطب .

وكان طرد اليسوعيين ملزماً بإعادة تشكيل المدارس الثانوية وميسراً لها . وأمر شارل بتوسيع مقررات العلوم فى هذه الكليات ، وبتحديث كتبها المدرسية ، وبالسماح للعلمانيين بالتدريس فى أقسامها . وأعان الكليات بالمنح والهبات ، وقرر المعاشات للبارزين من المعلمين[٨١] » . ونصحت الجامعات بتدريس فيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت وليبنتز فى مناهجها . ورفضت جامعة سلمنقه النصيحة بحجة أن « مبادىء نيوتن ... وديكارت لاتشابه الحقيقة الموحى بها بالقدر الذى تشابهها به مبادىء أرسطو[٨٢] » ، ولكن معظم الجامعات الأسبانية قبلت التوجيه الملكى ، وكانت جامعة بلنسيه الآن (١٧٨٤) ، بطلابها البالغ عددهم ٢٫٤٠٠ ، أكبر المراكز التعليمية وأكثرها تقدماً فى أسبانيا . وأدخلت عدة طوائف دينية « الفلسفة الحديثة» فى كلياتها . وحث قائد الرهبان الكرملين الحفاة ، المعلمين الكرمليين على قراءة أفلاطون وأرسطو وشيشرون وفرنسيس بيكن وديكارت ونيوتن وليبنتز ولوك وفولف وكوندياك . هنا لم يكن للقديسين حكم . ودرست جماعة من الرهبان الأوغسطينيين هوبز ، وأخرى هلفيتوس . وكانت مثل هذه الدراسات تلحق دائماً بردود تفندها ، ولكن كثيراً من المؤمنين الغيورين فقدوا إيمانهم وهم يفندون دعاوى أعدائه .

من ذلك « حداثة » راهب فذ اشتهر يوم كان شارل لا زال شاباً ، ذلك هو بنيتو خيرونيمو فيخواى مونتنجرو الذى انفق الأعـــوام السبعة والأربعين الأخيرة من عمرة (١٧١٧ — ٦٤) فى دير بندكتى باوفيدو،

ولمع ذلك استطاع أن يدرس بيكن وديكارت وجاليليو وبسكال وجاسندى ونيوتن وليبنتز ، ورأى فى عجب وخجل كيف عزلت أسبانيا بعد سرفانتس عن التيارات الكبرى للفكر الأوربى . فأرسل من قلايته ، بين عامى ١٧٢٦ و١٧٣٩ ، سلسلة من ثمانية مجلدات سماها Teatro critico وهو لايعنى نقد المسرح ، بل الامتحان الدقيق للافكار . وقد هاجم فيها المنطق والفلسفة اللذين يدرسان فى أسبانيا فى أيامه ، وامتدح دفاع بيكن عن العلم الاستقرائى ، ولخص كشوف العلماء فى كثير من المجالات ، وهزأ بالسحر والكهانة والمعجزات الزائفة ، والجهل بالطب ، والخرافات الشعبية ، ووضع قواعد للوثوق بالتاريخ نسفت الأساطير القومية الساذجة فى غير رحمة ، وطالب بنشر التعليم بين جميع الطبقات ،ودافع عن حياة أكثر حرية وعلنية للنساء فى التعليم والمجتمع .

واجتمع حول كتبه شرذمة من الإعداء يتهمون وطنيته ويندون باقتحاماته . واستدعاه ديوان التفتيش أمام محكمته ، ولكنها لم تهتد إلى هرطقة صريحة لا فى شخصه ولا فى كتابه . وفى ١٧٤٢ استأنف حملته باول مجلدات خمس عنوانه « رسائل متفقهة مستطلعة » . وكان يكتب بأسلوب جيد ، مقرا بالتزام كل مؤلف التزاما إدبيا بأن يكون واضحا . ءاستطاب الجمهور تعليمه وشجاعته فتكاثر الطلب على « التياترو » و « الرسائل » حتى بلغ ما طبع منهما خمس عشرة طبعة حتى عام ١٧٨٦ . ولكنه لم يستطع قطع دابر الخرافة فى أسبانيا ، فظلت الساحرات والعفاريت والشياطين تملأ الجو وتخيف العقول ، ولكن كان جهده بداية السير على الدرب . ومن مفاخر طائفته أن يقوم بهذا الجهد راهب لزم قلايته المتواضعة دون أن يزعجه أحد حتى أوفته منيته وهو فى الثامنة والثمانين (١٧٦٤) .

وأكليريكى آخر هو الذى كتب أشهر كتاب نثرى فى أسبانيا فى القرن الثامن عشر . وكما حرص البندكتيون على إلا يلحق بفيجواى أذى ، فكذلك حمى اليسوعيون قسيسا منهم كان أهم إنتاج له نقدا لاذعا للمواعظ . وكان خوزيه فرانسسكو ذى ايزلا هو نفسه وأعظا بليغا ، ولكن أضحكته

أول الأمر ، ثم أزعجته ، الحيل الخطابية والأوهام الأدبية ، والتمثيل والتهريج الذى يجلب به بعض الوعاظ أنتباه الشعب ودراهمه فى الكنائس والميادين العامة . وفى ١٧٥٨ سخر سخرية لاذعة بهؤلاء المبشرين فى « قصة عن الراهب جيروندو الواعظ المشهور » . يقول الأب ايزلا إن الراهب جيروندو :

« ألف أن يبدأ عظاته بمثل أو نكته سوقيه أو شذرة غريبة أنتزعت من سياقها فبدت لأول وهلة غير منطقيه أو تجديفا أو كفرا حتى إذا ترك جمهوره لحظة مترقبا فى عجب أنهى عبارته وطلع بتفسير أحال كل ما قاله إلى ضرب من التفاهة الحقيرة . من ذلك أنه كان يعظ ذات يوم عن سر الثالوث فاستهل عظته بقوله « أنى أنكر إن الله موجود كوحدة فى الجوهر وثالوث فى الذات » ثم توقف لحظه . وتلفت السامعون بالطبع حولهم . . متسائلين ما عسى أن تكون خاتمة هذا التجديف المهرطق . واخيرا ، وبعد أن ظن الواعظ أنه قبض على ناصيتهم ، وأصل الحديث قائلا : « كذلك يزعم الأبيونيون ، والمارسيونيون ، والا ريوسيون ، والمانويون ، والسوسينيون ، ولكنى أثبت ضلالهم كلهم من الأسفار المقدسة ، والمجامع ، وآباء الكنيسه(٨٣) » .

وبيعت ثمانمائه نسخة من كتاب « الراهب جيروندو » خلال يوم من صدوره . وهاجمه الرهبان الوعاظ زاعمين أنه يشجع على احتقار رجال الدين . وأستدعى أيزلا أمام محكمة التفتيش ، وأدين كتابه (١٧٦٠) ، أما هو فلم يعاقب . ثم أنضم إلى أخواته اليسوعيين فى المنفى ، وأصيب فى الطريق بالشلل . وقضى ختام عمره فى بولونيا عائشا على المعاش الضئيل الذى منحته أياه الحكومه الأسبانية .

أما الشعر فكان يقرضه كل أسبانى ملم بالكتابه . وقد اجتمع فى ١٧٢٧ فى مباراة شعرية (عام ١٧٢٧) ١٥٠ متنافسا . واضاف خوفيلانوس الشعر والدراما لضروب نشاطه الأخرى فقيها ومربيا ورجل دولة . وأصبح بيته

فى مدريد ملتقى لرجال الأدب وقد ألف الهجائيات على طريقة جوفينال ، موبخا الفساد الذى وجده فى الحكومة والقانون ، وتغنى بمناهج الحياة الريفية الآمنه المطمئنه شأن كل ساكن للمدن . ونظم نقولا فرنانديز دى موراتن شعرا ملحميا تناول مغامرات كورتيز ، ويقول العارفون أن — هذه القصيدة « أرفع قصيدة من نوعها أنجبتها أسبانيا فى القرن الثامن عشر[٨٤] » .

وكانت الأشعار المرحة المهذبة التى نظمها دييجو جونزالز ، الراهب الأوغسطينى ، أحب إلى الشعب من قصيدته التعليمية « مراحل الإنسان الأربع » التى إهداها إلى خوفيللانوس . كذلك اتخذ دون توماس دى أيريارتى إى أوروبيزا إتجاها تعليميا فى قصيدته « فى الموسيقى » ، وكان خيرا منها « قصصه الخرافية » (١٧٨٢) التى طعنت مغامز العلماء وأكسبته شهرة لم تزل حية إلى اليوم . وترجم بعض مآسى فولتير وملاهى موليير . وسخر من الرهبان « الذين يتسلطون على السماوات وعلى ثلثى أسبانيا » ، وقد حاكمه ديوان التفتيش فانكر آراءه ، ومات بالزهرى وهو فى الحادية والأربعين (١٧٩١)[٨٥] .

وفى ١٧٨٠ أعلنت الأكاديمية الأسبانية عن جائزة تمنح لقصيدة تمجد الحياة الرعوية . فقال إيريارتى الجائزه الثانية ولم يغفر قط لصاحب الجائزة الأولى ، لأن خوان ميلانديز فالديس مضى قدما ليصبح كبير الشعراء الأسبان فى ذلك العهد . وتودد خوان إلى خوفيلانوس ، وحصل بنفوذه على كرسى الأنسانيات فى جامعة سلمنقه (١٧٨١) وهناك إقنع الطلاب أولا ، ثم الكلية ، بدراسة منهج أكثر إقتحاما ، بلغ إلى حد قراءة لوك ومونتسكيو . وألف فى أوقات فراغه فيما بين المحاضرات مجلدا من الأغانى والشعر الرعوى — هو أستحضارات حية لمشاهد الطبيعة فى أبيات بلغت من الرقة وكمال الصقل مالم تقرأه أسبانيا منذ أكثر من قرن . وكان للرضى الذى أسبغه عليه خوفللانوس الفضل فى ترقيته إلى منصب القضاء بسرقسطه وإلى محكمة القضاء العالى فى بلد الوليد ، وأضرت السياسة بشعره . فلما نفى خوفيللانوس (١٧٩٨) أقصى ميلانديز أيضاً . فجرد قلمه للتنديد بغزاة

أسبانيا الفرنسيين ، وخص منهم جوزف بونابرت ، ولكنه عاد إلى مدريد فى ١٨٠٨ ، وقبل وظيفة تحت رآسة جوزف بونابرت ، وصدم أسبانيا بقصائد يتملق بها سادته الأجانب . وفى حرب التحرير التى خلعت جوزف نهب الجنود الفرنسيون منزل الشاعر . وهاجمه هو نفسه الغوغاء الغاضبون، فهرب لحياته من أسبانيا . وقبل أن يعبر البيداسوا إلى فرنسا قبل آخر بقعه من التراب الأسبانى (١٨١٣) . وبعد أربع سنوات مات فقيرا مغمورا فى مونبلييه .

وكان ينبغى أن يكون لأسـبانيا كتاب مسرح أكفاء فى هذا العهد ، لأن الملوك البوربون كانوا ميالين للمسرح . وقد عملت على أضمحلاله ثلاثة عوامل : إيثار إيزابللا فارنيزى القوى للأوبرا ، وفليب الخامس لفاريناللى ، ومن ثم اعتماد المسرح على الجمهور الذى كان أكثر ما يستحسنه هـو « الفارص » ، والمعجزات ، والأساطير والشقشقات اللفظية ، وجهد كتاب الدراما الجادون لحبس تمثيلياتهم داخل « الوحدات الارسطاطالية » فى الحركة والمكان والزمان . وكان أحب كتاب المسرحية إلى الشعب فى ذلك القرن هو رامون فرانسسكودى لأكروز ، الذى كتب نحو أربعمائة فارص صغير يهجو فيها عادات الطبقتين الوسطى والدنيا وأفكارهما وحديثهما ، ويصور مع ذلك ذنوب الجماهير وحماقاتهم بعطف غافر . أما خوفيللانوس ، « رجل أسبانيا الجامع » فقد جرب الكوميدياً ، وظفر باستحسان الجمهور والنقاد جميعا بملهاته « المجرم المكرم » (١٧٧٣) : وفحواها أن سيداً أسبانيا يرفض مرارا وتكراراً أن يبارز غريما ثم يقبل التحدى أخيرا بعد الحاح ، ويقتله فى معركة عادلة ، ثم يحكم عليه بالاعدام قاض يتبين أنه أبوه . وقد أستهدف خوفيللانوس ، وهو المصلح على الدوام ، من تمثيليته هذه الوصول إلى التخفيف من القانون الذى اعتبر المبارزه جريمة كبرى .

أما الحملة الداعية إلى الوحدات الارسطاطالية فقد تزعمها الشاعر نيقولا فرنانديزدى موراتن : وواصلها حتى تكللت بالنجاح ابنه لياندرو . وقد أبهجت خوفللانوس أشعار هذا الفتى الباكرة ، فحصل له على وظيفة فى

السفارة الأسبانية بباريس . وهناك صادق جولدونى ، فوجهه إلى كتابة التمثيليات . وأغدق الحظ هباته على صوراتين الابن : فأوفد على نفقة الدولة ليدرس المسارح فى ألمانيا وإيطاليا وانجلترة . وحين عاد إلى أسبانيا منح وظيفة شرفية أتاحت له الفراغ اللازم للعمل الأدبى . وقدمت ملهاته الأولى لمسرح فى مدريد عام ١٧٨٦ ، ولكن عرضها عطل أربع سنوات ريثما يفرغ المديرون والممثلون من الجدل فى استطاعة تمثيلية تتبع قواعد أرسطو والتمثيلية الفرنسية أن تجتذب جمهوراً أسبانياً . وقد نجحت نجاحاً معتدلا . وانقلب موراتين مهاجما ، فى تمثيليته الكوميديا الجديدة (١٧٩٢) سخر من الملاهى الشعبية سخرية تقبل الجمهور بعدها الدرامات التى تدرس الخلق وتنير الحياة . وأشاد القوم بموراتين موليرا أسبانيا ، وسيطر على مسرح مدريد حتى غزا الفرنسيون أسبانيا عام ١٨٠٨ . وقادته ميوله الفرنسية وسياسته التحزرية كما قادت ميلانديز وجويا إلى التعاون مع حكومة جوزف بونابرت ، فلما سقط جوزف لم ينج موراتين من السجن إلا بشق النفس . ولجأ إلى فرنسا . ومات أخيراً بباريس فى ١٨٢٨ ، وهى السنة التى مات فيها ببوردو الرسام جويا الذى نفى نفسه عن وطنه مختارا .

٨ — الفن الأسبانى

ما الذى يمكن توقعه منه بعد اجتياح أسبانيا فى حرب الوراثة لأسبانية الطويلة ؟ لقد سلبت الجيوش الغازية الكنائس ، ونهبت المقابر ، وأحرقت الصورة ، وربطت خيولها فى المزارات المقدسة . ثم جاء غزو جديد بعد الحرب ، وخضع الفن الأسبانى طوال نصف قرن للنفوذ الفرنسى أو الايطالى فلما انشئت أكاديمية سان فرناندو عام ١٧٥٢ لإرشاد شباب الفنانين ومساعدتهم ، جاهدت لتقر فى أذهانهم مبادىء كلاسيكية جديدة غريبة كل الغرابة عن الروح الأسبانية .

وكافح الباروك كفاحا عنيفاً فى سبيل البقاء . وكان له ما أراد فى المعمار

والنحت . فانتصر فى الأبراج التى أضافها فرناندو دى كازيس أى نوفا (١٧٣٨) إلى كتدرائية سنتياجودى كومبو ستيلا ، وفى الواجهة الشمالية التى شيدها فنتورا رودريجيز (١٧٦٤) لهذا الصرح ذاته تذكاراً للقديس يعقوب حامى أسبانيا وقد زعمت إحدى الأساطير المحببة الشعب أن تمثالا للعذراء مقاماً على عمود فى سرقسطه دبت فيه الحياة وتكلم مع القديس يعقوب . فى ذلك الموقع شيدت التقوى الأسبانية « كنيسة عـذراء العمود » ، ولتلك الكنيسة صمم رودريجيز هيكلا هو مقصورة من الرخام والفضة يضم تمثال العذراء .

وأقيم قصران مشهوران فى عهد فليب الخامس . فقد اشترى على مقربة من سقوبية أرض دير ومزرعته الملحقة ، ووكل إلى فليبو يوفارا التوريني أن يشيد على هذه البقعة قصر سان الدفونسو (١٧١٩ وما يليها) ، وأحاط المبانى بحدائق وست وعشرين نافورة تنافس نافورات فرساى . وعرفت هذه المجموعة بلاجرانغا ، وقد كلفت الشعب ٤٥٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون . ولم تكد تكتمل حتى دمرت النار ليلة ميلاد عام ١٧٣٤ « القصر » الذى كان المقر الملكى بمدريد منذ عهد الأمبراطور شارل الخامس وانتقل فيليب إلى بوين رتيرو التى شيد فيها فليب الثانى قصرا فى ١٦٣١ . فظل هذا المقر الرئيسى للملك طوال ثلاثين عاما .

وصمم يوفارا قصرا ملكيا آخر عوضا عن « القصر » المحترق — يضم المساكن والمكاتب وحجرات الاجتماع ومصلى ومكتبة ومسرحا وحدائق — لو شيد لفاق فى فخامته أى قصر ملكى عرف يومها ، وكان النموذج وحده يحوى من الخشب كمية تكفى لبناء بيت . ولكن يوفارا عاجلته المنية قبل أن يبدأ البناء (١٧٣٦) . ورفضت إيزابلا فارنيزى تصميمه لفداحة تكاليفه ، فشيد خلفه جوفانى باتستا ساكيتى التورينى القصر الملكى (١٧٣٧ — ٦٤) القائم بمدريد اليوم — وطوله ٤٧٠ قدما ، وعرضه ٤٧٠ قدما ، وارتفاعه ١٠٠ قدم . هنا حل طراز النهضة المتأخرة محل الباروك : فكانت الواجهة ذات أعمدة دورية وايونية ، يتوجها درابزين انتشرت عليه تماثيل ضخمة

لملوك أسبانيا القدامى . وحين صحب نابليون أخاه جوزف ليملك فى هذا القصر قال وهما يصعدان السلم الفخم « ستكون أفضل منى منزلا[٨٦] » . وقد انتقل شارل الثالث إلى هذا الصرح الهائل عام ١٧٦٤ .

أما النحت الأسبانى ففقد بعض صرامته وجموده متأثراً بالفنين الفرنسى والإيطالى ، وخلع الضحاك على ملاكه (السيرافيم) والرشاقة على قديس أو قديسين. وكانت موضوعاته دينية على الدوام تقريباً ، لأن الكنيسة كانت تدفع للنحاتين أعلى الأجور . من ذلك أن رئيس أساقفة طليطلة أنفق ٢٠٠,٠٠٠ دوقاتية على حجاب المذبح الشفاف الذى أقامه نارسيسوتومى (١٧٢١) خلف خورس الكتدرائية : وهو مجموعة ملائكة من رخام يطفون على سحب من رخام ،وكان فى ممشى الكنيسة المسقوف فتحة جعلت الرخام وضاء ومنه اتخذ حجاب المذبح اسمه . وعاشت الواقعية القديمة فى تمثال « جلد المسيح[٨٧] » الذى نحته لوزيز كارمونا — وهو تمثال من الخشب ، رهيب بما فيه من آثار ضرب وجروح دامية . وأجمل منه تماثيل الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ، التى نحتها فرانسسكو فرجارا الإبن لكتدرائيات كوينسا (١٧٥٩) . وقد عدها سبان — برموديز ، فازارى أسبانيا ، أروع ما انتجه الفن الأسبانى .

وأعظم الأسماء فى فن النحت الأسبانى فى القرن الثامن عشر كان اسم فرانسسكو زاركيللو إى الكراز . مات أبوه ومعلمه ، وكان نحاتا فى كابوا ، وفرانسسكو فى العشرين وخلفه العائل الأول لأمه وأخته وستة إخوه . وكان الفتى أفقر من أن يستأجر الموديلات ، لذلك كان يدعو المارة ، بل المتسولين ليشاركوه غداءه وليرسمهم ، وربما كانت تلك هى الطريقة التى عثر فيها على الأشخاص لرائعته « العشاء الأخير » المحفوظة الآن فى « دير يسوع » بمرسيه . وبمساعدة أخته اينيس التى كانت ترسم وتعمل نموذجاًله ؛ وأخيه خوزريه ، الذى كان ينحت التفاصيل ، وأخيه القسيس باتريسيو ، الذى كان يلون الأجسام والثياب ، انتج فرانسسكو فى سنى عمره الأربع والسبعين ١,٧٩٢ تمثالا فيها الكبير وفيها الصغير ، بعضها ذو حيل لاطعم لها كعباءة

من المخمل المطرز فوق تمثال للمسيح ، بعضها مؤثر بتقواه البسيطة تأثيرا حمل مدريد على أن تعرض عليه مهام مجزية لتزيين القصر الملكى . ولكنه فضل البقاء فى وطنه مرسيه الذى شيعه عند وفاته عام ١٧٨١ فى مشهد جليل .

أما التصوير الأسبانى فى القرن الثامن عشر فكان يرزح تحت كابوس أجنبى مزدوج لم يفق منه حتى حطم جويا كل القيود بفنه الجارف الذى لم يسبق له نظير . جاءت أول الأمر موجة فرنسية بمجىء ران ورينيه وميشيل — آنج هواس ، ولوى — ميشيل فانلو . وقد أصبح هذا مصور البلاط لفليب الخامس ، ورسم لوحة هائلة للأسرة المالكة كلها ، بالبواريك والجونلات المطوقة ، وغيرها [٨٨] . ثم أقبل قطيع من الإيطاليين الذين يفيضون حيوية فانفيتللى ، واميجونى ، وكورادو .

ووصل جامباتستا تيبولو وأبناؤه إلى مدريد فى يونيو ١٧٦٢ . وعلى سقف غرفة العرش فى القصر الملكى الجديد رسموا صورة جصيه شاسعة « تمجيد أسبانيا » ، احتفالا بتاريخ الملكية الأسبانية وقوتها وفضائلها وتقراها وأقاليمها : فيها الأجسام الاسطورية الرمزية متوازنة فى الهواء ، والنريدات والتريتونات والزفيرات ، والجن المجنح ، والأطفال السمان ، والفضائل الرذائل محلقة فى الفضاء المنور ، وأسبانيا ذاتها متربعة على العرش وسط ممتلكاتها ، ممجدة بكل صفات الحكومة الصالحة . وعلى سقف غرفة الحرس رسم تيبولو « اينياس تقوده فينوس إلى معبد الخلود » . وعلى سقف الحجرة الملحقة بمخدع الملكة رسم ثانية « انتصار الملكية الأسبانية » . وفى ١٧٦٦ كلف شارل تيبولو بأن يرسم سبع لوحات لمذبح كنيسة القديس بسكال بأرانخيز ، واستخدم المصور فى احداها وجه حسناء أسبانية ليمثل حمل العذراء غير المدنس ، ولا تزال الصورة تتألق فى البرادو . وأدان كاهن الملك ، الأب خواكين دى إلكتا ما فى فن تيبولو من وثنية وفجاجات لأنها دخيلة على روح أسبانيا . وتاب تيبولو ، ورسم صورة قوية سماها انزال المسيح عن الصليب » [٨٩] ، وهى تأمل فى الموت تنيره الملائكة

الواعدة بالقيامة وأرهقت هذه الجهود الجبار الهرم ، فمات فى مدريد عام ١٧٧٠ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وبعد قليل ازيلت لوحات مذبح ارانجنيز وكلف أنطون روفائيل منجز برسم لوحات بدلها .

وكان منجز قد وفد على مدريد فى ١٧٦١ وهو فى الثالثة والثلاثين ، فتى قوى واثق من نفسه آمر ناه . ولم يكن شارل يشعر قط بارتياح لمرأى غيوم تيبولو المنورة — فآنس الآن فى هذا الألمانى المقحام الرجل المطلوب لتنظيم العمل الفنى اللازم للقصر . وفى ١٧٦٤ عين منجز مديرا لأكاديمية سان فرناندو ، وسيطر على التصوير الأسبانى فى فترات اقامته بأسبانيا . وقد أساء ترجمة الطراز الكلاسيكى إلى سكون لا دم فيه ولا حياة ، وأغضب بذلك تيبولو الشيخ وجويا الشاب . ولكنه كافح كفاحا نافعا لينهى اسراف الزخرفة الباروكية وشطحات خيال الروكوك . ومن أقواله أن الفن يجب أن يسعى أولا إلى « أسلوب طبيعى » بمحاكاته الأمينة للطبيعة ، وعندها فقط يستهدف الأسلوب السامى « الذى انتهجه الاغريق . فكيف السبيل إلى هذا التسامى ؟ بإقصاء الناقص وغير المتصل بالموضوع ، بالربط بين الكمالات الجزئية التى توجد هنا وهناك فى أشكال مثالية يتصورها خيال مدرب مع تجنب كل ضروب الاسراف .

وافتتح منجز انتاجه برسم أرباب أولمب على سقف مخدع الملك ، وزين مخدع الملكة بصورة مماثلة . وربما ادرك منجز أن صاحبى الجلالة ، لم يتبعاه تماما حتى جبل أولمب ، لذلك رسم رافدة مذبح للمصلى الملكى ، « ميلاد المسيح » و « انزال المسيح من الصليب » . وكان يضنى نفسه فى العمل ، ولا يأكل إلا قليلا ، وبات عصبى المزاج ، وانهارت صحته ، وخيل اليه أنه واجد البرء فى روما . ومنحه شارل أجازة مدها منجز إلى أربعة أعوام . وفى فترة اقامته الثانية بأسبانيا أضاف مزيدا من الرسوم الجصية إلى القصور الملكية فى مدريد وارانجيز . ولكن صحته تداعت مرة أخرى ، فالتمس من الملك الاذن له بالتقاعد فى روما . ومنحه الملك الطيب طلبته ، وأجرى عليه معاشا متصلا من ثلاث آلاف كراون فى العام .

ولكن ألم يكن فى أسبانيا آنئذ فنانون وطنيون يرسمون ؟ أجل كانوا كثيرين ولكن اهتمامنا الذى تضاءل مع بعد الشقة والزمان خلفهم على هامش الشهرة الخابية . كان هناك لويز ميلنديز للذى كاد يعدل شاروان فى صور الطبيعة الصامتة (الطيـــور والفواكه) ويحتفظ متحف البرادو بأربعين منها ، ومتحف بوسطن بمثال منها فاتح للشهية ، ولكن اللوفر يبزهما جميعا بصورة ذاتية رائعة . وهناك لويز باريت أى الكازار ، الذى بارى كاناليتو فى تصـــوير مناظر المدينة كما ترى فى لوحته Puerta de Sol — أكبر ميادين مدريد ، وأنطونيو فيلادامات ، الذى شهد له منجز بأنه أكفأ مصورى العصر الاسبان ، وفرانسسكو بايو إى سوبياس ، الرقيق المتجهم المخلص لفنه ، الذى نال الجائزة الأولى فى الأكاديمية عام ١٧٥٨ ، وصمم قطع النسيج لمنجز ، وأصبح صديقا ، وعدوا ، وصهرا لجويا .

٩ — فرانسسكو دى جويا أى لوسيينتس

أ — نشأته

اتخذ فرانسسكو اسم قديس حام شأن جميع الصبيان الايبيريين ، ثم اسم أبيه خوزيه جويا ، واسم أمه أورجاسيا لوسيينتس — أى ربة اللطف والنور . وكانت تنتمى إلى طبقة الهيدلج (أدنى طبقات النبلاء) ومن هنا إضافة « دى » التى أدخلها فرانسسكو على اسمه . ولد فى ٣٠ مارس ١٧٤٦ بفونتينودوس ، وهى قرية ارجونية يسكنها ١٥٠ من الأنفس ولا يزينها شجر — إنما هى تربة حجرية ، وصيف قائظ ، وشتاء قارس ، يأتى على الكثيرين ، ويصيب الاحياء بالاكتئاب والخشونة .

وراح فرانسسكو يتلهى بفرشاة الرسم ، فرسم فى صباه لكنيسة القرية صورة للعذراء « سيدة العمود » ، حامية أرجون . وفى ١٧٦٠ انتقلت الأسرة إلى سرقسطة ، حيث اشتغل الأب بالطلاء بالذهب ، وأتاح له دخله أن يوفد ابنه لدراسة الفن على يد خوزيه لوزان . ومع هذا الفنان وخوان راميريز نسخ جويا صور كبار الرسامين القدامى ، وقلد تلوين تيبولو الناعم ،

وتعلم من التشريح قدرا يكفى لرسم صور العرايا المحرمة . وفى رواية أنه شارك — ثم تزعم بعد قليل — فريقا من الشباب الجموح الذين دافعوا عن قريتهم ضد قرية أخرى ، وكيف أن بعض الفتيان قتلوا فى إحدى المعارك ، وكيف فر فرانسسكو إلى مدريد مخافة أن يقبض عليه .

وفى ديسمبر ١٧٦٣ دخل امتحاناً للالتحاق بالأكاديمية فرسب . وتصف الأسطورة حياته الصاخبة فى العاصمة ، ولكن لا نعلم على التحقيق إلا أن جوياً كان بينه وبين القوانين حب مفقود . وعاد إلى دخول امتحان المسابقة فى ١٧٦٦ ورسب . وربما كان هذا الرسوب المتكرر من حسن حظه : فقد أفلت من وصاية منجز الأكاديمية ، ودرس الصور التى كان تيبولو يرسمها فى مدريد ، ثم أرسى أسس أسلوب فذ تغلب عليه شخصيته . وتروى الأسطورة بعد ذلك أنه انضم إلى فريق من مصارعى الثيران وسافر معهم إلى روما فى تاريخ مجهول . ولقد كان دائما شديد التحمس لمصارعى الثيران الراكبين (التوريادور) ومرة وقع باسم دى لوس تورس . كتب إلى موارتين فى شيخوخته يقول « كنت فى شبابى مصارع ثيران ، لا أرهب شيئاً وسيفى فى يدى »[٩١] . وربما قصد بهذا أنه كان من أولئك الصبية المغامرين الذين يصارعون الثيران فى الشوارع . على أية حال وصل إلى إيطاليا ، لأنه فى ١٧٧٠ فاز بالجائزة الثانية فى مسابقة بأكاديمية الفنون الجميلة فى بارما . وتحكى الأسطورة أنه تسلق قبة كاتدرائية القديس بطرس وسطا على دير ليخطف راهبة . وأكثر من هذا احتمالا أنه كان يدرس صور ما ناسكو الذى ربما كان لتلاوينه القاتم ، وأجساده المعذبة ، ومناظر محكمة تفتيشه ، من الأثر العميق فى نفسه مافاق الأوضاع الهادئة الكلاسيكية التى أوصى بها منجز فى أسبانيا .

وفى خريف ١٧٧١ نلتقى به فى سرقسطة التى عاد إليها ليزين مصلى فى الكتدرائية « الكنيسة الكبرى لسيدة العمود » .

وقد أجاد التصوير ، وكوفئ بخمسة عشر ألف ريال نظير جهد استغرقه ستة أشهر ، واستطاع الآن أن يعول زوجه إذا تزوج . وعامل القرب

فى تقرير اختيارنا شريك الحياة ، وهكذا تزوج (١٧٧٣) خوزيفاً بايو ، وكان فيها ريعان الشباب ، ولها شعر ذهبى ، ومكانها فى متناوله . وقد استخدمها نموذجاً ، ورسم صورتها مراراً ، وصورتها المعلقة فى البرادو تظهرها متعبة بتكرار الحمل ، أو محزونة لخيانات فرانسسكو لها [٩٢] .

ثم نقل إلى مدريد (١٧٧٥) . وكلفه منجز (١٧٧٦) — بتوصية من من بايو على الأرجح — بأن يرسم لوحات قماشية كبيرة تصلح رسوماً تخطيطية (كرتونات) للمصنع الملكى للنسجيات الذى أنشأه فليب الخامس على غرار مصنع الجوبلان . وغامر جويا الآن برفض خطير ، فاتخذ قرارا شكل مستقبله . ذلك أنه أغفل ميل منجز إلى الميثولوجيا الكلاسيكية وتاريخ الأبطال ، فرسم على اتساع كبير وبألوان ناصعة الناس الذين ينتمون إلى طبقته وعصره — رسم كدهم وحبهم ، ومهرجاناتهم وأعيادهم ، مصارعاتهم مع الثيران ولعبهم بطائرات الورق ، أسواقهم ورحلاتهم الخلوية وألعابهم ، وإلى هذه الواقعية أضاف فى جرأة أشياء تخيلها ولكنه لم يرها قط . أما منجز فقد ارتفع إلى مستوى الموقف : فلم يذم هذا الخروج على التقاليد الأكاديمية ، وشعر بنبض الحياة يسرى فى الأسلوب الجديد ، وأعطى هذا المتمرد مزيدا من التكليفات . وأنتج جوياً خلال خمسة عشر عاما خمسة وأربعين كرتوناً أساسيا لعماله ، بينما راح ينتقل إلى مجالات أخرى بثقة متزايدة . واستطاع الآن أن يأكل ويشرب مطمئناً . كتب إلى صديقه زاباترا « أن دخلى يتراوح بين إثنى عشر ألفاً وثلاثة عشر ألف ريال فى السنة » .

على أن نوعا من البكتريا تطفل على هذا النجاح الذى أصابه ولسنا نعرف مصدر الزهرى الذى إبتلى به جويا ، ولكنا نعرف أنه مرض مرضا خطيرا فى أبريل ١٧٧٧ [٩٣] . وأبلى منه شيئا مشيئا ، ولكن لعل المرض كان له بعض الأثر فى التشاؤم الذى شاب فنه ، وربما فى فقده السمع فى ١٧٩٣ . على أنه تمالك صحته فى ١٧٧٨ بالقدر الذى أتاح له المشاركة فى مشروع وضعه شارل الثالث ليذيع فى خارج أسبانيا بالنسخ المطبوعة عن الكلشيهات ذخائر الفن الأسبانى . ولهذا الغرض نسخ جويا ثمانى عشرة

لوحة لفيلاسكيذ ، ومن هذه النسخ صنع محفورات ، وكانت هذه مهارة جديدة عليه . وظل منقاشه حينا متردداً فجاً . ولكن من هذه البداية تطور ليصبح من أعظم الحفارين بعد رمبرانت . وسمح له بأن يقدم نسخه بشخصه إلى الملك ، وفي ١٧٨٠ سجل واحدا من مصوري البلاط . وقبل الآن في الأكاديمية آخر الأمر . وحوالى ١٧٨٥ رسم لوحة شارل الثالث الشهيرة . التي بدا فيها الملك لابسا حلة الصيد . مهيأ للقتل ، ولكنه هرم . مكدود ، متقوس الساقين محدودب الظهر ، هنا ضحى جويا كعادته بالرضى في سبيل الصدق .

واستقدم جويا أمه وأخاه كاميلو بعد موت أبيه ليعيشا معه ومع خوزيفا والأطفال . وقبل شتى التكليفات ليعول هذه الأسره المتكاثرة : فرسم لوحة جصية في كنيسة سان فرانسسكو الجراندى ، وصورا دينية لكلية كالاترافا بسلامنقه ، ومشاهد من الحياة اليوميه لمنزل دوق أوزونا الريفي . ثم رسم لوحات للأشخاص لكونها أربح فرع في مهنته . فرسم عدة لوحات لاوزونا[٩٤] . واحدة للدوق وأسرته — يبدو فيها الاطفال شديدى التصلب وأخرى للدوقه أوزونا بثلاثة أرباع طولها[٩٥] — وهي معجزة من الوان الزيت تستحيل حريرا ومخرمات .

وربما كان جويا سعيدا عام ١٧٨٤ . ففي ذلك العام ولد له خافيد ، وهو الابن الوحيد الذي قدر له أن يبقى حيا بعد موت أبيه . وأزيح الستار عن الصور الجصية التي رسمها لكنيسة القديس فرنسيس الكبير في احتفال رسمي . وأثنى عليها مشاهدوها كأروع لوحة في ذلك العهد . وكان الملك وكل حاشيته حضورا ، وقد شاركوا في الثناء . وحوالى ١٧٨٧ رسم جويا لوحة المركيز دى بونتيخوس . وهي الآن من أنفس ما تملكه قاعة الصور القومية في وأشنطن . وبعد عام عاد إلى رسم الطبيعة في لوحته La Pradera de San Isidro[٩٦] — وتمثل حقلا غص بالمتنزهين يحتفلون بعيد القديس حامي مدريد العظيم بالركوب والتمشي والجلوس والأكل والشرب والغناء

والرقص على شواطىء ما نزاناريس المعشبة . وهى لا تعدو أنتكون تخطيطا ، ولكنها آية من آيات التصوير .

ولم يزد عمر جويا على الثالثة والأربعين حين مات شارل (١٧٨٨) ولكنه حسب نفسه قد شاخ . وكان قد كتب فى ديسمبر من العام إلى زاياتر يقول « لقد شخت ، وملأت التجاعيد وجهى حتى أنك لن تستطيع التعرف على « لولا أنفى الأفطس وعيناى الغائرتان[٩٧] » . وما كان فى إستطاعته التنبؤ بأنه مازال أمامه فسحة فى الأجل تمتد أربعين سنة ، وبأن أكثر مغامراته شططا وأروع إنتاجه مستكنان فى مستقبل أيامه . لقد تطور فى بطء والآن سيكرهه الغرام والثورة على أن يتابع السير وإلا كان من المغرقين . فارتفع مع الأحداث ، وأصبح أعظم فنان فى جيله .

(ب) غرام

وقد شغله ١٧٨٩ رسم صور للملك والملكه الجديدين احتفالا بدخولهما مدريد رسميا فى ٢١ سبتمبر . وكان « فيليبى » بن شارل الثالث البكر ، قد أقصى عن وراثة العرش لعتهه ، فآل العرش للأبن الثانى الذى وصفه مؤرخ غير متعاطف بأنه « نصف معتوه[٩٨] » لا أكثر . وكان شارل الرابع ساذجا حسن الظن بالناس ، فيه من الطيبه ما يكاد يغرى الأشرار بالشر . وكان قد انصرف إلى حياة القنص والأكل والأنجاب لافتراضه أنه مقصى عن وراثة العرش ، بحكم كونه الأبن الثانى . أما وقد بات الأن بدينا لين العريكه ، فأنه أستسلم راضيا لزوجته ماريا لويز البارمية ، وتجاهل — أو جهل — فسقها مع عشاقها ، ورقى عشيقها ما نويل دى جودوى رئيسا للوزارة (١٧٩٢ — ٩٧) .

وكانت الملكه الجديده قد داعبت الأفكار التحرريه قبل ولايتها للعرش ، وقد شجع شارل الرابع فى أول سنى حكمه فلوريدا بلانكا ، وخوفيللانوس ، وكامبومانيس (وكلهم رسمهم جويا) على المضى فى برنامج أصلاحاتهم . غير أن سقوط الباستيل روع شارل الرابع وفلوريدا بلانكا فارتدت الحكومة

إلى رجعية سياسية أعادتها إلى التعاون الكامل مع الكنيسه بأعتبارها أقوى معقل للملكية . وأهمل الكثير من القوانين التقدمية التى سنت فى عهد شارل الثالث ، وأستعاد ديوان التفتيش بعض سلطاته ، وأوقف إستيراد الأدب الفرنسى ، وحظرت جميع الصحف إلا صحيفة مدريد اليومية الرسمية ، وأقصى عن البلاط خوفيللانوس وكامبومانيس وأراندا . وابتهج الشعب بانتصار إيمانهم الذى يعتزون به . وفى ١٧٩٣ أنضمت أسبانيا إلى الحرب التى خاضتها الملكيات ضد فرنسا الثائرة .

فى وسط هذا المعمعان حالف الحظ جويا . ففى أبريل ١٧٨٩ عين « رساما للحجرة » فلما مرضت خوزيفا وأشار الطبيب بهواء البحر علاجا لها صحبها جويا إلى بلنسيه (١٧٩٠) حيث كرمه القوم كأنه فيلاسكويز أسبانيا الجديد . ووأضح أن الطلب أشتد عليه من أقصى أسبانيا إلى أقصاها ، لأننا نجده فى ١٧٩٢ فى قادس ضيفا على سبستيان مارتينيز . وفى طريق عودته أصيب فى أشبيلية بالدوار والشلل الجزئى ، فعاد إلى صديقه فى قادس ، وظل نهبا للقلق طوال فترة نقاهة غير قصيرة .

فأى مرض هذا الذى شكا منه ؟ لقد وصفه بايو وصفا غامضا يقوله أنه « ذو طبيعه رهيبة جدا » . وخامره الشك فى أن جويا سيبرأ منه يوما ما[٩٩]. وكتب رياتر صديق جويا الوفى فى مارس ١٧٩٣ : « لقد جلب على جويا هذا المأزق إفتقاره إلى التدبر . ولكن لأبد من مواساته بكل الشفقة التى يتطلبها مصابه[١٠٠]. » وقد فسر دارسون كثيرون هذا المرض بأنه من أعقاب الزهرى[١٠١] ولكن آخر تحليل طبى رفض هذا الرأى وشخصه بأنه التهاب أعصاب تلافيف الأذن[١٠٢] . أياكان الأمر فأن جوياكان فاقد السمع حين عاد إلى مدريد فى يوليو ١٧٩٣ ، وكذلك ظل إلى يوم مماته . وفى فبراير ١٧٩٤ كتب خوفيلانوس فى يوميته « كتبت إلى جويا ، فرد بأنه كان عاجزا حتى عن الكتابه نتيجة السكته الدماغيه التى أصيب بها[١٠٣] » . ولكن الشلل زال شيئا فشيئا ، وما وافى عام ١٧٩٥ حتى كان فى جويا من العافيه ما أغراه بالوقوع فى الحب .

وكانت تريزا كاتيانا ماريا ديل بيلار الدوقة الثالثة عشرة من سلالة ألبا الشهيرة . وكان أبوها قد تشرب الفلسفة الفرنسية ، فرباها على مبادىء متحررة ، وتلقت تعليما هيأ لها عقلا يقظا وإرادة عنيده . فلما بلغت الثالثة عشرة تزوجت الدوق خوزيه دى توليدو أوزوريو ، ذوق ألبا البالغ من العمر تسعة عشر ربيعا . وكان الدوق رقيق الجسد معلولا ، فلزم بيته أكثر الوقت وأغرق نفسه فى الموسيقى . ورسمه جويا جالسا إلى البيانو أمام نوتة لهايدن . وكانت الدوقة متغطرسة جميلة شهوانية . وقد لاحظ رحالة فرنسى أنه « ليس فى رأسها شعرة لا تثير الشهوة[١٠٤] » ، وكانت تشبع رغباتها دون قيد من فضيلة أو نفقة أو طبقة . وأقتنت فى بيتها شخصا معتوها ، وراهبا أعور ، وزنجية صغيرة أصبحت ربيبتها المفضلة . ولكن كان وراء هذه المغامرات الجريئة نفس سمحة كريمة ، ولعلها أنعطفت نحو جويا لأنه كان أصم تعسا بقدر ما مالت إليه لأنه يستطيع أن يخلدها بفرشاته .

ولا بد أنه رآها مرارا قبل أن تقف ليرسمها ، لأنها كانت تحوم داخل البلاط وخارجه وتثير الأقاويل بمغازلاتها وبعدائها الجرىء للملكية . وأول صورة تحمل تاريخا رسمها لها تبدو فيها بطولها كله . وقد لفت قسماتها النحيلة الحارة فى لمة من الشعر الأسود . ويمناها تشير إلى شىء على الأرض . فإذا تأملنا الصورة قرأنا عليها بوضوح هذه العبارة « إلى دوقة ألبا دى جويا ١٧٩٥[١٠٥] » . وهنا إيماءة إلى صداقة قائمة فعلا . وليست الصورة من روائع جويا . ويفضلها كثيرا تلك التى رسمها فى العام نفسه لفرانسسكو بايو الذى كان قد مات لتوه . وفى نوفمبر خلفه جويا مديرا للمدرسة التصوير بالأكاديمية .

ومات دوق ألبا فى يونيو ١٧٩٦ . وأعتكفت الدوقة فترة حداد وجيزة فى ضيعتها الريفيه بسانلوكار ، بين أشبيلية وقادس . وليس من المؤكد أن جويا رافقها ، ولا علم لنا إلا بغيابه عن مدريد من أكتوبر ١٧٩٦ إلى إبريل ١٧٩٧ . وبتدو ينه فى كراستين رسوما لبعض ما رأى فى سانلوكار . ومعظم الرسوم تبدو فيها الدوقة تستقبل الضيوف ، أو تربت الزنجية ، أو تشد شعرها فى نوبة غضب ، أو تتقيل (بينما تنقل الخادمة المبولة)[١٠٦] ، أو يغشى

عليها فى نزهة ، أو تعبث مع منافس أو آخر ممن ينافسون جويا على يديها الملاطفتين . وتدل الرسوم التخطيطية على غيرته المتصاعدة ، وتبدو فيها أيضا امرأة أخرى — تخرج عارية من الحمام ، أو ترقد على الفراش نصف كاسية أو تضع الرباط على ساق بديعة التكوين ، ولعل جويا انغمس كالدوقة فى إنحرافات الحب . ومع ذلك فالراجح أنه فى سانلوكار رسم أعظم ما يفخر به من صورها[١٠٧] — فى زى « ماخا » وقحة ترتدى ثوبا أسود فى صفرة ، بحزام من القرمز والذهب حول خصرها النحيل ، وطرحة سوداء فوق رأسها ، وفى يمناها (وهى فى حد ذاتها من آيات التصوير) خاتمان يحمل أحدهما اسم « ألبا » والآخر « جويا » ، وتشير سبابتها إلى أسمه ، وتاريخ ١٧٩٧ ، مكتوبين على التربة الرملية تحت قدميها . وكان يرفض دائما بيع هذه اللوحة .

وكانت مغامرة غرامه المزدهر قد صورت حين رجع جويا إلى مدريد . وتهمها بعض رسومه « الكابريكو » (١٧٩٧) بالأستسلام الفاجر لأشتات من ذكور يفتقرون إلى اللياقة . وقد أتهمها جودوى باغواء وزير الحربية وكتب إلى الملكة يقول أن ألبا وكل إنصارها ينبغى أن يدفنوا فى حفرة كبيرة[١٠٨] » . وحين ماتت الدوقه (٢٣ يوليو ١٨٠٣) وهى بعد فى الأربعين ، أرجفت مدريد أنها سممت ، وعطف الناس عليها لأنها خلفت قدرا كبيرا من ثروتها الضخمه لخدمها . كذلك أوصت براتب سنوى يبلغ ٣،٦٠٠ ريال لخافير بن جويا . وأمر الملك بالتحقيق فى موتها — وعين جودوى رئيسا للمحققين — وزج بالطبيب وبعض أتباع الدوقة فى السجن ، وألغيت وصيتها ، وحرم خدمها من أنصبتهم التى أوصت لهم بها ، وسرعان ما تزينت الملكة بأجمل جواهر ألبا[١٠٩] .

(ج) قمـــة المجد

كان جويا قد إستقال عام ١٧٩٧ من منصبه مديرا للتصوير فى الأكاديمية ، فقد أعجزته كثرة شواغله الآن عن التدريس . وفى ١٩٧٨

أختير لزخرفة قبة كنيسة سأن أنطونيودى لا فلوريدا وقلب قوصراتها ، ومع أنه أثار غضب الأكليروس بتصويره الملائكة بأطراف شهوانيه ، إلا أن الكل تقريباً أجمعوا على أنه نقل إلى تلك الفراغات المقدسة ، فى صورة الهام ، حياة شوارع مدريد ودمها . وفى ٣١ أكتوبر ١٧٩٩ عين « مصور البلاط الأول » براتب قدره خمسون ألف ريال فى العام . ورسم فى (١٨٠٠) أشهر إيحاته قاطبة وهى « شارل الرابع وأسرته(١١٠) » — وهى كشف قاس عن بلاهة الأسرة المالكة ، ونحن نقشعر حين نتخيل منظر هذه المجموعة من الأبدان المنتفخة والأرواح القميئه إذا جردوا من ثيابهم البراقة — وتلك براعة فى الأشعاع والتألق ندر أن بزها رسام فى تاريخ الفن . ويروى التاريخ أن الضحايا أعربوا عن كامل الرضى عن اللوحة(١١١) .

وفى ركن من اللوحة رسم جويا نفسه . وعلينا أن نغفر أنانية صوره الذاتية الكثيرة ، ولا ريب فى أن بعضها كان دراسات تجريبيه استخدم فيها مرآة ، شأنه فيها شأن ممثل يتدرب على التعبير بسحنته أمام المرآة ، وأثنتان منهما رائعتان . وخيرها (اللوحة الأولى من الكابريكو) يبدو فيها فى الخمسين ، أصم ولكن فى كبرياء ، له ذقن عدوانى ، وشفتان شهوانيتان وعيون فظة ، وشعر ينمو فوق أذنية ويكاد يصل إلى ذقنه ، وتتوج هذا كله قبعه حريرية فأخرة تعلو رأسه الضخم كأنها تحد لجميع نبلاء الدنيا المحظوظين . وبعد تسعة عشر عاماً من رسمه هذه اللوحة ، وبعد أن نجا من ثورة ، رمى القبعة ، وفتح قميصه عند عنقه ، وكشف عن نفسه فى مزاج ألطف ، لم تزل له كبرياؤه ، ولكن فيه من الثقة الكبيرة بنفسه ما يربأ به عن التحديات(١١٢) .

وكان رسم الأشخاص أقوى نواحى فنه . ومع أن معاصريه كانوا يعلمون بأنه لن يتملقهم ، فأنهم خضعوا فى لهفة لحكم فن راودهم الأمل فى أنه سيحمل ذكراهم قرونا طوالا سواء كانت الذكرى مبعث صيت ذائع أو عار يخزيهم . ولدينا علم بثلاثمائة نبيل وثمانية وثمانين عضوا فى الأسرة المالكة جلسوا أمامه ليرسمهم ، وقد بقيت من هذه الصور مائتان . ومن أفضلها صورة لفرديناند جيمارويه ، السفير الفرنسى ، وقد أتى بها صاحبها إلى

باريس ، وإقتناها اللوفر فى ١٨٦٥ ، وإليها يرجع بعض الفضل فى بعث شهرة جويا فى فرنسا . وأروع ما رسم من صور الأطفال صورة دون ما نويل أوزوريو دى زونيجا ، المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ، هنا إدرك جويا فيلاسكيز . وقد ضارع فيلاسكيز ثانية فى كوكبة النساء اللآتى صورهن ، وأنتظمت صوره لهن أشتاتا ، فيها النحيلات مثل « الطفلة الملكية ماريا يوزيفا » ، وفيهن المرأة الساحرة الخلابة مثل السنيورا جارثيا(١١٣)، والممثلة المكتهلة « لا تيرانا(١١٤) » .. جمال مصور ولكنه يخلى مكانه للشخصية .

أما أكثر نساء جويا سفورا فهى « الماخا » الوقحة التى رقدت حوالى (١٧٩٨) خالية من كل زينة ُيرسم لها « الماخا العارية »؛ ثم كاسية فى اغراء ليرسم لها « الماخا فى ثيابها » وهاتان اللوحتان الصنوان تجتذبان من رواد البرادو عددا غفيرا كالذى تجتذبه الموناليزا من رواد اللوفر . والماخا العارية ولوحة فيلاسكويز « فينوس فى المرآة » هما الصورتان العاريتان الوحيدتان فى التصوير الأسبانى ، لأن رسم العرايا فى الفن الأسبانى كان عقابه السجن سنة ومصادرة المنقولات والنفى . وقد غامر به فيلاسكويز فى حماية فليب الرابع ، وجويا فى حماية جودوى الذى وافق جويا على تفضيل الثديين الكبيرين والخصر النحيل والشفاه الممتلئة . « وماخا » جويا لم تكن صورة لدوقة ألبا رغم ما تواتر عنها ، كذلك لم تكن الكاسية التى رسمها جويا لتحل محل العارية حين جاء الدوق الغاضب (كما تروى الأسطورة) وفى عينيه نذير المبارزة . ولكن اللوحتين اشترتهما الدوقة أو أعطيتا لها ، وانتقلتا بعد وفاتها إلى مجموعة جودوى .

وبينما كان جويا يمد أسرته بالمال الذى يكسبه من تصوير الأشخاص ، راح يتسلى (١٧٩٦ -- ٩٧) بمحفورات وصور مائية نشرها فى ١٧٩٩ على أنها « نزوات » -- ثلاث وثمانون صورة لعقل أرزن فيه خشونة وغضب ، تصف فى هجاء قاتم وعناوين ساخرة عادات جيله وأخلاقه ونظامه . وألمع هذه السلسلة هى رقم ٤٣ : وهى تصور

رجلا استسلم للنوم على مكتبه بينما العفاريت تحوم حول رأسه : وعلى المكتب عبارة تقول « حلم العقل يبعث العفاريت » . وقد فسر جويا هــذا بأن » الخيال إذا هجره العقل أفرخ العفاريت ، وإذا اتحد بالعقل كان خالق الفنون ومبدع أعاجيبها [١١٤] » . وهــذه طعنة للخرافات التى أظلمت عقل أسبانيا ، ولكنها كذلك وصــف لنصف فن جويا . فلقد كانت الأحلام المرعبة لاتبرحه ، « ونزواته » على الأخص تمتلىء بمناظرها المروعة . هناك ترى جسد الإنسان وقد انحط إلى عشرات الأشكال الوارمة ، العجفاء ، الكسيحة ، الوحشية ، والبوم والقطط تنظر إلينا شزرا ، والذئاب والنسور تجوس خلسة ، والساحرات يطرن فى الهواء ، والأرض تبعثرت فيها الجماجم وعظام السيقان وجثث الأطفال حديثى الولادة حديثى الموت . وكأنما تقفز خيال هيرونيموس بوش المريض عبر فرنسا متخطيا القرون ليدخل عقل جويا ويشيع فيه الفوضى .

أكان جويا عقلانيا ؟ كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه فضل العقل على الخرافة . ففى أحد رسومه صور شابة مكللة بالغار ممسكة بميزان تطارد طيورا سوداء بالسوط ، وتحت الصورة كتب جويا « أيها العقل المقدس لاتبق على أحد[١١٦] » . وفى رسم آخر رهبان يجردون أنفسهم من أرديتهم[١١٧] ؛ وقد ركب على جسد راهب يصلى وجه مجنون[١١٨] . وصور « محكمة ديوان التفتيش[١١٩] » مشهداً كئيباً من ضحايا مساكين تحاكمهم سلطة باردة الشعور . وصور يهودياً مقيداً بالأغلال فى زنزانة التفتيش ، وكتب هذا التعليق « أى زاباتا ، أن مجدك سيدوم إلى الأبد [١٢٠] » . أكان هذا صدى لكتاب فولتير « أسئلة زاباتا » ؟ وقد رسم تسعاً وعشرين لوحة لضحايا التفتيش يعانون شتى العقوبات [١٢١] . وفى آخرهم رسم إنسانا مبتهجاً فوق هذا العنوان « الحرية المقدسة ! »[١٢٢] ومع ذلك ظل إلى يوم مماته يرسم علامة الصليب على وجهه فى ورع . ويدعو المسيح والقديسين ويتوج رسائله برسم الصليب ، وربما كانت هذه كلها أثارا متخلفة من عادات كونها فى صباه .

د — ثـــورة

أكان جويا ثائراً ؟ كلا . لا بل أنه لم يكن حتى جمهوريا . وليس فى فنه أو كلامه علامة تدل على أنه يرغب فى الاطاحة بالملكية الأسبانية . وقد ربط شخصه وحظه بشارل الثالث ، وشارل الرابع ، وجودوى ، وجوزف بونابرت ، وعاشر نبلاء البلاط فى سرور وابتهاج . ولكنه خبر الفقر من قبل ، وما زال يراه من حوله ، ونفره إملاق الجماهير وماترتب عليه من جهل وخرافه ، وتقبل الكنيسة للفقر الجماعى نتيجة طبيعية لطبيعة البشر وفوارقهم . وقد خلد نصف فنه الأغنياء ، أما النصف الآخر فكان صرخة تطالب بانصاف الفقراء ، واحتجاجا على همجية القانون وديوان التفتيش والحرب . كان موالياً للملكية فى لوحاته الشخصية ، كاثوليكيا فى صوره ، متمرداً فى رسومه ، ففيها أعرب بقوة تكاد تكون وحشية عن مقته للظلامية والظلم والحماقة والقسوة . ويمثل رسم منها رجلا ممدداً فوق مخدعه وعنوان الرسم « لأنه اكتشف حركة الأرض » . ورسم آخر يصور امرأة وضعت فى المقطرة لأنها « أبدت عطفها على قضية التحرير » .

ومن هؤلاء الأسبان الذين سموا أنفسهم تحرريين ؛ يبدو أنهم كانوا أول حزب سياسى استعمل ذلك الاسم . وقد عنوا به التدليل على شوقهم إلى الحرية — حرية العقل من الرقابة ، وحرية الجسد من الانحطاط ، وحرية الروح من الطغيان . وكانوا قد تلقوا فى عرفان « التنوير » الوافد من حركة التنوير الفرنسية . ورحبوا بدخول قوة فرنسية فى أسبانيا (١٨٠٧) ، والواقع أن نصف السكان رحبوا بها جيشاً للتحرير ؛ ولم يسمع احتجاج حين استقال شارل الرابع وتوج ولده فرديناند السابع تحت حماية جنود مورا . وقد رسم جويا صورة للحاكم الجديد .

ولكن مزاج الشعب ومزاج جويا تغيرا حين استدعى نابليون شارل الرابع وفرديناند السابع إلى بايون وخلعهما ؛ ونفى أحدهما إلى ايطاليـــا

والآخر إلى فرنسا ، ونصب أخاه جوزف ملكا على أسبانيا . وتجمع حشد غاضب أمام القصر الملكي . وأمر مورا جنده بأن يخلو الميدان ، ففر الجمع ، ولكنه عاد إلى الاحتشاد حتى بلغوا عشرين الفا فى ميدان مايور . فلما زحف الجنود الفرنسيون والمماليك نحو الميدان أطلقت عليهم النيران من النوافذ والبواكى ، فاشتد غضبهم ، واقتحموا البيوت وراحوا يقتلون أهلها دون تمييز . ودارت بين الجند والجماهير معركة امتدت طوال النهار ، هو يوم مايو الأشهر (٢ مايو ١٨٠٨) ، وسقط مئات الرجال والنساء صرعى ، وشهد جويا من موضع قريب موت شطراً من المذبحة[١٢٣] . وفى ٣ مايو أعدم ثلاثون من السجناء الذين قبض عليهم الجند بواسطة فرقة لإطلاق النار ، وأعدم كل أسبانى أمسك متلبساً ببندقية فى يده . وهبت أسبانيا الآن كلها تقريبا ثائرة على الفرنسيين ، وسرت « حرب تحرير » من أقليم لأقليم ، ولطخت الطرفين بما اقترفا من فظائع وحشية وشهد جويا بعضها ولم تبرحه ذكراها حتى يوم مماته . وفى ١٨١١ كتب وصيته مخافة أن يتفاقم سوء الحال . وفى ١٨١٢ ماتت خوزيفا . وفى ١٨١٣ استولى ولنجتن على مدريد ، وعاد فرديناند السابع إلى عرشه .

واحتفل جوياً بانتصار أسبانيا برسم لوحتين من أشهر لوحاته (١٨١٤)[١٢٤] . إحداهما « يوم مايو » أعاد فيها بناء ما رأى أو سمع أو تخيل من المعركة الناشبة بين جماهير مدريد وجنود الفرنسيين والمماليك . فوضع المماليك فى القلب ، لأن اشتراكهم فى القتال هو الذى أثار أبلغ استنكار فى الذاكرة الأسبانية . ولا داعى للسؤال هل كانت الصورة تاريخا صحيحاً ، فهى فن رائع قوى ، ابتداء من تدرجات الألوان التى تومض على جواد المملوك المجندل وانتهاء بوجوه الرجال الذين روعهم ووحشهم الاختيار بين أن يقتلوا أو يقتلوا . وأنصع حتى من هذه اللوحة اللوحة الأخت « الرمى بالنار فى الثالث من مايو » — وفيها فرقة لحملة البنادق الفرنسيين يعدمون السجناء الأسبان . وليس فى فن جويا ماهو أبلغ وقعاً فى النفس من التباين بين الرعب والتحدى فى الشخصية الوسطى فى تلك المذبحة .

والآن وقد بات جويا أرملا ، أصم ، مكرها على الصمت ، فقد انكفأ إلى فنه وهو مايزال « مصور الحجرة الملكية » ذا المعاش المقرر ، ولكنه لم يعد أثيراً لدى البلاط . ولعل أقوى محفوراته قد حفرها فى ١٨١٢ ، وهى « العملاق »[١٢٥] — وتمثل هرقول بوجه كاليبان ، جالساً على حافة الكرة الأرضية ، كأنه مارس يستريح بعد حرب ظافرة . وكان طوال الفترة من ١٨١٠ يرسم رسوماً تخطيطية صغيرة ثم يحفرها ويطبعها ، وقد سماها «العقابيل القتالة لحرب أسبانيا الدموية مع بونابرت ، وغيرها من النزوات ». ولم يجرؤ على نشر هذه الرسوم الخمسة والثمانين ، ولكن أوصى بها لولده ، الذى باعها ابنه لأكاديمية سان فرناندو ، والتى نشرتها عام ١٨٦٣ بعنوان «كوارث الحرب » .

وهذه الرسوم التخطيطية ليست مشاهد عادية للمعارك يستخفى القتل فيها فى ثوب البطولة والمجد ، إنما هى لحظات من الرعب والقسوة تنسى خلالها ضوابط الحضارة الهزيلة فى حميا الصراع ونشوة الدماء . هنا بيوت تحترق وتنهار على ساكنيها ، ونسوة يهرعن إلى المعركة بحجارة أو رماح أو بنادق ، هنا نساء تهتك أعراضهن ، ورجال يشدون إلى أعمدة أمام فرق ضرب النار ، ورجال طاحت سيقانهم أو أذرعهم أو رؤسهم ، وجندى يجب الأعضاء التناسلية لرجل[١٢٦] وجثث تخوزق فوق جذوع أو أطراف الشجر الحادة ، ونساء ميتات مازلن قابضات على أطفالهن الرضع ، وأطفال يرقبون فى هلع قتل آبائهم ، وأكداس من الموتى يقذف بهم فى الحفر ، والنسور تستمتع بالتهام الموتى من الآدميين . وتحت هذه الصور أضاف جويا تعليقات ساخرة . « هذا ماولدت له »[١٢٧] ، « هذا رأيته »[١٢٨] ، « لقد حدث هكذا »[١٢٩] ، « ليدفنوا الموتى ويلزموا الصمت »[١٣٠] . وفى النهاية أعرب جويا عن يأسه وأمله . فالصورة رقم ٧٩ تمثل أمرأة تموت بين الحفارين والكهنة ، وعنوانها « الحق يموت » ، ولكن الصورة رقم ٨٠ تظهرها وهى تشع ضياء ، وتسأل « أتبعث حية مرة أخرى ؟ » .

هـ — الجـــدار

فى فبراير ١٨١٩ اشترى بيتاً ريفياً على الضفة الأخرى لنهرمانزاناريس . كانت الأشجار تظلله ، ومع أنه كان عاجزا عن سماع شدو الغدير الذى حف به ، فإنه استطاع أن يحس الدرس المستفاد من جريانه الهادىء المطمئن . وكان جيرانه يسمون بيته « بيت الأصم » . ولما كان خافير قد تزوج واستقل ببيته ، فقد صحب جويا معه دونا لوناديااوايس ، خليلة ومديرة لبيته . وكانت امرأة سليطة اللسان قوية البدن . ولكن جوياً كان فى حصن حصين من لسانها السليط . وأتت معها بطفلين — صبى هو جييرمو . وفتاة صغيرة مرحة تدعى ماريا ديل روزاريو . وقد أصبحاعزاء لحياة الفنان فىشيخوخته .

واقد كان فى أمس الحاجة لهذا الحافز الصحى لأن عقله كان على شفا الجنون . على هذا النحو فقط نستطيع أن نفهم « الرسوم الزنجية » التى غطى بها كثيرا من جدران البيت الذى كانمستشفاه . وراح يرسم بالأسود والأبيض فى الأغلب ، وكأنه يعكس ظلام عقله . ولم يعط حدودا معينة للأجساد التى رسمها وكأنه وفى لغموض رؤاه . ولكنه استعمل ألوانا جصية حسنة ليثبت بسرعة على الحائط صورحلم سريعة الزوال . وقد رسم علىجدار جانبى طويل « رحلة سان ايزيدرو » وهو العيد الذى رسمه مبهجاً عام ١٧٨٨ قبل احدى وثلاثين سنة ولكنه الآن أصبح مشهداً كئيباً لمتعصبينمتوحشين مخمورين . وجمع على الجدار المقابل أشخاصا أفظع حتى من هؤلاء فى « سبت الساحرات » وهن يتعبدن لتيس أسود ضخم على نحو رهيب لأنه شيطانهن وإلاههن الآمر . وفى أقصى الحجرة ارتفعت أبشع صورة فى تاريخ الفن ، صورة ساترن يفترس ابنه — مارد يفترس طفلا عاريا ، أكل رأسه وذراعه وأخذ يلتهم الذراع الباقيةوهو يرشالدم من حواله(١٣١) . وربما كانت الصورة رمزاً مجنونا لأمم مجنونة تأكل بنيها فى الحرب . هذه رؤى رجل تعذبه أطياف الموت المروعة فهو يرسمها فى جنون ليطردها من ذاته ويثبتها على الجدار .

وفى ١٨٢٣ هربت ليوثاديا إلى بوردو بولديها لخوفها من الاعتقال

بسبب نشاطها الماسونى . وقرر جويا أن يلحق بهم بعد أن ترك وحيداً مع الجنون الذى رسمه على جدرانه . ولكنه لو رحل بغير إذن من الملك لفقد حقه فى الراتب الرسمى الذى كان يتقاضاه بوصفه عصور الحجرة ، فالتمس أجازة شهورا للاستشفاء بمياه بلومبيير ، فمنح الأجازة . ونقل ملكية بيته لحفيده ماريانو ، وفى يونيو ١٨٢٤ يمم شطر بوردو ، وليوثاريا ، وماريا ديل روزاريو .

وبات حبه لحفيده ماريانو العاطفة المشوبة المتسلطة عليه كلما دنت منيته . فأوصى بمعاش سنوى للصبى وعرض دفع النفقات إذا أتى خافيير بماريانو إلى بوردو . ولم يستطع خافيير الحضور ولكنه أرسل زوجته وابنه ، فلما وصلا عانقهما جويا فى انفعال انهار بسببه واضطر إلى ملازمة الفراش . وكتب إلى ابنه يقول : « يا عزيزى خافيير ، إنما أردت أن أخبرك بأن هذه الفرحة كلها كانت فوق ما احتمل . . . أدعو الله أن يتيح لك أن تأتى وتأخذهما وعندها تفيض كأس سعادتى[١٣٢] » . وفى صباح الغد احتبس صوته وشل نصف بدنه . وطال احتضاره ثلاثة عشر يوما وهو ينتظر بصبر نافذ مجىء خافيير دون جدوى . ومات فى ١٦ ابريل ١٨٢٨ . وفى ١٨٩٩ نقل رفاته من بوردو إلى مدريد ودفن أمام مذبح كنيسة سان انطونيو دى لافلوريدا ، حيث رسم قبل مائة عام تحت القبة آلام الحياة الأسبانية وأحزانها وأفراحها وقصص حبها .

* * *

الفصل الثانى عشر

وداعا ايطاليـــا

١٧٦٠ — ١٧٨٩

(١) جولة وداع

لو سمحنا لأنفسنا بنظرة واحدة أخرى إلى إيطاليا لوجدناها حتى فى هذه القيلولة الظاهرية دافئة بالحياة . فسنرى تورين تحتضن الفيرى ، ولوكا تنشر موسوعة ديدرو ، وفلورنسة تزدهر ثانية تحت حكم الدوق الكبير ليوبولد ، وميلان تصلح القانون بفضل بيكاريا وبافيا وبولونيا تهتزان طربا لتجارب فولتا وجلفانى ، والبندقية تعانى من سلوك كازانوفا ، ونابلى تتحدى البابوية ، وروما متورطة فى مأساة اليسوعيين ، وعشرات من مرابى الموسيقى تصدر الأوبرا ومهرة العازفين ليهدئوا صدر الأقطار المتوحشة عبر الالب . وسنلتقى فى إيطاليا بمائة ألف أجنبى قدموا إليها ليدرسوا كنوزها وليصطلوا بشمسها . ففى هذا العهد وفد عليها جوته بعد أن أرهقه نبلاء فيمار ليجدد شبابه ويروض ربة شعره .

كان انطباع جوته الأول وهو منحدر من الالب إلى فينتسيا ترد نتينا (سبتمبر ١٧٨٦) تأثره بالهواء المعتدل والجو المشرق الذى « يضفى غاية البهجة على مجرد الوجود بل حتى على الفقر »[1] ثم هذه الحياة الطليقة : «فالأهالى دائماً خارج بيوتهم وهم لخاو بالهم لا يفكرون فى شىء . إلا فى أن يحيوا » . وظن أن التربة المثمرة لا بد أن تجود على هولاء القوم البسطاء بحاجاتهم المتواضعة دون ابطاء ، ولكن الفقر وعدم وجود الوسائل الصحية فى المدن الصغيرة افزعاة :

« حين سألت النادل عن مكان (لقضاء الحاجة) أشار لى على الفناء قائلا « ممكن ، تحت ، فى الحوش». فسألته « آين ؟ فقال فى لهجة ودية « فى أى

مكان ، كما تشاء » . . . فكل الافنية الأمامية والأعمدة تلوثها الأقذار ، لأن القوم يقضون حاجاتهم بطريقة طبيعية جدا »[٢] .

على أن التكيف الحسى جعله يسلم بالأمر الواقع شيئا فشيئا .

وكانت البندقية تستمتع بانحلالها اللطيف ، فحوالى ١٧٧٨ وصف كارلو جوتسى فى مبالغة تغار على الفضيلة ما بدا له أنه انحلال عام فى الأخلاق :

« إن منظر النساء وقد انقلبن رجالا ، والرجال نساء ، وكلهم نسانيس ، وكلهم غارقون . . . فى دوامة الموضة ، يفسدون ويغوون بعضهم بعضا بلهفة كلاب الصيد تجرى وراء رائحة الفريسة ، ويتنافسون فى شهواتهم وسرفهم المدمر . . . ويحرقون البخور . . . لبريابوس[٣] . (إله الشهوة) »

وفى ١٧٩٧ ألقى اللوم على الفلسفة فى هذا الانهيار :

« أن الدين ، ذلك الكابح الصحى لشهوات البشر . . . قد أصبح هزؤا بين الناس . ولست أملك إلا الإيمان بأن المشنقة مفيدة للمجتمع ، لأنها أداة لعقاب الجريمة وردع من تحدثه نفسه بالإجرام . ولكن فلاسفتنا العصريين نددوا بالمشنقة زاعمين أنها تحيز ظالم وهكذا زادوا جرائم القتل على الطريق العام والسرقات وأعمال العنف مائة ضعف .

« وقد أكدوا لنا أن ابقاء النساء فى بيوتهن لرعاية بنيهن وبناتهن . . . والأشراف على خدمة الأسرة واقتصادها ، إنما هو تحيز بال وهمى . وللتو انطلقت النساء من بيوتهن معربدات كالباخوسيات ، صائحات « الحرية ... الحرية ... » وغصت الشوارع بهن . . . وأسلمن أثناء ذلك عقولهن الطائشة إلى الموضات والبدع التافهة ، والملاهى ومغامرات الحب ومظاهر الدلال وسائر السفاسف . . . أما الأزواج فلم يؤتوا من الشجاعة ما يمكنهم من مقاومة هذا التدمير لشرفهم ومالهم وأسرهم ، وخافوا من أن يشهر بهم ويرموا بهذه الكلمة الرهيبة ، كلمة « التحيز » . . . فقد وصفت مكارم الأخلاق ،

والحشمة ، والعفة ، بأنها تحيز . . . وحين أكرهت جميع هذه التحيزات المزعومة على الهروب . . . ظهر الكثير من النعم الكبرى والبركات العظمى. كالكفر ، والاطاحة بالاحترام والتوقير ، وقلب العدالة رأساً على عقب... وتشجيع المجرمين والرثاء لهم ، والخيالات الملتهبة ، والأحاسيس المرهفة ، والغرائز البهيمية ، والانهماك فى جميع اللذات والشهوات ، والترف العاتى . . . والتفاليس . . . والخيانات الزوجية[٤] » .

ولكن أسباب الانحلال الرئيسية كانت بالطبع اقتصادية وحربية ؛ ذلك أن البندقية فقدت ثراءها الذى أتاح لها الدفاع عن قوتها وعلى النقيض منها ازدادت قوة غريمتها النمسا البشرية ازديادا مكنها من السيطرة على كل المداخل البرية إلى بحيرات البندقية ، ومن خوض بعض حملاتها الحربية على أرض الجمهورية المحايدة العاجزة .

وفى ٩ مارس ١٧٨٩ انتخب لودوفيكومانن لرئاسة الجمهورية — وكان بذلك آخر الأدواج المائة والعشرين الذين تعاقبوا على كرسى رئاسة البندقية فى استمرار رائع منذ عام ٦٩٧ . وكان رجلا ذا ثراء طائل وشخصية هزيلة ، ولكن ما كان فى طوق الفقر أو الشجاعة أن يردا عنه مأساته . ذلك أن الباستيل سقط بعد أربعة أشهر ، وتسلطت عبادة الحرية على خيال فرنسا ، وحين أقبل هذا الدين مع فيالق نابليون اكتسح كل ايطاليا تقريباً تحت رايته وبقوة نشوته . وفرض الكورسيكى الظافر بظاهرة ثمانون ألف جندى على ملكة الادرياتيكى حكومة مؤقته أملاها بنفسه (١٢ مايو ١٧٩٧) محتجاً بأن القوات النمساوية قد استعانت عليه بأرض البندقية ، ومتهما البندقية بأنها ساعدت أعداءه سراً . فى ذلك اليوم أعطى الدوج مانن قلنسوة الرئاسة لأحد أتباعه بعد أن استقال ، وأمره قائلا « خذها بعيداً عنى فإن نحتاج اليها ثانية[٥] » وبعد أيام مات . وفى ١٦ مايو احتلت الجنود الفرنسية المدينة . وفى ١٧ أكتوبر وقع بونابرت فى كاميوفورميو معاهدة نقلت البندقية وكل الأقاليم التى تمتلكها تقريباً إلى النمسا فى مقابل تنازلات من النمسا لفرنسا فى البلجيك وضفة الرين اليسرى . وحدث هذا بالضبط

بعد ألف ومائة عام من انتخاب أول دوج لحكم بحيرات البندقية والدفاع عنها .

أما بارما فكانت محمية أسبانية ، ولكن دوقها ، الدون فيليبي ، ابن فيليب الخامس وايز ابيالا فارنيزى ، تزوج لويزا اليزابث ابنة لويس الخامس عشر ، وقد عود نفسه عاداتها المسرفة وجعل بلاطه فرسايا مصغرة . وأصبحت بارما مركزاً للثقافة تختلط فيه أساليب الحياة العالمية فى بهجة ومرح . يقول كازانوفا « لقد خيل إلى اننى لم أعد عائشاً فى ايطاليا ، فكل شىء بدا منتميا للجانب الآخر من الألب . ولم يكن المارة يتكلمون إلا الفرنسية والأسبانية(٦) » . وقام وزير مشتنير يدعى جيوم دوتيو باصلاحات حافزة للدوقية . هنا كانت تنتج مصنوعات من أبدع أنواع النسيج والبللور والقاشانى .

أما ميلان فقد شهدت توسعا صناعيا ينبىء فى تواضع بما بلغته من تفوق اقتصادى فى إيطالية اليوم . ذلك أن الحكم النمساوى أرخى قبضته على قدرات الأهالى وإقدامهم . وتعاون الكونت كارل يوزف فون فرميان ، حاكم لومبارديا ، مع الزعماء الوطنيين على تحسين الإدارة ، وحد من السلطة الظالمة التى كان يمارسها البارونات الأقطاعيون والإوليجركيون فى المدن . وظهرت طائفة من أحرار الاقتصاد يتزعمهم بيترو فرى ، وتشيزارى بونيزانا دى بيكاريا ، وجوفانى كارلى ، أعتنقت مبادىء الفزيوقراطيين ، وألغوا المكوس على التجارة الداخلية ، وأنهوا نظام الالتزام الضرائبى ، ووزعوا العبء بفرض الضرائب على الأملاك الكنسية . ونمت صناعة النسيج حتى أنتظمت فى ١٧٨٥ تسعا وعشرين شركة تشغل ١٣٨٤ نولا . ومسحت الأراضى ، ومولت الدولة مشروعات الرى ، وأشتغل الفلاحون بهمة صادقة . وفى السنوات الإحدى والعشرين فيما بين ١٧٤٩ و ١٧٧٠ إرتفع سكان الدوقية من ٩٠,٠٠٠ إلى ١٣٠,٠٠٠(٧) . فى فترة انتعاش ميلانو هذه بنى مجتمعها التياترو الاسكالا (١٧٧٦ — ٧٨) ، الذى إتسع لـ ٣,٦٠٠ متفرج تحيط بهم زخارف فاخرة كزخارف القصور ، وأحتوى تسهيلات

للموسيقى ، والسمر ، والأكل ، ولعب الورق ، والنوم . وفوق هذا كله صهريجاً للمياه صمم لاطفاء أى حريق . هنا ظفر تشيا روزا وكيروبينى بأنتصارات مدوية .

وكان العصر عصر البطولة لكورسكا . لقد كانت تلك الجزيرة الجبلية الصغيرة مثقلة بأحداث التاريخ . فالفينيقيون القادمون من آسيا الصغرى أقاموا مستعمرة فيها حوالى ٥٦٠ ق . م . ثم قهرهم الأثروريون ، الذين قهرهم القرطاجنيون ، الذين قهرهم الرومان ، الذين قهرهم الروم البيزنطيون ، الذين قهرهم الفرنجة ، الذين قهرهم المسلمون ، الذين قهرهم إيطاليوتسكانيا ، الذين قهرهم البيزاويون ، الذين قهرهم الجنويون (١٣٤٧) . ومات فى ذلك القرن ثلثا السكان من الطاعون الأسود . وفى ظل الحكم الجنوى إنحدر الكورسيكيون الذين أرهقهم الوباء وغارات القراصنة ، والذين حرمت عليهم المناصب الكبرى وأثقلت كواهلهم بضرائب لا يطيقونها ، وانقلبوا إلى حال أشبه بالتوحش لم يحترم فيها قانون غير قانون الثورات العنيفة . . وأخفقت الثورات التى إندلعت بين الحين والحين لما أبتلى به القوم من عداوات طاحنة وما أفتقدوا من العون الأجنبى . أما جنوه ففى سبيل الدفاع عن حياتها ضد الجيوش النمساوية استنجدت بفرنسا لتعينها على حفظ النظام فى كورسكا . واستجابت فرنسا مخافة أن يستولى البريطانيون على الجزيرة ويستخدموها قلعة يتسلطون منها على البحر المتوسط ، فاحتلت الجنود الفرنسية أياتشو وغيرها من الحصون الكورسيكية (١٧١٩ — ٤٨) . ولما بدا أن الأمن قد أستتب إنسحب الفرنسيون ، وعاد سلطان جنوة إلى سابق عهده ، وبدأت ثورة باولى التاريخية .

وقد سبق بأسكالى دى باولى هذا بطولات غاريبالدى بقرن كامل . وقد وصفه اللورد شاتام بأنه « واحد من هؤلاء الرجال الذين لم يعد الناس يعثرون عليهم إلا فى صفحات بلوتارخ[٨] » . ولد (١٧٢٥) أبنا لثائر كورسيكى وتبع أباه إلى المنفى ، ودرس فى نابلى على يد الاقتصادى المتحرر جينوفيزى ، وخدم فى جيش نابلى ، ثم عاد إلى كورسيكا (١٧٥٥)

وأختير ليقود تمردا على جنوه . وبعد عامين من القتال أفلح فى طرد الجنوبين من الجزيرة إلا بعض مدنها الساحلية فلما ولى رئاسة الجمهورية الجديدة بالأنتخاب (١٧٥٧ — ٦٨) أظهر فى ميدان التشريع والإدارة نبوغا لا يقل عن نبوغه فى إستراتيجية الحرب وتكتيكها . فقد وضع دستورا ديمقراطيا ، وقمع الثورات ، وألغى حقوق أمراء الأقطاع الظالمة ، ونشر التعليم ، وأسس جامعة فى عاصمته كورتى .

وأضطرت جنوه لعجزها عن قهره إلى بيع الجزيرة لفرنسا (١٥ مايو ١٧٦٨) بمليونى فرنك . ووجد باولى الآن نفسه يقاتل جنودا فرنسيين يعززون بالأمداد المرة بعد المرة . وكان سكرتيره ومساعده فى ذلك الوقت كارلو بونابرتى ، الذى ولد له ابن سماه نابليونى باياتشو فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . فلما قهر الفرنسيون باولى فى بونتينوفو (مايو ١٧٦٩) طلق هذا النضال الذى لا أمل فيه ولجأ إلى انجلتره ، وهناك منحته الحكومة معاشا ، وأذاع بوزوبل أسمه ، وكان جونسون واحداً من أصدقائه . على أن الجمعية الوطنية لفرنسا الثورة استدعته من منفاه ، وأشادت به « بطلا وشهيدا للحرية » وعينته حاكما على كورسيكا ، (١٧٩١) . ولكن المؤتمر الفرنسى حكم بأن فى ميوله اليعقوبية قصورا ، فأرسل لجنة لخلعه ، وخف الجنود البريطانيون لنجدته ، ولكن القائد البريطانى أستولى على الجزيرة وأعاد باولى إلى انجلتره (١٧٩٥) . ثم جرد نابليون قوة فرنسية لتطرد البريطانيين (١٧٩٦) ، ورحب أهل الجزيرة بالفرنسيين بأعتبارهم موفدين من قبل « الكورسيكى » ، وإنسحب البريطانيون ، وخضعت كورسيكا لفرنسا .

أما توسكانيا فقد إزدهرت تحت حكم كبار الأدواق الهابسبورج الذين خلفوا آل مديتشى (١٧٣٨) . وبعد أن إتخذ حاكمها الأسمى فرانسوا اللورينى النمسا مقرا له لزواجه من ماريا تريزا ، فوض الحكم إلى مجلس وصاية يرأسه زعماء وطنيون نافسوا الميلانيين الأحرار فى أصلاحاتهم الاقتصادية ، فقد حققوا حرية التجارة الداخلية فى الغلال (١٧٦٧) قبل أن يبذل طورجو محاولة كمحاولتهم فى فرنسا بسبع سنين . وحين مات فرانسوا

(١٧٦٥) خلفه دوقا أكبر أبنه الأصغر ليوبولد ، الذى تطور حتى أصبح واحدا من أجرأ وأشجع « المستبدين المستنيرين » . كبح الفساد فى المناصب ، وأصلح القضاء والإدارة والمالية ، وسوى بين الناس فى الضرائب ، وألغى التعذيب والمصادرة وحكم الإعدام ، وأعان الفلاحين ، وجفف المستنقعات وأنهى الأحتكارات ، ونشر حرية التجارة وحرية المؤسسات التجارية ، وسمح للكومونات بالحكم الذاتى ، وتطلع إلى وضع دستور شبيه بالدساتير الديمقراطيه للدوقيه . وقد راع جوته ما شهده من نظافة المدن التوسكانية النسبية وصلاحية الطرق والكبارى ، وجمال الأشغال العامة وفخامتها[٩] . وحين أصبح يوزف أخوليوبولد امبراطورا أوحد ، أعان ليوبولد على الغاء معظم الأمتيازات الإقطاعية فى تسكانيا ، وأغلاق كثير من الإديرة ، والحد من سلطة الأكليروس .

وفى ميدان الاصلاحات الكنسية تلقى ليوبولد تعاونا صادقا من سكبيونى دى ريكى أسقف بستويا وبراتو . وكان فى تسكانيا عرف قاسى يقضى على جميع الفتيات اللاتى لا مهور لهن بالرهبنة ، وأنضم ريكى إلى الدوق الكبير فى رفع السن الدنيا لنذر الرهبنه وتحويل الكثير من الإديرة إلى مدارس للبنات . واتخذت التدابير لنشر التعليم غير الدينى بأحلال المدارس العلمانية محل مدارس اليسوعيين . وكان ريكى يتلو القداس بالأيطاليه ، ويقاوم الخرافات ، الأمر الذى أساء كثيراً إلى جماهير الشعب . فلما شاع أنه ينوى إزالة « حزام العذراء مريم » الشهير فى براتو لأنه زائف ، أحدث الشعب شغبا ونهبوا قصر الأسقف . على أن ريكى دعا رغم ذلك مجمعاً أسقفيا أنعقد فى بستويا عام ١٧٨٦ وأعان مبادىء تذكر بـ « المواد الغالية » الصادرة فى ١٦٨٢ . ومفادها أن السلطة الزمنيه مستقلة عن السلطة الروحية (أى أن الدولة مستقلة عن الكنيسة) ، وأن البابا عرضة للخطأ حتى فى الأمور المتصلة بالعقيدة .

وكان ليوبولد يحيا حياة البساطة ، وأحبه الناس لطباعه الفطرية غير المتكلفة . ولكن حين امتد حكمه وأرهقته خصومة السنين بات ظنونا معتزلا للناس ، واستخدم عدداً غفيرا من الجواسيس ليكونوا له عيوناً على مساعديه

وأعدائه على السواء . وقد أسدى له يوزف النصيحة من فيينا قائلا : « دعهم يغشونك أحيانا ، فهذا خير من أن تعذب نفسك عذابا متصلا لا غناء فيه ».[١٠] فلما غادر ليوبولد فلورنسه ليخلف يوزف امبراطوراً (١٧٩٠) انتصرت قوى الرجعية فى تسكانيا وأدان البابا بيوس السادس ريكى فى ١٧٩٤ وأودعه السجن (١٧٩٩ — ١٨٠٥) حتى سحب هرطقاته . ورد قدوم حكومة نابليون (١٨٠٠) الأحرار إلى سابق سلطانهم .

وهرول جوته إلى روما عبر تسكانيا . استمع إليه وهو يكتب فى أول نوفمبر ١٧٨٦ :

« وأخيراً وصلت إلى عاصمة العالم العظيمة هذه . . وكأنما طرت طيراناً فوق جبال التيرول . إن شوقى لبلوغ روما كان شديدا . . حتى كان التفكير فى التخلف فى أى مكان ضربا من المحال ، وحتى فلورنسا لم أمكث فيها سوى ثلاث ساعات . والآن ، كما أخالنى سأظفر بالهدوء مدى الحياة ، فلنا أن نقول إن حياة جديدة تبدأ حين يرى الإنسان بعينيه كل مالم يسمع أو يقرأ عنه من قبل إلا قليلا . وأنا الآن أرى جميع أحلام شبابى تتحقق أمام عينى » .

وأى خليط يدير الرؤوس كانت روما القرن الثامن عشر وهى تشغى بالشحاذين والنبلاء ، بالكرادلة والخصيان المغنين ، بالأساقفة والبغايا ، بالرهبان والتجار ، باليسوعيين واليهود ، بالفنانين والمجرمين ، بالفتاك والقديسين ، وبالسياح يبحثون عن الآثار نهارا وعن الغوانى ليلا . وهنا ، وعلى إثنى عشر ميلا من أسوار المدينة ، مدرجات وثنية وأقواس نصر ، وقصور ونافورات من عهد النهضة ، وثلاثمائة كنيسة وعشرة آلاف قسيس و ١٧٠,٠٠٠ نسمة . ومن حول الفاتيكان قلعة المسيحية الكاثوليكية ، عاش صنف من الرعاع كانوا أشد ماعرف العالم المسيحى صخباً وتمرداً وعداءاً للأكليروس . وكانت الكراسات البذيئة المهاجمة للكنيسة يطاف بها فى الشوارع ، والمهرجون يقلدون فى سخرية فى الميادين العامة أقدس مراسم القداس . ولعل فنكلمان وهو الرجل الحى الرقيق كان يبالغ قليلا حين قال :

« فى النهار يسود روما هدوء معتدل ، أما فى الليل فإن الشيطان ينطلق من عقاله . ونتيجة للحرية الكبيرة التى تسود هنا ، ولعدم وجود أى نوع من أنواع الشرطة ، يتصل الشجار وضرب النار وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى جميع الشوارع الليل كله . . والجماهير عاصية لا تخضع لسلطان ، وقد أعيا الحاكم كثرة النفى والشنق (١١) » .

كانت روما مدينة تتسم بطابع العالمية أكثر حتى من باريس . . يختلط فيها الفنانون والطلاب والشعراء والسياح بالأحبار والأميرات فى الصالونات وقاعات الفن والمسارح .

هنا كان فنكلمان ومنجز يبشران بإحياء الطراز الكلاسيكى ، وهنا كان البابوات المرهقون المحاصرون يكافحون لتهدئة ثائرة الجماهير التى طحنها الفقر بالخبز والبركات الروحية ، ولتعطيل السفراء الذين يلحون فى إلغاء الطائفة اليسوعية والحفاظ على صرح المسيحية المعقد بأسره من الانهيار تحت وطأة التقدم العلم وهجمات الفلسفة .

ولكن لنمضى قدما مع جيته إلى نابلى . لقد خيل إليه أنه لم يشهد قط مثل هذه الفرحة بالحياة :

« إذا كان فى استطاعة المرء وهو فى روما أن يعكف من فوره على الدراسة ، فليس فى استطاعته هنا أن يفعل شيئا إلا أن يعيش . فأنت تنسى نفسك والعالم ، وأنا عن نفسى أجده شعورا غريبا أن أتنقل مع قوم لا يفكرون إلا فى الاستمتاع بالحياة . . . هنا لا يعرف الناس شيئا بعضهم عن بعض . وقلما يلحظون أن غيرهم يسيرون أيضا فى طريق سيرهم جنبا إلى جنب معهم . وهم يجرون سحابة نهارهم خلفا وأماما فى فردوس دون أن يتلفتوا حولهم ، ولو بدأ فكا الجحيم المجاوران ينفتحان ويثوران ، فإنهم يستنجدون بالقديس يتيواريوس (١٢) » .

وكان الدون كارلوس بعد رحيله عن نابلى قاصدا أسبانيا فى ١٧٥٩

قد أوصى بمملكة نابلى وصقلية إلى ابنه فرديناند الرابع البالغ من العمر ثمانية أعوام ، بوصاية المركيز دى تانوكى وواصل تانوكى حرب الكنيسة التى بدأها على عهد كارلوس . فألغى الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ولم يتردد فى اتباع تعليمات شارل الثالث ملك أسبانيا بطرد اليسوعيين . فما أن انتصف ليل ٣ — ٤ نوفمبر ١٧٦٧ حتى قبض الجند على جميع أعضاء الطائفة فى المملكة ، وقادوهم — وهم لا يحملون من مقتنياتهم سوى الثياب التى عليهم — إلى أقرب ثغر أو نقطة حدود ، ومن هناك رحلوا إلى الولايات البابوية .

ولما بلغ فرديناند الرابع عامه السادس عشر (١٧٦٧) أنهى وصاية تانوكى . وبعد عام تزوج ماريا كارولينا ، الابنة التقية لماريا تريزا . وسرعان ما سيطرت على زوجها وتزعمت حركة رجعية ضد سياسات تانوكى المناهضة لرجال الدين . وكانت اصلاحات المركيز قد قوت ملكية نابوكى ضد نبلاء الاقطاع والكنيسة ، ولكنها لم تحقق شيئا يذكر فى تخفيف الفقر الذى لم يترك للجماهير أملا إلا فى الآخرة .

وانتهجت صقلية نهجا مماثلا . فكان بناء كتدرائية بلرمو (١٧٨٢ — ١٨٠٢) أهم وأخطر فى نظر الشعب من محاولة دومنيكو دى كاراكولى ترويض أمراء الإقطاع الذين سيطروا على البلاد . وكان قد عمل سنوات كثيرة سفيرا لنابلى فى لندن وباريس ، واستمع إلى البروتستنت والفلاسفة . فلما عين واليا على صقلية (١٧٨١) فرض الضرائب الباهظة على كبار ملاك الأراضى ، واختزل حقوقهم الاقطاعية على أقنانهم ، وأنهى ماكان لهم من امتيازات اختيار القضاة المحليين . ولكنه حين تجاسر على حبس أمير يحمى قطاع الطرق ، وأمر بانقاص يومين من العطلات التى تمنح تكريما للقديس روزاليا حامى بارمو ، ثارت عليه جميع الطبقات ، وقفل إلى نابلى مهزوما (١٧٨٥) . [١٣] فالفلاسفة لم يكونوا قد برهنوا بعد على أنهم يفهمون حاجات الإنسان وطبيعته خيرا مما تفهمها الكنيسة .

٢ ــ البابوات والملوك واليسوعيون

استندت قوة الكنيسة الكاثوليكية على إيمان بالخوارق ركب فى فطرة البشر ، والتسليم بالدوافع الحسية والمخلفات الوثنية والتسامى بها ، وتشجيع الخصوبة الكاثوليكية ، وغرس لاهوت غنى بالشعر والأمل ، نافع للتهذيب الخلقى والنظام الاجتماعى . كذلك كانت الكنيسة فى إيطاليا المصدر الرئيسى للدخل القومى ، ورادعا معترفا بقيمته لشعب يؤمن إيمانا شديدا بالخرافات ، وثنى النزعة مشبوب العاطفة . وقد كثرت الخرافات بين الايطاليين ، فحتى (١٧٨٧) أحرقت الساحرات فى بلرمو ــ وقدمت المرطبات للنبيلات العصريات اللاتى حضرن هــذا المشهد . [١٤] وعاشت المعتقدات والعادات والمراسم الوثنية فى ظل موافقة الكنيسة عليها عن طيب خاطر . كتب جوته يقول « لقد انتهيت إلى الاعتقاد القاطع بأن كل آثار المسيحية الأصلية قد انقرضت هنا فى روما [١٥] » . على أنه بقى فى العالم المسيحى الكثير من المسيحيين الحقيقيين ، حتى فى إيطاليا . ومن هؤلاء الكونت كايسوتى دى كيوزانو ، أسقف أستى ، الذى نزل عن ميراثه الكبير ، وعاش فى فقر اختيارى ، وكان لا يسافر إلا راجلا . كذلك كان تستا أسقف مونريالى ينام على القش ، ولا يأكل إلا ما يمسك رمقه ولا يحتفظ من دخله إلا بثلاثة آلاف ليرة لحاجاته الشخصية ، ويخصص ما بقى منه للاشــغال العامة وللفقراء [١٦] .

وإستجابت الكنيسة لحركة التنوير إلى حد ما . وبالطبع أدرجت أعمال فولتير وروسو وديدرو وهلفتيوس ود ولباخ ولا مترى وغيرهم من أحرار الفكر فى قائمة الكتب المحرمة ، ولكن أبيح الحصول على إذن بقراءتها من البابا . وكان المونسنيور فنتمليو أسقف قطنيا (١٧٥٧ ــ ٧٣) يقتنى فى مكتبته طبعات كاملة من فولتير وهلفتيوس وروسو [١٧] . وألغيت محكمة التفتيش فى تسكانيا وبارما عام ١٧٦٩ ، وفى صقليه عام ١٧٨٢ ، وفى روما عام ١٨٠٩ . وفى ١٧٨٣ نشر قسيس كاثوليكى يدعى تابعورنى ، تحت اسم صديقه تراوتما نسدورف ، مقالا « فى التسامح الكنسى والمدنى » .

أدان فيه محكمة التفتيش وحكم على كل ضروب الأكراه للضمير بأنها منافيه للمسيحية ، ودافع عن جميع أنواع اللاهوت إلا الإلحاد(١٨) .

وكان من سوء طالع البابوات فى نصف القرن الثامن عشر هذا أن يضطروا إلى مواجهة مطالبة الملوك الكاثوليك بحل جمعية اليسوعيين كلية . وكانت الحركة المناهضة لليسوعيين جزءا من صراع على القوة بين قومية الدولة الحديثة الظافرة ، ودولية بابوية أضعفتها حركة الأصلاح البروتستنتى وحركة التنوير وصعود طبقة رجال الأعمال . ولم يلح أعداء الجمعية الكاثوليك الحاحا سافرا بأعتراضهم الرئيسى عليها ، وهو أنها دأبت على تأييد سلطة البابوات بأعتبارها فوق سلطة الملوك ، ولكنهم كرهوا أشد الكره أن يشكل قيام منظمة لا تعترف برئيس غير رئيسها ، والبابا فى الواقع داخل كل دولة عميلا لسلطة أجنبية . وقد سلموا بغزارة علم اليسوعيين وتقواهم ، وبإسهاماتهم فى العلوم والأدب والفلسفة والفن ، وبتربيتهم المثابرة الفعالة للشباب الكاثوليكى ؛ وببطولتهم فى البعثات الأجنبية وباستعادتهم كثيرا من الأرض التى فقدتها الكاثوليكية وأستولت عليها البروتستنتية . ولكن التهمة التى وجهوها إلى الجمعية هى أنها كانت تتدخل المرة بعد المرة فى الشئون العلمانية ؛ وأنها أشتغلت بالتجارة طمعا فى الربح المادى ؛ وأنها غرست مبادىء الفتاوى التى تغتفر الفساد الخلقى والجريمة ، وأغضت حتى عن قتل الملوك ، وأنها سمحت للعادات والمعتقدات الوثنية بأن تعيش بين أتباعها المزعومين فى آسيا ؛ وأنها أساءت إلى الطوائف الدينية الأخرى وإلى كثير من الكهنة غير الرهبان ، بحدتها فى الجدل ونغمتها المشربة بالاحتقار . وأصر سفراء ملوك البرتغال وأسبانيا ونابلى وفرنسا على إلغاء الترخيص البابوى الخاص بالجمعية وعلى حل المنظمة رسميا وفى كل مكان .

على أن طرد اليسوعيين من البرتغال فى ١٧٥٩ ومن فرنسا فى ١٧٦٤ — ٦٧ ، ومن أسبانيا ونابلى فى ١٧٦٧ ، ترك الجمعية تواصل نشاطها فى وسط وشمالى إيطاليا ، وفى سيليزيا وبولنده . وفى ٧ فبراير ١٧٦٨ طردوا من دوقية بارما البوربونية ، وأضيفوا إلى حشد اللاجئين اليسوعيين فى ولايات

الكنيسة . واحتج البابا كلمنت الثالث عشر بأن بارما إقطاعة بابوية ، وهدد الدوق فرد يناند السادس ووزراءه بالحرم إذا نفذ مرسوم الطرد . فلما أصروا أصدر مرسوما أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه والغاءهما . وبدأت الحكومات الكاثوليكية فى أسبانيا ونابلى وفرنسا حربا على البابوية . واستولى تانوتشى على مدينتى بنيفنتو وبونتيكورفو البابويتين واحتلت فرنسا أفنيون . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٦٨ قدم السفير الفرنسى فى روما باسم فرنسا ونابلى وأسبانيا إلى البابا مطلبا بسحب المرسوم الموجه ضد بارما وبإلغاء جمعية اليسوعيين . وانهار الحبر الأعظم تحت وطأة هذا الانذار النهائى . وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وسبعين عاما ، فدعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين فى ٣ فبراير ١٧٦٩ لدراســـة الأمر . وفى ٢ فبراير خر صريعا بانفجار عرق فى دماغه .

وانقسم الكرادلة الذين دعوا لاختيار خلف له فريقين : الغيورين الذين اقترحوا تحـــدى الملوك ، والمهـــدئين الذين آثروا التسويات الهادئة . ولما كانت الكثرة العظمى من الكرادلة الإيطاليين من فريق الغيورين الذين اجتمعوا سريعاً فى روما ، فقد حاولوا افتتاح المجمع قبل أن يصل فريق الكرادلة المهدئين من فرنسا وأسبانيا والبرتغال . واحتج السفير الفرنسى ، فأجل المجمع . وفى غضون هذا عرض لورنتسو ريكى قائد اليسوعيين قضيتهم للخطر إذ أصدر كراسة اعترضت على سلطة أى بابا فى إلغاء الجمعية [١٩] . وفى مارس وصل الكردنيال دبيرنى من فرنسا وبدأ طوافه على الكرادلة بهدف ضمان انتخاب بابا راغب فى ارضاء أصحاب الجلالة الكاثوليك . وقد رفض المؤرخون ، سواء منهم الكاثوليك [٢١] . وخصوم الكاثوليك [٢٢] ، الشائعات التى زعمت بعد ذلك [٢٠] أنه هو أو غيره رشوا أو أغروا بوسيلة ما الكردينال جوفانى جانجانللى بأن يعد بهذا إذا اختير لكرسى البابوية . وكان جانجانللى باجماع الكل رجلا عظيم الثقافة والتقوى والنزاهة ، بيد أنه كان ينتمى إلى طائفة الفرنسسكان التى طالما خاصمت اليسوعيين سواء فى ميدان البعثات التبشيرية أو اللاهوت [٢٣] .

وفى ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب باجماع أراء الكرادلة الأربعين ، واتخذ اسم كلمنت الرابع عشر ، وكان يومها فى الثالثة والستين .

ثم ألفى نفسه واقفاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية . ففرنسا ونابلى تتشبثان بالأقاليم البابوية التى استولتا عليها ، وأسبانيا وبارما تتخذان موقف التحدى ، وهددت البرتغال باقامة بطريركية مستقلة عن روما ، بل أن ماريا تريزا التى كانت حتى ذلك الحين حارة الولاء للبابوية واليسوعيين ولكنها الآن فقدت سلطانها الذى انتزعه منها ابنها حر التفكير جوزف الثانى ، ردت على نداء البابا بطلب معونتها بأنها لاتستطيع مقاومة الإرادة الموحدة لمثل هذا للعدد الكبير من الملوك والحكام . وأصدر شوازيل الذى كان مسيطرا على حكومة فرنسا آنذاك تعلياته لبيرنى بأن يخبر البابا أنه « إذا لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ففى استطاعته أن يعتبر كل علاقاته بها منتهية(٢٤) » .

وكان شارل الثالث ملك أسبانيا قد أرسل مثل هذا الانذار النهائى فى ٢٢ ابريل . أما كلمنت ، الذى حاول كسب الوقت ، فقد وعد شارل بأنه عن قريب « سأرفع إلى حكمة جلالتكم وذكائكم خطة للقضاء المبرم على الجمعية(٢٥) » . وأمر مساعديه بالرجوع إلى السجلات وتلخيص تاريخ جمعية اليسوعيين وانجازاتها وجرائمها المزعومة . ورفض التسليم بما طالب به شوازيل من الفصل فى النزاع خلال شهرين . وقد اقتضاه الفصل ثلاث سنين ، ولكنه أذعن فى النهاية .

ففى ٢١ يوليو ١٧٧٣ وقع الرسالة البابوية التاريخية ، وقد بدأت بقائمة طويلة من الجماعات الدينية التى حظرها الكرسى البابوى المقدس على مدى الأيام ، وذكرت الشكاوى الكثيرة التى رفعت ضد اليسوعيين ، والجهود الكثيرة التى بذلها مختلف البابوات لعلاج المساوىء المزعومة . « وقد لاحظنا ببالغ الحزن أن هـذه العلاجات وغيرها مما استعمل بعد ذلك لم يكن لها من الفاعلية أو القوة ما يضع حداً لهذه المتاعب والتهم

والشكاوى[٢٦] » . واختتمت الرسالة بهذه العبارات « وإذ تبين لنا أن جمعية اليسوعيين لم تعد قادرة على أن تؤتى الثمرات الوفيرة والخير العظيم اللذين من أجلهما أسست ووافق عليها العدد الكبير من البابوات أسلافنا الذين شرفوها بالكثير من المزايا الجديرة بالإعجاب ، وإذ رأينا أنه من المستحيل تقريباً — بل أنه مستحيل إطلاقاً — على الكنيسة أن تتمتع بسلام صادق متين ما بقيت هذه الطائفة . . . فاننا بعد الفحص المتأنى ، ونتيجة لمعرفتنا الخاصة وبحكم كمال سلطتنا الرسولية ، نحل ونلغى بمقتضى هذه الرسالة البابوية جمعية اليسوعيين . ونبطل ونلغى كل مناصبها ووظائفها وإداراتها ، ودورها ، ومدارسها ، وكلياتها وخلواتها ، وملاجئها وسائر المؤسسات التى تخصها على أى وجه كائنا ما كان وفى أى إقليم أو مملكة أو دولة لها وجود فيها[٢٧] » .

ثم وعدت الرسالة البابوية بصرف معاشات لليسوعيين الذين لم يرسموا بعد ويريدون العودة لحياة العلمانيين ، وأذن للكهنة اليسوعيين بالأنضمام إلى الأكليروس غير الرهبان أو بأى طائفة دينيه يوافق عليها الكرسى البابوى . وسمح لليسوعيين المقبولين فى الرهبنه والذين نذروا أنفسهم نذرا نهائيا مطلقا بأن يبقوا فى بيوتهم السابقة شريطة أن يلبسوا رداء الكهنة غير الرهبان ويخضعوا لسلطة الأسقف المحلى .

وفى معظم الحالات ، وبأستثناء بعض المبعوثين فى الصين ، تقبل اليسوعيون حكم الإعدام هذا الذى أصدره البابا على جمعيتهم بامتثال ونظام ظاهرين .. بيد أن كراسات غفل من اسم المؤلف طبعت ووزعت دفاعا عن قضيتهم ، وقبض على ريتشى وعدد من معاونيه بتهم لم تثبت عليهم قط بأنهم يتراسلون مع خصوم المرسوم . ومات ريتشى فى السجن فى ٢٤ نوفمبر ١٧٧٥ بالغا الثمانية والسبعين .

ولم يعش كلمنت الرابع عشر إلا عاما واحدا أو يزيد بعد المرسوم . وكثرت الشائعات بأن عقله اختل فى شهوره الأخيرة . وقد اجتمعت عليه

الأسقام ، ومنها الأسكربوط والبواسير ، لتجعل كل نهار وليل فى حياته شقاء تعاسة له . وأصابته فى إبريل ١٧٧٤ نزلة برد لم تبرحه قط ، ولم تحل نهاية أغسطس حتى كان الكرادلة يناقشون مسألة خلافته ، وفى ٢٢ سبتمبر قضى كلمنت نحبه .

وبعد الكثير من التأجيلات والدسائس أجلس مجمع الكرادلة على كرسى البابوية (١٥ فبراير ١٧٧٥) جوفانى براسكى الذى إتخذ اسم بيوس السادس . وكان رجلا مثقفاً أكثر منه سياسياً ، يجمع التحف الفنية ، ويسحر الجميع برقته ، وقد حسن إدارة الكوريا (الإدارة البابوية) وأستصلح بعض المستنقعات البونتيه . ورتب حلا وسطا موقتا مسالما لليسوعيين مع فردريك الأكبر . وفى ١٧٩٣ أنضم للحلف المعادى لفرنسا الثائرة . وفى ١٧٩٦ غزا نابليون الولايات البابوية ، وفى ١٧٩٨ دخل الجيش الفرنسى روما ، وأعلنها جمهورية ، وطالب البابا بالتخلى عن كل سلطاته الزمنية . ولكنه أبى ، فأعتقل ، وظل فى أماكن وحالات مختلفة من السجن حتى وفاته (٢٩ أغسطس ١٧٩٩) . أما خليفته بيوس السابع فقد جعل رد جمعية اليسوعيين إلى سابق عهدها (١٨١٤) جزءا من أنتصار التحالف على نابليون .

٣ — القانون وبيكاريا

ظلت أخلاق إيطاليا وسلوكها مزيجاً من العنف والتراخى ، من الثأر والحب . كتب موتسارت من بولونيا عام ١٧٧٠ ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره « إن إيطاليا بلد ناعس » [٢٨] ، ولم يكن قد تعلم فلسفة القيلولة . أما أبوه فكان رأيه فى ١٧٧٥ أن « الإيطاليين أوغاد فى كل أنحاء العالم» [٢٩].

وقد علق موتسارت وجوته كلاهما على الجريمة الإيطالية . كتب موتسارت يقول إن فى نابلى « زعيما للشحاذين يتقاضى من الملك خمساً وعشرين دوقاتيه كل شهر مقابل تهدئتهم لا أكثر» [٣٠]. وكتب جوته يقول « إن أكثر ما يلفت نظر الغريب هو كثرة الاغتيالات . واليوم كان الضحية فناناً ممتازا هو

شفندمان . . وقد طعنه القاتل الذى اشتبك معه عشرين طعنة ، فلما أقبل الحارس طعن الوغد نفسه. وليس هذا مايجرى به العرف هنا عموماً ، فالقاتل عادة يقصد أقرب كنيسة ، فمتى بلغها أصبح فى مأمن تام »[٣١]. وكانت كل كنيسة تعطى المجرم الأمان فى حرمها — أى الحصانة من الإعتقال مابقى تحت سقفها .

وحاول القانون كبح الجريمة بتشديد العقوبة أكثر مما حاولها بكفاية الشرطة . فقد نصت قوانين بندكت الرابع عشر الرحيم على عقوبات التجديف بالجلد ، فإذا تكررت الجريمة ثلاث مرات كان عقابها التشغيل خمس سنوات فى سفن الأسرى والعبيد . وكان السطو على دير للراهبات ليلا جناية كبرى ، إما مغازلة امرأة شريفة أو معانقتها علانية فعقابه التشغيل المؤبد على هذه السفن . وكان تشويه السمعة الخلقية ، حتى إذا لم يحتو غير الصدق يعاقب بالإعدام ومصادره الممتلكات.(ومع ذلك لم يقلل هذا من المقطوعات الهجائية) . ومثل هذه العقوبة فرضت على حمل الطبنجات المخبأة . على أن الجناة كانوا فى كثير من المناطق يتفادون هذه الأوامر بالفرار إلى دولة مجاورة أو بفضل رحمة القاضى ، أو الاحتماء بالكنيسة . ولكن العقوبات كانت تنفذ بصرامة فى حالات عديدة . من ذلك أن رجلا شنق لإدعائه أنه كاهن ، وآخر لسرقته ثوباً كهنوتيا باعه بفرنك وربع ، وثالث ضرب عنقه لكتابته خطابا اتهم البابا كلمنت الحادى عشر بعلاقة غرامية مع ماريا كلمنتينا سوبيسكا[٣٢]. وإلى تاريخ متأخر (١٧٦٢) كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب ، عظمة بعد عظمة ، أو يسحلون على الأرض فى ذيل حصان مهموز . على أن من واجبنا أن نضيف جانباً أكثر إشراقاً على الصورة ، هو أن بعض الجمعيات الخيرات كانت تجمع المال لدفع غرامات السجناء وتحريرهم . وغدا إصلاح القانون ، سواء من حيث الإجرات أو من حيث العقوبات ، جزءاً طبيعياً من الروح الرحيمة التى أنجبها أبوان — حركة تنوير إنسانية ، وأخلاقيات مسيحية تحررت من لاهوت قاس .

ومن مفاخر إيطاليا أن يصدر أقوى نداء يدعو لإصلاح القانون فى هذا

القرن عن شريف ميلانى . وقد كان هذا الشريف — تشزارى بونيزانا ، مركيز بكاريا ، نتاج اليسوعيين والفلاسفة الفرنسيين . ومع أنه وهب من الثراء مايسمح له بحياة التبطل فإنه كرس نفسه بغيرة لا تفتر لحياة التأليف الفلسفى والإصلاح العملى . وقد أمسك عن مهاجمة دين الشعب ؛ ولكنه تصدى رأساً للظروف الفعلية للجريمة والعقاب . وقد صدمه أن يرى قذارة السجون الميلانية التى كانت مرتعاً للأمراض ، وأن يسمع من السجناء كيف ولم اعتادوا الإجرام وكيف حوكموا على جرائمهم . وأفزعه أن يكتشف مخالفات صارخة فى الإجراءات القضائية ، وألواناً من التعذيب الوحشى للمشبوهين والشهود ، وضروبا من التعسف فى الأحكام سواء بالتشديد أو التخفيف ، وألواناً من القسوة الضارية فى العقاب . وحوالى ١٧٦١ انضم إلى بيتر وفيرى فى جمعية سمياها « البونيات » (قبضات الأيدى) — نذرت نفسها للعمل والفكر معاً . وفى ١٧٦٤ بدءا مجلة « المقهى » محاكاة لمجلة أديسون « سيكتيتر » . وفى ذلك العام نشر بيكاريا بحثه التاريخى « بحث فى الجرائم والعقوبات » .

وفى مستهل كتابه أعلن فى تواضع أنه يتأثر بخطى « روح القوانين » الذى ألفه « الرئيس الخالد » لبرلمان بوردو ، فالقوانين يجب أن ترسى على العقل ، ورائدها الأساسى ليس الانتقام من الجريمة بل حفظ النظام الاجتماعى ، وينبغى أن تستهدف دائماً « أوفر سعادة موزعة على أكبر عدد[٣٣] » . هنا قبل بنتام بخمسة عشر عاما ، نجد المبدأ الشهير لأخلاقيات مذهب المنفعة . واعترف بكاريا بصراحته المعهودة بتأثره بهلفتيوس ، الذى أورد هذه الصيغة ذاتها فى كتابة « فى الروح » (١٧٥٨) . (وكان قد صدر فى سلسلة فرانسس هتشسن « أفكار فى الجمال والفضيلة » (١٧٢٥). وقال بكاريا أن توسيع التعليم وتعميقة أملا فى الحد من الجرائم أصوب لمصلحة المجتمع من الالتجاء إلى عقوبات قد تحول شخصا أجرم عرضا من مخالطته المجرمين إلى مجرم عريق . فالواجب أن يكون لكل متهم الحق فى محاكمة عادلة وعلنية أمام قضاة أكفاء يتعهدون بالحياد والنزاهة . ويجب أن تقفو المحاكمة الإتهام سريعاً ؛ وأن يكون العقاب متناسباً مع

الضرر الواقع على المجتمع لامع نية الفاعل . فضراوة العقوبة تولد ضراوة الخلق ، حتى فى الجمهور غير المجرم . أما التعذيب فيجب عدم الإلتجاء إليه اطلاقاً ، فالمذنب الذى تعود على الألم قد يحتمله فى تجلد وتفترض براءته ، فى حين قد يكره الألم بريئاً مرهف الأعصاب على الإعتراف بأى شىء فيحكم بأنه مذنب . ويجب ألا يسمح بعد بحماية الكنيسة للمجرمين ، ويجب إلغاء عقوبة الإعدام .

وطبع الكتيب ست طبعات فى ثمانية عشر شهراً ، وترجم إلى اثنتين وعشرين لغة أوربية . وأشاد بكاريا بالترجمة الفرنسية التى قام بها مورلليه وقال أنها أفضل من الأصل . وقد شارك فولتير بمقدمة غفل من الاسم لتلك الترجمة ، وأقر المرة بعد المرة بأثر بكاريا فى جمهوره لإصلاح القانون . وبادرت معظم الدويلات الإيطالية إلى اصلاح قوانين عقوباتها . ولم يحل عام ١٧٨٩ حتى كانت أوربا كلها تقريباً قد ألغت التعذيب . وتأثرت كاترين ببكاريا كما تأثرت بفولتير فى الغاء التعذيب فى أملاكها . أما فردريك الأكبر فكان قد أنهاه فعلا فى روسيا (١٧٤٠) إلا فى حالات الخيانة .

وفى ١٧٦٨ عين بكاريا فى كرسى للقانون والاقتصاد أنشىء خصيصاً له فى كلية البالاتين بميلان . وفى ١٧٩٠ عين فى لجنة لإصلاح القضاء فى لمبارديا . وقد سبقت محاضراته عدة أفكار أساسية لآدم سمث ومالتاس فى تقسيم العمل والعلاقة بين العمال ورأس المال ، وبين السكان وكمية الطعام . وفيه بعثت «انسانية» النهضة الأوربية من جديد فى صورة التنوير فى ايطاليا .

٤ — مغامرات

١ — كاليوسترو

ولد جوزيبى بلسامو لصاحب متجر ببلرمو فى ١٧٤٣ . ونضج مبكرا وسرعان ما أصبح لصاً بارعاً . وفى الثالثة عشرة قيد تلميذا فى دير

البنفر اتيللي . وعين هناك مساعدا لصيدلي الدير ، فتعلم من قواريره ومحابيره وكتبه من الكيمياء والخيمياء ما يكفي لاعداد نفسه لاحتراف الشعوذة الطبية . . . ولما كلف بأن يقرأ حياة القديسين على الرهبان وهم يتناولون طعامهم ، استبدل بأسماء القديسين أسماء أشهر مومسات بلرمو . وجلد عقاباً له ، فهرب من الدير وانضم إلى عالم المجرمين السفلي ، ودرس فن الأكل دون بذل العرق . واشتغل قواداً ومزوراً ومزيفاً للنقود ، وقارئاً للبخت ، وساحراً ، ولصا ، وأفلح عادة في إخفاء آثاره بمهارة عجزت معها الشرطة عن إدانته إلا بالوقاحة .

فلما رأى نفسه مشبوها على نحو يضايقه ، أنتقل إلى مسينا ، وعبر إلى ريدجو كالأبريا ، وجرب الفرص التي تتيحها نابلي وروما . وتكسب فترة بادخال لمسات على نسخ الصور وبيعها على أنها من صنعه . ثم تزوج لورنتسا فيلكياني ، وأثرى ببيع جسدها . وأنتحل اسم المركيز دي بللجريني ، وأخذ نبيلته المكسبة إلى البندقية ومرسليا وباريس ولندن . ثم دبر أن تمسك زوجته بين ذراعي كويكري ثري ؛ وعاشا على المال الذي ابتزاه نتيجة للخطة شهورا . ثم غير أسمه إلى الكونت دي كاليوسترو ، وتنكر بشوارب ولبس حلة كولونيل بروسي ،وسمي زوجته من جديد بالكونتيسه سيرافينا . ثم عاد إلى بلرمو ، وقبض عليه بتهمة التزوير ، ولكن أفرج عنه تحت الحاح منذر بالشر من أصحابه الذين روعوا القضاء .

وإذ بليت مفاتن سيرافينا لكثرة تداولها . فقد أخذ يطبق ما تعلم من كيمياء فجهز وباع العقاقير التي ضمن إزالتها التجاعيد وتأجيجها لنار العشق . ولما عاد إلى إنجلترة أتهم بسرقة قلادة من الماس وقضى فترة في السجن ثم انضم إلى جماعة الماسون وانتقل إلى باريس ، وادعى أنه الرئيس الأكبر للماسون المصريين . وأكد لعشرات السذج أنه عثر على الأسرار القديمة لاعادة الشباب ، الذي يمكن تحقيقه بعلاج يمتد أربعين يوما تستعمل فيه المسهلات والمعرقات وغذاء من الجذور ، والحجامة ، والتيوصوفية (٣٤) . وكان كلما أفتضح أمره في مدينة مضى إلى غيرها ؛ واتصل بأسرها الفنية

بفضل طريقة المصافحة وخاتمه الماسونيين . وفى سانت بطرسبرج أشتغل طبيبا ، وعالج الفقراء مجانا ؛ وأستقبله بوتمكين ، ولكن طبيب كاترين الكبرى ، وكان اسكتلنديا حاذقا ، حلل بعض أكاسير هذا الطبيب ووجدها فارغة لاقيمة لها . فسمح لكاليوسترو بيوم وأحد يحمل فيه بضاعته ويرحل . وفى وارسو أفتضح أمره ثانية على يد طبيب آخر فى كتيب سماه « نزع القناع عن كاليوسترو » (١٧٨٠) ، ولكن قبل أن يدركه كان قد إنطلق إلى فيينا وفرانكفورت وستراسبورج . وهناك سحر الكردينال الأمير لوى — رينيه — إدوارد روهان ، الذى وضع فى قصره تمثالا نصفيا لزعيم الماسون الأكبر كتب عليه « كاليوسترو المقدس » وأتى به الكردينال إلى باريس ، وتورط النصاب الكبير على غير قصد منه فى قصة القلادة الماسية. فلما أنكشفت هذه الخدعة زج بكاليوسترو فى الباستيل ؛ ولكن سرعان ما أفرج عنه لبراءته . ولكنه أمر بمغادرة فرنسا (١٧٨٦) . فوجد زبائن جددا فى لندن . وزار جوته أثناء ذلك أم كاليوسترو فى صقلية وأكد لها أن ولدها الذائع الصيت قد أطلق سراحه وأنه فى مأمن[٣٥] (*) .

وفى لندن حيث تكاثر المتشككون فى أمره انتقل الكونت والكونتيسة إلى بازل وتورين وزوفبريتو وترنت ، يشتبه فيهما فى كل بلد ثم يطردان . وتوسلت إليه سيرافينا ان يأخذها إلى روما لتصلى عند قبر أمها ، فوافق الكونت . وفى روما حاولا أن يقيما محفلا لماسونيته المصرية ، فقبضت عليهما محكمة التفتيش (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩) ، واعترفا بأنهما دجالان نصابان ؛ فحكم على كاليوسترو بالسجن مدى الحياة . وأنهى أيامه فى قلعة سان ليو قرب بيزارو فى ١٧٩٥ وقد بلغ الثانية والخمسين . وهكذا كان هو أيضا جزءاً من صورة القرن المستنير .

٢ — كازانوفا

أضاف جوفانى يا كوبو كازانوفا لقب « دى سينجالت » الفخم لاسمه

(*) أنبهر جوته بحياة كاليوسترو وجعلها موضوعا لتمثيلية متوسطة الجودة سماها « زعيم الماسون الأكبر » .

بتفنيط عشوائى الأبجدية ، باعتبار هذا اللقب تشريفا يفيد فى أبهر الراهبات وتحدى حكومات أوربا . ولد لممثل وممثلة فى البندقية عام ١٧٢٥ ، وظهرت عليه منذ طفولته امارات النشاط الذهنى . تتلمذ لاحتراف القانون ، وزعم أنه نال الدكتوراه فى جامعة بادوا وهو فى السادسة عشرة . وعلينا فى كل خطوة من « مذكراته » الشائقة أن نكون على حذر من شطط خياله ، ولكنه يقص قصته بصراحة يدين بها نفسه إدانة تحملنا على تصديقه حتى ونحن نعلم أنه يكذب .

وبينما كان فى بادوا حقق أول غزواته — وهى بتينا ، « فتاة حلوة فى الثالثة عشرة » وأخت لمعلمه الكاهن الطيب جوتسى . فلما مرضت بالجدرى عنى بها كازانوفا وأصيب بالمرض . ويزعم فى روايته أن أعمال الرحمة التى كان يقوم بها كانت تعدل غزواته الغرامية . وحين ذهب فى شيخوخته إلى بادو لآخر مرة ، « الفيتها عجوزا ، مريضة ، فقيرة ، وقد ماتت بين ذراعى » . [٣٧] وكل عشيقاته تقريبا يصورهن مغرمات به إلى النهاية .

على أنه عانى من فقر مذل رغم درجته القانونية . مات أبوه ، وكانت أمه تمثل فى مدن بعضها وصل فى بعده حتى سانت بطرسبورج ، وتنساه عادة . وكسب بعض المال من عزف الكمان فى الحانات والشوارع . ولكنه وهب القوة كما وهب الوسامة والشجاعة . فلما أصيب السناتور البندقى زوان براجادينو (١٧٤٦) بالنقطة وهو يهبط السلم ، احتمله ياكوبو بين ذراعيه وأنقذه من سقطة فجائية . وبعدها بسط عليه السناتور حمايته فى مآزق كثيرة وزوده بالمال لزيارة فرنسا وألمانيا والنمسا . وفى ليون انضم إلى الماسون الأحرار ، وفى باريس « أصبحت رفيقا ، ثم رئيسا للطائفة » . (ونحن نلحظ فى شىء من الدهشة قوله « فى زمنى لم يكن فى فرنسا من يعرف كيف يبالغ فى الأسعار ») [٣٨] .

وفى ١٧٥٣ عاد إلى البندقية ، وسرعان ما لفت نظر الحكومة باحترافه حكمة السحر والتنجيم . وبعد عام أبلغ محقق رسمى مجلس الشيوخ عنه فقال :

لقد أفلح فى التسلل إلى قلب الشريف زوان براجادينو . . . . وابتز ماله ابتزازا باهظا . . . . . وقد أخبرنى بنديتو بيزانو أن كازانوفا بسبيله إلى أن يصبح فياسوفا قبلانيا وأنه يحاول التكسب بالحجج الزائفة يموه بها فى مهارة على عقول ضحاياه . . . . . وقد أمكنه . . . . . اقناع براجادينو بأن فى استطاعته استحضار ملاك النور لينفعه .[٣٩]

ويضيف التقرير أن كازانوفا قد بعث إلى أصحابه بكتابات تشى بحقيقته مفكرا ملحدا . ويقول كازانوفا « لقد وقر فى نفسى سيدة تدعى مدام ممنو أننى أعلم ولدها مبادىء الإلحاد[٤٠] » .

« أن التهم التى وجهت إلى تتعلق بالكرسى (البابوى) المقدس ، والكرسى المقدس وحش ضار من الخطر أن تمسه . وكانت هناك ظروف معينة . . . جعلت من الصعب عليهم حبسى فى السجون الكنسية التابعة لمحكمة التفتيش ، ولهذا السبب تقرر فى النهاية أن تناط محكمة تفتيش الدولة « بمحاكمتى[٤١] » .

ونصحه براجادينو بالرحيل عن البندقية ، ولكن كازانوفا أبى . وفى الغداة قبض عليه ، وصودرت أوراقه ، وحبس دون محاكمة فى البيومبى « ألواح الرصاص » وهو اسم أطلق على سجن الدولة البندقى نسبة إلى ألواح الرصاص المسقوف بها .

« حين جن الليل استحال على أن أغمض عينى لأسباب ثلاثة : أولها الفيران ، وثانيها الطنين الرهيب الذى تحدثه ساعة كتدرائية القديس مرقس التى كانت تدق وكأنها فى حجرتى ، وثالثها ألوف البراغيث التى أغارت على بدنى تعضنى وتلدغنى وتسمم دمى بحيث أصابتنى انقباضات عنيفة بلغت حد التشنجات »[٤٢] .

وحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ولكنه هرب بعد أن ظل رهين محبسه خمسة عشر شهرا (١٧٥٧) بفضل سلسلة معقدة من الحيـــل

والمخاطرات والأهوال أصبحت روايته لها جزءا من « عدة نصبه » فى كثير من الأقطار .

فلما عاد ثانية إلى باريس اشتبك فى مبارزة مع فتى يدعى الكونت نيكولا دلانور دوقرن وأصابه بجرح ، ثم شفاه بمرهم « سحرى » ، وكسب صداقته . فقدمه إلى عمة له غنيه تسمى مدام دورفيه ، كانت شديدة الإيمان بقوى السحر ، مؤملة أن تستعين بها على تغيير جنسها . واستغل كازانوفا سذاجتها ، ووجد فيها وسيلة خفية للاثراء .

« إنى لا أستطيع وقد شخت الآن أن أرجع ببصرى إلى هذا الفصل من حياتى دون أن أحمر خجلا» (٤٣) . وهذا اتصل على مدى فصول كثيرة أخرى من كتابه . وأضاف إلى دخله بالغش فى لعب الورق ، وتنظيم يانصيب للحكومة الفرنسية ، وبالحصول على قرض لفرنسا من الأقاليم المتحدة . وفى الرحلة من باريس إلى بروكسل « قرأت كتاب هلفتيوس « فى الروح » طول الطريق » . (٤٤) (وسيقدم للمحافظين مثالا مقنعا من إنسان حر التفكير انقلب رجلا فاسقا وان كانت المرحلة التالية هى العكس فى أغلب الظن) . وكان فى كل محطة يلتقط خليلة ، وفى كثير من المحطات يجد خليلة سابقة ، وبين الحين والحين يقع مصادفة على ذرية له لم يقصد انجابها .

وزار روسو فى مونمورنسى ، وفولتير فى فرنيه (١٧٦٠) وقد سبق أن استمتعنا بشطر من ذلك الحديث الخاص بينهما . وإذا جاز لنـــا أن أن نصدق كازانوفا ، فانه اغتنم الفرصة ليوبخ فولتير على فضحه سخافات الميثولوجيا الشعبية :

كازانوفا : هبك نجحت فى القضاء على الخرافة ، فماذا تحل محلها ؟

فولتـــير . يعجبنى هـــذا ! حين أخلص البشرية من وحش ضار يفترسها ، أتسألنى ماذا أحل محله ؟

كازانوفا : ان الخرافة لا تفترس البشرية ، بل انهــا على العكس ضرورية لوجودها .

فولتـــير : ضرورية لوجودها ! ذلك تجديف مخيف . انى أحب البشر ، وأود أن أراهم أحرارا سعداء مثلى . والخرافة والحرية لا يمكن أن يسيرا يدا بيد . أتظن أن العبودية تؤدى إلى السعادة ؟

كازانوفا : ان ما تريده إذن هو سيادة الشعب ؟

فولتـــير : معاذ الله ! يجب أن يكون للجماهير ملك يحكمها .

كازانوفا : فى هذه الحالة تكون الخرافة ضرورية ، لأن الشعب لن يعطى رجلا هو مجرد إنسان حق حكمه . . .

فولتـــير : أريد ملكا يحكم شعبا حرا ، ويلتزم قبله بشروط متبادله تمنع أى ميل من جانبه للاستبداد .

كازانوفا : يقول أديسون أن هذا الملك . . . يستحيل وجوده . وأنا متفق مع هوبز . فعلى المرء أن يختار من الشرين أقلهما ضررا . والأمة التى تحررت من الخرافة هى أمة من الفلاسفة ، والفلاسفة لا يعرفون كيف يطيعون . . وما من سعادة ترجى لشعب لا يسحق ويذل ويظل مصفدا بالقيود .

فولتـــير : هذا شنيع ! وأنت فرد فى الشعب ! . . .

كازانوفا : ان العاطفة المسيطرة عليك هى حبك للبشرية . . وهذا الحب يعميك . أحب البشرية ، ولكنى أحبها كما هى . فالبشرية ليست قابلة للمزايا التى تود أن تغدقها عليها ، فهذه المزايا لن تزيدها إلا تعاسة وانحرافا . . . . .

فولتـــير : يؤسفنى أن يكون لك هــذا الرأى السيء فى اخوانك فى الإنسانية (٤٥) .

وكان كازانوفا يشق طريقه أينما ذهب إلى بيت من البيوت الارستقراطية ،

لأن الكثير من النبلاء الأوربيين كانوا ماسونا ، أو روزيكروشين أو مدمنين على علوم السحر . وهو لم يقتصر على ادعاء العلم الغيبي فى هذه الميادين ، بل أضاف إلى دعواه القوام المشوق . والوجه المتميز (وإن لم يكن وسيما) والتمكن من اللغات . وتأكيد الذات الخداع ، ومعينا من القصص والفكاهات ، وقدرة خفية غامضة على الكسب فى لعب الورق أو ألعاب الكازينوات . وكان حيثما ذهب يساق عاجلا أو آجلا إلى السجن أو حدود البلاد . واضطر بين الحين والحين إلى الاشتباك فى مبارزة . ولكنه كالأمة فى مراحل تاريخها لم يخسر قط .

وأخيرا غلبه الحنين إلى وطنه . وكان حرا فى السفر أينما شاء فى إيطاليا إلا فى البندقية . والتمس الاذن مرارا بالعودة ، وأخيرا منحه ، وفى ١٧٧٥ عاد إلى البندقية . واستخدمته الحكومة جاسوسا ، وكان نصيب تقاريره الإهمال لاحتوائها على الكثير جدا من الفلسفة والقليل جدا من المعلومات ، فرفت . وانتكس إلى عادات صباه وكتب هجاء للشريف جريمالدى ، فأمر بأن يبرح البندقية وإلا واجه السجن مرة أخرى فى « ألواح الرصاص » ، ففر إلى فينا (١٧٨٢) . ثم إلى سبا ، ومنها إلى باريس .

وهناك التقى بالكونت فون فالدشتين . الذى أحبه فدعاه إلى العمل أمينا لمكتبته فى قلعة دوكس ببوهيميا . وكانت فنون كازانوفا فى العشق والسحر وخفة اليد قد وصلت إلى نقطة تقلصت فيها عائداتها ، فقبل الوظيفة براتب ألف فلورن فى العام . فلما وصل وتسلم منصبه ، أحزنه أن يكتشف أنه اعتبر خادما . وأن يتناول غداءه فى قاعة الخدم . وفى دوكس انفق أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره . وهناك كتب « تاريخ حياتى » « أولا لتخفيف هـذا الركود المميت الذى يقتلنى فى بوهيميا الخاملة هذه . . . وقد استطعت بالكتابة عشر ساعات أو اثنتى عشرة كل يوم أن أمنع الحزن الأسود من نهش قلبى المسكين واتلاف عقلى » [٤٦] . وقد زعم الصدق المطلق فى روايته . وهى فى كثير من الحالات تتفق والتاريخ فى الجزء والسخرية . بيد أننا كثيرا ما نفتقر إلى إثبات صحة روايته ،

ولعل ذاكرته تداعت بينما قوى خياله . ولا نملك إلا القول بأن كتابه من أكثر مخلفات القرن الثامن عشر فتنة واستهواء للقارئين .

وقد عمر كازانوفا حتى ناح على موت النظام القديم فقال : « إيه يا فرنسا العزيزة الجميلة ! — البلد الذى كانت الأمور فى تلك الأيام تجرى فيه رخاء رغم أوامر الاعتقال الملكية ، ورغم السحرة ورغم فقر الشعب ! أى فرنسا العزيزة ، إلام انتهى أمرك اليوم ؟ لقد أصبح الشعب ملكا عليك ، الشعب الذى هو أشرس الحكام قاطبة وأشدهم ظغيانا »(٤٧) .

وهكذا فى آخر أيامه ، وهو ٤ يونيو ١٧٩٨ ، اختتم حياته فى تقوى أتته فى أوانها . « لقد عشت فيلسوفا ، وهأنذا أموت مسيحيا »(٤٨) . لقد حسب الفسق فلسفة ، ورهان بسكال مسيحية .

٥ — فنكلمان

ولننظر الآن إلى رجل مثالى على سبيل المقابلة بين الاضداد .

وهذا الرجل الذى كان أعظم الشخصيات أثرا فى تاريخ الفن فى هـذا العهد لم يكن فنانا بل دارسا كرس حياته الناضجة لدراسة تاريخ الفن ، وحرك موته الغريب روح أوربا المثقفة . ولد فى ٩ ديسمبر ١٧١٧ بمدينة ستندال فى براندنبورج . وكان أبوه الاسكاف يأمل فى أن يحترف ابنه حرفته ، ولكن يوهان رغب فى درس اللاتينية . وقد أدى نفقات تعليمه الباكر بالغناء . ثم تقدم سريعا مدفوعا بشوقه واجتهاده . فكان يعلم التلاميذ الذين تنقصهم الكفاية ، ويشترى الكتب والطعام . فلما كف بصر معلمه كان يوهان يقرأ له ، وراح يلتهم مكتبة أستاذه . وأجاد تعلم اللاتينية واليونانية ، ولم يكن ميالا إلى اللغات الأجنبية الحديثة . وحين سمع بأن مكتبة يوهان ألبرت فابريكوس الدارس الكلاسيكى الشهير ستباع بالمزاد لوفاته ، سار ١٧٨ ميلا من برلين إلى همبرج ، واشترى روائع الكتب اليونانية واللاتينية ، وحملها على كتفه عائدا إلى برلين(٤٩) . وفى ١٧٣٨ دخل جامعة هاله طالب لاهوت ، ولم يكن به شغف باللاهوت ، ولكنه اغتنم الفرصة

لدراسة العبرية . وبعد أن تخرج كسب قوته بتعليم التلاميذ الخصوصيين وقرأ مرتين كل قاموس بيل « القاموس التاريخي والنقدى » . ولعل هذه القراءة خلفت بعض الأثر على إيمانه الدينى . وفى عام واحد قرأ الالياذة والاوديسة ثلاث مرات من أولهما لآخرهما باليونانية .

وفى ١٧٤٣ قبل دعوة ليكون مديرا معاونا لمدرسة بزيهاوزن فى ألتمارك ، بمرتب قدره ٢٥٠ طالرا فى العام . وكان فى النهار يعلم «أطفالا جرب الرءوس أبجديتهم ، بينما كنت ... أتحرق شوقا لمعرفة « الجميل » ، وأردد تشبيهات من هومر » (٥٠) . وكان فى المساء يدرس لتلاميذه الخصوصيين ليحصل على نفقات مسكنه وطعامه ، ثم يعكف على الروائع الكلاسيكية حتى منتصف الليل وينام حتى الرابعة ، ثم يعود إلى روائعه الكلاسيكية ثانية ، ثم يخرج متعبا ليدرس . وقبل بابتهاج دعوة وجهها إليه الكونت فون بون بوناو ليكون مساعدا لأمين المكتبة فى قصره الريفى بنوتهنتز ، قرب درسدن ، لقاء السكن وخمسين إلى ثمانين طالرا فى العام (١٧٤٨) . هناك ألفى المتعة البالغة فى مجموعة من أضخم مجموعات الكتب فى ذلك العصر .

وممن كانوا يختلفون إلى هـــذه المكتبة الكردينال أركنتو ، القاصد البابوى فى بلاط ناخب سكسونيا . وقد راعه علم فنكلمان وحماسته ، ونحوله وشحوبه . فقال له « ينبغى أن تذهب إلى إيطاليا » . وأجاب يوهان أن هذه الرحلة غاية مشتهى قلبه ، ولكن موارده تعجز عن نفقتها . ودعاه القاصد لزيارته بدرسدن ، فذهب إليه مرات . وقد أبهجه تفقه اليسوعيين الذين التقى بهم فى بيت القاصد وأدبهم . وعرض عليه الكردينال باسيونى — وكان يقتنى ٣٠٠,٠٠٠ مجلد فى روما — وظيفة أمين مكتبته هناك ، لقاء السكن والمعيشة وسبعين دوقاتية ، ولكن الوظيفة لا يمكن أن يشغلها غير كاثوليكى . ووافق فنكلمان على الدخول فى الكاثوليكية . وإذا كان قد أعرب من قبل عن إيمانه بأنك « بعد الموت ليس هناك ما يخيفك ، ولا ما تؤمل فيه »(٥١) فإنه لم يجد صعوبات لاهوتية فى هذا التحول ، وكل صعوباته كانت اجتماعية . وقد كتب إلى صديق لأمه يقول « ان حب

المعرفة ، وهذا الحب وحده ، هو الذى يستطيع إغرائى بالاستماع إلى الاقتراح الذى عرض على » [٥٢] (*) .

وفى ١١ يوليو ١٧٥٤ ، فى مصلى القاصد بدرسدن ، أعلن إيمانه الجديد ، واتخذت الترتيبات لرحلته إلى روما . ولاسباب شتى مكث فى درسدن عاما آخر ، ساكنادارسا مع الرسام — النحات — الحفار آدم اويزن . وفى مايو ١٧٥٥ نشر فى طبعة محدودة لم تتجاوز خمسين نسخة أول كتبه « خواطر فى تقليد الآثار اليونانية فى الرسم والنحت » . وقد وصف فيه الآثار التى جمعت فى درسدن ، ورأى بالإضافة إلى هذا الوصف أن فهم اليونان للطبيعة كان أسمى من الفهم العصرى لها ، وهذا هو السر فى التفوق الهلينى فى الفن . ثم اختتم بقوله « إن سبيلنا الوحيد إلى العظمة ، بل إلى العظمة التى لا تحاكى . . . هو بمحاكاة القدماء » . [٥٦] ومن رأيه ان رفائيل دون جميع الفنانين المحدثين هو الذى حقق هذا الهدف الاسمى . وكان هذا الكتيب علامة بداية للحركة الكلاسيكية الجديدة فى الفن الحديث . وقد لقى قبولا طيبا ، وأجمع كلوبشتوك وجوتشيد على الاشادة بعلمه وأسلوبه . وحصل الأب راوخ ، كاهن الاعتراف الخاص بفردريك أوغسطس ، لفنكلمان من الملك الناخب على معاش من مائتى طالر لكل من العامين التاليين ، وأعانه بثمانين دوقاتية لرحلته إلى روما . وأخيرا ، فى ٢٠ سبتمبر ١٧٥٥ ، انطلق فنكلمان إلى إيطاليا فى صحبة يسوعى شاب . وكان قد بلغ السابعة والثلاثين .

(*) أنظر « باتر » فى مقاله الرائع عن فنكلمان « لعله كان يحس بعراقة ما وبشئ أشبه بالفخامة الوثنية فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وهو فى انصرافه عن البروتستنتينة لمعقدة التى كانت مبعث سأم له فى شبابه ، قد يدور بخلده أنه بينا كانت روما قد راضت نفسها على النهضة ، فان المبدأ البروتستنتى فى الفن قد عزل ألمانيا عن تقليد الجمال العظيم » (٥٣) . وكتب جوته فى كتيب عن فنكلمان (١٨٠٤) « ان المزج الوثنى يشع من جميع تصرفاته وكتاباته . . . ولا بد أن نذكر بعده عن كل أسلوب مسيحى فى التفكير ، لا بل كرهه العام لهذا الأسلوب ، حين نحاول الحكم على هذا التحول المزعوم فى مذهبه . فالفريقان اللذان انقسم إليهما الدين المسيحى كانا فى نظره أمرا لا أهمية له على الاطلاق » (٥٤) . « ولا تعنى كلمة « وثنى » بالضرورة الالحاد . فطالما أكد فنكلمان إيمانه بالله ، ولكن « بإله جميع الالسنه والامم والمذاهب » . (٥٥)

فلما بلغ روما لقي عنتا في جمرك المدينة الذي صادر عدة مجلدات لفولتير من حقائبه ، على أنها أعيدت له بعد ذلك . ووجد سكنا مع خمسة مصورين في بيت على التل الينسي — الذي قدسته ظلال نيقولا بوسان وكلود لوران . والتقى بمنجز ، الذي أعانه بشتى الطرق الكثيرة . واطلق له الكردينال باسيوني الحرية في العمل بمكتبته ، ولكن فنكلمان كان إلى الآن يرفض أي وظيفة ثابته لرغبته في ارتياد فن روما . فحصل على إذن بزيارات متكررة لبلفيدير الفاتيكان وأنفق الساعات أمام تماثيل أبوللو ، وهرقول النصفي ، واللاوكون ، واتخذت أفكاره شكلا أوضح بعد تأمله في هذه المنحوتات . وزار تيفولي وفراسكاتي وغيرهما من الضواحي ذات الاطلال القديمة . وأكسبه حبه للفن القديم صداقة الكردينال ساندرو الباني ، وأعطاه الكردينال أركنتو مسكنا في البلاتسو ديللا كانسلليريا — وهو المقر البابوى ، وفي مقابل هذه المنحة أعاد فنكلمان تنظيم مكتبة القصر . وأصبح الآن في سعادة غامرة . قال « لقد كان الله مدينا لي بهذا ، فانني قاسيت كثيراً جداً في شبابي » (٥٧) . وكتب إلى صديق في ألمانيا كما كان يكتب عشرات الزوار الكبار :

« كل شيء صفر إذا قورن بروما ! لقد ظننت فيما مضى أنني درست كل شيء دراسة كاملة ، وهأنذا ادرك بعد مجيئي أنني لم أعرف شيئا . لقد أصبحت هنا أصغر مما كنت يوم خرجت من المدرسة إلى مكتبة بوناو . فإذا شئت أن تتعلم كيف تعرف الرجال ، فهذا مكانك ، هنا رؤوس ذات مواهب لا حد لها ، رجال أوتوا قدرات فائقة ، وآيات في الطابع الرفيع الذي خلعه اليونان على تماثيلهم . . . وكما أن الحرية التي يتمتع بها الناس في الدول الأخرى ليست إلا ظلا إذا قيست بحرية روما — وهو ما قد تخاله مفارقة — كذلك تجد في هذه المدينة أسلوبا مختلفا في التفكير . فروما في اعتقادي هي المدرسة العليا للعالم ، وأنا أيضا امتحنت فيها وهذبت » (٥٨) .

وفي أكتوبر ١٧٥٧ غادر روما قاصدا نابلي مزودا بخطابات تعريف .

وسكن هناك ديرا ولكنه كان يتناول طعامه مع رجال كتانوكى وجاليانى ، وزار مدنا عابقة باريج التاريخ القديم — بوتسولى ، وبايا ، وميزينوم ، وكاوماى — ووقف مدهوشا أمام هياكل بايستوم المهيبة . وفى مايو ١٧٥٨ قفل إلى روما محملا بذخائر العلم بالآثار . فى ذلك الشهر استدعى إلى فلورنسه ليصنف ويوصف المجموعة الضخمة من الجواهر ، والمحفورات ، والخرائط ، والمخطوطات التى خلفها البارون فليب فون ستوش . وشغلته المهمة قرابة عام وكادت تهدم صحته . ومات أركنتو أثناء ذلك ، واجتاح فردريك الأكبر أرض سكسونيا ، وفقد فنكلمان مسكنه فى الكانسلبريا ومعاشه من الملك الناخب التعس . وخفف ألبانى لنجدته إذ قدم له أربع حجرات وعشرة أسكوزات فى الشهر لقاء العناية بمكتبته . وكان الكردينال نفسه أثريا متحمسا ، وفى كل أحد كان يركب مع فنكلمان لتصيد التحف القديمة .

وأضاف فنكلمان جديدا إلى سمعته باصداره كتيبات عميقة فى هذه الموضوعات المفردة « فى جمال الأعمال الفنية ، ملاحظات على عمارة القدماء ، وصف لتمثال هرقول النصفى فى البلفدير ، دراسة الآثارالفنية » . وفى ١٧٦٠ حاول ترتيب رحلة إلى اليونان مع الليدى أورفورد ، زوجة أخى هوراس ولبول ؛ ولكن الخطة أخفقت . كتب يقول « ما من شىء فى الدنيا تقت إليه بحرارة كهذه الرحلة . وما كنت لاضن بأصبع من أصابعى تقطع ، لا بل وددت أن أجعل من نفسى كاهنا لسيبيل (إلاهة الطبيعة) لو استطعت أن أشهد هذا البلد فى فرصة كهذه » (٥١) أما كهنة سيبيل فكان الشرط فيهم أن يكونوا خصيانا ، ولكن هذا لم يمنع فنكلمان من التنديد بأمر قديم للحكومة الرومانية يشترط تغطية الأعضاء الداخلية لابوللو واللاردكون وغيرهما من التماثيل فى البلفدير بمآزر من المعدن ، وقد أعلن فى « إنه لم يشرع فى روما طوال عهدها مثل هذه السنة الغبية » .

وكان للاحساس بالجمال من السلطان عليه ما ألغى تقريبا كل وعى فيه بالجنس . فإذا شعر بتفضيل جمالى فإن تفضيله يؤثر جمال جسم الذكر المكتمل

الرجولة عن حلاوة المرأة الهشة العابرة . ويبدوا أن تمثال هرقول النصفى (التورسو) قد أثر فيه أكثر مما أثرت خطوط جسد فينوس مديتشى الناعمة الملفوفة . وقال كلمة طيبة فى الخناثى — على الأقل فى التمثال الذى شهده فى فيللا بورجيزى [٦٠] . وقال مؤكدا « لم أكن فى حياتى عدوا للجنس الآخر ، ولكن أسلوب حياتى أبعدنى عن كل اتصال به . ولعلى كنت أتزوج ، وأكبر ظنى انه كان واجبا على أن أفعل ، لو أننى عدت إلى زيارة وطنى الأول ، أما الآن فإن هذا لا يكاد يخطر لى ببال » [٦١] . وفى زيهاوزن كانت صداقته لتلميذه لامبريشت تقوم مقام التعلق بالمرأة ، وفى روما عاش مع رجال الكنيسة ، وندر أن التقى بالشباب من النساء . وذكروا « إنه كان يتناول العشاء فى السبوت فترة طويلة مع فتى من روما ، نحيل وسيم الطلعة ، فارع القامة ، يتحدث معه عن الحب . » [٦٢] وقد « رسمت بناء على طلبه صورة لمغن جميل من الخصيان » [٦٣] ثم إنه أهدى للشريف الفتى البارون فريدرش راينهولد فون برج « رسالة فى القدرة على الاحساس بالجمال » ، « وقد وجـــد القراء فيها وفى خطاباته لبرج لغة الحب لا لغة الصداقة ، وهى فى الواقع كذلك » [٦٤] .

وفى ١٧٦٢ و ١٧٦٤ عاد إلى زيارة نابلى . وقد قدم للدارسين الأوربيين فى « خطاب عن آثار هوكولانيوم » (١٧٦٢) و « تقرير عن أحدث كشوف هوكولانيوم » (١٧٦٤) أول معلومات منظمة وعلمية عن الكنوز التى تم الحفر عنها فى تلك المدينة وفى بومبى . وكان الآن معترفا به أعظم حجة فى الفن الكلاسيكى القديم . وفى ١٧٦٣ عين بالفاتيكان فى وظيفة « أثرى الحجرة الرسولية » وأخيرا ، فى ١٧٦٤ ، نشر المجلدات الضخمة التى كان يؤلفها ويحليها بالصور طوال سنوات سبع Geschichte der Kunst des Alterthums «تاريخ الفن القديم» . وقد احتوى الكتاب على أخطاء كثيرة رغم ما أنفق فى إعداده من وقت وجهد ، واثنان من هذه الأخطاء كانا خدعتين قاسيتين . ذلك أن صديقه منجز كان قد درس رسمين هما وليدا خيال منجز وزعم

إنهما نسختان دقيقتان لصور أثرية . وأدرج فنكلمان الصورتين فى كتابه ، واستعمل الرواسم وأهدى الكتاب كله لمنجز . وتضمنت المترجمات التى ظهرت سريعا فى الفرنسية والإيطالية كل الأخطاء تقريبا ، مما أشعر فنكلمان بالخزى . فكتب إلى بعض أصحابه « إننا اليوم أحكم مما كنا بالأمس . ليتنى أستطيع أن اريك كتابى « تاريخ الفن » وقد نقح تنقيحا كاملا ووسع توسيعا كبيراً ! لم أكن قد تعلمت الكتابة بعد حين شرعت فى تأليفه فلم تكن الأفكار مترابطة بدرجة كافية ، وفى مواضع كثيرة افتقار إلى الانتقال من السابق إلى اللاحق — وهو ملاك الفن الأسمى . »[٦٥] ومع ذلك أنجز الكتاب عملا غاية فى العسر — هو إجادة الكتابة فى الفن . وقد رفعه حبه الشديد لموضوعه إلى مستوى الأسلوب الجميل .

ولقد اتجه حرفيا إلى تاريخ الفن لا إلى تاريخ الفنانين ، وهو موضوع أيسر مأخذا بكثير . وبعد أن مسح مسحا متعجلا الفن المصرى والفينيقى واليهودى والفارسى والاتروري ، أطلق العنان لحماسته الفياضة فى ٤٥٠ صفحة تناولت فن اليونان القديم . وفى فصول ختامية ناقش الفن اليونانى فى عهد الرومان . وكان توكيده دائماً على اليونان لأنه كان مقتنعا بأنهم عثروا على أسمى صور الجمال : فى رهافة الخط لا فى لمعة اللون ، فى تمثيل الأنماط لا الأفراد ، فى طبيعية الأجسام ونبلها ، فى انضباط التعبير العاطفى ، فى هدوء المظهر وصقله ، فى اطمئنان القسمات حتى فى الحركة ، وفوق هذا كله فى النسبة والعلاقة المتسقتين بين الأجزاء المتميزة فى كل موحد توحيداً منطقياً . لقد كان الفن الإغريقى فى رأى فنكلمان هو عصر العقل مجسما .

وقد ربط تفوق الفن الإغريقى بالاحترام العظيم الذى كان الإغريق يكنونه لامتياز الجسد فى الجنسين . « كان الجمال امتيازا يفضى إلى الشهرة ، لأننا نجد تواريخ الإغريق تذكر أولئك الذين تميزوا به »[٦٦] ، على نحو ما تفعل التواريخ الآن فى ذكر كبار الساسة والشعراء والفلاسفة . وكانت هناك مباريات فى الجمال عند الإغريق كما كانت مباريات للألعاب الرياضية . وعند فنكلمان أن الحرية السياسية ، وتزعم اليونان لعالم البحر المتوسط

قبل حرب البلوبونيز ، هذان أفضيا إلى مركب من العظمة والجمال ، وانتجا « الطراز الفخم » فى فيدياس وبوليكليتس ، وميرون . وفى المرحلة التالية أخلى الطراز الفخم الطريق للطراز « الجميل » أو طراز « الرشاقة » ، فأخلى فيديايس مكانه لبراكستليس ، وبدأ الاضمحلال . وكانت حرية الفن جزءاً من الحرية اليونانية ، وتحرر الفنانون من القواعد الصارمة وجرءوا على خلق أجساد مثالية لاتوجد فى الطبيعة . فلم يقلدوا الطبيعة إلا فى التفاصيل ، وكان العمل الفنى كله مجموعة كمالات لاتوجد فى أى شيء طبيعى إلا جزئيا . لقد كان فنكلمان رومانتيكيا يبشر بالشكل الكلاسيكى .

ولقى كتابه القبول فى أوربا بأسرها باعتباره حدثاً فى تاريخ الأدب والفن . وأرسل إليه فردريك الأكبر دعوة (١٧٦٥) للحضور إلى برلين مشرفاً على المكتبة الملكية وإدارة الآثار . ووافق فنكلمان نظير ألفى طالر فى العام ، وعرض فردريك ألفاً فقط ، وأصر فنكلمان على موقفه ، وذكر فردريك بقصة المغنى الخصى الذى طالبه بمبلغ ضخم نظير أغانية ، فشكا فردريك من أنه يطلب أكثر مما يكلفه خير قواده ، فكان رد المغنى « إذن فليكلف قائده بالغناء » .

وفى ١٧٦٥ عاد فنكلمان لزيارة نابلى ، هذه المرة فى صحبة جون ولكز الذى كان قد جعل أوربا تدوى بتحديه للبرلمان ولجورج الثالث . وبعد أن جمع المزيد من المعلومات عاد إلى روما وأكمل كتابه الهام الثانى « آثار قديمة غير منشورة » (١٧٦٧) . وكان أصدقاؤه من الأحبار قد شكوا من كتابته « تاريخه » بالألمانية التى لم تكن إلى ذلك الحين أداة كبرى من أدوات الدرس فأبهجهم الآن باستعماله الإيطالية ، وانتشى المؤلف السعيد ، الجالس بين كردينالين ، بقراءة جزء من كتابه فى كاستل جاندولفوا على كلمنت الثالث عشر وجمع غفير من الأعيان . على أنه أتهم بحيازته كتبا مهرطقة وابدائه ملاحظات مهرطقة . (٦٨) ولم يحصل من البابوية قط على المنصب الذى شعر بأنه جدير به .

وقرر أن يزور ألمانيا (١٧٦٨) ربما مؤملا أن يحصل فيها على مورد يمكنه من رؤية بلاد اليونان . ولكن استغراقه الشديد فى الفن الكلاسيكى وأساليب الحياة الإيطالية أفقده اللذة فى وجوده بأرض الوطن ، فتجاهل مناظرها الطبيعية وساءه معمارها وزخارفها الباروكية . وكان يردد مائة مرة لرفيق رحلته »(٦٩) « لنعد إلى روما »وقد احتفى به القوم فى ميونخ ، وأهدوه جوهرة أثرية رائعة . وفى فيينا أعطته ماريا تريزا مداليات غالية ، ودعته الامبراطورة والأمير فون كاونتز للإقامة هناك ، ولكنه مالبث أن قفل إلى إيطاليا فى ١٨ مايو وهو لم يكد يغيب عنها شهرا واحدا .

وفى تريستا تعطل انتظاراً لسفينة يستقلها إلى انكونا . وأثناء أيام الانتظار هذه تعرف إلى مسافر آخر يدعى فرانشسكو اركانجيلى . وكانا يتمشيان معاً ويشغلان حجرتين متجاورتين فى الفندق . وسرعان ما أراه فنكلمان المداليات التى تلقاها فى فيينا . على أنه — على قدر علمنا — لم يره كيسه المملوء بالذهب . وفى صبيحة ٨ يونيو ١٧٦٨ دخل أركانجيلى حجرة فنكلمان ، ووجده جالساً إلى منضدة ، فألقى أنشوطة حول عنقة ، ونهض فنكلمان واشتبك معه ، فطعنه أركانجيلى خمس مرات وفر هارباً . وضمد طبيب جروحه ولكنه قال أنها مميتة . وتناول فنكلمان الأسرار المقدسة ، وأملى وصيته ، وأعرب عن الرغبة فى أن يرى مهاجمه ويصفح عنه ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة فى الرابعة بعد الظهر . وقد خلدت تريستا ذكراه بتمثال جميل .

وقبض على أركانجيلى فى ١٤ يونيو . فاعترف بجريمته ، وفى ١٨ يونيو صدر عليه هذا الحكم : « عقابا على جريمة القتل التى اقترفتها على جسد يوهان فنكلمان . . قضت محكمة الجنايات الامبراطورية بأن . . . تحطم حيا على دولاب التعذيب ، من رأسك إلى قدميك حتى تفارق روحك بدنك » وكذلك صنع به فى ٢٠ يوليو .

كانت عيوب فنكلمان وثيقة الصلة بالجغرافيا . فلأنه لم يحقق قط أمله فى زيارة اليونان فى ظروف كانت ستتيح له الدرس المستفيض للآثار القديمة ،

كان يفكر فى الفن اليونانى وكأنه الفن اليونانى الرومانى كما وجده فى المتاحف والمجموعات والقصور فى ألمانيا وإيطاليا ، وفى اطلال هركولانيوم وبومبى . وتفضيله النحت على التصوير ، وتمثيل الأنماط لا الأفراد ، والهدوء لا التعبير عن العاطفة ، وايثاره النسبة والتناسق ، ومحاكاة القدامى دون الابتكار والتجريب . كل هذا فرض على الدوافع الخلاقة فى الفن عدة قيود أسفرت عن الانتقاص الرومانتيكى على ما فى الأشكال الكلاسيكية من الصرامة الباردة . وقد أعماه التركيز على اليونان والرومان عن حقوق الطرز الأخرى وإمكاناتها ، وكان يرى — كما رأى لويس الرابع عشر — إن رسوم الحياة اليومية التى انتجتها الأراضى الواطئة ليست إلا من قبيل « الجروتسك » .

ومع ذلك كان انجازه رائعا . فقد أحدث انتفاضة فى كل دنيا الفن والأدب والتاريخ الأوربى بتمجيده لليونان . ولقد جاوز حدود النزعة الشبيهة بالكلاسيكية التى نزعت إليها إيطاليا النهضة وفرنسا لويس الرابع عشر إلى الفن الكلاسيكى ذاته . ونبه العقل الحديث إلى ما فى النحت اليونانى من كمال ناصع مطمئن . وجعل من فوضى مئات التحف الرخامية والبرونزية والصور والجوهرات والعملات آثار علمية . وكان تأثيره على أفضل العقول فى الجيل التالى هائلا . فقد ألهم لسينج ، ولو بالاعتراض على أرائه ، وشارك فى انضاج هيردر وجوته ، ولعله لولا الالهام الذى انبعث من فنكلمان لما توج بيرون شعره بالموت فى بلاد اليونان . وقد أعان هذا الهلنستى الغيور على تشكيل مبادىء منجز ونورفالدسن الكلاسيكية الحديثة ، وتصوير جاك — لوى دافيد الكلاسيكى الحديث . يقول هيجل « يجب أن يعد فنكلمان واحدا من أولئك الذين عرفوا فى ميدان الفن كيف يخلقون أداة جديدة للروح الإنسانية »[٧٠].

٦ — الفنانون

لم تكن إيطاليا فى حاجة إلى حث يأتيها من فنكلمان ، لأنها كانت تكرم أربابها ، وكان فيها المتراكم يقوم فى كل جيل بمهمة المدرسة التى تدرب مئات الفنانين من أقطار كثيرة . من ذلك أن كارلو ماركيونى صمم فيللا

البانى الفخمة (١٧٥٨) التى جمع فيها الكردينال البانى بارشاد فنكلمان مجموعة عالمية الشهرة من المنحوتات القديمة — لا تزال غنية رغم طول العدوان عليها . (فقد سرق نابليون ٢٩٤ من تحفها لفرنسا ، وربما كان هذا هو العلة فى قول إيطالى مأثورة فى تلك الأيام : ليس كل الفرنسيين لصوصا ، بل عدد عديد منهم) .

وانجبت البندقية أكثر كبار المصورين الإيطاليين فى تلك السنين ، وقد ورث ثلاثة منهم أسماء مشهورة . أولهم أليساندرو لونجى بن بييترو ، الذى أبرز عبقرية قومه بصور شخصية رقيقة منها صورتان لجولدونى . (٧١) ولقد رأينا من قبل دومنيكو تيبولو يصحب أباه إلى أوجزبورج ومدريد ، ويعرض فى تواضع تخصصه على عامة الشعب . ففى مضيفة فيللا فالمارنا استهل إنتاجه المستقل بصور المشاهد اليومية فى حياة الريف ، فصورة « الفلاحين يستجمون » أشبه بالقصيدة الرعوية ، تصور أدواتهم وقد سقطت عنهم ، وتصور استرخاءهم فى دعة واطمئنان . وبعد أن مات أبوه فى أسبانيا عاد دومنيكو إلى البندقية وأطلق العنان لأسلوب الواقعية الساحرة الذى اتخذه لنفسه . (٧٢)

وثالث هؤلاء هو فرانشسكو جواردى ، صهر جامباتستا تيبولو ، الذى تعلم التصوير من أبيه ، وأخيه ، وكانا ليتو . وقد فاته التقدير فى جيله ، ولكن لوحته « فيدوتى » لفتت أنظار النقاد ببراعتها فى التقاط ونقل لطائف الضوء وتقلبات الجو ، وربما أوحى ببعض الإلماعات للتأثريين الفرنسيين . ولم ينتظر تحذير كونستابل الذى قال « تذكر أن الضوء والظل لا يقفان ساكنين أبدا » (٧٣) . ولعل أحب الساعات إليه كانت ساعة الشفق ، حين تمحى الخطوط وتختلط الألوان وتغيم الأطياف ، كما فى صورته « الجوندول على البحيرة » (٧٤) وكأنما صممت أجواء البندقية ومياهها لتهيىء هذه المناظر المضببة المنصهرة . وقد ذكروا أن جواردى كان أحيانا يحمل مرسمه فى زورق ويسير به على القنوات الصغرى ليلتقط مناظر لم تبتذل بطول إلف الناس لها . وكان يرسم الناس بغير عناية ، وكأنه شعر بأنهم ليسوا سوى

تفاصيل سريعة الزوال إلى جوار المعمار المكين والبحر والسماء الدائمين رغم ما يطرأ عليهما من تغير . ولكنه كان قادرا على تصوير الناس أيضاً ، فتراهم يزحمون البياتسيتا فى لوحة « المهرجان[٧٥] » ، أو يسيرون فى ثياب فاخرة فى « صالة فيلارمونيتشى[٧٦] » الكبرى . وكان أخوه جوفانى يعد أثناء حياتهما مصوراً أفضل منه • وكاناليتو أعظم من كليهما ، أما اليوم فان جواردى يعد بالبقاء بعد ان تخبو شهرة الاثنين .

وعاد انطون روفائيل منجز من أسبانيا عام ١٧٦٨ ،وسرعان ما أصبح قطب التصوير فى روما . ولم يشك أحد فى تفوقه على معاصريه من الفنانين. كانت الرؤوس المتوجة تسعى إلى ريشته • وتسعى إليها دون جدوى أحيانا. وكان فنكلمان يلقبه برفائيل عصره، وأشاد باوحته الرهيبة « جبل بارناس » « رائعة » خايقة بأن ينحنى أمامها حتى رفائيل[٧٧] » ، وضمن كتابه « تاريخ الفن القديم » تقديرا عظيما لصديقه[٧٨] .

وأروع الصور التى رسمها منجز فى هذه الفترة صورته الذاتية(١٧٧٣؟)[٧٩] ويبدو فيها وهو ما يزال قوياً وسيما أسود الشعر معتزاً بنفسه فى الخامسة والأربعين . وبعد أن أقام فترة ثانية فى أسبانيا عاد (١٧٧٧) ليقضى ما بقى له من أجل فى ايطاليا . وواصل نجاحه،ولكن موت زوجته(١٧٧٨) حطم روحا كانت من قبل شديدة المرح . واجتمعت عليه شتى الأسقام فأضعفته ، وأجهز عليه التجاؤه إلى المشعوذين والعـلاجات السحرية . ومات عام ١٧٧٩ وهو فى الحادية والخمسين . وأقام تلاميذه لذكراه نصبا فى البانتيون ، إلى جوار تمثال رفائيل . واليوم لا تجد من يجل ذكراه من النقاد مهما صغر شأنه .

٧ — الموسيـقى

كانت موسيقى الكنيسة قد اضمحلت مع تحول الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الدين ، ووصلتها العدوى من الأشكال الأوبرالية . وكانت موسيقى الآلات تزكو ، من جهة بفضل التحسين الطارىء على البيانو ، ولكن أهم

من ذلك لشعبية الكمان (الفيولينه) المتزايدة . وغزا كبار العازفين من أمثال يوفيانى وفيوتى وناردينى أوربا بقوس الكمان . وطاف موتزيو كلمنتى ، الذى غادر ايطاليا ليعيش فى انجلتره عشرين سنة ، بالقارة عازفا على الأرغن والبيانو ، ونافس موتسارت فى فيينا ، ولعله أفاد من قول موتسارت تعليقاً على عزفه أن هذا العزف آلى أكثر مما يجب . وكان أنجح معلم للبيانو فى القرن الثامن عشر ، وقد أرسى أسلوب القرن التاسع عشر فى تكنيك البيانو بسلسلة تمارينه ودراساته الشهيره « خطوات إلى بارناس » موطن ربات الفنون Muses اللاتى اشتقت منهن الموسيقى اسمها . وورث جاتيانو بونيانى تفنن أستاذه تارتينى فى عزف الكمان وأسلمه إلى تلميذه جوفانى باتستا فيوتى ، الذى عبر أوربا من أولها لآخرها ظافرا . ومازال فى استطاعة أذاننا المؤثرة للقديم أن تستمتع بكونشرتو كمان فيوتى فى مقام الصغير .

أما لويجى بوكيرينى فقد رحل كما رحل الكثير من الايطاليين عن بلد اكتظ بالموسيقين ليلتمس جمهورا من المستمعين فى الخارج . وقد سحر أسبانيا من ١٧٦٨ حتى مماته فى ١٨٠٥ بآلة التشيللو كما سحرها من قبل فارنيللى بصوته وسكارلاتى ببيانه القيثارى (الهاريسيكورد) . وعلى مدى جيل كامل كانت مؤلفاته الآلية تنافس مؤلفات موتسارت فى ظفرها بالاشادة والاطراء من شتى الدول ، وكان فردريك وليم الثانى ملك بروسيا ، وهو نفسه عازف تشيللو ، يفضل رباعيات بوكيرينى على رباعيات موتسارت[٨٠] . وقد ألف خلال سنيه الاثنتين والستين خمسا وتسعين رباعيه وترية ، وأربعا وخمسين ثلاثية ، وأثنتى عشرة خماسية للبيانو ، وعشرين سمفونية ، وخمسة كونشرتوات للتشيللو ، وأوراتوريوين ، وبعض الموسيقى الدينية . ويعرف نصف العالم حركته « المنويت » وهى حركة من احدى خماسياته . ولكن يجب أن يعرف العالم كله الكونشرتو بمقام B الشديد الانخفاض الذى ألفه للفيولونشيللو والأوركسترا .

واستسلمت أوربا دون مقاومة (فيما عدا باريس مرة أخرى) للغناء الايطالى الجميل « الملعلع » (البيل كانتو) . فمن أكثر من عشر من مدن

الحذاء السحرى تدفقت مغنيات الأوبرا من أمثال كاترينا جابر بيللى والمغنين الخصيان أمثال جسبارو باكييروتى عبر الألب إلى فيننا وميونخ وليبزج ودرسدن وبرلين وسانت بطرسبورج وهمبورج وبروكسل ولندن وباريس ومدريد . وكان باكييروتى آخر الخصيان المشهورين فى عالم الغناء ، وقد نافس فى فارنيللى جيلا بأكمله . واسترق أسماع لندن أربعة أعوام ، ومازال اطراء الانجليز له يتردد فى « يومية » [٨١] فانى بيرنى ، وفى كتاب أبيها « تاريخ الموسيقى العام[٨٢] .

وتبع المولفون الموسيقيون وقادة الأوركسترا الايطاليون المغنين . فألف بييترو جوليمى مائتى أوبر ، وتنقل بين نابلى ودرسدن وبرنزويك ولندن ليقودها . وقد انحدر الينا ذكر موسيقى آخر من نابلى هو نيكولا بيتشينى ، ولكنه ذكر شوهته منافسة لم يرغب فيها مع جلوك فى باريس ، ولكن جاليانى وصفه بأنه « رجل شريف جداً [٨٣] » . وقد ظلت أوبراته الهازلة عقدا كاملا للبدعة السائدة فى نابلى وروما ، لا بل إن أوبرا برجولزى «الخادمة التى انقلبت ربة البيت» لم تحظ بمثل الشعبية التى حظيت بها أوبرا بيتشينى (١٧٦٠) . وكان جوميللى ، وبرجولزى ، وليو ، وجالونى قد لحنوا « أولبميادى» التى ألفها متاستازيو ، فنهج بتشينى نهجهم وبزهم كلهم باجماع الرأى . وفى ١٧٧٦ قبل دعوة إلى باريس ، أما الحرب الضارية التى تلت ذهابه إلى هناك فلابد أن تنتظر دورها الجغرافى ، ولكن بتشينى سلك من أولها لآخرها مسلكا غاية فى المجاملة ، مبقيا على صداقته مع منافسيه جلوك وساكينى رغم أن المتشيعين لها هددوا حياته .[٨٣] فلما أغرقت أحداث الثورة الفرنسية هذه الأوبرا الهازلة عاد بتشينى إلى نابلى . وهناك حددت اقامته فى منزله أربع سنوات لتعاطفه مع فرنسا ، وكانت أوبراته تقاطع بصيحات السخرية حتى توقف تمثيلها ، وعاش فى فقر يشين وطنه . وبعد أن فتح نابليون ايطاليا دعى إلى باريس مرة أخرى ١٧٩٨ ، ومنحه القنصل الأول وظيفة شرفية متواضعة ، ولكن أصابته بالشلل حطمته جسداً وروحاً ، ومات فى باريس عام ١٨٠٠ .

أما أنطونيو ساكيني فقد ولد لأب كان صياد سمك فى بوتسولى ، وكان يدرب ليحلف أباه حين سمعه فرانشسكو دورانتى يغنى ، فانطلق به إلى نابلى تلميذاو محسوباً له. وقد احتفى الجمهور بأوبراه «سميراميدى» فى التياترو أرجنتينو بروما احتفاء أبقاه مع ذلك المسرح سبع سنين مؤلفاً للأوبرات. وبعد أن أقام ردحاً فى البندقية خرج ليغزو ميونخ وشتوتجارت ... ولندن ١٧٧٢ . وصفق الجمهور لأوبراته هناك ، ولكن الدسائس المعادية أضرت بشعبيته ، وأتلفت عاداته الفاجرة صحته . ولما انتقل إلى باريس أخرج رائعته Oedipe a Colone (١٧٨٦) التى احتلت خشبة الأوبرا طوال ٥٨٣ عرضاً فى السنوات السبعة والخمسين التالية ، وفى وسعنا أن نسمعها إلى اليوم على الهواء من حين لحين . وقد اقتبس عدة اصلاحات مما أدخله جلوك ، وأقلع عن أسلوب الايطاليين فى جعل الأوبرا تلفيقاً من الألحان ، وفى أوديبى تسيطر القصة على الألحان ، وتضفى الكوارس التى استلهمها من أوراتوريوات هندل الجلال والعظمة على الموسيقى والموضوع كليهما .

واتصل الغزو الغنائى بأنطونيو ساليرى ، عـدو موتسارت وصديق بيتهوفن الشاب . ولد قرب فيرونا ، وأرسل وهو فى السادسة عشرة إلى فيينا (١٧٦٦) ، وبعد ثمانى سنوات عينه يوزف الثانى مؤلفاً موسيقيا للبلاط ، وفى ١٧٨٨ رئيسا لفرقة المنشدين . فى هذه الوظيفة فضل مؤلفين آخرين على موتسارت ، ولكن القصة التى زعمت أن هذه المعارضة سببت إنهيار موتسارت ليست إلا خرافة[٨٥] . فبعد موت موتسارت صادق ساليرى الأبن وأعان على تطوره الموسيقى . وقد قدم بيتهوفن عدة مؤلفات لساليرى ، وقبل إقتراحاته بتواضع لم يعهد فيه .

أما « ألمع نجم فى سماء الأوبرا الإيطالية خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر[٨٦] » فهو جوفانى بانيزيللو . كان أبنا لجراح بيطرى فى تارانتو ، وقد أعجب معلموه اليسوعيون بصوته أعجابا حملهم على إقناع أبيه بأن يوفده إلى معهد دورانتى الموسيقى فى نابلى (١٧٥٤) . فلما إتجه إلى تلحين الاوبرات وجد جماهير نابلى شديدى الحب لبتشينى ، لذلك قبل دعـوة وجهتها إليه كاترين الكبرى . وفى سانت بطرسبرج ألف (١٧٨٢) Il barbiere di Siviglia

(حلاق أشبيلية) ، وقد كتب لها من النجاح الخالد فى أوربا كلها ما جعل الجمهور يلعن أوبرا عرضها فى نفس الموضوع بروما (٥ فبراير ١٨١٦) الموسيقى روسينى لأنها تطفل غير كريم على أرض حرام لبايزيللو الذى كان لا يزال على قيد الحياه . وتوقف بايزيللو بفيينا فى طريق عودته من روسيا عام ١٧٨٤ فترة أتاحت له تأليف إثنتى عشرة « سمفونية » ليوزف الثانى ، واخراج أوبرا Il ne Teodoro تيودور الملك » سرعان ما ظفرت بقبول عم كل أوربا . ثم عاد إلى نابلى رئيسا لفرقة المرتلين لفرديناند الرابع . وأقنع نابليون فرديناند بأن «يعيره » بايزيللو ، فلما وصل المؤلف إلى باريس (١٨٠٢) أستقبل أستقبالا بلغ من الفخامة والبهاء ما أثار عليه عداء الكثيرين . وفى ١٨٠٤ قفل إلى نابلى تحت حماية جوزف بونابرت ومورا .

ويجب أن نلاحظ فى مرورنا مبلغ الصبر والأناة التى كان هـؤلاء الايطاليون يعدون بهما مستقبلهم المهنى . فبايزيللو درس تسع سنين فى معهد دورانتى الموسيقى « دى سان أو نوفربو » ، وتشيماروزا درس أحدى عشرة سنة فى معهد سانتا ماريا دى لورينو ، ثم فى نابلى . وبعد أن تتلمذ دومنيكو تشيماروزا طويلا على يد ساكينى وبتشينى وغيرهما ، أخرج أول أوبرا له ، rtravaganze del conte «إسراف الكونت» وسرعان ما استمع الناس لأوبراتة فى فيينا ودرسدن وباريس ولندن . وفى ١٧٨٧ ذهب بدوره إلى سانت بطرسبورج حيث أبهج قلب القيصرة المزواج بأوبرا كليوباتره . وحين دعاه ليوبولد الثانى ليخلف ساليرى رئيسا للمرتلين بفينا ، أخرج هناك أشهر أوبراته وهى « الزواج السرى » (١٧٩٢) . وقد بلغ سرور الأمبراطور بها حدا جعله يأمر بعد أنتهائها بتقديم العشاء لجميع الحاضرين ، ثم أمر باعادة الاوبرا كلها(٨٧) . وفى ١٧٩٣ دعى ثانية إلى نابلى « رئيسا للمرتلين » لفرديناند الرابع . فلما خلع جيش من جيوش الثورة الفرنسية الملك (١٧٩٩) رحب تشيماروزا بالحدث ترحيبا حماسياً ، فلما رد فرديناند إلى عرشة حكم على تشيماروزا بالاعدام . ثم خفف الحكم إلى النفى . ويمم المؤلف شطر سانت بطرسبرج ، ولكنه مات فى الطريق بالبندقية (١٨٠١) . واحتوت مخلفاته التى تركها بالأضافة إلى العديد من الكنتاتات ، والقداسات ،

والاوراتوريوات ، نحو ست وستين أوبرا كانت تلقى استحسانا أكثر بكثير ما ظفرت به أوبرات موتسارت ، وهي حتى فى وقتنا هذا يجب أن تعد فى مرتبة تالية لاوبرات موتسارت فقط فى أوبرا القرن الثامن عشر الهازلة .

وإذا كانت الميلوديا هى لب الموسيقى ، فالموسيقى الإيطالية إذن إسمى الموسيقات . كان الألمان يفضلون التناغم متعدد الأصوات (الهارمونيا البوليفونيه) على الخط الميلودى البسيط . وفى هذه الناحية ظفرت إيطاليا بنصر آخر على ألمانيا حين أخضع الالمانى موتسارت البوليفونيه للميلودية . ولكن الايطاليين غلبوا الميلوديا تغليبا جعل أوبراتهم أقرب إلى أن تكون سلسلة من الأغانى الرخيمة أكثر منها درامات موسيقية كالتى قصد إليها أوائل مؤلفى الاوبرا الأيطاليين (حوالى ١٦٠٠) فى محاولتهم منافسة فن الأغريق الدرامى . وهكذا نرى دلالة الحركة فى الأوبرا الايطاليه ، بل دلالة الكلمات فى حالات كثيره ، تضيع وسط بهاء الأغنية وروعتها وكان هذا جميلا ، ولكن إذا كان الفن كما اعتدنا أن نراه هو استبدال النظام بالفوضى للكشف عن المغزى أو الدلالة ، فإن الاوبرا فى الأيدى الايطالية قصرت دون بلوغ أسمى إمكاناتها ، وقد إعترف بهذا بعض الايطاليين مثل جوميللى وترايتا ، وجهدوا لصب الموسيقى والتمثيلية فى كل موحد ، ولكن ذلك الأنجاز كان عليه أن ينتظر أوبرات جلوك ليحقق أنصع صوره . وهكذا توقف فى بندول الحياة الغزو الأيطالى لأوربا بالميلوديا ، حين أخرج جلوك عام ١٧٧٤ فى باريس « افحيينى فى أوليدى » التى أخضعت الموسيقى للتمثيلية . ولكن الصراع بين الميلوديا والدراما أتصل ، وكسب فاجنر معركة للدراما ، وأستولى فردى على غنائم جديده للميلوديا . وليت النصر الكامل لا يتحقق لأى من الفريقين .

٨ — الفيـــيرى

لم ينجب هذا العصر رجالا على شاكلة دانتى ، ولكن كان هناك باربنى فى الشعر وفيلانجييرى فى النثر ، وألفييرى فى الدراما والنثر والشعر .

ولقد شق جوزيى باربنى طريقه صعداً من الفقر ، وكسب قوته بنسخ

المخطوطات ، ودخل دنيا النشر (١٧٥٢) بديوان صغير من « الشعر المنثور » واحترف القسوسية وسيلة للعيش ، وحتى بعد هذا اضطر لكسب قوته بأعطاء الدروس الخصوصية لأن إيطاليا أكتظت بالقساوسه . وأرهف الفقر قلمه فاتجه إلى الهجاء . تأمل فى حياة الكثير من نبلاء الايطاليين العاطلة المترفة فخطر له أن يصف يوما نموذجيا فى حياة شريف ذى « دم أزرق » . وفى ١٧٦٣ أصدر أول جزء سماه (الصباح) ، وبعد عامين أضاف (الظهيرة) ، ثم أكمل الجزء الثالث الذى لم يعش لينشره (المساء) و (الليل) ، وهى فى مجموعها تؤلف هجائية ضخمة سماها « اليوم » Il giorno وأبدى الكونت فونى فيرميان نبلا حقيقيا بتعيينه القس الشاعر محررا لجازيته ميلان ، واستاذا للآداب البحته فى « السكولا بالاتينا » ورحب بارينى بالثورة الفرنسية ، وكافأه نابليون بعضوية مجلس مدينة ميلان . والقصائد الغنائية التى نظمها بين ١٧٥٧ و ١٧٩٥ تعد من عيون الأدب الايطالى الصغيرة . ولايصلنا بالترجمة إلا صوت خافت منه ، كما نسمعه فى هذه السوتينته التى توحى بأن كاتبها عاشق لا قسيس :

إيه أيها الكرى الرحيم ، يامن تشق بجناحك الرقيق
طريقك الهادىء متعجلا فى الليل البهيم
وتتراءى بالأحلام الكثيرة السريعة
للنفس المضناة على فراشها الساكن :
اذهب إلى حيث تضع « فيليس » رأسها اللطيف
وخدها النضر على الوسادة الهادئة ،
وبينما يرقد جسدها روع روحها
برؤيا جسم كئيب خلقته بسحرك ،
وليكن شديد الشبه بى ،
شوه الشحوب وجهه ،
حتى تستيقظ وقد هزها الحنان على .

إنك لو تفضلت على بهذا الصنيع
لجدلت لك إكليلا مزدوجا من الزهر
ووضعته فى سكون على مذبحك (٨٨)

ولنضف إلى هذه الباقة من الزهر زهرة من التنوير الإيطالى هى فقرة من كتاب جايتانو فيلانجييرى « على التشريع » La scienza della Legislazione (١٧٨٠ — ٨٥) ، استوحاها من بكاريا وفولتير .

« ماينبغى أن يكون الفيلسوف مخترعاً للمذاهب بل رسولا للحقيقة ، ومادامت الشرور التى ابتليت بها البشرية قائمة بغير شفاء ، ومادام مسموحاً للخطأ والتحيز بأن يخلدا هذه الشرور ، ومادامت الحقيقة مقصورة على القلة وعلى المميزين ، محجوبة عن معظم النوع الإنسانى وعن الملوك ، فسيظل واجب الفيلسوف أن يبشر بالحقيقة ، وأن يحافظ عليها ويشجعها ، وينيرها. وحتى إذا كانت الأضواء التى ينشرها لا تفيد فى جيله وقومه ، فإنها لاشك ستفيد فى بلاد وجيل آخرين . فالفيلسوف — ذلك المواطن فى كل مكان وزمان — أمامه الدنيا كلها وطناً ، والأرض مدرسة ، والأجيال القادمة تلاميذ . » (٨٩)

وقد لخص العهد كله فى الفييرى : فالانتقاض على الخرافة ، وتمجيد الأبطال الوثنيين ، والتنديد بالاستبداد ، والاشادة بالثورة الفرنسية ، والنفور من شططها والصيحة المطالبة بتحرير إيطاليا — كل هذا مضافاً إلى قصة غرام حرام ووفاء نبيل . وقد سجل هذه الحياة المشبوهة فى « حياة فيتوريو الفييرى . . . مكتوبة بقلمه ، موصولة إلى ماقبل موته بخمسة أشهر . وهى من أعظم التراجم الذاتية ، لا تقل كشفاً عن نفس صاحبها عن « اعترافات » روسو . ويستهلها بعبارة يلقى القارىء أمامها السلاح : « إن حديث المرء عن نفسه ، وأكثر منه الكتابة عن نفسه — إنما هو دون أدنى شك وليد المحبة الفائقة التى يحبها المرء لذاته ، وبعدها لا يتوارى الكاتب خلف قناع من التواضع ولا تند عنه أمارة على عدم الأمانة :

« ولدت فى مدينة أستى ببيدمونت فى ١٧ يناير ١٧٤٩ لأبوين شريفين ثريين محترمين . وأنا أذكر هذه الظروف على أنها ظروف سعيدة للأسباب التالية . فقد خدمنى شرف المولد خدمة كبرى ، . . لأنه مكننى من أن أذم النبالة لذاتها دون أن أتهم بالدوافع الدنيئة أو بدافع الحسد ، وأن أميط اللثام عن حماقاتها ، ورذائلها ، وجرائمها . . . أما الثراء فعصمنى من قبول الرشوة ، وأطلق حريتى فى خدمة الحق دون سواه » (٩٠) .

ومات أبوه وهو طفل ، وتزوجت أمه ثانية . وانطوى الغلام على نفسه ، وأطال التفكير ، وفكر فى الانتحار فى الثامنة ولكنه لم يهتد إلى أى طريقة مريحة . وتكفل به خال له وأرسله وهو فى التاسعة ليتلقى العلم فى أكاديمية تورين . وهناك تولى خادم خاص خدمته والسيطرة عليه بالعنف . وحاول معلموه أن يحطموا إرادته كأول مرحلة فى تنشئته رجلا ، ولكن طغيانهم ألهب كبرياءه وشوقه إلى الحرية « إن درس الفلسفة . . . كان من النوع الذى ينوم الطالب وهو واقف منتصباً » (٩١) . على أن موت خاله تركه المتصرف فى ثروة عريضة وهو بعد فى الرابعة عشرة .

وبعد أن حصل على موافقة ملك سردينيا التى كانت شرطا للسفر خارج البلاد بدأ فى ١٧٦٦ جولة فى أوربا استغرقت ثلاثة أعوام . ووقع فى غرام نساء شتى ، وعشق الأدب الفرنسى والدستور الإنجليزى . ودمرت قراءته لمونتسكيو وفولتير ورسو لاهوته الموروث ، وبدأت كراهيته للكنيسة الرومانية — مع أنه بالأمس فقط لثم قدم كلمنت الثالث عشر « شيخ لطيف ذو جلال ووقور » (٩٢) وفى لاهاى شغف حباً بامرأة متزوجة ، فابتسمت ثم انصرفت عنه ، وعاد يفكر فى الانتحار ، وكان العهد عهد فرتر ، والانتحار فكرة شائعة فى الجو . ثم عاد ليكتشف أن الفكرة أشد جاذبية تطلعاً منها تنفيذا ، فرجع إلى بيد مونت ولكنه شقى فى جو مليء الخضوع السياسى والدينى شقاء حمله على استئناف أسفاره (١٧٦٩) .

وجاب الآن أرجاء ألمانيا والدنمرك والسويد — حيث أحب الطبيعة كما يقول وأحب الناس وحتى الشتاء . ومنها إلى روسيا ، فاحتقرها لأنه لم ير فى

كاترين الكبرى إلا مجرمة متوجة ، ورفض أن يقدم لها . ولم يسغ بروسية فردريك خيرا من إساغته روسيا ، فهرول إلى هولنده التي انتهجت نهج الجمهورية فى بسالة ، وإلى إنجلتره التي كانت تحاول أن تعلم جورج الثالث أن يخلى بينه وبين شئون الحكم . وقد أغوى زوجة رجل إنجليزى ، وبارز ، وجرح . ثم أصيب بعدوى الزهرى فى أسبانيا (٩٣) ، وعاد إلى تورين للعلاج (١٧٧٢) .

وفى ١٧٧٤ تماثل للشفاء بالقدر الذى أتاح له الدخول فى ثانى مغامراته الغرامية الكبرى ، مع امرأة تكبره بتسع سنين . وتشاجرا ثم افترقا . وأزاحها من أحلامه بكتابة تمثيلية سماها « كليوبطرة » ، وأى شيء أكثر إثارة من عضوية فى حكومة ثلاثية ، وملكة ، ومعركة ، وصل ؟ وأخرجت التمثيلية بتورين فى ١٦ يونيو ١٧٧٥ « وسط تصفيق الاستحسان ليلتين متعاقبتين » ، ثم سحبها لإجراء تعديلات فيها . وأخذ الآن يتحرق شوقاً إلى الشهرة غاية فى النبل والسمو . واعاد الآن قراءة بلوتارخ وعيون الأدب اللاتينى ، ودرس اللاتينية من جديد ليغوص فى مآسى سنيكا ، وفى هذه القراءات وجد موضوعات وأشكالا لدراماته . وعزم على استعادة الأبطال والفضائل القديمة كما استعاد فنكلمان الفن القديم .

وفى غضون هذا (١٧٧٧) كان يكتب رسالته « فى الطغاة » . ولكنها احتوت من التهم الحادة للدولة والكنيسة ما جعله ينكص عن نشرها ، فلم تر النور إلا فى ١٧٨٧ . فقد كانت ملتهبة بغيرة أشبه بالغيرة الدينية :

« ليس الفقر الطاحن . . . ولا عطل الأرقاء الذى تتردى فيه إيطاليا ، كلا ، فما هذه هى الدوافع التى وجهت عقلى إلى الشرف الرفيع الحق ، شرف تجريد قلمى للهجوم على الامبراطوريات الزائفة . ذلك أن الحاضر بالهامجهولا ، ظل يسوط ظهرى منذ نعومة أظفارى . . . ان روحى الحرة لن تجد سلاما أو راحة حتى أكتب صفحات قاسية لهدم الطغاة » (٩٤) .

وهذا تعريفه للطغاه :

« كل الذين توسلوا بالقوة أو الحيلة — أو حتى بإرادة الشعب أو النبلاء — إلى القبض التام على أطراف الحكم ويعتقدون أنهم فوق القانون ، أو هم كذلك . . . والطغيان هو الصفة التي يجب أن تنعت بها . . . أى حكومة يستطيع فيها الشخص المنوط بتنفيذ القوانين أن يضعها أو يقضى عليها أو ينتهكها أو يفسرها أو يعرقل سيرها أو يوقفها وهو فى مأمن من العقـــاب » (٩٥) .

وعند الفيبرى أن الحكومات الأوربية كافة مستبدة باستثناء الجمهورية الهولندية والملكيتين الدستوريتين فى إنجلتره والسويد . وقد أشاد بالجمهورية الرومانية متأثرا فى ذلك بمكيافيللى ، وراوده الأمل فى أن الثورات ستقيم جمهوريات فى أوربا عما قليل . ورأيه أن خير ما يستطيع أى وزير لطاغيه مستبد أن يفعله هو أن يشجعه على ألوان من الطغيان تبلغ من الشطط ما يسوق الشعب إلى الثورة (٩٦). والثورة فى سنيها الأولى معذورة إذ لجأت إلى العنف لتمنع عودة الاستبداد إلى الحياة :

« وبما أن الآراء السياسية كالآراء الدينية لا يمكن تغييرها تغييراً كاملا أبدا دون استعمال الكثير من العنف ، لذلك كانت كل حكومة جديدة مضطرة لسوء الحظ إلى أن تعنف إلى حد القسوة ، بل تظلم أحيانا حتى تقنع أو ربما تكره أولئك الذين لا يرغبون فى التجديد ولا يفهمونه ولا يحبونه ولا يرتضونه » (٩٧) .

ومع أن الفيبرى نفسه كان نبيلا ، ولقبه الكونت دى كورتيميليا ، فأنه أدان الارستقراطية الوراثية لأنها شكل من أشكال الطغيان أو أداة من أدواته . وأدان بالمثل جميع الأديان المنظمة ذات السلطان . وقد سلم بأن « المسيحية أسهمت بقدر غير قليل فى تلطيف العادات الشائعة بين جميع الناس » ، ولكنه أشار إلى « الكثير من أعمال الوحشية الغبية الجاهلة » التى

ارتكبها الحكام المسيحيون « من قسطنطين إلى شارل الخامس »[٩٨] . ويمكن القول عموما :

« إن الدين المسيحى يكاد لا يتفق والحرية . . . فالشعب ، ومحكمة التفتيش والمطهر ، والاعتراف ، والزواج الذى لا انفصام له ، ورهبانية الكهنة — هـــذه هى الحلقات الست فى السلسلة المقدسة التى تقيد السلطة الزمنية (الدولة) بقيود أوثق حتى لتزداد على الأيام ثقلا وامتناعا على التحطيم »[٩٩] .

وبلغ من مقت الفييرى للاستبداد أنه نصح باجتناب الحلف أو الزواج اطلاقا فى الدولة المستبدة . وبدلا من أن ينجب أطفالا ، أخرج فى خصوبة إيطاليه مماثلة أربع عشرة مأساة بين ١٧٧٥ ، و ١٧٨٣ ، كلها بالشعر المنثور ، وكلها كلاسيكية بناء وشكلا ، وكلها يشجب الطغيان بسخط خطابى ، ويمجد الحرية باعتبارها أشرف من الحياة . فترى ميوله فى « البازى » مع محاولة المتآمرين الأطاحة بلورنتسو وجوليانودى مديتشى ، وفى « بروتس الأول » و « بروتس الثانى » لم يعف من اللوم تاركوين وقيصر ، وفى « فليبو كان بكل قلبه مع كارلوس ضد ملك أسبانيا ، ولكنه فى « ماريا ستواردا (مارى ستيوارت) وجد فى رؤساء العشائر الاسكتلندية من الطغيان أكثر مما فى الملكة الكاثوليكية . فلما انتقد على اخضاعه التاريخ لفكرته دافع عن نفسه بقوله :

« سيسمع الناس أكثر من لسان خبيث يقول . . . أننى لا أصور شيئاً إلا الطغاة فى صفحات مفرطة الطول لا لطف فيها ، وأن قلمى الدموى المنقوع فى السم يضرب دائماً على نغمة واحدة رتيبة ، وأن ربة شعرى الفظة لاتنهض نسانأ من العبودية الشريره ، بل تثير ضحك الكثيرين . ولكن هذه الشكاوى لن تحول روحى عن هدف يمثل هذا السمو ، ولاتعوق فنى مهما كان ضعيفاً غير كفء لتلبية حاجة بهذه الشدة . لا ولن يكون نصيب كلامى أن تبدده الرياح إذا ولد رجال صادقون بعدنا يؤمنون بأن الحرية لاغنى عنها للحياة[١٠٠] » .

وقد أولع بكونتيسة ألبانى ولعا لم يفقه إلا ولعه بالحرية وكانت ابنة جوستاف أدولف – أمير شتولبرج – جديرن فتزوجت (١٧٧٣) الأمير تشارلز ادوارد ستيوارت ، المطالب الشاب بعرش بريطانيا ، الذى سمى الآن نفسه كونت ألبانى . وقد انغمس هذا الذى كان فتى أنيقا جداً يوم كان « الأمير الحلو تشارلى » فى الشراب ومصاحبة الخليلات لينسى هزائمه . ولم يعقب هذا الزواج الذى رتبه البلاط الفرنسى ، وكان زواجا شقياً . ويبدو أن الكونتيسة ذاتها لم تكن مبرأة من العيوب . وقد التقى بها الفييرى فى ١٧٧٧ ، ورثى لها ، ثم أحبها . ولكى يكون قريباً منها ، حراً فى مساعدتها وتتبع تقلبات حظها دون أن يتكبد مشقه الحصول على إذن ملكى لكل خطوة عبر الحدود ، تخلى عن مواطنه بيدمونت ، ونزل عن معظم ثروته وضيعته لأخته ، ثم انتقل إلى فلورنسه ١٧٧٨ . وكان الآن فى التاسعة والعشرين من عمره .

واستجابت الكونتيسه لغرامه برقه وحذر مراعيه كل أصول اللياقة العامة . وفى ١٧٨٠ حين أمست حياتها فى خطر من جراء عنف زوجها السكير ، اعتكفت فى دير ، ثم فى بيت زوج أختها فى روما . كتب الفييرى يقول « بقيت فى فلورنسه كأنى يتيم مهجور ، وعندها اقتنعت كل الاقتناع انى بدونها لم أكن أوجد ولو نصف وجود ، لأنى الفيتنى عاجزا كل العجز تقريباً عن القيام بأى عمل جيد[١٠١] » . وما لبث أن ذهب إلى روما ، حيث سمح له برؤية محبوبته بين الحين والحين ، ولكن زوج أختها قاوم جهوده فى الحصول على قرار بابطال زواجها ، مسترشدا فى ذلك برأى القساوسه . (ومن هنا دفاعه الملتوى عن الطلاق « ديللا تيرانيدى[١٠٢] ») . وأخيرا منعه زوج أختها من زيارة الكونتيسه ، فغادر روما ، وحاول أن يرفه عن نفسه بالأسفار والخيل – التى كانت « غرامه الثالث » ، بعد الفنون و « سيدتى النبيلة » . وفى ١٧٨٤ حصلت على انفصال شرعى ، فانتقلت إلى كولمار فى الالزاس . وهناك لحق بها ألفييرى ، وبعدها عاشا

فى رباط غير زوجى حتى أتاح لهما موت زوجها أن يتزوجا . وقد كتب ألفييرى عن حبه فى نشوة تذكرنا بما كتبه دانتى فى « الحياة الجديدة » .

« هذا الحب المحموم — الحب الرابع والأخير ، . . كان يختلف عن علاقاتى الغرامية الثلاث السابقة . ففيها لم أجد نفسى منفعلا بأى عاطفة ذهنية توازن وتمتزج بعاطفة القلب . نعم كان هذا الحب أقل عنفاً وحرارة ولكنه كان أكثر استمرارا وأعمق تغلغلا فى الشعور والوجدان . وبلغ من قوة عاطفتى أنها . . . سيطرت على كل انفعال وخاطر فى ، ولن تنطفىء فى داخلى أبداً إلا بانطفاء الحياة نفسها . وقد وضح لى . . . اننى وجدت فيها امرأة حقه ، لأنها بدلا من أن تصبح كسائر النساء العاديات عقبة فى طريقى إلى الشهرة الأدبية — امرأة تقدم الاهتمامات النفعية وترخص . . . أفكار المرء — وجدت فيها التشجيع والعزاء والقدوة الحسنة فى كل عمل صالح . وإذ تبينت هذا الكنز الفريد وقدرته حق قدره ، فانى بذلت لها ذاتى باستسلام مطلق . ولا ريب فى أنى لم أكن مخطئا فى هذا ، لأننى الآن وقد مضى على حبى لها أكثر من اثنى عشر عاما . . . يزداد حبى لها كلما ذبلت تلك المفاتن العابرة (وهى ليست نفسها الباقية) بحكم الزمن . ولكن عقلى وقد تركز فيها يسمو ويرق ، ويزداد حسنا كل يوم ، وأما عقلها هى فاننى أجرؤ على القول بأن هذا يصدق عليها ، وأن من حقها أن تستمد منى العون والقوة(١٠٣) .

وبهذا الحافز مضى يكتب المزيد من المآسى ، وبعض الملاهى ، وشيئاً من الشعر بين والحين والحين . وكان قد كتب خمس قصائد غنائية بعنوان America libra . وفى ١٧٨٨ انتقل الحبيبان إلى باريس ، حيث أشرف الفييرى على نشر مطبعة بومارشين فى كيل على الراين لأعماله . وحين سقط الباستيل هلل ألفييرى للثورة وكله حماسة متقدة للحرية وقال أنها فجر عصر أسعد للبشر . ولكن سرعان ما قزز شطط الثورة وسرقها روحاً كان تصورها للحرية أرستقراطياً ، روحاً تطالب بالتحرر من الغوغاء والأغلبيات ومن البابوات والملوك على حد سواء . ففى ١٨ أغطس ١٧٩٢ غادر هو والكونتيسه

باريس بما استطاعا حمله من مقتنياتهما فى مركبتين فأوقفهما عند أبواب المدينة حشد يسألها عن حقهما فى مغادرتها . يقول ألفيرى « قفزت من المركبة بين الغوغاء ، ملوحاً بجوازات سفرى السبعة وأخذت أصيح وأحدث ضجة . . وهو دائماً السبيل إلى التغلب على الفرنسيين[١٠٤] » . وواصلا الرحلة راكبين إلى كاليه وبركسل ، وهناك نمى إليهما أن السلطات الثورية فى باريس أمرت بالقبض على الكونتيسه . فهرعا إلى ايطاليا ، واستقرا فى فلورنسه . وكتب ألفيرى الآن Misogallo مضطرماً بنار الحقد على فرنسا و « حشد عبيدها أبناء السفاح »[١٠٥] .

وفى ١٧٩٩ استولى جيش الثورة الفرنسية على فلورنسه فلجأ ألفيرى والكونتيسه إلى فيللا فى ضاحية حتى رحل الغزاة . وقد أضعفه وأشابه انفعال هذه السنين ، فأعتقد فى ختام ترجمته الذاتيه التى كتبها عام ١٨٠٢ وهو بعد فى الثالثة والخمسين أنه شاخ . وأوصى بكل ممتلكاته للكونتيسه ثم مات بفلورنسه فى ٧ أكتوبر ١٨٠٣ ودفن فى كنيسة سانتا كروتشى . وهناك أقامت له الكونتيسه أثرا ضخما من صنع كانوفا ، وقد مثلت فيه ايطاليا تنوح فوق المقبرة . وقد ضمت إلى حبيبها هناك فى ١٨٢٤ .

وتكرم ايطاليا ألفيرى باعتباره Il Vate d'Italia نبى الأحياء الذى حررها من الأغلال الأجنبية والكنيسية . وكانت دراماته على ما فيها من حدة ورتابة تقدما منشطا خلف وراءه المآسى العاطفية التى كانت تقدم للمسرح الإيطالى قبله . ومن تمثيلياته « فلبيو » و « شاول » و « ميرا » أعدت روح ايطاليا نفسها لماتزينى وجاريبالدى .

ولم يقتصر نشر الطغاة Della tirannide فى الخارج على كيل (١٧٨٧) وباريس ، بل طبع فى ميلانو (١٨٠٠) وغيرها من المدن الايطالية فى ١٨٠٢ و ١٨٠٣ و ١٨٠٥ و ١٨٠٩ و ١٨٤٨ و ١٨٤٩ و ١٨٦٠ ، وأصبح لإيطاليا ما كان لفرنسا وانجلترا وأمريكا كتاب يبين « حقوق الانسان » (١٧٩١) . وكان ألفيرى بداية الحركة الرومانسية فى ايطاليا ، بيرونا قبل بيرون ، يبشر بتحرير العقول والدول من أغلالها . وبعده كان لزاما على ايطاليا أن تتحرر .

الفصل الثالث عشر

حركة التنوير فى النمسا

١٧٥٦ — ٩٠

١ — الامبراطورية الجديدة

إذا توخينا الدقة فى التعبير قلنا أن كلمة « النمسا » إنما تدل على أمة ، وقد تدل تجاوزا على الامبراطورية التى تزعمتها النمسا . فمن الناحية الشكلية كانت هذه الامبراطورية حتى عام ١٨٠٦ هى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى انتظمت ألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر وأجزاء من إيطاليا وفرنسا . بيد أن الأهداف القومية أضعفت من الولاء للامبراطورية إلى حد لم يبق معه الآن (١٧٥٦) من هذه الأقطار سوى إمبراطورية نمساوية مجرية تضم النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا والتيرول والمجر وبوهيميا ومطرانيات كولونيا وترير وماينز الكاثوليكية ، وأشتاتا متباينة من إيطاليا ، ثم منذ ١٧١٣ الأراضى الواطئة النمساوية — التى كانت أسبانية فيما مضى — وهى على التقريب بلجيكا الحالية .

أما المجر التى كان يسكنها قرابة خمسة ملايين من الأنفس فكان يسودها نظام إقطاع فخور . فأربعة أخماس الأرض يملكه النبلاء المجريون ويفلحه الأقنان ، ولم يقع عبء الضرائب إلا على الفلاحين وأهــل المدن الألمان أو الصقالبة . وكانت الامبراطورية الجديدة قد ولدت شرعياً فى ١٦٨٧ ، حين تخلى النبلاء المجريون عن حقهم القديم فى اختيار ملكهم واعترفوا بأباطرة الهابسبورج ملوكا عليهم . ودعت ماريا تريزا كبار النبلاء المجريين إلى بلاطها متبعة استراتيجية البوربون ، وأعطتهم المناصب والألقاب والأنواط ، وهدأتهم حتى قبلوا القانون الإمبراطورى قانوناً لأملاكهم وفيينا عاصمة لهم . وكلفت الامبراطورة فى استجابة سمحة لوكاس فون هالد برانت بعمل

تصميمات للمبانى الحكومية فى بودا ؛ وبدىء العمل فى ١٧٦٩ ، ثم جدد فى ١٨٩٤ ، فأعطى العاصمة القديمة بناء من أروع المبانى الملكية فى العالم . وشيد أغنياء النبلاء المجريين القصور الريفية الفخمة على الدانوب أو فى خلواتهم الجبليه منافسين فى ذلك الملكة ؛ فبنى الأمير بال استرهاتى مقراً لأسرته فى ايزنشتات (١٦٦٣—٧٢) وبنى الأمير ميكلوس يوزف استرهاتسى بطراز النهضة على نحو ثلاثين ميلا قاعة استرهاتسى الجديدة (١٧٦٤ — ٦٦) التى ضمت ١٢٦ حجرة للضيوف ، وردهتين كبيرتين للاستقبالات وحفلات الرقص ، ومجموعة غنية من التحف ، وعلى مقربة منها مكتبة بها ٧,٥٠٠ مجلد ومسرح به أربعمائة مقعد . ومن حول القصر حول مستنقع شاسع إلى حدائق زينت بالمغارات والمعابد والتماثيل ، وجهزت بالصوبات وأشجار البرتقال والأرض المخصصة للوحوش والطيور البرية . يقول رحالة فرنسى « هذه القلعة لا يضارعها أى مكان فى فخامتها — ربما باستثناء فرساى » . وإليها أقبل المصورون والمثالون والممثلون والمغنون والعازفون ، وهنا ظل هايدن جيلا كاملا يقود فرقته ويؤلف موسيقاه ويتوق للانطلاق إلى عالم أرحب .

أما بوهيميا — وهو اليوم القسم التشيكى من تشيكوسلوفاكيا — فلم تحظ بمثل هذا التوفيق فى عهد ماريا تريزا . وكانت قد انسحبت من التاريخ بعد حرب الثلاثين وقد حطم روحها القومى حكم أجنبى وعقيدة كاثوليكية فرضت على شعب عرف يوما يان هوس وجيروم البراغى . وعانت الملايين الثمانية التى تسكنها من جراح الحرب فى الصراع المتكرر الذى دارت رحاه بين بروسيا والنمسا ، وانتقلت عاصمتها التاريخية من يد إلى يد مراراً وتكراراً ، إذا كانت ملكتها الغربية تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة . واضطرت بوهيميا إلى أن تقنع باستقلال فى الثقافة والذوق ، فنشأت مؤلفيها الموسيقيين أمثال جيورج بندا ، وتفردت براغ باستقبالها الحار لأول عرض لأوبرا موتسارت « دون جوفانى » (١٧٨٧) ، التى لم تصب بعد ذلك فى فيينا غير إطراء فاتر كان أشبه بالذم منه بالمديح .

وأما فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد كان كفاح النبلاء المحليين

للاحتفاظ بسلطتهم التقليدية أنجح منه فى بوهيميا، وسكيدر أيام « الامبراطور الثائر » الأخيرة . وقد كان لتلك الأقاليم السبعة — باربانت (التى ضمت بروكسل ، وأنتورب ، ولوفان) ، ولكسمبورج ، وفلاندر ، وهاينوت ، ونامور ، وجلدرز — تاريخ عريق جليل ، وكان النبلاء الذين حكموا رعاياهم الملايين الأربعة شديدى الحرص على الامتيازات التى ثبتت لامتحان قرون كثيرة . وعرض المجتمع العصرى أزياءه ، وقامر بمكاسبه ، وشرب أحيانا المياه المعدنية كما شرب الأنبذة فى سبا فى أسقفية ليبج المجاورة . وكان زهرة ذلك المجتمع فى هذا العصر الأمير شارل—جوزف دلين ، الذى وهبته بروكسل للعالم فى ١٧٣٥ . وقد قام على تعليمه عدة آباء من الرؤساء الكاثوليك « لم يؤمن بالله منهم غير واحد » ؛ أما هو نفسه فكان « متديناً أسبوعين »[١] فى هذا البلد المغرق فى الكثلكة . وقد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع وخدم يوزف الثانى مستشارا وصديقاً حميما ، والتحق بالجيش الروسى فى ١٧٨٧ ؛ ثم رافق كاترين الكبرى فى « مسيرتها » إلى القرم ، وبنى لنفسه قصراً ريفياً فاخراً وقاعة للفنون قرب بروكسل ، وكتب أربعة وثلاثين مجلدا من « المنوعات » ؛ وأثار الاعجاب فى النفوس — حتى نفوس الفرنسيين — بطباعه المهذبة ، وأضحك أندية أوربا العالمية الطابع بظرفه وخفة دمه المشربة بالفلسفة . *

هذه الإمبراطورية المعقدة ؛ الممتدة من الكربات إلى الرين ؛ هى التى دانت أربعين سنة لإمرأة من عظيمات نساء التاريخ .

٢ — ماريا تريزا

رأيناها من قبل فى الحرب ، وفيها لم تسلم إلا لفردريك وأبلت فى السياسة الحربية ، وفى اتساع النظرة والحاح الهدف ، وفى الشجاعة تواجه الهزيمة .

(*) « كانت مدام دى لوكزنبى . . . قادرة على الاصغاء ، وهو أمر ليس بالسهولة التى يحسبها الكثيرون ، ولم يعرف أحمق قط كيف يفعله »(٢) .

قال فردريك عنها فى ١٧٥٢ « إذا استثنينا ملكة المجر وملك سرينيا (شارل إيمانويل الأول) الذى انتصرت عبقريته على تعليمه الرديء ، لم نجد فى ملوك أوربا وأمرائها كلهم غير معتوهين مشهورين »[٣]. لقد فاقتها فى فن الحكم إلزابث الأولى ملكة إنجلتره من قبلها ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا من بعدها ، ولم يفقها ملكات غير هاتين . وكانت فى رأى فردريك « طموحا محبة للثأر »[٤]. ولكن أكان يتوقع منها ألا تحاول استرجاع سيليزيا التى اغتصبها ؟ أما الأخوان جونكور فرأيا فيها « ذهنا متوسطا جيداً يرافقه قلب محب ، واحساسا سلميا بالواجب ، وقدرات مذهلة على العمل ، وحضورا قويا وجاذبية غير عادية . . . أماً حقيقة لشعبها »[٥] : وكانت غاية فى اللطف مع كل من لم يهاجم امبراطوريتها أو إيمانها ؛ وعلى سبيل المثال نذكر استقبالها الحار لأسرة موتسارت فى ١٧٦٨[٦] . وكانت أماً فاضلة ، ورسائلها لأبنائها نماذج فى الرقة والمشورة الحكيمة ، ولو استمع إليها يوزف لما مات إنسانا فاشلا ، ولو اتبعت مارى أنطوانيت نصيحتها لكان من الجائز أن يعفى رأسها من الجيلوتين .

لم تكن ماريا تريزا ملكة « مستبدة مستنيرة » . فهى لم تكن مستبدة . وفى رأى فولتير « أنها وطدت ملكها فى جميع القلوب بدماثة طبع وشعبية لم يؤتهما غير قلة من أسلافها ، وقد ألغت المراسم والقيود من بلاطها . . . ولم ترفض مقابلة إنسان ، ولم يبرح شخص حضرتها غير راض »[٧]. ولم تكن قط مستنيرة بالمعنى الذى يقصده فولتير ، فقد أصدرت المراسيم المتعصبة ضد اليهود والبروتستنت ، وظلت كاثوليكية صادقة إلى النهاية . وشهدت فى هلع تسرب الشكوك الدينية إلى فيينا من لندن وباريس ، وحاولت أن تصد هذا التيار بتشديد الرقابة على الكتب والدوريات ، ومنعت تدريس الإنجليزية « لطابع هذه اللغة الخطر من حيث مبادؤها الدينية والخلقية المفسدة »[٨] .

ومع ذلك لم تنج تماما من تأثير ذلك العداء للاكليروس الذى كان يكنه مستشاروها وابنها . فقد ذكروا لها أن ممتلكات الاكليروس الاقليمية

وغيرها من أسباب الثراء تتزايد بسرعة نتيجة لتلميح الكهنة للمرضى المشرفين على الموت بأن فى استطاعتهم التكفير عن آثامهم واسترضاء الله بالايصاء ببعض الثروة للكنيسة ، فإذا سارت الأمور على هذا المنوال فلا بد أن يأتى قريباً ذلك اليوم الذى تصبح فيه الكنيسة – التى هى فعلا دولة داخل الدولة – سيدة على الحكومة . وكانت أديرة الراهبات والرهبان تتكاثر فتقصى الرجال والنساء عن الحيـــاة الناشطة وتعفى المزيد من الثروة من الضرائب. وكانت الصبايا يغرين بنذر أنفسهن للرهبنة قبل أن يبلغن السن التى يدركن فيها مغزى التكريس مدى الحياة وقد بلغ تساط الاكليروس على التعليم حدا تشكل معه كل عقل نام على أن يدين بولائه الأعلى للكنيسة لا للدولة . واستسلمت الملكة لهذه الحجج استسلاما حملها على الأمر ببعض الاصلاحات الهامة . فحظرت وجود الكنسيين عند كتابه الوصايا . وانقصت عدد المؤسسات الدينية ، وأمرت بفرض الضرائب على جميع الثروة الدينية . وحرمت النذر للرهبنة قبل سن الحاديه والعشرين . وحظرت الكنائس والاديرة إيواء المجرمين بمقتضى « حق اللجوء » . وأمرت بألا يعترف بأى منشور بابوى فى المملكة النمساوية قبل أن يحصل على تصديق الامبراطورة . وأخضع ديوان التفتيش لاشراف الحكومة ، لا بل انه فى الواقع ألغى. وأعيد تنظيم التعليم تحت إدارة جرهارت فان سفيتن (طبيب الملكة) والأب فرانتس راوتنشراوخ ، وأحل العلمانيون محل اليسوعيين فى كثير من كراسى الأساتذة (٩) ، وأخضعت جامعة فيينا للادارة العلمانية وإشراف الدولة ، وروجع المنهاج فيها وفى غيرها بهدف التوسع فى تعليم العلوم والتاريخ (١٠) . وهكذا سبقت الأمبراطورة التقية إلى حد ما الاصلاحات الكنسية التى سيقوم بها ابنها الشكاك .

وكانت مثلا فى الفضيلة فى زمن نافست فيه قصور الدول المسيحية الآستانة فى تعدد الزوجات . ولعل الكنيسة كانت مستخدمة اياها حجة وبرهاناً على فضل التمسك بالعقيدة لولا أن أغسطس الثالث ملك بولنده ولويس الخامس عشر ملك فرنسا وكلاهما كاثوليكى كان أشره العشاق

استكثارا من النساء . ولم تقتد ارستقراطية فيينا بها . فقد فر الكونت اركو إلى سويسره مع خليلته ، وهربت الكونتيسة إسترهاتسى إلى فرنسا مع الكونت فون در شولنبورج ، وكان الأمير فون كاونتز يصحب خلياته فى تلك الفترة فى مركبته ، فلما عاتبته الامبراطورة قال لها « سيدتى ، لقد أتيت لأتحدث عن شئونك لا عن شئونى [١١] » ونظرت ماريا تريزا باشمئزاز إلى هذا التحلل ، وأصدرت مراسم قاسية لفرض الوصية السادسة على الشعب ، وأمرت بتطويل تنانير النساء فى أسفلها وقمصانهن فى أعلاها[١٢]. ونظمت جيشاً من ضباط العفة خولت لهم القبض على أى امرأة يشتبه فى احترافها البغاء ،وشكا كازانوفا من أن « تعصب الأمبراطورة وضيق عقلها جعل الحياة شاقة على الأجانب بوجه خاص [١٣] » .

ويرجع الفضل فى كثير من نجاحها إلى وزرائها الأكفاء ، فقد قبلت ارشادهم وكسبت اخلاصهم ، وظل الأمير فون كاونتز منوطا بالشئون الخارجية رغم فشل سياسته فى « قلب الأحلاف » ، وقد أخلص فى خدمة الأمبراطورية أربعين عاماً . وغير لودفج هاوجفتز من الإدارة الداخلية، وأعاد رودلف شوتك تنظيم الاقتصاد ، هؤلاء الرجال الثلاثة أدوا للنمسا ما أداه ريشليو وكولبير من قبل لفرنسا ، والواقع أنهم خلقوا دولة جديدة ، أقوى بما لا يقاس من المملكة المختلة النظام التى ورثتها ماريا تريزا .

بدأ هاوجفتز بإعادة بناء الجيش الإمبراطورى ، وكان يعتقد أن هذا الجيش انهار أمام الانضباط البروسى لأنه كان مؤلفا من وحدات مستقلة يجمعها ويقودها نبلاء شبه مستقلين ، واقترح وأنشأ جيشاً ثابتاً قوامه ١٠٨،٠٠٠ محارب يخضعون لتدريب موحد واشراف مركزى ، ولكى تمول هذا الجيش أوصى بفرض الضرائب على النبلاء والكهنة كما تفرض على العامة ، واحتج النبلاء والكهنة ، وتصدت لهم الأمبراطورة بشجاعة وفرضت عليهم ضريبة ملكية وضريبة دخل . وامتدح فردريك عدوته إدارية كفئاً ، « لقد نظمت ماليتها تنظيما لم يبلغه أسلافها قط ، ولم تقتصر على تعويض

تعويض ما فقدته بالنزول عن أقاليم الملكى بروسيا وسردينيا بالإدارة الحسنة بل أنها زادت من دخلها زيادة كبيرة[١٤] » . وواصل هاوجفتز جهوده لتنسيق القانون ، وتحرير القضاء من تسلط النبلاء ، ولاخضاع أمراء الاقطاع لإشراف الحكومة المركزية . وأذيع فى ١٧٦٨ قوانين موحدة .

وكان شوتلك يجاهد أثناء ذلك ليبث النشاط فى الاقتصاد الخامل.فالصناعة كانت تعرقل مسيرتها الاحتكارات التى حابت النبلاء ، ولوائح النقابات الحرفية التى ظلت سارية حتى ١٧٧٤ ، على أن لنتز كان بها رغم هذا مصانع للصوف تضم ٢٦,٠٠٠ عامل ، وتفوقت فيينا فى صناعة الزجاج والخزف والصينى ، وتصدرت بوهيميا سائر أقطار الامبراطورية فى عمليات التعدين . وكان فى النمسا والمجر مناجم منتجة ، ففى غاليسيا رواسب ملحية كبيرة ، وكانت المجر تستخرج من الذهب كل عام ما قيمته سبعة ملايين جولدن . وحمى شوتلك هذه الصناعات بالرسوم الجمركية ، لأنه كان لزاما أن يتحقق للنمسا ، المشتبكة فى حروب متكررة ، اكتفاء ذاتى فى السلع الضروية ، فالتجاره الحرة كالديمقراطية ترف لايتأتى إلا فى الأمن والسلام .

ومع ذلك ظلت الامبراطورية زراعية إقطاعية . ذلك أن الامبراطورة شأنها فى ذلك شأن فردريك ، لم تجرؤ وهى تواجه الحرب على المجازفة بالتفسخ الاجتماعى الذى قد يحدث نتيجة لمهاجمة الاشراف الراسخين فى امتيازاتهم . وقد ضربت المثل الطيب بالغاء القنية فى أراضيها ؛ وفرضت على أعيان المجر المتغطرسين مرسوما يخول للفلاح أن يتنقل ويتزوج ويربى أبناءه كما يشاء ، وأن يستأنف أحكام سيده الاقطاعى أمام محكمة المقاطعة[١٥] . على أن طبقة الفلاحين فى المجر وبوهيميا كانت رغم هذه المسكنات فى فقر قريب من فقر فلاحى روسيا . وكانت الطبقة الدنيا فى فيينا تعيش فى فقر تقليدى ؛ بين القصور الباذخة والأوبرات المتقنة والكنائس الضخمة توزع الأمل على البشر .

وكانت فيينا بادئة فى منافسة باريس وضواحيها فى الأبهة الملكية . فكان قصر شونبرون (الربيع الجميل) الواقع خارج المدينة مباشرة يحوى ٤٩٥ فدانا من الحدائق ، مخططة (١٧٥٣ — ٧٥) على غرار فرساى ، بسياجات شامخة مستقيمة ، ومغارات غريبة وبرك متناسفة ، وتماثيل بديعة من نحت دونر وبيير ومعرض وحوش وحديقة نباتات ، وعلى رابية فى خافية « جلوربيت » بناها فى ١٧٧٥ يوهان فون هوهنبرج — مبنى مقنطر معمدفى طراز رومانيسكى خالص . أما قصر شونبرون ذاته، وهو مجمع ضخم من ١٤٤١ حجرة ، فقد صممه يوهان برنهارت فشر فون أرلاخ فى ١٦٩٥ ، ولكنه ترك ناقصاً فى ١٧٠٥ . فكلفت ماريا تريزا نيكولوباكاسى بتصميمه من جديد ، واستؤنف العمل فيه عام ١٧٤٤ وأكمل عام وفاة الامبراطورة (١٧٨٠) . وكان فى داخله قاعة كبرى طولها ١٤١ قدماً لها سقف روكوكى الطراز رسمة جريجوريو جوليبيامى (١٧٦١) . وكان قصر شونبرون مقراً للبلاط من الربيع إلى الخريف .

وبلغ عدد أفراد الحاشية الآن ٢٤٠٠ . واقتضت رعاية الخيل والمركبات استخدام مائتين وخمسين سائسا وخادما . وبلغت جملة نفقة صيانة القصر وملحقاته ٤,٣٠٠,٠٠٠ جولدن فى العام[١٦] . أما الملكة ذاتها فقد مارست القصد فى النفقة واعتذرت عن بهاء قصرها بضرورته لمراسم الحكم الملكى . وعوضت عن بذخ حاشيتها بسخائها فى أعمال البر . ذكرت مدام دستال فى معرض حديثها عن النمسا بعد جيل « إن عناصر البر هناك تنظم بكثير من الترتيب والسخاء ، فالإحسان الخاص والعام يصرف بروح سامية من العدل . . . وكل شىء فى هذا البلد يحمل طابع حكومة أبوية حكيمة متدينة[١٧] » .

ولم يكد يوجد أثر للتسول رغم فقر الشعب ، وكانت الجرائم قليلة نسبيا .[١٨] ووجد أفراد الشعب مسراتهم البسيطة فى التزاور ، واللقاء والاختلاط فى الميادين ، والابتراد فى البساتين الوارفة الظلال والتمشى فى

طريق البراتر الذى يحفه الشجر ، والتنزه فى الريف ، أو — فى أدنى طبقاتهم — الطرب لمرأى المعارك الضارية تنظم بين حيوانات تتضور جوعا . وأجمل من هذا الرقصات لا سيما المنويت التقليدية ، ففى هذه الرقصة نادرا ماكان الرجل والمرأة يتلامسان ، فكل حركة تحكمها التقاليد والقاعدة ، وتؤدى بانضباط ورشاقة . أما الموسيقى فكان نصيبها فى حياة فيينا من الكبر بحيث تطالبنا بتناولها فى فصل خاص بها .

وبالقياس إلى هذا كله كان الأدب ضعيفا فجا . فلم يكن للنمسا التى سيطرت عليها المقدسات نصيب فى حركة « شتورم فوند درانج » التى أثارت ألمانيا . ولم تكن ماريا تريزا راعية للعلم ولا للأدب البحت . ولم يكن فى فيينا صالونات أدبية ، ولم يختلط المؤلفون والفنانون والفلاسفة بالنساء والنبلاء والساسة كما فى فرنسا . لقد كان مجتمعا ساكنا ، فيه ما فى أساليب العيش القديمة المحسوبة من سحر وراحة ، أنقذ من ضجيج الثورة وعجيجها ولكن أعوزته فتنة الأفكار المتحدية . وكانت صحف فيينا الخاضعة لرقابة دقيقة عوائق غبية للفكر ، ربما باستثناء « الفيينر تسايتونج » التى أسست فى ١٧٨٠ . أما مسارح فيينا فكان ديدنها الأوبر للارستقراطية والبلاط ، أو الملاهى الغليظة لعامة الشعب . كتب ليوبولد موتسارت يقول إن « شعب فيينا فى جملته لا يشعر بالحب لأى شىء جاد أو معقول ، بل ان أفراده لا يفهمونه . وفى مسارحهم البراهين الوفيرة على أن الهراء المطلق دون غيره هو الذى يرضيهم — كالرقصات والمنوعات المسرحية الخفيفة (البرلسك) والتهريجيات وحيل الأشباح وألاعيب الشيطان » (١٩) . ولكن بابا موتسارت كان قد خيب أمله استقبال فيينا لولده .

هذا الخليط من الممثلين والموسيقيين والعامة والأقنان والبارونات ورجال البلاط والكنيسة حكمته الأمبراطورة العظيمة بسهر الأم واهتمامها الشديد . وكان زوجها فرانسوا اللوريني قد توج إمبراطورا فى ١٧٤٥ ، ولكن مواهبه وجهته إلى التجارة لا الحكم . فنظم الصناعات ، وزود الجيوش النمساوية بالحلل والخيول والسلاح ، وباع الدقيق والعلف لفردريك

بينما كان هذا مشتبكا فى حرب مع النمسا (١٧٥٦) [٢٠]، وترك إدارة الامبراطورية لزوجته . على أنه فى الأمور الزوجية كان يتشبث بحقوقه ، وقد أنجبت له الامبراطورة التى أحبته رغم خياناته ستة عشر طفلا [٢١] . وربتهم فى محبة وصرامة ، وأكثرت من تعنيفهم ، وأعطتهم من جرعات الفضيلة والحكمة ما جعل مارى أنطوانت تبتهج بالفرار إلى فرساى ، أما يوزف فكان يتسلى بالفلسفة . ودبرت الخطط بمهارة لتحصل على مراكز مريحة لأبنائها الآخرين ، فجعلت ابنتها ماريا كارولينا ملكة على نابلى ، وابنها ليوبولد دوقا أكبر لتسكانيا ، وابنها فرديناند حاكما على لمبارديا . وكرست نفسها لاعداد ولدها البكر يوزف للاضطلاع بالتبعات الجسام التى ستخلفها له ، وراقبت فى قلق تطوره أثناء التعليم والزواج ، وزعازع الفلسفة وخطوب الحب ، حتى أتى الوقت الذى رفعته فى نشوة من المحبة والتواضع وهو فى الرابعة والعشرين ليتربع بجوارها على عرش الامبراطورية .

٣ — يوزف فى مرحلة النمو :

١٧٤١ — ٦٥

كانت قد وكلت اليسوعيين بتعليمه ، ولكنها فى سبق لأفكار روسو طلبت أن يعلم كما لو كان يلهو . [٢٢] فلما ناهز الرابعة شكت من أن « ولدى يوزف لا طاقة له على الطاعة » [٢٣] ولا غرو فالطاعة ليست لهوا . ذكر السفير البروسى حين كان يوزف فى السادسة « لقد كون فكرة مغرورة عن منصبه » ولجأت ماريا تريزا إلى التهذيب وفرض التقوى] ، ولكن الصبى وجد الطقوس الدينية مملة ، وأنكر الأهمية التى يعلقها الناس على العالم فوق الطبيعى . فحسبه العالم الذى يعيش فيه ويرث جزءا منه . وما لبث أن سئم اتباع العقائد السنية واكتشف ما فى فولتير من فتنة . وفيما عدا ذلك لم يكن يهتم اهتماما يذكر بالأدب ، ولكنه شغف بالعلوم والاقتصاد والتاريخ والقانون الدولى . ولم يتخلص قط مع الزمن من غطرسة صباه

وكبريائه ، ولكنه ترعرع وأصبح فتى وسيما يقظا لم تباعد أخطاؤه بعد بينه وبين أمه . فكان فى أسفاره يكتب لها رسائل تفيض رقة بنوية حارة .

فلما بلغ العشرين عين عضوا فى مجلس الدولة (شتاتسرات) . ولم يلبث (١٧٦١) أن وضع ورقة تحمل أفكاره فى الاصلاح السياسى والدينى وقدمها إلى أمه ، وظلت هذه الأفكار جوهر سياساته إلى نهاية حياته . وقد أشار على الامبراطورة بأن تنشر التسامح الدينى فى ربوع مملكتها ، وتقلص سلطة الكنيسة ، وتخفف عن الفلاحين أعباء الاقطاع ، وتسمح بحرية أكبر فى انتقال السلع والأفكار . [٢٤] وطلب إليها أن تقلل من نفقة البلاط ومواسمه ، وتزيد من نفقة الجيش . وقال إن على كل عضو فى الحكومة أن يعمل ليستحق راتبه ، وان من الواجب فرض الضرائب على الاشراف شأنهم شأن سائر الشعب . [٢٥]

وكان أثناء ذلك يتعلم جانبا آخر من الحياة . ذلك أن لويس الخامس عشر كان قد عرض حفيدته ايزابللا البارسية عروسا تصلح للدوق الأكبر ، كجزء من اتفاق عكس الاحلاف . وبدا أن الحظ حالف يوزف : فايزابللا فتاة فى الثامنة عشرة جميلة ذات خلق طيب باستثناء ميلها للاكتئاب . وفى ١٧٦٠ جاءت عبر الألب فى قافلة يجرها ثلاثمائة جواد . واحتفل بالزفاف فى مهرجان باذخ ، وسعد يوزف بأن يجد بين ذراعيه مخلوقا بهذا الحسن . ولكن ايزابللا كانت عميقة الإيمان باللاهوت الذى تلقته ، ولم تجد لذة فى كل الهبات التى حبتها بها الحياة ، بل تاقت إلى الموت . كتبت إلى أختها فى ١٧٦٣ تقول « أن الموت رحيم ، ولم أفكر فيه يوما أكثر مما أفكر فيه الآن . وكل شيء يوقظ فى الرغبة فى أن أموت سريعا . علم الله كيف أتمنى أن أترك حياة تهينه تعالى كل يوم . ولو كان مسموحا للمرء أن يقتل نفسه لما ترددت فى ذلك . » [٢٦] وفى نوفمبر ١٧٦٣ أصيبت بالجدرى ، ولم يبد منها أى تشجيع للأطباء الذين حاولوا شفاءها ، فما انقضت خمسة أيام حتى ودعت الحياة . أما يوزف الذى أحبها حبا عميقا فلم يفق قط من هذه اللطمة :

وبعد شهور أخذه أبوه إلى فرانكفورت — على — المين ليتوج ملكا على الرومان — وهى الخطوة التقايدية إلى العرش الامبراطورى . وهناك انتخب فى ٢٦ مارس ١٧٦٤ (وكان الشاب جوته بين الجمع الحاضر) ، وفى ٣ أبريل توج . ولم يستمتع بالمراسم المطوله ، والخدمات الدينية ، والخطب ، وشكا فى خطاب لأمه من « الهراء والحماقات البالية التى كان لزاما علينا أن نستمع إليها طول اليوم . انه يقتضينى جهودا جبارة أن أمنع نفسى من مصارحة هؤلاء السادة بمبلغ ما فى عملهم وكلامهم من بلاهة . » ولم يكف خلال هذا كله عن التفكير فى الزوجة التى فقدها . « على أن أبدو فى غاية الابتهاج رغم ما يعتصر قلبى من ألم . . . اننى أحب الوحدة . . ومع ذلك يجب أن أعيش بين الناس . . وعلى أن أثرثر طوال النهار وأفوه بأحاديث كلها لغو وتفاهة[٢٧] » . ولابد أنه أحسن إخفاء مشاعره ، لأن أخاه ليوبولد قرر أن « ملكنا — ملك الرومان — ساحر دائما ، رائق المزاج دائماً ، مرح ، كيس ، مؤدب ، وهو يكسب جميع القلوب[٢٨] » .

فلما عاد إلى فيينا أبلغ بضرورة زواجه ثانية ، ذلك أن استمرار الحكومة المنتظم اقتضى فيما يبدو استمرار أسرة هابسبورج . واختار كاونتز زوجة له هى يوزيفا البافاريه ، لأن كاونتز كان يأمل أن يضيف بافاريا إلى ملك النمسا . ووقع يوزف مشروع الزواج الذى وضعه له كاونتز ، وبعث به ، وكتب إلى دوق بارما (والد ايزابيللا) وصفا ليوزيفا قال فيه « إنها مخلوق صغير قصيرة بدينة ، تجردت من سحر الشباب ، على وجهها دمامل وبقع حمراء وأسنان منفرة . . فاحكم بنفسك ماكلفنى هذا القرار . . ألا رفقاً بى ، ولا يفتر حبك لابن لك قد دفن فى قلبه إلى الأبد صورة معبودته رغم أن له زوجة ثانية »[٢٩] . وقد زف يوزف إلى يوزيفا فى بواكير عام ١٧٦٥ . وحاولت أن تكون له زوجة صالحة ، ولكنه زهد فيها سرا وعلانية . وقاست فى صمت ، ثم ماتت بالجدرى فى ١٧٦٧ . ورفض يوزف أن يتزوج مرة أخرى . وكرس الآن مابقى من حياته للحكم وفيه مزيج محزن من الفتور والاخلاص ، من المثالية والغرور .

٤ — الأم وولدها (١٧٦٥ — ٨٠)

ظلت ماريا تريزا فترة محطمة الجسد والعقل بعد موت الأمبراطور فرانسو الأول (١٨ أغسطس ١٧٦٥) . وشاركت خليلته الحزن عليه ، وقالت لها : « ياعزيزتي الأميرة ، لقد فقدنا كلتانا الكثير » . [٣٠] وقصت شعرها ، وتصدقت بصيوان ثيابها ، ونبذت كل أنواع الحلى ولبست السواد إلى يوم مماتها . وسلمت شئون الحكم ليوزف ورددت حديث الإعتكاف فى أحد الأديرة . على أنها عادت إلى الحياة العامة لخشيتها من أن يكون وريثها الطائش غير كفء للحكم ؛ ثم وقعت فى ١٧ نوفمبر إعلانا رسمياً بالمشاركة فى الحكم . واحتفظت بالسلطة العليا فى الشئون الداخلية للنمسا والمجر وبوهيميا ؛ أما يوزف فتقرر باعتباره إمبراطورا أن يناط به الشئون الخارجية والجيش ؛ ثم الإدارة والمالية بسلطة أقل ؛ ولكنه فى الشئون الخارجية قبل إرشاد ، كاونتز ، وفى جميع الميادين خضعت قراراته لمراجعة الامبراطورة . وقد خفف احترامه وحبه لأمه من حـــدة شغفه بالسلطة . فلما أشرفت على الموت تقريباً بالجدرى فى ١٧٦٧ لزم سريرها إلا نادراً ؛ وأذهل الحاشية بعمق قلقه وحزنه . وأخيراً أقنعت هذه الهجمات الثلاث التى أصاب بها المرض الأسرة المالكة الأطباء النمساويين بإدخال التطعيم ضد الجدرى .

وأقلق الإبن المحب أمه بالحاح أفكاره المطالبة بالإصلاح . ففى نوفمبر ١٧٦٥ أرسل إلى مجلس الدولة مذكرة لابد أنها أفزعت قراءها :

« رغبة فى الاحتفاظ بالمزيد من كفاءة الرجال القادرين على خدمة الدولة سأصدر أمراً — مهما قال البابا وجميع الرهبان فى العالم — يحرم انقطاع أى من رعاياى للعمل الكنسى قبل . . . سن الخامسة والعشرين . فالعواقب الوخيمة — للجنسيين — التى كثيرا ماتنجم عن النذور المبكرة خليق بها أن تقنعنا بنفع هذا الترتيب ، فضلا عن المبررات المتصلة بالدولة .

« وينبغى أن يكون التسامح الدينى والرقابة المعتدلة على المطبوعات ،

والكف عن المحاكمة على الأخلاق وعن التجسس فى خصائص الناس – ينبغى أن يكون هذا كله من مبادىء الحكم الأساسية . إن الدين والأخلاق هما ولا شك من بين أهداف الملك الرئيسية ». ولكن غيرته يجب ألا تتجاوز الحد إلى عقاب الأجانب وتحويلهم عن دينهم . فالعنف لا جدوى منه فى مسائل الدين والأخلاق ؛ إنما الحاجة إلى الاقناع . أما عن الرقابة فينبغى أن نكون شديدى التنبه لما يكتب ويباع ولكن تفتيش جيوب الناس وحقائبهم لاسيما الأجانب إجراء متطرف فى الغيرة . ومن اليسير أن نثبت أن كل كتاب محرم يوجد الآن فى فيينا رغم الرقابة الصارمة على المطبوعات الآن،وفى وسع أى إنسان يغريه هذا التحريم أن يشتريه بمثلى ثمنه . .

« ويجب دفع الصناعة والتجارة قدماً بحظرجميع البضائع الأجنبية فيماعدا التوابل ، وبإلغاء الاحتكارات ، وإنشاء مدارس تجارية ، وبالقضاء على الوهم الذى يزعم أن الاشتغال بالتجارة لايتفق مع النبالة .

وينبغى تقرير حرية الزواج ، حتى ماندعوه الآن بالزواج غير المتكافىء. فلا القانون الإلهى ولا الطبيعى يحرمه . فالتحيز وحده هو الذى يوهمنا بأننى أعظم قدراً لأن جدى كان كونتاً ، أو لأننى أملك رقاً وقع عليه شارل الخامس . أننا لانرث من آبائنا غير الوجود البدنى ، إذن فالملك أوالكونت أو البورجوازى أو الفلاح كلهم سواء[٣١] » .

ولابد أن ماريا تريزا ومستشاريها قد شموا ريح فولتير أو «الموسوعة» فى هذه المقترحات . وكان على الأمبراطور الشاب أن يسير الهوينا ، ولكنه تقدم . فنقل إلى الخزانة عشرين مليون جولدن – نقداً وسندات وأملاكا – خلفها له أبوه فى وصيته ، ثم غير الدين القومى بفائدة أربعة فى المائة بدلا من ستة . وباع أراضى الصيد والقنص التى كانت للأمبراطور المتوفى ، وأمر بذبح الخنازير البرية التى كانت هدفا للصيادين وأداة تدمير لمحاصيل الفلاحين . وفتح البراتر وغيره من البساتين للشعب رغم احتجاجات النبلاء ولكن بموافقة أمه[٣٢] .

وفى ١٧٦٩ صدم الإمبراطورة والبلاط بذهابه إلى نايسى فى سيليزيا وقضائه ثلاثة أيام (٢٥ — ٢٧ أغسطس) فى مناقشات ودية مع فردريك الأكبر أعدى أعداء النمسا . وكان قد أخذ عن ملك بروسيا فكرة الملك « الخادم الأول للدولة » . وأعجب باخضاع فردريك الكنيسة للدولة ، والتسامح مع شتى المذاهب والديانات ، وحسد بروسيا على تنظيمها العسكرى واصلاح شرائعها . وقد شعر كلا الرجلين أن الوقت حان لإغراق خلافاتهما فى اتفاق وقائى ضد قوة روسيا الصاعدة . وكتب يوزف لأمه يقول « بعد العشاء . . . دخنا ودار حديثنا حول فولتير[٣٣] » ولم يكون الملك البالغ من العمر آنئذ سبعة وخمسين عاما فكرة طيبة عن الإمبراطور ذى الثمانية والعشرين . كتب يقول « لقد اتخذ الملك الشاب مظهر الصراحة الذى ناسبه تماما . . . انه رغب فى أن يتعلم ، ولكنه لم يؤت من الصبر ما يتيح له أن يعلم نفسه ، ومنصبه الرفيع يجعله سطحيا والطمع الذى لا حد له ينهش قلبه . . وله من الذوق ما يكفى لقراءة فولتير وتقدير مزاياه[٣٤] .

وقد حمل النجاح المنذر بالخطر ، الذى حققته كاترين الثانية فى روسيا ، كاونتز على ترتيب اجتماع ثان مع فردريك . والتقى الملك والإمبراطور والأمير فى نويشتات بمورافيا فى ٣ — ٧ سبتمبر ١٧٧٠ . ولابد أن يوزف تطور تطورا كبيرا خلال ذلك العام ، لأن فردريك كتب الآن إلى فولتير يقول « أن الإمبراطور الذى نشىء فى بلاط متعصب قد نبذ الخرافة ، واتخذ العادات البسيطة رغم أنه ربى فى جو مترف ، وهو متواضع رغم ما يحرق له من بخور ، وهو مع شوقه للعظمة والمجد يضحى بأطماعه فى سبيل واجبه البنوى[٣٥] .

وكان هذان اللقاءان جزءا من تربية يوزف السياسية . وقد أضاف إليها بزيارة ممتلكاته وفحصه مشكلاتها وامكاناتها بنفسه . ولم يزرها بوصفه إمبراطورا بل مسافرا من عامة الناس يركب جوادا . وتجنب

المراسم ونزل فى الفنادق بدلا من قصور الريف . وحين زار المجر فى ١٧٦٤ و ١٧٦٨ لاحظ فقر الأقنان المدقع وصعق حين رأى فى أحد الحقول جثث أطفال ماتو جوعا . وفى ١٧٧١ — ٧٢ رأى مثل هذا فى بوهيميا ومورافيا وكان حيثما ذهب يسمع أنباء أو يشهد الأدلة على وحشية الاقطاعيين وجوع الاقنان . وكتب يقول « إن الموقف الداخلى لايصدق ولا يوصف ، أنه يفطر القلوب[٣٦] » . فلما عاد إلى فيينا سخط على التحسينات التافهة التى ينوبها مستشارو الأمبراطورة فقال « ان الاصلاحات الصغيرة لن تجدى فتيلا ، إذ لابد من تغيير الكل » . واقترح البدء بالاستيلاء على بعض الأراضى الكنسية فى بوهيميا ليبنى فوقها مدارس وملاجىء ومستشفيات . وبعد نقاش طويل اقنع المجلس بأن يصدر (١٧٧٤) قانونا ميسرا يقلل وينظم حجم تشغيل الأقنان (الذى كان البوهيميون يسمونه روبوتا) الواجب عليهم للسيد الاقطاعى وقاوم اقطاعيو بوهيميا والمجر ، وهب الافتان البوهيميون فى ثورة غير منظمة ، فأخضعتهم قوات الجيش . ولامت ماريا تريزا ابنها على هذه الضجة الكبرى فكتبت لعاملها فى باريس مرسى دارجنتو :

« ان الأمبراطور الذى يسرف فى شعبيته قد أفرط فى الحديث خلال رحلاته المختلفة . . . حول الحرية الدينية وتحرير الفلاحين . وقد أحدث هذا كله الاضطراب فى جميع ولاياتنا الألمانية . . . فليس الفلاح البوهيمى وحده هو الذى يخشى منه ، بل المورافى والستيرى والنمسوى أيضاً ، لا بل أنهم فى قسمنا يجرؤن على التمادى فى أشد الوقاحات[٣٧] » .

وزاد توتر العلاقات بين الابن والأم (١٧٧٢) حين انضم يوزف إلى فردريك وكاترين الثانية فى التقسيم الأول لبولنده . فاحتجت على اغتصاب أمة صديقة وكاثوليكية . وبكت حين أقنعها يوزف وكاونتز بعد إلحاح باضافة توقيعها إلى الاتفاق الذى أعطى شطراً من بولنده للنمسا . وقد علق فردريك بخبث « أنها تبكى ، ولكنها تأخذ[٣٨] » . على أنها كانت مخلصة فى أسفها كما نرى من خطابها لولدها فرديناند « كم من مرة جاهدت لاتجنب اشتراكى فى عمل يلوث ملكى

كله ؟ ليت الله يمنحني الاعفاء من تبعته فى عالم آخر . إنه يثقل قلبى ، ويعذب ذهنى ، ويشيع المرارة فى أيامى[٣٩] .

وقد تأملت خلق ولدها فى خوف ومحبة . « انه يحب الاحترام والطاعة » ، ويرى المعارضة شيئاً كريها لايكاد يحتمل . . . وكثيرا ما يكون غير مراع لشعور الآخرين . . . وحيويته الكبيرة المتزايدة تفضى إلى رغبة عاتية فى أن ينال ما يريد بكل دقائقه . . . أن لولدى قلبا طيبا . ومرة أنبته بمرارة :

« حين أموت أخادع نفسى بأنى سأظل حية فى قلبك ، بحيث لاتخسر الأسرة والدولة بموتى . . . أن تقليدك (لفردريك) ليس بالأمر السار . فهذا البطل . . . « هذا الفاتح — أله صديق واحد ؟ . . . أية حياة هذه التى تنعدم فيها الإنسانية . أياكانت مواهبك فليس ممكنا أن تكون جربت كل شىء . حذار من الوقوع فى خطيئة الحقد ؟ ان قلبك ليس شريرا إلى الآن ، ولكنه سيكون كذلك . لقد حان الوقت للكف عن التلذذ بكل هذه الملاحظات الظريفة ، هذه الأحاديث الذكية البارعة التى لا هدف لها إلا السخرية من الغير . . . إنك عابث تتظاهر بالعقلانية وأنت فى الواقع لست إلا مقلدا عديم التفكير حين تحسب نفسك مفكرا مستقلا[٤٠] » .

وكشف يوزف عن جانبه من الموقف فى خطاب إلى ليوبولد :

« لقد بلغت شكوكنا وعدم ثقتنا هنا قمة لاتستطيع تخيلها . فالواجبات تتراكم كل يوم ولاشىء يعمل . وأنا أكدح كل يوم حتى الخامسة أو السادسة لايتخلل ذلك غير ربع ساعة أتناول فيها الطعام وحيداً ، ومع ذلك لاشىء يحدث . فان أسباباً تافهة ، ودسائس طالما كنت ضحيتها تسد الطريق ، وكل شىء أثناء ذلك يذهب إلى الشيطان. انى أهديك منصبى بوصفى الابن البكر[٤١] » .

وقد احتقر الرجال الذين شاخوا فى خدمة أمه . ولم يؤيده غير كاونتز ، ولكن فى حذر يغيظة .

وأما الأمبراطورة المسنة فقد استمعت إلى أفكار ابنها الثورية فى ذعر. وصارحته برأيها :

« إن أهم مبادئك الأساسية هى : ١ — إطلاق الحرية فى ممارسة الدين، وهو ما لا يستطيع ملك أو أمير كاثوليكى السماح به دون أن يتحمل تبعة ثقيلة. ٢ — القضاء على طبقة النبلاء بأنهاء القنيه . . . ٣ — الدفاع عن الحرية فى كل شىء وهو مبدأ يتردد كثيرا جدا . . . اننى بلغت من الشيخوخة حدا لا أستطيع معه تقبل أفكار كهذه . وأسأل الله ألا يجربها خلفى أبدا. أن التسامح الدينى . وعدم الاكتراث واللامبالاه هما بالضبط أداة تقويض كل شىء . فاذا لم يوجد دين غالب فأى ضابط يكبح الجماح ؟ لا ضابط ولا المشنقة ولا دولاب التعذيب . . إننى أتكلم سياسيا لا كمسيحية . فما من شىء ألزم وأنفع من الدين . أتريد السماح لكل إنسان بأن يسلك على هواه ؟ وإذا لم يكن هناك عادة ثابتة ، وخضوع للكنسية ، فأين ترانا نكون ؟ ستكون النتيجة قانون القوة . . . ليس لى من أمنية إلا أن أستطيع حين أموت الانضمام إلى أسلافى متعرية بأن ابنى سيكون عظيما تقيا كأجداده ، وأنه سيقلع عن حججه الباطلة ،وعن الكتب الشريرة ، وعن الاتصال بأولئك الذين أغووا روحه على حساب كل شىء ثمين مقدس ، لا لشىء إلا لاقامة حرية موهومة لا يمكن . . أن تفضى لغير الخراب الشامل [٤٢] » .

ولكن إذا كان ثمة شىء يتوق إليه يوزف فهو حرية الدين . ربما لم يكن ملحداً كما خاله بعضهم[٤٣] ، ولكنه كان قد تأثر تأثرا عميقاً بأدب فرنسا . وكانت جماعة من رجال الفكر النمساويين قد ألفت فعلا فى ١٧٧٢ حزب التنوير [٤٤] . وفى ١٧٧٢ نشر جورجى بيسينى المجرى فى فيينا مسرحية تردد أفكار فولتير ، وقد قبل الدخول فى الكاثوليكية ارضاء لماريا تريزا ، ولكنه ارتد إلى العقلانية بعد موتها[٤٥] . ولا ريب أن يوزف كان على علم بهذا الكتاب المشهور المسمى « الوضع الكنسى والقانونى لبابا روما » (١٧٦٣) ، الذى أكد فيه أسقف كاثوليكى بارز تخفى تحت اسم فبرونيوس ، من جديد سمو المجامع

العامة على البابوات ، وحق كل كنيسة قومية فى أن تحكم نفسها . ورأى الأمبراطور الشاب فى ثروة الكنيسة النمساوية الموطدة الأركان عقبة كؤوداً فى طريق التطور الاقتصادى ، وفى سيطرة الكنيسة على التعليم ، المعوق الأكبر لنضج العقل النمساوى . وفى يناير ١٧٧٠ كتب إلى شوازيل :

« أما عن خطتك للتخلص من اليسوعيين فأنا موافق عليها موافقة تامة... ولا تسرف فى الاعتماد على أمى ، فان التعلق الوثيق باليسوعيين صفة موروثة فى أسرة الهابسبورج . . . على أن لك صديقا فى كاونتز ، وهو ينفذ مايشاء مع الأمبراطورة(٤٦) » .

ويبدو أن يوزف استعمل نفوذه فى روما ليوصل كلمنت الرابع عشر إلى الخطوة النهائية ، وقد أبهجه إلغاء البابا للطائفه ١٧٧٣ (٤٧) .

ولو عرفت ماريا تريزا من خطابات ولدها مبلغ انحرافه إلى معسكر « الفلاسفة » لصعقت . لقد بذلت قصاراها اتمنع حل جمعية اليسوعيين ، ولكن كاونتز أقنعها بالامتثال لرأى سائر الدول الكاثوليكية . كتبت إلى صديقة لها تقول « انى مغمومة يائسة لما أصاب اليسوعيين . لقد أحببتهم وأكرمتهم طوال حياتى ، ولم أر قط فيهم غير كل شىء بناء للروح(٤٨) » . وقد عطلت تنفيذ الأمر البابوى بتعيين لجنة لدراسته . وأتيح لليسوعيين النمساويين الوقت لنقل أموالهم ومقتنياتهم الغالية وأوراقهم من البلد . وصودرت أملاك اليسوعيين ، ولكن الأمبراطورة حرصت على أن يتلقى أعضاء الطائفة المعاشات والثياب وشتى العطايا .

ووسع اغتباط يوزف الواضح بحل جماعة اليسوعيين الهوة بين الأم وولدها . ففى ديسمبر ١٧٧٣ انهار تحت وطأة التوتر وتوسل إليها أن تعفيه من كل مشاركة فى شئون الحكم . وأفزعها اقتراح مذهل كهذا ، وكتبت إليه نداء مؤثرا للمصالحة :

« يجب أن أعترف بأن قدراتى ، ووجهى ، وسمعى ، وحذقى — كلها

تتدهو سريعا وبأن الضعف الذى ارتعت منه طوال حياتى — وهو التردد فى اتخاذ القرارات — يرافقه الآن، تثبيط الهمة والافتقار إلى الخدام الأوفياء فالجفوة منك ومن كاونتز وموت مستشارى المخلصين، والمزوق عن الدين، وتدهور الأخلاق، والرطانة التى تجرى على كل لسان، والتى لا أفهمها — كل هذا يكفى لسحقى. انى أقدم لك كامل ثقتى، وأسألك أن تنبهنى لأى خطأ ارتكبه.. أعن أما... تعيش فى وحدة، وسيقضى عليها أن ترى كل جهودها وأحزانهـا ذهبت أدراج الرياح. قل لى ما تريد أفعله لك [٤٩] » :

وتصالح معها، ووافقت المرأة التى حاربت يوما فردريك وأوقفت تقدمه، مؤقتا على أن تتعاون مع تلميذ فردريك المعجب به. واستخدما معا ثروة اليسوعين المصادرة فى الاصلاح التعليمى. وفى ١٧٧٤ أصدرا « نظاما عاما للتعليم » أحدث تنظيما جديدا أساسياً للمدارس الإبتدائية والثانوية. فوفرت مدارس متدرجة للتعليم الإلزامى لجميع الأطفال، وسمحت بدخول البروتستنت واليهود طلابا ومعلمين، وقدمت لتلاميذها التعليم الدينى فى كل دين. ولكنها وضعت الاشراف فى أيدى موظفين حكوميين. وسرعان ما أصبحت مدارس الشعب Voikschulen هذه تعد خير المدارس فى أوربا. وانشئت مدارس لتدريب المعلمين، وتخصصت المدارس العليا Hauptschulen فى العلوم والتكنولوجيا، وعلمت المدارس الثانوية Gymnasien اللاتينية والعلوم الإنسانية، وخصصت جامعة فيينا إلى حد كبير للقانون والعلوم السياسية والإدارة، وأدت وظيفة دار الحضانة لموظفى الدولة. واستبدل باشراف الكنيسة على التعليم إشراف من الدولة لايقل عنه صرامة ودقة.

واستمر التعاون بين الأم وولدها فألغى التعذيب (١٧٧٦). ولكن الاتفاق بينهما حطمته أحداث السنة التالية. ذلك ان يوزف كان ينوى منذ زمن زيارة باريس — لا ليرى «الفلاسفة» ويستدفىء فى الصالونات، بل ليدرس موارد فرنسا وجيشها وحكومتها، وليرى مارى انطوانيت،

وليقوى الروابط التى ربطت ربطا واهيا جدا بين الأعداء القدامى فى حلفهما الهش . فلما مات لويس الخامس عشر ، وبدا أن فرنسا على شفا التمزق ، كتب يوزف إلى ليوبولد يقول : « انى قلق على أختى فسيكون عليها أن تلعب دورا شاقا [٥٠] ». ووصل إلى باريس فى ١٨ ابريل ١٧٧٧ ، وحاول أن يتكتم زيارته فتخفى تحت اسم الكونت فون فلكشتين وأشار على الملكة الشابة المرحة بأن تقلع عن الاسراف والطيش ، وصبغ وجنتيها وشفتيها ، وأصغت إليه فى ضجر . وحاول ولكنه فشل فى كسب لويس السادس عشر إلى حلف سرى لكبح توسع روسيا [٥١] . وتحرك بسرعة فى أرجاء العاصمة و « لم تمض أيام حتى عرف عنها أكثر مما سيعرف لويس السادس عشر طوال حياته [٥٢] » . وزار الأوتيل ديو ولم يخف دهشته لسوء الإدارة غير الإنسانية لذلك المستشفى . وفتن أهل باريس ، وذعرت حاشية فرساى ، حين وجدت أرفع ملوك أوربا يمشى فى زى مواطن بسيط ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . ويلتقى بجميع الطبقات دون تكلف . أما عن نجوم الأدب فقد التمس أولا لقاء روسو وبوفون . وحضر أمسية عند مدام نكير ، والتقى بجبون ، ومارمونتيل ، والمركيزه دودفان ، ومما يشرفه أن رباطة جأشها وشهرتها أربكتاه أكثر مما أربكها مقامه الرفيع ، فالعمى يسوى بين الناس لأن الشالات يتكون نصفها من الثياب . وحضر جلسة لبرلمان باريس وأخرى للأكاديمية الفرنسية . وأحس الفلاسفة أنهم وجدوا فى النهاية الحاكم المستنير الذى تطلعوا إليه أداة لثورة سلميه . وبعد أن قضى يوزف شهرا فى باريس تركها فى جولة بالأقاليم فسافر شمالا إلى نورمنديه ، ثم على الساحل الغربى إلى بايون ، ثم تولوز ، فمونبلييه فرسليا ، ثم صعد مع الرين إلى ليون وشرق إلى جنيف . ومر بفرنيه دون أن يزور فولتير ، إذ لم يشأ أن يغضب أمه أو يرتبط جهارا برجل خاله الشعب النمساوى والملك الفرنسى شيطانا مجسما .

وكان حريصا على استرضاء أمه ، لأن عشرة آلاف مورافى هجروا

الكثلكة فى غيبته إلى المذهب البروتستنتى ، وكان رد الفعل من جانب ماريا تريزا — أو مجلس الدولة — على هذه الكارثة اتخاذ اجراءات تذكرنا بغارات الفرسان على بيوت الهجونوت أيام لويس الرابع عشر . فقبض على زعماء الحركة وشتتت اجتماعات البروتستنت وجند المتحولون العنيدون فى الجيش وفرضت عليهم الأشغال الشاقة وأرسلت نساؤهم إلى الملاجىء . فلما عاد يوزف إلى فيينا قال لأمه محتجا « أن السبيل لإعادة هؤلاء الناس إلى الكثلكة أن تجعلى منهم جنودا أو ترسليهم إلى المناجم أوتستخدميهم فى الأشغال العامة . . . يجب أن أعلن صراحة . . . أن المسئول عن هذا الأمر ، أياكان ، هو أحقر خدامك ، وهو لايستحق منى غير الازدراء ، لأنه أحمق وقصير النظر [٥٣] » . وأجابت الأمبراطورة بأنها ليست مصدرة هذه المراسيم بل مجلس الدولة ، ولكنها لم تسحبها . وجاء وفد من المورافيين البروتستنت لمقابلة يوزف ، فأمرت ماريا تريزا بالقبض على أفراده . وكانت الأزمة بين الأم وولدها تسير إلى طريق مسدود حتى أقنعها كاونتز بسحب المراسيم . فأوقفت الاضطهادات . وسمح لمعتنقى البروتستنتيه بممارسة عبادتهم الجديدة شريطة أن يكون ذلك فى هدوء ببيوتهم.. وتوقف صراع الجبابرة برهة .

ثم استؤنف لما مات مكسمليان يوزف ناخب بافاريا فى ٣٠ ديسمبر ١٧٧٧ دون أن يعقب بعد حكم طويل رخى . وفى الصراع على وراثة دولته أيد يوزف الثانى ناخب بالاتين شارل (كارل) تيودور شريطة أن ينزل للنمسا عن جزء من بافاريا ، وأيد فردريك الأكبر شارل دوق تزفا يبروكن ، وأعلن أنه سيقاوم أى محاولة من النمسا لتملك أرض بافاريه . وحذرت الامبراطورة ولدها من تحدى ملك بروسيا الذى لم يزل منيعا لم يقهر بعد . ولكن يوزف تجاهل نصيحتها ، وأيده كاونتز ، وجردت قوة نمساوية على بافاريا . وأمر فردريك جيشه بدخول بوهيميا والاستيلاء على براغ مالم يجل النمساويون عن بافاريا . وقاد يوزف جيشه الرئيسى ليدافع عن براغ ، واقترب الجيشان العدوان ، ولاح أن حربا نمساوية بروسية أخرى وشيكة على سفك

دماء الاخوة . أما فردريك فقد تجنب خوض المعركة منتهكاً بذلك السوابق والتوقعات ، واكتفى باطلاق جنوده على المحاصيل البوهيمية ليأتوا عليها ، وأما يوزف فقد تردد فى الهجوم لعلمه بشهرة فردريك قائدا للجيوش . وكان يأمل أن تخف فرنسا لنجدته ، وأرسل على وجه السرعة نداءات لمارى أنطوانيت . فأرسل له لويس السادس عشر خمسة عشر مليون جنيه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا ، لأن فرنسا كانت قد وقعت (٦ فبراير ١٧٧٨) حلفاً من المستعمرات الأمريكية الثائرة ، وكان عليها أن تعد نفسها لخوض حرب مع انجلترة . وأقام يوزف فى معسكره نهبا للغيظ والقلق بينما نهبته البواسير فى طرف ودمل ضخم فى الطرف الآخر .

وهنا قبضت ماريا تريزا على أزمة الأمور فى انتفاضة أخيرة من انتفاضات الإرادة ، وأرسلت إلى فردريك سرا عرضا للصلح (١٢ يوليو) . ووافق فردريك على التفاوض ، وأذعن يوزف لأمه ، وتوسط لويس ملك فرنسا وكاترين قيصرة روسيا فى النزاع . وانتهى الأمر بمعاهدة تشن (١٣ مايو ١٧٧٩) التى عزت يوزف بأربعة وثلاثين ميلا مربعاً من بافاريا ، ولكن شارل تيودور استأثر بكل مابقى من تلك الإمارة الناخبة ، وهكذا توحدت بافاريا وبالاتينات ، واتفق على أن تحصل بروسيا على بايرويت وانسباخ بعد موت حاكمهما الأبتر . وادعى كل فريق أنه المنتصر .

هذه الأزمة الثالثة بين فردريك المسن والإمبراطورة المسنة قضت عليها . وكانت لا تتجاوز الثالثة والستين عام ١٧٨٠ ، ولكنها كانت بدينة مصابة بالربو ، أضعف قلبها حربان وستة عشر حملا فضلا عن الهم المقيم . وفى نوفمبر حاصرها مطر غزير وهى راكبة عربة مكشوفة ، فأصابها سعال خبيث ، ولكنها أصرت على أن تقضى الغد تعمل فى مكتبها . وقد قالت مرة « إننى ألوم نفسى على الوقت الذى أنفقه فى النوم » (٥٤) وقضت أيام مرضها الأخيرة جالسة على كرسى إذ استحال عليها تقريبا أن تتنفس وهى راقدة . واستدعى يوزف أخوته وأخواته إلى جوارها ، وقام على رعايتها فى محبة . وطلق الأطباء كل أمل فى شفائها فارتضت أن تتناول الأسرار الأخيرة . وفى ساعاتها

الأخيرة قامت وتعثرت من كرسيها إلى سريرها . وحاول يوزف أن يريحها فقال « إن جلالتك فى سيئ » . فأجابت « نعم ، ولكنه وضع مناسب للموت فيه . » وماتت فى ٢٩ نوفمبر ١٧٨٠ .

٥ — المستبد المستنير : ١٧٨٠ — ٩٠

بعد أن حزن يوزف حزناً صادقاً على أم أدرك الآن مبلغ عمظتها ، شعر بأنه حر فى أن يكون نفسه ، وأن يبدأ بتنفيذ أفكاره المتفتحة فى الإصلاح . كان الحاكم المطلق للنمسا والمجر وبوهيميا والأراضى الواطئة الجنوبية ، وكان أخوه ليوبولد مطيعاً له فى تسكانيا ، وأخته ماري أنطوانيت معينة له فى فرنسا . وأحس احساسا عميقاً بالفرص التى واتته فى قمة حياته وذروة سلطته .

فأى رجل كان يومئذ ؟ لقد بلغ الأربعين ، ومازال فى ربيع الحياة وكان وسيما جدا حين يغطى رأسه الأصلع بباروكة . وقد وهب عقلا يقظاً نشيطاً نشاط شبه محموم ، متمشياً مع جيله ، ولكن هدأه شيئاً إلمامه بالتاريخ وخلق البشر . وكان دائم الإحساس بشبح الوقت ، لذلك لم يخطئ إلا بسبب التسرع والعجلة ، وقلما أخطأ عن سوء قصد . وتروى القصص الكثيرة عن رفاهة حسه بخطوب غيره واستعداده لرفع المظالم التى يمكن رفعها (٥٥) . وقد أباح للشعب الالتقاء به على قدر ماسمحت به واجباته . وكان يعيش عيشة البساطة ويرتدى من الثياب مايرتديه أى جندى ، ويتجنب الظهور فى ثياب الملوك الفاخرة . وكان مبرأ كفردريك من مخاللة الخليلات ، ولم يكن له «أصدقاء إغريق » ، وكان عمله غرامه الذى استغرقه . وكان كفردريك يبذل من الجهد فى عمله أكثر مما يبذل أى مساعد له . وكان قد أعد نفسه إعداداً صادقاً أميناً للقيام بتبعاته . فلم يسافر للمتعة والظهور ، بل للملاحظة والدراسة وفحص صناعات الكثير من الاقطار وفنونها وبيوتها الخيرية ومستشفياتها ومحاكمها ومؤسساتها البحرية والحربية ، ، ونظر بعينيه هو إلى شعوب مملكته وطبقاتها ومشكلاتها . فصحت نيته الآن ، على قدر ما وسع رجلا واحداً ،

على تحقيق أحلام الفلاسفة . « مادمت قد ارتقيت العرش ، ولبست أعظم تاج فى العالم ، فقد جعلت الفلسفة المشرع لإمبراطوريتى »(٥٦) ونظر الفلاسفة فى كل أرجاء أوربا إلى المغامرة الجديدة وكلهم تطلعات صادقة .

وكانت أولى الصعوبات فى [illegible] انتقاء الأعوان الذين يشاركونه حلمه. فأكثر الذين آلوا إليه بالوراثة كانوا من الطبقات العليا التى اختزلت اصلاحاته امتيازاتهم . لقد أيده كاونتز وڤان شفيتن ، وشجعه اثنان من المستشارين الخصوصيين — هما كوالتنبورج وجيلر — واثنان من اساتذة جامعة فيينا هما — مارتينى وزوننفيلس — ؛ ولكن الأعوان الأدنى مرتبة من هؤلاء لم يكونوا سوى بيروقراطيين تجمدوا فى المألوف من العادات ، واستراحوا إلى الموروث من التقاليد ، وقاوموا التغيير تلقائياً . وراح يوزف فى عجلة لاتسمح بالمجاملة يعامل هؤلاء الأعوان معاملة الخدم ، ويربكهم بحشد من الأوامر ، ويطلب إليهم إبلاغه عن أى خطأ جسيم يرتكبه مساعدوهم(٥٧) ، ويغرقهم بالاستبيانات ويطالبهم بجهد لا يفتر كجهده . ووعدهم هم وأراملهم بمعاشات يستحقونها بعد خدمة عشر سنين ، فشكروه ، وأنكروا أساليبه ، وسدروا فى كبريائهم . وأفضت ثقة يوزف بعدالة أهدافه إلى ضيقه بكل نقد أو نقاش . وكتب إلى شوازيل (الذى كان الآن ينعم بالتقاعد) « عش أسعد مما أستطيع إننى لم أكد أعرف السعادة ، وسوف أشيخ قبل أن أكمل الطريق الذى رسمته لنفسى »(٥٨) . ولكن أجله قصر عن أن يدرك سن الشيخوخة .

وقد نبذ كل تفكير فى الديمقراطية ، فقد أحس أن أفراد شعبه غير مستعدين لإصدار الحكم الصائب فى السياسة ، وأنهم باستثناءات قليلة سيعتنقون أى آراء يتسلمونها من سادتهم أو كهنتهم . وحتى الملكية الدستورية بدت له غير مبشرة بخير ؛ فبرلمان كالبرلمان الانجليزى سيكون مجتمعاً مغلقاً من كبار ملاك الأرض والأساقفة الذين يتحدون أى تغيير جذرى . وكان من المسلمات فى رأى يوزف أن الملكية المطلقة دون غيرها هى القادرة على تحطيم جدار العادات وكسر أغلال التعصب وحماية الضعفاء السذج من الأقوياء الماكرين .

ومن ثم تناول كل مشكلة بشخصه ، وأصدر توجيهات نظمت كل مناحى الحياة . ورغبة فى تشجيع الامتثال لأوامره أنشأ نظام جاسوسيه أفسدت عليه حسناته . وكان من مقومات حكمه المطلق أن يجند بالإلزام جيشا دائما كبيرا لا يعتمد على أمراء الأقاليم ، يغذيه بالتجنيد الإلزامى العام ، ويخشنه بالتدريب البروسى . وراوده الأمل فى أن يقوى هذا الجيش من صوته فى المسائل الدولية ، وأن يلزم فردريك حدوده ، وربما أعانه على التهام بافاريا وطرد الترك من البلقان المجاورة (ولاعجب فقد كان فى نفس فيلسوفنا شئ من شهوة التملك) . ثم عين لجنة من الفقهاء لإصلاح القوانين وتنسيقها ، وبعد أن قضت اللجنة ست سنوات من العمل الشاق نشرت قانونا مدنيا جديداً للإجراءات القضائية . فخففت العقوبات ، وألغيت عقوبة الإعدام . (فى انجلترة المعاصرة كانت مائة جريمة لا تزال تعتبر من الجرائم الجسيمة). ولم تعد الشعوذة ولا السحر ولا الارتداد جرائم يعاقب عليها القانون . وحرمت المبارزة ؛ واعتبر قضاء المبارز على غريمه فى مبارزة جريمة قتل . وجعل الزواج عقداً مدنيا ، وأحل الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين ، وقضى بإمكان الحصول على الطلاق من السلطة المدنية . أما القضاة فلا يعينون إلا بعد تدريب خاص وبعد اجتيازهم امتحانات عسيرة ، وألغى الكثير من المحاكم الكنسية . وتقررت مساواة جميع الأشخاص أمام القانون ، وصعق النبلاء حين عرض أحد أفرادهم فى المشهرة وحكم على آخر بكنس الشوارع .

وألغيت القنيه بسلسلة من المراسيم ، ١٧٨١ — ٨٥ . وكفل للجميع حق تغيير المسكن أو المهنة ، وحق التملك ، وحق الزواج بالرضى المتبادل ، وأعد محامون خصوصيون لحماية الفلاحين فى حرياتهم الجديدة . وفقد البارونات حق محاكمة مستأجريهم جنائيا ، ولكن تحاشيا لضعف الإنتاج فى ضياع البارونات ، أجيز للسادة أن يقتضوا أقنانهم السابقين بعض الخدمات المألوفة .

وشجع يوزف الصناعة الرأسمالية لاقتناعه بأن لوائح الطوائف الحرفية معطلة للتطور الاقتصادى ، ولكنه عارض فى الاستكثار من الآلات مخافة (أن تحرم الألوف من أرزاقهم)[٥٩] .وأعفى العمال الصناعيين من التجنيد ،

ولكنهم تذمروا من انقاصه أيام العطلات المقدسة . ثم رفع من مقام التجار ورجال الصناعة والمصارف وخلع عليهم ألقاب الشرف وأسباب التكريم القومى . وألغى المكوس الداخلية أو خففها ، ولكنه أبقى على رسوم الحماية الجركية المرتفعه على الوارادات . ورفع رجال الصناعة الوطنيون الأسعار بعد أن حصلوا على هذا التحصن من المنافسة الأجنبية وانتجوا السلع الرديئة(٦٠). وساء بروسيا وسكسونيا وتركيا فرض هذه التعريفات فأوصدت أبوابها فى وجه حاصلات الأمبراطورية .وفقد الإلب والاودر والدانوب بعض تجارتها . وحاول يوزف أن يزيد حركة التجارة البرية مع ثغور الادرياتيكى بشق طريق جديد هو طريق يوزفينا الذى اخترق جبال الالب الكرنيوليه ، وأسس شركة هند شرقية وراوده الأمل فى تطوير التجارة مع الشرق وافريقيا وأمريكا بطريق ثغرى فيومى وتريسته الحرين . وفى ١٧٨٤ أبرم معاهدة تجارية مع تركيا ، ولكن بعد ثلاث سنوات أغلقت حربة مع تركيا منافذ الدانوب إلى البحر الأسود وأفلس تجار الدانوب الواحد تلو الآخر .

وتشجيعاً لتداول رأس المال ألغى من القوانين التحريم القديم للفائدة ، وأحل القروض بفائدة ٥٪ ورقى مصرفيا يهودياً إلى رتبة البارونية . وقدم القروض الحكوميةوالاحتكارات الموقوتة إلى المشروعات الجديدة . واقتبس فكرة الفزيوقراطيين فى فرض ضريبة واحدة تقع على الأرض فقط ، وتتفاوت حسب الموقع والخصوبة ، ويؤديها ملاك الأرض كبارهم وصغارهم واقتضى المشروع مسح جميع أراضى الأمبراطورية ، فتم هذا بنفقة بلغت ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جولدن دفعها الملاك . وقضى القانون الجديد بأن يحتفظ الفلاح بسبعين فى المائة من محصوله أو دخله ، ويعطى للدولة اثنى عشر فى المائة ، ويقسم الباقى بين الفروض الاقطاعية والعشور الكنيسية ، وكان قبل ذلك يدفع للدولة أربعا وثلاثين فى المائة وللمالك تسعا وعشرين فى المائة ، وللكنسية عشرة فى المائة ، ولا يحتفظ لنفسه إلا بسبعة وعشرين فى المائة(٦١). واحتج النبلاء بأن هذا التقسيم الجديد سيجلب عليهم الخراب ، وفى المجر قاموا بثورة .

وزاد عدد سكان النمسا والمجر وبوهيميا من ١٨،٧٠٠،٠٠٠ فى ١٧٨٠ إلى ٢١،٠٠٠،٠٠٠ فى ١٧٩٠[٦٢] . وقرر كاتب معاصر أن الأكواخ المبنية بالآجر أخذت تحل محل الزرائب الريفية العتيقة ، وأن الآجر يأخذ مكان الخشب فى منازل المدن[٦٣]. وظل الفقر جاثما على الصدور ، ولكن مرسوما امبراطوريا صدر فى ١٧٨١ أنشأ « مؤسسات للفقراء ، يستطيع أى شخص عاجز عن التكسب أن يطالب بالمعونة منها دون أن يريق ماء الوجه .

ومع أن يوزف كان من الناحية الرسمية « نائب المسيح » والمدافع عن الكنيسة المسيحية و « حامى فلسطين . . . والايمان الكاثوليكى » ، فقد شرع بمجرد تقلده زمام السلطة المطلقة فى تقليص دور الكنيسة فى أراضيه «الموروثة» — أى النمسا والمجر وبوهيميا . ففى ١٢ أكتوبر ١٧٨١ أصدر مرسوم التسامح ، وبمقتضاه تقررت حرية البروتستنت والروم الارثوذكس فى أن يكون لهم معابدهم ومدارسهم واجتماعاتهم ، وفى تملك الأملاك وامتهان المهن الراقية ، وشغل المناصب السياسية والحربية . وحث الأمبراطور الشعب على تجنب كل دواعى النزاع بسبب الخلافات المذهبية . . . . ومعاملة من ينتمون لطائفة دينية أخرى بالود واللطف[٦٤] . وفى توجيه أصدره يوزف إلى فان زفيتن كشف فى صراحة عن مصادر إلهامه : «إن التعصب قضى عليه فى امبراطوريتى التى قد يسعدها أنها لم تضح بأشخاص مثل كالاس وسرفن . . . أن التسامح هو ثمرة انتشار التنوير (Les lumieres) الذى شاع الآن فى جميع أرجاء أوربا . وهو قائم على الفلسفة ، وعلى عظماء الرجال الذين أسسوها . . . إن الفلسفة دون غيرها هى التى يجب أن تكون رائد الحكومات»[٦٥] .

على أنه كان لهذا التسامح حدود كما كان فى مقال فولتير « عن التسامح » (١٧٦٣) ، فقد نبه بعض المستشارين يوزف إلى أن إزالة جميع الضوابط والقيود ستسفر عن نمو العقائد الجامحة نموا مفرطا ، لا بل الإلحاد السافر ، وأن هذا سيفضى إلى المذاهب المتناحرة والفوضى الاجتماعية وامتهان كل سلطة . فلما نما إليه أن بضع مئات من البوهيميين جاهروا بالربوبية (١٧٨٣) أمر بأن أى رجل يجهر بعقيدته هذه « يجب » دون مزيد من التحقيق أن

يجلد أربعا وعشرين جلدة على ردفيه بسوط من الجلد ثم يصرف » . وتكرر هذه العملية كلما تجدد الجهر بهذه العقيدة[٦٦] . ورحل بعض الغلاة من الزبوبيين إلى المستعمرات العسكرية . وسترى فى مكان لاحق إلى أى حد بلغت جهود يوزف فى تحرير اليهود .

وكان من نتائج مرسوم التسامح الزيادة السريعة فى عدد من جهووا بالبروتستنتية فى المملكة ، من ٧٤,٠٠٠ فى ١٧٨١ إلى ١٥٧,٠٠٠ فى ١٧٨٦ . ونمت حرية الفكر ، ولكنها ظلت محصورة فى الدوائر الخاصة . أما الماسون الأحرار الذين رسخت أقدامهم فى النمسا فقد نظموا فى فيينا (١٧٨١) محفلا انضم اليه الكثير من المواطنين البارزين ، وقد حماه الأمبراطور نفسه (رغم ربوبيته المفهومه ضمنا) . قال أحد أعضائه «كان هدف الجماعة إعمال حرية الضمير والفكر التى احتضنتها الحكومة هذا الاحتضان الموفق ، ومكافحة الخرافة والتعصب فى . . . طوائف الرهبان التى هى أهم سند لهذه الشرور[٦٧]. وتكاثرت المحافل الماسونية حتى بلغت ثمانية فى فيينا وحدها ، وأصبح من مجاراة العصر أن ينتمى شخص إليها ، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية ، وألف موتسارت الموسيقى للحفلات الماسونية . وبمضى الوقت اشتبه يوزف فى اشتغال هذه المحافل بالتآمر السياسى . فنى ١٧٨٥ أمر بأن تندمج محافل فيينا فى محفلين فقط ، ولم يسمح بأكثر من محفل واحد فى عاصمة اقليمية .

وعين يوزف لجنة لتراجع قوانين الرقابة على المطبوعات . وفى ١٧٨٢ نشر النتائج التى انتهت اليها فى مدونة جديدة . فحظرت الكتب التى دأبت على مهاجمة المسيحية أو المحتوية على « عبارات لا أخلاقية وبذاءات قذرة » ، ولكن حظرت أيضاً الكتب « المحتوية على أخبار المعجزات والأشباح والرؤى الخرافية وما إلى ذلك مما قد يقضى بعامة الناس إلى الايمان بالخزعبلات ويثير الاشمئزاز فى نفوس الدارسين »[٦٨] . وسمح بالمطبوعات المحتوية على انتقادات أو هجائيات ساخرة حتى لو هاجمت الأمبراطور ، شريطة أن تحمل اسم المؤلف الحقيقى ، وأن تخضع لقانون القذف . وأبيح للدارسين أن يقرءوا فى المكتبات الكتب المدرجة فى فهرس الكتب التى حرمتها الكنيسة

الرومانية . وتعفى الكتب العلمية من الرقابة كلية ، وكذلك الكتب الثقافية ، شريطة أن تؤكد طابعها الثقافى سلطة معترف بها . وأبيح استيراد الكتب المؤلفة بلغات أجنبية وبيعها دون معوق . ووسعت الحرية الأكاديمية . فلما اتهم أربعة عشر طالباً بجامعة انزبروك معلمهم أمام السلطات لأنه زعم أن العالم أقدم من ستة آلاف سنة ، حسم يوزف الأمر بهذه العبارة السريعة الموجزة « يجب أن يطرد الطلاب الأربعة عشر ، لأن أدمغة فى فقر أدمغتهم لن تفيد من التعليم[٦٩] » . وأثارت النظم الجديدة الاحتجاجات الغاضبة من الكهنوت ، فرد يوزف باعطاء فيينا حرية النشر الكاملة (١٧٨٧) . وحتى قبل هذا التحرير أفاد ناشرو فيينا من التراخى فى تنفيذ قانون ١٧٨٢ : فاغرقت النشرات والكتب والمجلات النمسا بالفحش أو ما يقرب من الفحش ، وبكشف أسرار الراهبات ، وبالهجمات على الكنيسة الكاثوليكية أو على المسيحية ذاتها .

وأحس يوزف أن واجبه أيضا أن ينظم الشؤن الكنسية . ففى ٢٩ نوفمبر ١٧٨١ أصدر مرسوماً أغلق عددا كبيراً من أديرة الرهبان والراهبات التى «لا تدير مدارس ولا تعنى بمرضى ولا تشتغل بدراسات» . فأغلق ٤١٣ بيتا دينيا من ٢١٦٣ بيتاً دينيا فى الأقاليم الألمانية (النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا) . وأفرج عن ٢٧,٠٠٠ من شاغليها البالغ عددهم ٦٥,٠٠٠ وقررت لهم معاشات ، وأجرى مثل هذا الخفض فى بوهيميا والمجر . قال يوزف « أن المملكة أشد فقرا وتخلفاً من أن تسمح لنفسها بترف الانفاق على العاطلين[٧٠] » . أما ثروة هذه المؤسسات المنحلة — التى بلغت نحو ستين مليون جولدن — فقد أعلن أنهـــا ملك للشعب ، وصادرتها الدولة .

وأعلن أن الأديره الباقية لايجوز لها أن ترث أملاكا . أما طوائف الرهبان المتسولين فأمرت بأن تكف عن التسول ومنعت من قبول رهبان جدد . وألغيت جماعات الاخوان الدينية . وتقرر أن تسجل جميع الممتلكات الكنسية لدى الحكومة ، التى حرمت بيعها أو تبادلها .

ثم واصل يوزف جهوده ليخضع الأساقفه الكاثوليك لاشراف الدولة. فاشترط على الأساقفة الجدد أن يقسموا يمين الطاعة للسلطات العلمانية . وتقرر ألا تجاز أى لائحة أو موسوم بابوى فى النمسا إلا بإذن الحكومة . أما الأوامر البابوية الصادرة فى ١٣٦٢ و ١٧١٣ ، التى دانت المهرطقين أو الجانسنيين فتهمل . على أن يوزف نظم أبرشيات جديدة ، وبنى الكنائس الجديدة ، وقد الرواتب لإعانة طلاب القسوسية ، وفتح مدارس لاهوتية جديدة ووضع لها برنامجا يؤكد على العلوم والمعارف العلمانية كاللاهوت والطقوس سواء بسواء .

وأثارت هذه القوانين الاكليروس الكاثوليكى فى كل أرجاء أوربا . ورجا أحبار كثيرون يوزف أن يلغى مراسيمه المعادية للاكليروس . فلما لم يلق اليهم بالا هددوه بالجحيم ، فابتسم ومضى فى طريقه . وأخيراً اتخذ البابا بيوس السادس بشخصه ، وكان رجلا وسيما مثقفا رقيقاً مغروراً ، خطوة غير مألوفة ، إذ غادر إيطاليا (٢٧ فبراير ١٧٨٢) وعبر الابنين والألب فى الشتاء ووصل إلى فيينا (٢٢ مارس) وقد عقد النية على الاتجاه برجاء شخصى للإمبراطور ، وكانت هذه أول مرة منذ ١٤١٤ تطأ فيها أقدام أحد البابوات أرض ألمانيا . أما يوزف فقد خرج من المدينة مع رفيقه فى الشكوكية كاونتز ليرافقا الحبر الأعظم إلى الأجنحة التى كانت تشغلها ماريا تريزا . وخلال إقامة البابا كانت الجموع تحتشد كل يوم تقريباً أمام القصر الملكى التماساً لبركته . وقد وصفهم بعد ذلك يوزف بهذه العبارات :

غصت جميع ممرات القصر وسلالمه بالناس ، واستحال على الإنسان رغم مضاعفة عدد الحراس أن يحمى نفسه من كل الأشياء التى أتو بها اليه ليباركها : أوشحة كتفيه ، ومسبحات ، وصور . وكان يتجمع لنيل البركة التى يمنحها من الشرفة سبع مرات فى اليوم حشد من الناس لا يمكن أن يكون المرء فكرة عن ضخامته إلا إذا رآه . وليس من المبالغة القول أنه تجمع مرة ستون ألفا على الأقل . وكان المنظر غاية

فى الجمال ، فقد أقبل الفلاحون وزوجاتهم وأبناؤهم من مناطق تبعد عشرين فرسخاً . وبالأمس ديست امرأة تحت نافذتى مباشرة [٧١] .

وكان تأثر يوزف بمناشدات البابا البليغة أقل من تأثره بهذا الدليل على سلطان الدين على العقل البشرى ، ومع ذلك واصل إغلاق الأديرة حتى « حينما كان بيوس فى ضيافته [٧٢] . » وحذره البابا تحذير المتنبيء . أنك إن مضيت فى مشروعاتك المدمرة للايمان وقوانين الكنيسة فإن يد الرب ستكون ثقيلة الوطاة عليك ، ستعطلك فى مسيرتك ، وستحفر من تحتك هوة تبتلعك وأنت بعد فى عنفوانك ، وستضع حدا للملك الذى كان فى وسعك أن تجعله ملكا عظيما مجيداً [٧٣] . وبعد شهر من أسباب التكريم والاخفاق عاد بيوس حزينا إلى روما . وعقب ذلك عين الأمبراطور رئيسا لأساقفة ميلان رجلا يدعى فسكونتى غير مقبول من الإدارة البابوية ، ورفض البابا أن يصدق على التعيين ، وأشرفت الكنيسة والأمبراطورية على القطيعة . ولم يكن يوزف مستعدا لمثل هذه الخطوة العنيفة ، فهرول إلى روما (ديسمبر ١٧٨٢) وزار بيوس وأعلن ولاءه للكنيسة وكسب موافقة البابا على تعيين الدولة للأساقفة — حتى فى لمبارديه . وافترق الملك والحبر الأعظم على ود . ونثر يوزف ثلاثين ألف سكودى على جماهير روما ، وهتف له القوم بصيحات الشكر « يحيى إمبراطورنا » .

فلما عاد إلى نيينا واصل حركته الاصلاحية الدينية القائمة على فرد واحد . وبعد أن تحدى البابا كما تحداه لوثر (الذى شبهه به الكثير من البروتستنت وهم معترفون بفضله) ، وبعد أن هاجم الأذيرة كما هاجمها هنرى الثامن ، شرع مثل كلفن فى تطهير الكنائس ، فأمر بازالة لوحات النذور ومعظم التماثيل ، وبكف المصلين عن لمس الصور وتقبيل الرفات وتوزيع التمائم . . . ونظم طول الخدمات الدينية وعددها ، والملابس التى تغطى تماثيل العذراء ، وطابع الموسيقى الكنسية ، وتقرر أن تتلى الابتهالات مستقبلا بالألمانية لا باللاتينية ، وأن تحصل رحلات الحج

والمواكب الدينية على موافقة السلطات المدنية ، وانتهى الأمر بعدم التصريح إلا بموكب واحد — لعيد القربان المقدس ، وأحيط الشعب رسمياً بأنه لا داعي للركوع فى الشوارع أمام أى موكب ديني حتى ولو حمل القربان المقدس ، ويكفى فى هذه المناسبات خلع القبعات . وأخبر أساتذة الجامعات بأنه لاحاجة تدعوهم بعد اليوم إلى أن يقسموا بأنهم يؤمنون بعقيدة حمل العذراء غير المدنس .

ولم يستطع أحد أن يتشكك فى إنسانية أهداف يوزف . فالثروة التى أخذها من الأديرة المستغنى عنها خصصها لإعانة المدارس والمستشفيات والمبرات ، ولصرف معاشات الرهبان والراهبات الذين أخرجوا من أديرتهم ، ولصرف اعانات اضافية لكهنة الأبرشيات الفقراء . وأصدر الأمبراطور سلسلة طويلة من الأوامر للنهوض بالتعليم ، فكان على كل الجماعات المحتوية على مائة طفل بلغوا سن الالتحاق بالمدارس أن تمول مدارس أولية لهم . وتقرر أن يكون التعليم الأولى إلزاميا وعاما . ووفرت الأديرة أو الدولة مدارس للبنات وأعينت الجامعات فى فيينا وبراغ ولمبرج وبست ولوفان ، أما جامعات انزبروك وبرون وجراتز وفرايبورج فحولت إلى معاهد Lycées لتعليم الطب أو القانون أو الفنون العملية . وأنشئت مداس للطب من بينها « اليوز فينوم » للطب والجراحة العسكريين . وأخذت فيينا تشق طريقها لتصبح من أرقى المراكز الطبية فى العالم .

٦ — الإمبراطور والإمبراطورية

تضاعفت المصاعب فى وجه مشروعات يوزف الثورية بسبب تنوع ملكه . لقد كان يعرف النمسا جيد المعرفة ، ولكنه لم يدرك رغم أسفاره الشاقة مبلغ تغلغل السادة المجريين فى حياة أمتهم الاقتصادية والسياسية ، ولا أدرك كيف تستطيع وطنية الجماهير المجرية أن تتغلب على المصالح الطبقية . ولقد رفض عند تقلده الملك أن يتبع تقليدا جرى عليه السلف فيذهب إلى برسبورج ليتوج ملكا على المجر ، لأنه سيطالب فى ذلك الحفل

بأن يقسم يمين الولاء للدستور المجرى الذى يكرس أنظمة المجتمع الاقطاعية . ثم أغضب كل مجرى حين أمر بنقل تاج القديس اسطفانوس حامى المجر من بودا إلى فيينا (١٧٨٤) . وكان قد أحل الألمانية لا المجرية محل اللاتينية لغة للقانون والتعليم فى المجر . وأغضب رجال المال والأعمال المجريين حين عطلت رسومه الجمركية تصدير محاصيلهم إلى النمسا . ثم أنه صدم الكنيسة الكاثوليكية بتدخله فى طقوسها التقليدية وبسماحه للجماعات البروتستنتية المجرية بالتكاثر من ٢٧٢ إلى ٧٥٨ فى عام واحد (١٧٨٣ — ٨٤) . ووقعت المجر فى فوضى اصطرعت فيها الطبقات والقوميات واللغات والمذاهب .

وفى ١٧٨٤ قام فلاحو فلاشيا (بين الدانوب والألب الترنسلفانية) بثورة عنيفة ضد سادتهم الاقطاعيين ، وأشعلوا النار فى ١٨٢ قصرا ريفيا للاشراف وستين قرية ، وقتلوا ٤٠٠٠ مجرى ، وأعلنوا أنهم يفعلون هذا كله برضى الامبراطور . وعطف يوزف على كرههم للظلم الطويل[٧٥]، ولكنه كان يحاول إنهاء الإقطاع سلميا بالتشريع ، وما كان فى وسعه أن يسمح للفلاحين بتعجل الأمور بالتحريق والتقتيل . وعليه فقد أرسل جنوده لقمع الثورة ، وأعدم مائة وخمسون من زعماء الثورة ، وهدأت الثورة . ولامه النبلاء على الثورة ، ولامه الفلاحون على فشلها . وتهيأ المسرح لثورة قومية على الامبراطور فى ١٧٨٧ .

وفى نوفمبر ١٧٨٠ ذهب يوزف بشخصه ليدرس مشكلات الأراضى الواطئة النمساوية . فزار تامور ومونز وكورتراى وابيبر ودنكرك وأوستند وبروج وغنت وأودنارد وانتوب ومالين ولوفان وبروكسل . وقام برحلة جانبية إلى الأراضى الواطئة المتحدة . . إلى روتردام ، ولاهاى ولايدن وهارلم وأمستردام وأوترخت وسبا (حيث تغدى مع الفيلسوف رينال) . وقد راعه التناقض بين رخاء هولنده والركود النسبى فى الاقتصاد البلجيكى . وعزا هذا إلى نشاط رجال الأعمال الهولنديين وفرصهم ، وإلى إقفال نهر الشلت فى وجه تجارة المحيط نتيجة لمعاهدة مونستر (١٦٤٨) فعاد إلى

بروكسل وعقد عدة اجتماعات لمحاولة تحسين التجاوة والإدارة والمالية والقضاء . وفى يناير ١٧٨١ عين أخته ماريا كرستينا وزوجها ألبرت دوق ساكستشن حاكمين على الأراضى الواطئة النمساوية .

وأدرك الآن لأول مرة مبلغ التضارب بين اصلاحاته والامتيازات الموروثة التى تمتعت بها الطبقات العليا فى هذا البلد التاريخى . فكان إقليم من أقاليمها مثلا ، وهو برابانت ، يملك مرسوما للحريات يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ويعرف بـ « المدخل البهيج » . وكان يتوقع من من كل حاكم يدخل بروكسل أن يقسم يمين الولاء لهذا المرسوم ، وجاء فى إحدى مواده إنه لو انتهك الحاكم أى مادة منه كان لرعاياه الفلمنكيين الحق فى أن يمتنعوا عن أداء أى خدمة له وأن يرفضوا طاعته . وطالبت مادة أخرى الملك بأن يحافظ على الكنيسة الكاثوليكية ، فى جميع امتيازاتها وممتلكاتها وسلطاتها الراهنة ، وان يطبق جميع قرارات مجمع ترنت . وأشباه هذا الدستور كان يتعلق بها الأشراف والاكليروس الأقاليم الأخرى . وعقد يوزف النيـــة على ألا يسمح لهذه التقاليد بأن تتحدى إصلاحاته . وبعد أن قام بزيارة قصيرة لباريس (يوليو ١٧٨١) قفل إلى فيينا .

وفى نوفمبر بدأ يطبق مرسوم التسامح الدينى على هذه الأقاليم . فجعل الأديرة البلجيكية مستقلة عن البابا ، وأغلق عددا منها وصادر إيراداتها . واحتج أساقفة بروكسل وانتورب ومالين ، ولكن يوزف واصل مسيرته ففرض على « بلجيكا » لوائحه الخاصة بلوحات النذور والمواكب والطقوس الدينية . ثم سحب من الأساقفة حقهم فى الاشراف على المدارس قائلا «إن أبناء لاوى (أى الكهنة) ينبغيأن يكفوا عن احتكار عقول البشر»[٧٦]. ثم ألغى الامتيازات الخاصة التى طالما تمتعت بها جامعة لوفان . وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية جديدة محررة من السيطرة الأسقفية ، وأمر بأن يدرس فيها كل طالب بلجيكى للقسوسية خمس سنين [٧٧] . وإذ كان تواقا إلى تحسين حكومة الأقاليم ، فقد استبدل بالمجالس الاقليمية والمجالس الخاصة

الارستقراطية القديمة (يناير ١٧٨٧) مجلسا واحدا للادارة العامة يرأسه مفوض يعينه الامبراطور ، ثم أحل هيئة قضائية موحدة علمانية محل المحاكم القائمة إذ ذاك ، من اقطاعية وإقليمية وكنسية . وأعلن أن جميع الأشخاص أيا كانت طبقتهم سواسية أمام القانون .

وانضم الاشراف وكثير من البورجوازيين إلى الأكليروس فى مقاومة هذه القوانين . ولم يلطف من عدائهم تلك الجهود العقيمة التى بذلها يوزف لإعادة فتح الشلت أمام تجارة المحيط . فقد رفضت هولندة الأذن بها ، وشاركتها الرفض فرنسا رغم توسلات مارى أنطوانيت . وفى يناير ١٧٨٧ أخطر مجلس برابانت يوزف بأن لا سبيل إلى إحداث تغييرات فى دستور الإقليم القائم إلا بموافقة المجلس ، ومعنى ذلك فى الواقع أنهم أخبروه أن حكمه للأراضى الواطئة النمساوية يجب أن يكون ملكية دستورية لا مطلقة . وتجاهل هو الإعلان ، وأمر بتنفيذ مراسيمه . ورفض المجلس الموافقة على الضرائب ما لم تلق اعتراضاتهم الاهتمام . ثم تفجر الهياج فى عنف اتسع نطاقه بحيث اضطرت ماريا كرستينا إلى الوعد بإلغـــاء الاصلاحات البغيضة (٣١ مايو ١٧٨٧) .

أين كان الامبراطور خلال هذا الجو الهائج المائج ؟

كان يغازل كاترين الثانية دبلوماسيا ، مؤمنا بأن التحالف مع روسيا سيعزل بروسيا ويشد أزر النمسا فى حربها مع الترك . وكان يوزف حتى قبل موت أمه قد زار القيصرة فى موجيليف (٧ يونيو ١٧٨٠) ومن هناك مضى إلى موسكو وسانت بطرسبرج . وفى مايو ١٧٨١ وقعت النمسا وروسيا تحالفا تعهد فيه الطرفان بأن يخف الواحد لنجدة الآخر إذا هوجم .

فلما خيل إليه أن هذا الاتفاق سيشل حركة الملك السبعينى فردريك ، عاد من جديد (١٧٨٤) يعرض الأراضى الواطنة النمساوية على الأمير الناخب شارل تيودور بديلا عن بافاريا . وكان العرض مغريا للأمير ، ولكن فردريك استنفر كل طاقاته ليفسد هذه الخطة . فحرك ثورة على

الامبراطور فى المجر وبلجيكا ، وحرض دوق تزفايبروكن — الوريث لعرش بافاريا — على مقاومة هذا البدل ، وبعث عملاءه ليقنعوا الأمراء الألمان بأن استقلالهم يتهدده التوسع النمساوى . وأفلح فى أن ينظم (٢٣ يوليو ١٧٨٥) بروسيا وسكوسونيا وهانوفر وبرونزيك وماينز وهسى كاسل وبادن وساكسى فيمار وجوتا ومكلنبورج وانزباخ وأنهالت فى حلف أمراء Furstenbund تعهدوا فيه بمقاومة أى توسع للنمسا على حساب أى دولة ألمانية . واستنجد يوزف ثانية بشقيقته فى فرساى ، وألقت مارى انطوانيت تعويذتها على لويس السادس عشر لتكسب تأييده لشقيقها ، ولكن فرجين وزير خارجية فرنسا حذر لويس من الموافقة ، واعترف يوزف بهزيمته أمام الثعلب العجوز الذى كان يوما ما معبود شبابه . ولما تلقى فى أغسطس ١٧٨٦ نبأ موت فردريك أعرب عن أسف مضاعف : « بوصفى جندياً يؤسفنى رحيل رجل عظيم كان صانع جيل فى فنون الحرب ، وبصفتى مواطناً يؤسفنى أن موته تأخر ثلاثين عاماً »[٧٨] .

أصبح الآن أمل الأمبراطور الوحيد فى توسيع ملكه معقوداً على الإنضمام إلى كاترين فى حملة لتقسيم أملاك تركيا الأوروبية فيما بينهما . فلما خرجت قيصرة الروسيا فى يناير ١٧٨٧ لتزور وترهب فتوحها الجديدة فى الجنوب دعت يوزف ليلتقى بها فى الطريق ويرافقها إلى القرم . ولكنه لم يوافق لتوه على اقتراحها بشن حرب صليبية موحدة ، وقال « إنما أريد سيليزنيا ، والحرب مع تركيا لن تنيلنيها »[٧٩] . ومع ذلك فحين أعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٥ أغسطس ١٧٨٧) وجد يوزف نفسه مكرها على خوضها ، فقد ألزمه تحالفه مع كاترين أن يعينها فى حرب « دفاعية » . يضاف إلى هذا أن الفرصة أتيحت الآن للنمسا بسبب اشتباك تركيا فى الحرب اشتباكا حرجاً لاسترداد الصرب والبوسنة ، وربما أيضاً للحصول على ثغر على البحر الأسود . وعليه ففى فبراير ١٧٨٨ أرسل جنوده إلى الحرب وأمرهم بأن يستولوا على بلغراد .

ولكن السويديين اغتنموا هذه الفرصة ليرسلوا قوة تهاجم سانت

بطرسبورج . واستدعت كاترين الجيش من الجنوب ليدافع عن عاصمتها . فلما خف على الترك ضغط الروس ركزوا قوتهم على النمساويين. وحين ذهب يوزف ليقود جيشه رآه وقد أضعفته اللامبالاة وفرار الجند ومرضهم، فأمر بالتقهقر وعاد إلى فيينا يملؤه اليأس ويجلله العار . وسلم القيادة إلى لاودن ، وهو من أبطال حرب السنين السبع وأنقذ المارشال العجوز شرف الجيش النمساوى باستيلاءه على بلغراد (١٧٨٩) . ولما فشل هجوم السويد على روسيا عاد جنود كاترين يتدفقون على الجنوب وتباروا مع الأتراك فى مذابح رهيبة تركت الأحياء منهم أكثر قليلا من أعدائهم . وكان يوزف مغتبطاً بأمل النصر العسكرى الذى طال ارتقابه ، وإذا ببروسيا وانجلترة والسويد وهولندة تتدخل لمساعدة الترك خوفاً من توسع الروس . ووجد يوزف فجأة أن جميع أوربا البروتستنتية تقريباً قد اتحدت وأخذت تمتشق الحسام ضده . وعاد ثانية يستنجد بفرنسا ، ولكن فرنسا كانت فى ١٧٨٩ مشغولة بالثورة . ووقعت بروسيا التى كان يملك عليها فردريك وليم الثانى حلفاً مع تركيا (يناير ١٧٩٠) وأرسلت العملاء لإذكاء الثورة على الامبراطور فى المجر والأراضى الواطئة النمساوية .

ورحبت المجر بهذه الدسائس لأنها كانت فى ثورة سافرة على مراسيم يوزف فى التجنيد الإجبارى والضرائب وتغيير اللغة والإصلاح الدينى . وفى ١٧٨٦ دعا إمريش مالونجى المجريين إلى انتخاب ملك خاص بهم . وفى ١٧٨٨ دبر رميجيوس فرانيو مؤامرة لجعل فردريك وليم ملكا على المجر ، وأفشى الكونتان استرهاتسى وكارولىى سر المؤامرة للأمبراطور فحكم على فرانيو بالسجن ستين عاماً . وفى ١٧٨٩ وجه مجلس الطبقات المجرى إلى بروسيا نداء لتحرير المجر من سلطان النمسا . ولما بلغ نبأ الثورة الفرنسية للمجر دوت صيحات المطالبة بالاستقلال فى أرجاء البلاد . أما يوزف الذى شعر بالموت يسرى فى عروقه فلم يعد له من القوة ما يمكنه من الثبات على موقفه. وحثه أخوه ليوبولد على الاستسلام . وفى يناير ١٧٩٠ أعلن ما يأتى :

« لقد قررنا أن نرد إدارة المملكة — أى المجر — إلى وضعها فى ١٧٨٠

لقد أرسينا [الاصلاحات] بدافع الغيرة على الصالح العام مؤمنين أنكم بعد التجربة ستجدونها مبعث سرور لكم ، بيد أننا الآن أقنعنا أنفسنا بأنكم تؤثرون النظام القديم . . . ولكننا نريد أن يظل قانون التسامح نافذا . . . وكذلك قانون الاقنان ومعاملتهم وعلاقتهم بسادتهم » (٨٠) .

وفى فبراير رد تاج القديس اسطفانوس إلى بودا وكان يلقى الترحب والابتهاج من الجماهير فى كل خطوة على الطريق . وهدأت الثورة .

أما الثورة فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد انطلقت بكل قوتها لأنها شعرت هناك بحرارة الحركة الثورية فى فرنسا المجاورة . وأبى يوزف المصادقة على الوعد الذى قطعته شقيقته لمجلس برابانت بإلغاء الإصلاحات التى كرهوها. فأصدر الأمر بتنفيذها وأمر جنوده باطلاق النار على أى حشود تقاومها ، ففعلوا وقتل ستة من القائمين بالشغب فى بروكسل (٢٢ يناير ١٧٨٨) وعدد غير معروف فى أنتورب ولوفان . ودعا محام من بروكسل يسمى هنرى فان دن نوت أفراد الشعب إلى التسلح والتطوع فى جيش استقلال . وأيد الأكليروس النداء تأييداً إيجابيا ، وأضيف إليه حافز لم يكن فى الحسبان هو نبأ سقوط الباستيل ، وسرعان ما احتشد فى الميدان عشرة آلاف من الوطنيين وعلى رأسهم قادة أكفاء . وفى ٢٤ أكتوبر أذاع إعلان« للشعب البرابانتى » خلع يوزف الثانى من منصب الحاكم عليهم . وفى ٢٦ أكتوبر هزمت قوة من الوطنيين الجنود النمسويين . واحتل الثوار المدينة تلو المدينة . وفى ١١ يناير ١٧٩٠ أذاعت الأقاليم السبعة قرار استقلالها ، وأعلنت قيام جمهورية الولايات المتحدة البلجيكية . واتخذت اسمها هذا من القبائل البلجيكية التى دوخت قيصر قبل ثمانية عشر قرنا . وأسعد انجلترة وهولندة وبروسيا أن تعترف بالحكومة الجديدة . واستنجد يوزف بفرنسا ، ولكن فرنسا ذاتها كانت مشغولة بخلع ملكها . وبدا أن كل العالم القديم الذى عرفه يوزف يتمزق وينهار . ثم إن الموت كان يدعوه إليه .

٧ — الموت الأسود

كانت مرارة تلك الأشهر الأخيرة كاملة . فقد كانت المجر وبلجيكا تضطرمان بالثورة ، والأتراك يتقدمون ، وجيشه متمرداً ، وشعبه من النمسويين الذين أحبوه يوما ما انقلبوا عليه منتهكاً لحرمة تقاليدهم ومعتقداتهم المقدسة . وندد به القساوسة ملحداً ، وكرهه النبلاء لأنه حرر أقنانهم،وتصايح الفلاحون مطالبين بمزيد من الأرض ، وكان فقراء المدن يتضورون جوعاً، ولعنت جميع الطبقات الضرائب والأسعار المرتفعة التى سببتها الحرب . وفى ٣٠ يناير ١٧٩٠ ألغى يوزف جميع الاصلاحات التى أمر بها منذ وفاة ماريا تريزا بعد أن ألقى السلاح مستسلما ، ولم يبق منها إلا على إلغاء القنية .

ترى لم فشل ؟ لقدقبل بملء الإيمان وبصادق الثقة نظرية جماعة الفلاسفة القائلة بأن الملك الذى يتوافر له التعليم الجيد والنية الحسنة هو خير أداة للتنوير والإصلاح . وقد أوتى التعليم الجيد ، أما النية الحسنة فقد شوهها حبه للسلطة ، وأخيرا غلبت لهفته على أن يكون فاتحاً حماسته لإجلاس الفلسفة على العرش . كان يفتقر إلى قدرة الفيلسوف على الشك،وكان من المسلمات لديه صواب وسائله كصواب غاياته . وقد حاول إصلاح الكثير جداً من الشرور فى وقت واحد ، وفى عجلة كبيرة، ولم يستطع الشعب أن يستوعب تعدد قراراته الموبك . ولقد كان يأمر بأسرع مما يستطيع أن يقنع ، وحاول أن يحقق فى عشر سنين مايحتاج تحقيقه إلى قرن من للتعليم والتغيير الاقتصادى . والشعب أساساً هو الذى خذله . فقد تعمقت جذوره وترسخت فى امتيازاته وأهوائه ، فى تقاليده وكنائسه ، إلى حد منعه من أن يعطيه التفهم والتأييد اللذين أصبح حكمه المطلق بدونهما عاجزا لاحول له فى مثل هذه الإصلاحات العسيرة . وآثر أفراده كنائسهم وقساوستهم وعشورهم على ضرائبه وجواسيسه وحروبه . ولم يستطيعوا وضع ثقتهم فى رجل يهزأ بأساطيرهم الحبيبة ، ويضايق أساقفتهم ، ويذل باباهم .

وطوال هذه السنوات المرهقة بعد ١٧٦٥ كان بدنه متمردا على إرادته،

فلم تقو معدته على هضم سرعة عدوه ، وقد حذرته مرارا ودون جدوى بحاجته إلى الراحة . وأنذره الأمير دلين بأنه يقتل نفسه، وكان عليما بهذا ، ولكنه قال « وما الذى أستطيعه ؟ أننى أقتل نفسى لأننى لا أستطيع أن أستنفر الآخرين ليعملوا »[٨١]. وكانت رئتاه مريضتين ، وصوته ضعيفاً مكتوماً ، وكان يشكو الدوالى وتدميع عينيه ، والحمرة ، والبواسير . . وقد عرض نفسه لكل الأجواء فى حربه مع الترك ، وأصابته حمى الربيع كما أصابت الألوف فى جيشه . وكان لا يقوى على التنفس أحياناً ؛ « أن قلبى يخفق لأقل حركة »[٨٢] وفى ربيع ١٧٨٩ بدأ يتقيأ دماً — تقريبا ثلاث أوقيات فى الدفعة كما كتب لأخيه ليوبولد . وفى يونيو أصيب بآلام عنيفة فى كليتيه . « إننى أتبع أشد نظم التغذية صرامة فلا آكل لحما ولاخضراً ولا مستحضرات ألبان، وغذائى الحساء والأرز»[٨٣] ثم طلع له خراج شرجى وكان لا بد من شقه هو وبواسيره بمبضع الجراح . وأصيب بالاستسقاء . فدعا ليوبولد ليحضر ويتسلم شئون الحكم . وقال : لست آسف على التخلى عن العرش . كل مايحزننى أن يكون عدد الناس السعداء قلة قليلة كهذه »[٨٤] . وكتب إلى الأمير دلين « لقد قتلنى وطنك . كان الاستيلاء على غنت عذابى وخسارة بروكسل هى موتى . . اذهب إلى الأراضى الواطئة وأعدها إلى ملكها ، فإن لم تستطع فابق هناك.لاتضح بمصالحك من أجلى فأنت أب لأطفال»[٨٥]. ثم كتب وصيته وترك الهبات السخية لخدمه ولـ « سيدات الخمس اللاتى أطقن عشرتى»[٨٦]. وألف قبريته التى قال فيها : « هنا يرقد يوزف ، الذى لم يستطع أن ينجح فى شىء »[٨٧]. وتناول فى استسلام أسرار الكنيسة الكاثوليكية الأخيرة وطلب الموت وفى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ استجابت السماء وكان يومها فى الثامنة والأربعين . واغتبطت فيينا برحيله وقدمت المجر الشكر لله .

أكان إنسانا فاشلا ؟ فى الحرب نعم، بلا جدال . وقد وجد ليوبولد الثانى (١٧٩٠ — ٩٢) أن من الحكمة رغم انتصارات لاودن أن يبرم الصلح مع تركيا (٤ أغسطس ١٧٩١) على أساس الوضع السابق للحرب . وإذ عجز عن تهدئة الأشراف المجريين فقد ألغى منح الحرية للأقنان . أما فى بوهيميا والنمسا فقد احتفظ بمعظم الاصلاحات ولم تلغ مراسيم التسامح ، ولم تفتح

الأديرة التى أغلقت ، وظلت الكنيسة خاضعة لقوانين الدولة . وكان التشريع الاقتصادى قد حرر التجارة والصناعة وحفزهما . وانتقلت النمسا دون ثورة عنيفة من دولة وسيطة إلى أخرى عصرية ، وشاركت فى حيوية القرن التاسع عشر الثقافية المنوعة .

وكان يوزف قد كتب إلى كاونتز يقول « إننى لإقتناعى العميق بنزاهة نياتى أرجو أن يبحث الخلف بعد موتى أعمالى وأهدافى قبل أن يحكم على وسيكون أميل وأنزه ومن ثم أكثر انصافاً لى من معاصرى »(٨٨) .

وقد اقتضى هذا البحث الخلف ردحا طويلا ، ولكنه تعلم فى النهاية أن يرى فيه — رغم أسفه على أوتقراطيته وتعجله — أكثر « المستبدين المستنيرين » جرأة وتطرفاً وإن كان أقلهم حكمة . . وبعد أن ولى رد الفعل الذى جاء فى عهد مترنيخ ، أعيدت إصلاحات يوزف الثانى واحداً بعد الآخر . ووضع ثوار ١٨٤٨ إكليلا من الزهور على قبره اعترافاً بفضله .

* * *

الفصل الرابع عشر

إصلاح الموسيقى

إننا لانتصور بسهولة يوزف الثانى موسيقيا وهو الرجل المتأهب للمعارك ومع ذلك يقال لنا أنه تلقى « تعليماً موسيقيا دقيقا شاملا » وإنه كان صاحب صوت جهير رخيم ، وكان يستمع إلى حفلة موسيقية كل يوم تقريبا ، وكان عازفاً ماهراً على الفيولنشللو والفيولا والكلافير [1] . وكان كثير من النبلاء موسيقيين ، وأكثر منهم رعاة للموسيقى . وحذت الطبقات الوسطى حذوهم ، فكان فى كل بيت بيان قيثارى (هاربسيكورد) وتعلم كل إنسان أن يعزف على آلة موسيقية ، وعزفت الثلاثيات والرباعيات فى الشوارع ، والحفلات الموسيقية فى المتنزهات ومن زوارق مضاءة على قناة الدانوب فى عيد القديس يوحنا . وازدهرت الأوبرا فى البلاط وفى مسرح الأوبرا القومى الذى أنشأه يوزف الثانى فى ١٧٧٨ .

وارتقت فيينا إلى مقام الصدارة فى مطالع القرن التاسع عشر بوصفها العاصمة الموسيقية لأوربا لأنها جمعت فى أخريات القرن الثامن عشر بين تقاليد ألمانيا وإيطاليا الموسيقية المتنافسة . فمن ألمانيا جاءت البوليفونية ، ومن إيطاليا الميلوديا ، ومن ألمانيا جاءت الزنجشبيل — وهو مزيج من الدراما الهزلية والحوار المنطوق والموسيقى العارضة والأغانى الشعبية ، ومن إيطاليا جاءت الأوبرا الهازلة ، وتحالف الشكلان فى فيينا كما نرى فى أوبرا موتسارت « الاختطاف من السراى » . ويمكن القول عموماً أن التأثير الإيطالى غلب الألمانى فى فيينا ، فلقد غزت إيطاليا النمسا بالألحان كما غزت النمسا شمالى إيطاليا بالسلاح . وفى فيينا كانت الأوبرا الجادة إيطالية فى أكثرها . إلى أن جاء جلوك . وجلوك نشىء على الموسيقى الإيطالية .

١ — كرستوفر فليبالت جلوك ١٧١٤ — ٨٧

ولد فى إيرازباخ من أعمال البالاتينات العليا ، لحراج كاثوليكى انتقل بأسرته فى ١٧١٧ إلى نويشلوس ببوهيميا . وتلقى كرستوفر فى المدرسة اليسوعية بكوموتاو تعليما فى الدين واللاتينية والآداب القديمة والترتيل والكمان والأرغن والبيان القيثارى . فلما رحل إلى براغ ١٧٣٢ تلقى دروسا فى الفيولنشللو ، وتعيش بالترتيل فى الكنائس ، والعزف على الكمان فى المراقص ، وإحياء الحفلات الموسيقية فى المدن المجاورة .

وكان كل صبى ذكى فى بوهيميا ينجذب إلى براغ ، واستطاع نفر من ألمعهم شق طريقهم إلى فيينا . واستهدف جلوك الحصول على وظيفة فى أوركستر الأمير فرديناند فون لوبكوفتز . وفى فيينا استمع إلى الأوبرات الإيطالية وأحس جاذبية إيطاليا القوية . وأعجب الأمير فرانشسكو ملتزى بعزمه ، فدعاه إلى ميلان (١٧٣٧) . ودرس جلوك التأليف الموسيقى على يد سامارتينى ، وتعلق بالأساليب الإيطالية فى الموسيقى ، وانتهجت أوبراته الأولى (١٧٤١—٤٥) نهج الطرائق الإيطالية ، وقاد حفلاتها الافتتاحية فى إيطاليا . وأتته هذه الخطوات الموفقة بدعوة لتأليف وإخراج أوبرا لمسرح هيماركت فى لندن .

وهناك قدم أوبرا La caduta degiganti (سقطة العملاق) (١٧٤٦) . ورفضت مصحوبة بمديح هزيل ، وقال هندل العجوز الفظ أن جلوك لا يعرف « عن الكونترابنط أكثر مما يعرف طباخى »[٢] ولكن الطباخ كان صاحب صوت باص — جهير — حسن ، ولم يكتب لجلوك أن تعتمد شهرته على الكونترابنط . والتقى برنى بجلوك وقال فى وصفه « إن له مزاجاً فى شراسة مزاج هندل . .ويشوهه الجدرى تشويها رهيبا .. وله جهمة كريهة ».[٣] وأذاع جلوك على الجماهير — ربما لموازنة ميزانيته — أنه سيقدم « كونشرتو على ست وعشرين كأس شراب ضبطت (بملئها إلى مستويات مختلفة) بماء نبع تصاحبها فرقه موسيقية كاملة (أوركسترا) ، لأن هذه آلة موسيقية جديدة من اختراعه يعزف عليها كل مايمكن عزفه على كمان أو بيان قيثارى ». ومثل هذه

« الهارمونيكا الزجاجية أو الكؤوس الموسيقية» كانت قد أدخلت فى دبلن قبل سنتين . واستحضر جلوك الأنغام بلمس حواف الكؤوس بأصابعه المبللة : واستهوى الحفل (٢٣ ابريل ١٧٤٦) أصحاب الفضول ، فكرر بعد أسبوع .

وغادر جلوك لندن قاصدا باريس فى ٢٦ ديسمبر وهو مبتئس بهذا النجاح . وهناك درس أوبرات رامو الذى كان قد اتجه إلى الإصلاح بادماج الموسيقى والباليه بالحركة . وفى سبتمبر قاد الأوبرات فى همبورج واتصل فى علاقة غرام مع مغنية إيطالية وأصيب بالزهرى . وكان شفاؤه بطيئا جدا ، حتى إنه حين ذهب إلى كوبنهاجن كان عاجزاً عن قيادة الأوركسترا . ثم عاد إلى فيينا ، وتزوج ماريان برجيا (١٥ سبتمبر ١٧٥٠) ابنة تاجر غنى . وقد منحه صداقها الأمن المالى فاتخذ بيتا فى فيينا، واختفى عن الأنظار فى استجمام طويل .

وفى سبتمبر ١٧٥٤ عينه الكونت مارتشالو دوراتزو قائدا للأوركسترا نظير ألفى فلورن فى العام ليلحن للبلاط . وكان دوراتزو قد مل الأوبرا الإيطالية التقليدية، فتعاون مع جلوك فى دراما موسيقية سميت L'innocenza giustificata (البراءة المبررة) لم تكن فيها القصة مجرد تكئة للموسيقى ، ولا الموسيقى مجرد تجميع الألحان، إنما الموسيقى تعكس الحركة، والألحان حتى الكوارس — تدخل فى الحبكة دخولا فيه شيء من المنطق . وهكذا كانت حفلة الافتتاح (٨ ديسمبر ١٧٥٥) البشير والنتاج الأول للاصلاح الذى يقرن التاريخ بينه وبين اسم جلوك . وقد رأينا فى موضع سابق مساهمات بنديتو مارتشللو وجوململى وترايتا فى هذا التطوير ، والنداء الذى وجهه روسو وفولتير والموسوعيون لربط أوثق بين الدراما والموسيقى . وكان مناستازيو قد أعان عليه باصراره فى إباء على أن الموسيقى يجب أن تكون خادمة للشعر(٤). وربما تأثر جلوك بشغف فنكلمان بأحياء المثل الإغريقية فى الفن ، وكان الملحنون يعرفون أن الأوبرا الإيطالية بدأت كمحاولة لإحيـــاء الدراما الكلاسيكية التى أخضعت موسيقاها للتمثيلية وكان جان — جورج نوفير أثناء ذاك ينادى (١٧٦٠) بالتسامى بالباليه من مجرد الرقص الإيقاعى إلى الإيماء

الدرامى المعبر عن « عواطف كل شعوب الأرض وعاداتهم وتقاليدهم ومراسمهم وأزيائهم[٥] » . ونسج جلوك هذه العناصر كلها فى شكل أوبراوى جديد بفضل ما أوتى من كيمياء العبقرية العجيبة .

ان من أسرار نجاح المرء أن يغتنم الفرصة إذا سنحت . فما الذى حدا بجلوك إلى هجر نصوص أوبرات متاستازيو ويتخذ رانييرو دا كالتسابيجى شاعرا لأوبرا « أورفير وأورديتشى » ؟ لقد ولد الرجلان فى سنة واحدة (١٧١٤) ولكن فى مكانين مختلفين — فقد ولد كالزابيجى فى ليفورنو . وبعد مغامرات فى الحب والمال وفد على باريس ونشر هناك ترجمة لـ « الشعر الدرامى » لمتاستازيو (١٧٥٥) وقدم لها بـ « رسالة » أعرب فيها عن أمله فى ظهور نوع جديد من الأوبرا — « كل مبهج يكون خلاصة التفاعل بين كورس كبير وبين الرقص والحركة التمثيلية التى يتحد فيها الشعر والموسيقى بطريقة رائعة[٦] » . فلما انتقل إلى فيينا أثار اهتمام دوراتزو بأفكاره عن الأوبرا ، ودعاه الكونت ليكتب نصا لأوبرا ، فكتب « أورفيو وأورديتشى » . وعرض دوراتزو القصيدة على جلوك ، فرأى فى الحبكة البسيطة الموحدة موضوعا يمكن أن يبتعث كل طاقاته .

وقدمت النتيجة لفيينا فى ٥ اكتوبر ١٧٦٢ . واستطاع جلوك أن يجند لدور أورفيوس أكبر المغنين الخصيان ذوى الصوت الكونترالتو وهو جاتيانو جواديني . أما القصة فقدمه قدم الأوبرا ، وقد استعملها أكثر من عشرة كتاب لنصوص الأوبرا بين ١٦٠٠ ، ١٧٦١ ، واستطاع جمهور السامعين تتبع الحركة دون أن يفقهوا الايطالية . واستغنت الموسيقى عن السرد الذى لايصاحبه العزف ، والألحان الأساسية المعاده (da capo) ، والزخارف والمحسنات ، وفيما عدا ذلك نهجت نهج الأسلوب الإيطالى ولكنها سمت الى آفاق غنائية فيها من النقاء ما ندر أن بلغه أحد من قبل ولا من بعد . وصرخة اليأس المنبعثة من أورفيوس بعد أن أفقده الموت حبيبته مرة ثانية؟ Che faro sanz Euridice « ماذا أفعل بدون أورديتشى » ؟ ما تزال أجمل الحان الأوبرا قاطبه ، ونحن

حين نسمع هذا اللحن ، ولحن الفلوت الحزين فى «رقصة الأرواح المباركة» تعجب كيف وجد هذا البوهيمى العاصف هذه الرهافة فى روحه .

ولم تلق أورفيو استقبالا حارا فى فيينا ، ولكن ماريا تريزا تأثرت بها تأثراً عميقا وأرسلت الى جلوك صندوق سعوط محشوا بالدوقاتيات . وما لبث أن اختير لتعليم الغناء للارشيدوقة ماريا انطونيا . وكان أثناء ذلك مكباً هو وكالزابيجى على تأليف أوبرا عدها البعض أكمل ما ألفاه من أوبرات ، وهى « السيست » . وقد اعلن المؤلف فى مقدمة النسخة المنشورة كتبها كلزابيجى لجلوك مبادىء اصلاحه للاوبرا . قال :

« حين اضطلعت بكتابة الموسيقى لألسيست صممت على أن أجردها تماما من كل تلك المساوىء . . التى طالما شوهت الأوبرا الإيطالية . . وقد جهدت لأقصر الموسيقى على وظيفتها الحقيقية وهى خدمة الشعر بالتعبير وبمتابعة مواقف القصة دون قطع الحركة المسرحية أو خنقها بحشو لا غناء فيه من التعليقات . ولم أر ان من واجبى ان أمر مرور الكرام بالقسم الثانى من لحن ما ، ربما كانت كلماته آخر وأهم الكلمات — لكى اعيد بانتظام . . . كلمات القسم الأول . . . وقد احسست أن الإفتتاحية يجب ان تحيط المتفرجين بطبيعة الحركة التى ستقدم لهم وتكون — إن شئت — خلاصتها . . وأن الآلات الأوركسترالية يجب ان تدخل متناسبة مع أهمة الكلمات وقوتها ولا تترك ذلك التناقض الحاد بين اللحن والسرد فى الحوار . . . الذى يشوه بشكل غشوم قوة الحركة وحرارتها . . . وقد آمنت بأن جهدى الأعظم يجب ان ينصرف الى البحث عن البساطة الجميلة(٧) » .

وباختصار ، يجب ان تخدم الموسيقى الدراما وتزيد من حدتها ، لا أن تجعل منها مجرد تكئة للعروض الصوتية أو الأركسترالية . وقد عبر جلوك عن الأمر تعبيرا فيه غلو بقوله « انى أحاول أن انسى انى موسيقى(٨) » ، وأن عليه ان يندمج مع كاتب النص فى تأليف « دراما

بالموسيقى » . « وقصة السست تمتنع قليلا على التصديق ، ولكن جلوك أنقذها بافتتاحية قاتمة سبقت بتصوير الحركة المأسوية وأفضت اليها ، وبمشاهد عاطفية مؤثرة بين السست وأطفالها ، وبدعائها لآلهة العالم السفلى فى لحن «أرباب ستاكس» ، وبالكورالات الجليلة والمجموعات الفخمة . واستمع جمهور فيينا لهذه الأوبرا فى ستين حفلة بين الافتتاح فى ١٦ ديسمبر ١٧٦٧ و١٧٧٩ . ولكن النقاد وجدو فيها اخطاء كثيرة ، أما المغنون فشكوا من انها لم تفسح لهم المجال الكافى لعرض فنهم .

وبذل الشاعر والمؤلف محاولةثانية فى أوبرا«باريز وهيلانه» (٣٠ نوفمبر ١٧٧٠) . وقد اقتبس كلزابيجى الحبكة من أوفيد الذى جعل من قصة باريز وهيلانه مغامرة غرامية شخصية بدل أن تكون فاجعة دولية . وعرضت الأوبرا عشرين مرة فى فيينا ، ومرة فى نابلى ، ولم تعرض فى غيرهما . وتحمل كالزابيجى تبعة هذا الفشل النسبى ، وطلق كتابة النصوص للاوبرات . وراح جلوك يبحث عن تربة أخرى يلقى فيها بذرته . وأشار عليه صديق فى السفارة الفرنسية فى فيينا يدعى فرانسوا دوى رولليه أن يقدم لجماهير باريس تحية يرحبون بها ، فى صورة أوبرا فرنسية يضع موسيقاها مؤلف ألمانى . وعملا باقتراحات لديدرو وألجاروتى أشارا فيها بأن تمثيلية راسين « إفجيينى » تتيح موضوعا مثالياً للاوبرا صاغ دوروللية التمثيلية نصا لأوبرا وقدمها لجلوك . . ورأى جلوك مادتها متفقة تمام الاتفاق مع ذوقه فعكف على العمل من فوره .

ورغبة فى تمهيد الطريق إلى باريس وجه دوروللية خطابا إلى مدير دار الأوبرا نشر فى المركيز دفرانس أول أغسطس ١٧٧٢ — ذكر فيه أن «مسيو جلوش» كان ساخطا أشد السخط على الزعم بأن اللغة الفرنسية لاتتلائم مع الموسيقى ، وأنه اقترح اثبات العكس بـ «إفجيينى فى أوليد» . ولطف جلوك من غضب روسو المتوقع (وكان يومها يعيش منزويا فى باريس) بأن أرسل إلى المركيز خطاباً (أول فبراير ١٧٧٣) أعرب فيه عن أمله فى التشاور مع روسو حول « الوسيلة التى أنوى اتخاذها لإخراج موسيقى

صالحة لجميع الأمم ، وإزالة فوارق الموسيقى الوطنية السخيفة[٩] » . واستكمالا لهذا الإعلان الذى يبلغ الغاية فى البراعة ، استعملت مارى انطوانيت — التى لم تنس استاذها القديم — نفوذها فى دار الأوبرا . ووافق مديرها على اخراج «إفجينى» ، وحضر جلوك إلى باريس ، وألزم المغنين والأوركسترا ببروفات بلغت من الشدة والانضباط حداً ندر ان عرفوه من قبل . وتبين ان صوفى أرنو كبيرة المغنيات متمردة على أوامره فهدد بالإقلاع عن المشروع . وبدا ان جوزف لجرو قد أضعفه المرض إلى حد منعه من تمثيل دور الجبار أخيل : « أما جانتان فسترى » إله الرقص وقتها ، فأراد ان يكون نصف الأوبرا باليها[١٠] . وشد جلوك شعره ، أو قل باروكته ، وأصر على موقفه ، وانتصر . وكانت حفلة الافتتاح (١٩ ابريل ١٧٧٤) حدث العالم الموسيقى المثير . وقد نحس بما كانت عليه العاصمة الجياشه من هياج إذا قرأنا خطاب مارى انطوانيت لأختها ماريا كرستينا فى بروكسل . قالت :

« انه نصر عظيم ياعزيزتى كرستين ، إن الحماسة تجرفنى ، ولم يعد الناس يتكلمون على شيء غير هذا . وكل الرؤس تجيش نتيجة لهذا الحدث . . . فهناك انشقاقات ونزاعات أشبه بالنزاع الدينى . ومع انى أعلنت فى البلاط أننى فى صف هذا العمل الملهم ، فان هناك تحريات ومناقشات شديدة الحيوية . أما فى المدينة فيبدوا ان الحال أسوأ من هذا[١١] . »

ورد روسو تحية جلوك باعلانه أن « أوبرا مسيو جلوك قلبت كل أفكاره رأسا على عقب ، وقد اقتنع الآن أن اللغة الفرنسية تستطيع أن تنسجم كأى لغة أخرى مع الموسيقى القوية المؤثرة الحساسة[١٢] . وكانت الإفتتاحية رائعة حتى ان الجمهور فى الليلة الأولى طالب باعادتها ووجه النقد للالحان لأنها مسرفة فى الطول ، ولأنها تقطع سير الدراما ، ولكنها تميزت بعمق مركب فى الشعور تفردت به موسيقى جلوك . وقد قال الأبيه أرنو عن أحدها وهو «أجاممنون» «بمثل هذا اللحن قد يؤسس المرء دينا[١٣]» .

ونافس جلوك الآن لويس الخامس عشر المحتضر محوراً لحديث باريس. وكان بدنه الضخم القوى ووجهه الأحمر وانفه الكبير يشار اليها كلها حيثما ذهب. واصبح طبعه الغضوب موضوعا لعشرات النوادر . ورسم له جروز صورة ظهرت فيها طبيعته الطيبة المرحة من خلف خطوط النضال والتوتر. وراح يأكل كما يأكل الدكتور جونسون ، ويسرف فى الشراب إسرافا لايبزه فيه غير بوزويل ، ولم يتظاهر باحتقار المال ، وكان يبادر للاشتراك فى الثناء على عمله . وقد عامل الحاشية وعامة الناس معاملة واحدة باعتبارهم أدنى منه قدرا ، وكان ينتظر من كبار النبلاء ان يناولوه باروكته ومعطفه وعصاه ، ولما قدم اليه أحد الأمراء فلم يبرح جلوك م ه علل سلوكه هذا بقوله « لقد ألف الناس فى المانيا إلا يقوم الواحد منهم إلا لمن يحترمه(١٤) . »

وكان مدير الأوبرا قد أنذره بأنه فى حالة نجاح « إفجينى وأوليد » ، فسيضطر جلوك إلى كتابة خمس أوبرات اخرى فى تعاقب سريع ، لأن افجينى ستطرد جميع الأوبرات الأخرى من المسرح . ولم يرهب الانذار جلوك لأنه اعتاد ان يقتطع اجزاء من مؤلفاته القديمة ويحشرها فى الجديدة وترجمت له «اورفيو واوريديتشى» إلى الفرنسيه ، ولما لم يجد مغنيا كفؤا ذا صوت رنان « كونترالتو» فى متناوله ، اعاد كتابة دور اورفيو لليجرو ذى الصوت الصارخ (التينور) . اما صوفى أرنو التى لا نزال عريكتها الآن فقد لعبت دور اوريديتشى . ونجحت حفلة الافتتاح الباريسية نجاحا ادفأ صدره . وجادت مارى انطوانيت ، ملكة فرنسا الآن ، بمعاش قدره ستة آلاف فرنك لـ « عزيزى جلوك » (١٥) . وقفل إلى فيينا ورأسه يطاول النجوم .

وفى مارس ١٧٧٦ عاد إلى باريس بترجمة فرنسية لألسست ، أخرجت فلم تلق غير استحسان متوسط فى ٢٣ ابريل . أما جلوك الذى تعود النجاح فقد استجاب لهذه النكسة بكبرياء غاضبة وقال « ليست ألسيست من نوع الأعمال التى تسر الجمهور سرورا مؤقتاً ، أو التى تسرهم لجدتها .

فليس للزمن عليها سلطان . وأنا أزعم أنها ستسر السامعين نفس السرور بعد مائتى عام إذا لم يطرأ على اللغة الفرنسية تغيير »[١٦] . وفى يونيو عاد إلى فيينا ، وسرعان ما بدأ يلحن النص الذى كتبه مارمونتيل من جديد لمسرحية «رولان» التى سبق ان كتب نصها كينو .

وبدأت الآن أشهر المعارك فى تاريخ الأوبرا . ذلك أن إدارة الأوبرا كانت أثناء هذا قد كلفت نيكولو بتشينى النابولى بتلحين النص ذاته ، وأن يحضر إلى باريس ويخرجه . وحضر (٣١ ديسمبر ١٧٧٦) ، فلما انبىء جلوك بهذا التكليف أرسل إلى درولليه الذى كان بباريس آنذاك خطابا يضطرم بغضبة أو لمبية :

«لقد تلقيت للتو خطابك الذى . . . ناشدتنى فيه مواصلة تلحين أوبرا «رولان» . ولكن هذا لم يعد ممكنا ، لأننى حين سمعت ان إدارة الأوبرا التى لم تجهل اننى كنت ألحن رولان كلفت بهذا العمل ذاته مسيوبتشينى ، أحرقت كل ما كتبت منه ، ولعله لم يكن يساوى الكثير . . وأنا لم أعد رجلا يدخل فى منافسة ، وسيكون للمسيو بيتشينى ميزة كبيرة جدا على لأنه بغض النظر عن كفايته الشخصية وهى بلاشك عظيمة جدا — سيكون له ميزة الجدة . . . وانا واثق ان سياسيا معينا من معارفى سيقدم الغذاء والعشاء لثلاثة ارباع باريس ليكسب له انصارا[١٧] .

ولأسباب ليست الآن واضحة نشر هذا الخطاب .. الذى كان من الواضح انه خطاب خاص — فى «الأنية ليتررير» عدد فبراير ١٧٧٧ فأصبح عن غير قصد إعلاناً للحرب .

ووصل جلوك إلى باريس فى ٢٩ مايو ومعه اوبرا جديدة هى « أرميد » والتقى المؤلفان الغريمان على الغداء ، فتعانقا وتحدثا حديثاً ودياً . وكان بتشينى قد حضر إلى فرنسا دون ان يخطر له انه سيكون بيدقاً فى موامرة حزبية قذرة وتجارة اوبرالية ، وكان هو شخصياً شديد الاعجاب بفن جلوك . ولكن الحرب مضت فى الصالونات والمقاهى ، وفى الشوارع

والبيوت ، رغم ما بين الغريمين من مودة ؛ وروى تشارلز ببرنى أنه « مامن باب فتح لزائر دون أن يوجه اليه هذا السؤال قبل يسمح له بالدخول : سيدى أأنت من أنصار بتشينى أم من انصار جلوك[١٨] ؟ » أما مارمونتيل ودالامبير ولاهارب فقد تزعموا الحزب المناصر لبتشينى والأسلوب الايطالى ، وأما الأبيه أرنو فقد دافع عن جلوك فى «اعلان للايمان بالموسيقى» ، وأما روسو ، الذى كان قد افتتح الحرب بمقاله المناصر للموسيقى الإيطالية « فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) ، فقد ناصر جلوك .

وأخرجت أرميد فى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ . وكان موضوعها وموسيقاها رجوعا إلى أشكال رسخت قبل اصلاح جلوك ، وقد اقتبست القصة من تاسو ، ومجدت رينالد والمسيحى وأرميدا الوثنية ، وكانت الموسيقى موسيقى لوللى معادة برقة رومانسية ، وأما الباليه فباليه نوفير فى أروعه ، واعجب هذا المزيج الجمهور فاستقبل الأوبرا استقبالا حسنا ، ولكن انصار بيتشينى نددوا بأرميدا قائلين إنها ليست سوى صقل للوللى ورامو . وانتظروا فى شوق أوبرا رولان الذى كان يلحنها حامل لوائهم . وأهداها بيتشينى إلى مارى انطوانيت مشفوعة باعتذاراته : لقد كنت فى حاجة لكل شجاعتى وأنا مزدرع ومعزول فى بلد كل شىء فيه جديد على تفت فى عضدى مئات العقبات المعترضة عملى ، ولقد فارقتنى شجاعتى[١٩] . وكان أحيانا يوشك ان يكف عن النضال ويعود إلى ايطاليا . ولكنه ثابر ، ووجد عزاء فى نجاح حفلة العرض الأولى (٢٧ يناير ١٧٧٨) . وبدا أن الانتصارين يلغى أحدهما الآخر . وواصلت الحرب السافرة احتدامها . وقد رأتها مدام فيجيه لبرون رأى العين فقالت «كانت ساحة القتال العادية هى حديقة الباليه رويال . فهناك كان انصار جلوك وبيتشينى يتشاجرون مشاجرات بلغ من عنفها انها أفضت إلى مبارزات كثيرة .

وعاد جلوك إلى فيينا فى مارس ، وتخلف فى فرتية ليرى فولتير . ثم صحب معه إلى بيته نصين أولها كتبه نيكولا — فرانسوا جيار وبناه على مسرحية أوربيدس « افجينى فى تاورس » . أما الثانى فكتبه البارون

جان — باتيست وتشودى عن موضوع الصدى ونارسيس . وعكف على الكتابين فما حل خريف ١٧٧٨ حتى شعر أنه على استعداد لخوض معركة أخرى . وهكذا نجده فى نوفمبر فى باريس مرة أخرى ، وفى ١٨ مايو ١٧٧٩ قدم فى دار الأوبرا أوبرا « افجينى فى تاوريد » التى يعدها معظم الطلاب أعظم مؤلفاته الموسيقية . وهى قصة قاتمة ، وكثير من موسيقاها شكاة رتيبة ، ونحن نمل أحيانا لنواح افجينى العالى . ولكن حين ينتهى العرض ويسكت سحر الموسيقى والأبيات عقلنا الشكاك ندرك اننا استمعنا إلى دراما عميقة قوية . وقد لاحظ معاصر ان فيها فقرات كثيرة رائعة ، أما الأبيه أرنو فقال «ان فيها فقرة رائعة واحدة فقط ، هى العمل كله[٢١]». واستقبل الجمهور العرض الأول للاوبرا بحماسة بالغه .

على ان جلوك تحدى الآلهة ، فتعجل بتقديم أوبراه الثانية «الصدى ونارسيس» (٢١سبتمبر ١٧٧٩) . ولكنها فشلت ، فغادر المايسترو باريس فى غضبة مضرية معلنا أنه شبع من باريس وأنه لن يكتب مزيدا من الأوبرات . ولوأطال مكثه فيها لسمع « أفجينى فى تاورند » . أخرى أخرجها بتشينى بعد عامين من الجهد الشاق . واستقبل الجمهور العرض الأول (٢٣ يناير ١٧٨٠) استقبالا حسنا ، ولكن فى الليلة الثانية كانت الآنسة لاجير التى غنت دور افجينى مخمورة بصورة واضحة ، حتى لقد حطمت صوفى أرنو العرض بتلقيبها الأوبرا « أفجينى فى شمبانيا[٢٢]» . وانهى هذا الحادث المؤسف الحرب الأوبرالية ، واعترف بيتشينى بهزيمته إعترافا جميلا .

أما جلوك فقد حلم فى فيينا بانتصارات أخرى . ففى ١٠ فبراير ١٨٨٠ كتب إلى كارل أوجست دوق ساكسى — فيمار راعى جوته : لقد شخت كثيرا ، وقد بعثرت خير طاقات ذهنى على الأمة الفرنسية . ولكنى أشعر بدافع باطنى يدفعنى لكتابة شىء لبلدى[٢٣] . ثم لحن بعض أناشيد كلويشتوك التى مهدت الطريق لأجمل الليدات . وفى ١٧٨١ أصيب بالنقطة ، ولكن كان عزاء له استقبال فيينا لأفجينى فى تاورس واحياء

«أورفيو والسست» . وفى ١٥ نوفمبر ١٧٨٧ بينما كان يستضيف جماعة من أصدقائه تعاطى فى جرعة واحدة قدحا من مسكر قوى كان محظورا عليه . وأصابته تشنجات لم تمهله غير ساعات . وحاول بتشيني وهو فى نابلى دون جدوى جمع المال لأحياء حفلات موسيقية سنوية تذكارا لمنافسه[٢٤]. ذلك ان ايطاليا التى كانت تحبذ الميلوديا لم تأبه باصلاحات جلوك : ونهج موتسارت نهج الإيطاليين ، ولابد أنه صعق لفكرة تسخير الموسيقى للشعر . أما هردر الذى جاء فى ختام هذه الفترة الخلاقة والذى رجع البصر اليها بمعرفة محدودة بباخ وهايدن وموتسارت فقد وصف جلوك بأنه أعظم ملحنى القرن قاطبة[٢٥] .

٢ — يوزف هايدن : ١٧٣٢ — ١٨٠٩

من الأيسر علينا أن نحب هايدن ، فهاهنا رجل لم يتشاجر مع إنسان غير زوجته ، رجل يشيد بمنافسيه كأنهم أصدقاؤه ، رجل أشرب موسيقاه بالمرح ، وكان بمزاجه الفطرى عاجزا عن المأساة .

ولم يحبه الحظ شرف المولد . فقد كان أبوه صانع عربات ونقاشا فى روراو ، وهى مدينة صغيرة على الحدود بين النمسا والمجر . أما أمه فكانت طاهية لأشراف هاراش وكان أبواه كلاهما من أصل سلافى كروانى لا ألمانى . وكثير من الحان هايدن تردد صدى الأغانى الكرواتية . وكان الثانى بين اثنى عشر طفلا مات ستة منهم فى مستهل طفولتهم . وقد عمد باسم فرانتس يوزف هايدن ، ولكن كان من المألوف يومها أن ينادى الأطفال باسمهم الثانى .

فلما ناهز السادسة أرسل ليعيش مع قريب يدعى يوهان ماتياس فرانك ، صاحب مدرسة فى هاينبورج . هناك كان يومه يبدأ بدروس فى الفصل من الساعة السابعة إلى العاشرة ، ويلى ذلك القداس ، ثم الرجوع للبيت لتناول الغداء ، ثم دروس من الثانية عشرة إلى الثالثة ، ثم دروس فى الموسيقى . وقد درب على التدين ولم يفقده قط . وكانت أمه تتوق إلى

تخريجه قسيساً ، وأحزنها حزناً عميقاً اختياره حياة الموسيقى التى لا ضمان لاستقرارها . على أن فرانك شجع ميل الطفل للموسيقى وعلمه كل ما فى طاقته أن يعلمه ، وألزمه نظاما صارما للدرس . وقد ذكر هايدن فى شيخوخته هذا الرجل وغفر له قائلا « سأكون ما حييت شاكراً لذلك الرجل أنه الزمنى العكوف على العمل وإن إعتدت أن أنال من الجلد أكثر مما أنال من الطعام[٢٦] » . وبعد أن قضى يوزف عامين مع فرانك أخذه إلى فيينا جيورج رويتر ، مدير فرقة المرتلين فى كتدرائية القديس اسطفانوس ، ورأى رويتر إن صوته « الضعيف الحلو » قد يجد مكانا متواضعاً فى فرقة المرتلين . وهكذا ذهب الغلام الحيي المشتاق ليعيش فى مدرسة المرتلين « الكانتورنى » الملحقة بالكاتدرائية . وهناك كان يتلقى دروسا فى الحساب والكتابة واللاتينية والدين والترتيل والكمان . ورتل فى الكتدرائية وفى المصلى الامبراطورى ، ولكنه كان لا ينال إلا أتفه الغذاء ، فكان يرحب بدعوات للغناء فى البيوت الخاصة حيث يستطيع أن يملأ معدته فضلا عن إنشاد أغانيه .

وفى ١٧٤٥ انضم إليه فى مدرسة المرتلين أخوه ميخائيل الذى كان يصغره بخمس سنين . وحوالى هذا التاريخ بدأ صوت يوزف يصبح أجش ، فعرض عليه أن يخصى ليحتفظ بصوته السوبرانو ، ولكن أبويه لم يوافقا . واحتفظ به رويتر أطول ما يستطيع ، واخيراً فى ١٧٤٨ وجد يوزف نفسه وهو فى السادسة عشرة حراً ومفلسا ، لم يؤت من حسن السمت وجاذبيته ما يكسبه رضى الحظ عنه . فقد نقر الجدرى وجهه ، وكان أنفه بارزاً ، وساقاه أقصر مما يناسب جسمه ، ولباسه رثا ، ومشيته لا رشاقة فيها ، ومسلكه خجولا مترددا . ولم يكن بعد قد حذق العزف على أى آلة ، ولكنه كان فى تلك الآونه يقلب الألحان فى رأسه .

وعرض عليه زميل فى صف المرتلين حجرة على السطح ، وأقرضه أنطون بوخهولتز ١٥٠ فلورينا ردها إليه هايدن الأمين فيما بعد . وكان عليه أن يجلب الماء صعداً إلى حجرته العليا كل يوم ، ولكنه حصل على

كلافير (لوحة مفاتيح) قديم ، وبدأ يعلم بعض التلاميذ ، فأعانه هذا على الحياة . وكان فى أكثر الأيام يعمل ست عشرة ساعة بل أكثر ، ويعزف على الكمان فى كنيسة ، ثم على الارغن فى مصلى خاص للكونت هاوجفتز وزير ماريا تريزا ، ويغنى بصوت التينور بين آن وآخر فى كتدرائية القديس اسطفانوس . وكان لمناستازيو الشهير شقة فى البناء ذاته فحصل لهايدن على وظيفة معلم موسيقى لأبنة صديق له ، وعن طريق مناستازيو ألتقى هايدن ببوربورا ، ووافق هايدن على أن يخدم أمير معلمى الغناء هذا على أى وجه شاء مقابل تعليمة التأليف الموسيقى. ثم تلقى دروس التأليف الثمينة ، وكان ينظف حذاء المايسترو ومعطفه وباروكته ويقوم بمصاحبة بوربورا وتلاميذه على الكلافير . وقد قال هايدن وهو يذكر تلك الأيام فيما بعد « يستطع الشباب أن يتعلموا منى أن شيئا يمكن أن يخرج من لا شىء . فكل ما أنا عليه الآن إنما هو ثمرة أوقات الشدة التى عانيتها[٢٧] » .

وعن طريق أصدقائه الجدد تعرف إلى جلوك ودترزدورف وعدة أفراد من النبلاء . وأخذه كارل يوزف فون فورنبرج (١٧٥٥) ليمكث معه طويلا فى بيته الريفى — فيتزيرل — بقرب ملك ، هناك وجد هايدن أوركسترا من ثمانية عازفين واتسع بعض الفراغ للتأليف . فكتب الآن أولى رباعياته . ثم إضاف إلى هيكل الصوناتا المكون من ثلاث حركات والذى نقله عن كارل فيليب إيمانويل باخ منويتا ، ودون الحركات الأربع لقطع أربع ، ثم أعطى الرباعيه الآلية شكلها الحديث . وعاد إلى فيينا فى ١٧٥٦ ولفت أنظار نفر من التلاميذ النبلاء مثل الكونتيسة فون تون . ثم قبل (١٧٥٩) وظيفة مدير الموسيقى للكونت مكسمليان فون مورتزن الذى كان أوركستراه الخاص المؤلف من إثنى عشر إلى ستة عشر عازفا يعزف فى فيينا شتاء ، وفى فيللا الكونت بلوكافيلك ببوهيميا صيفا . ولهذه المجموعة كتب هايدن أولى سمفونياتة (١٧٥٩) .

وإذ كان يكسب الآن مائتى فلورين فى العام يضاف إليها المسكن والمأكل ، فقد رأى أن فى وسعه المغامرة بالزواج . وكان من بين تلاميذه

إبنتان لصانع باروكات ، فأغرم بالصغرى ولكنها ترهبت ، وأقنع الأب هايدن بأن يتزوج شقيقتها ماريا أنا (١٧٦٠) . وكانت فى الحادية والثلاثين وهو فى الثامنة والعشرين . وتبين أنها مشاغبة متعصبة مسرفة عقيم . يقول هايدن « لا يهمها مثقال ذرة أن كان زوجها فنانا أو إسكافاً[٢٨] » . وبدأ ينظر إلى غيرها من النساء .

وكان يختلف إلى بيت مورتزن إحيانا للاستماع إلى الموسيقى الأمير يال أنطون استرهاتسى . فلما حل مورتزن أوركستراه إستخدم الأمير هايدن (١٧٦١) مساعداً لمدير الموسيقى فى مقره الريفى بأيزنشتات فى المجر . ونص العقد على أن يتقاضى هايدن أربعمائة فلورن فى العام بالأضافة إلى مكان على مائدة الموظفين ، و « يلاحظ بصفة خاصة أنه حين يدعى الأوركستر للأداء أمام جمهور أن يبدو الموسيقيون فى بزة رسمية مرتدين الجوارب الطويلة البيضاء والقمصان البيضاء . . وضفيرة أوباروكة[٢٩] » . وفى أيزنشتات كان رئيس فرقة المرتلين جريجور فرنر عاكفا على الموسيقى الكنسية ، فجهز هايدن الحفلات وألف لها الموسيقى . وكان يترأس على أربعة عشر موسيقيا وسبعة مغنين وكورس أختير من بين خدم الأمير . وقد شارك حجم الاوركسترا الصغير ، وطابع المستمعين ، فى تقرير نوع الموسيقى الخفيف اللطيف الذى كتبه هايدن لأسرة إسترهاتسى . وأكسبته طبيعته الطيبة محبة الموسيقيين ولم يمض على مجيئه إلى ايزنشتات كثير حتى راحوا يلقبونه « بابا هايدن » رغم إنه لم يجاوز وقتها التاسعة والعشرين[٣٠] . وألف لهم الصوناتات والثلاثيات والرباعيات والكونشرتوات والاغانى والكنتاتات ونحو ثلاثين سمفونية . وكثير من هذه المؤلفات وإن كانت ملكا للأمير حسب نص العقد نشر أو تداولة الناس مخطوطا فى فيينا وليبزج وإمستردام وباريس ولندن ، ولم يحل عام ١٧٦٦ حتى كان اسم هايدن ذائعاً دوليا .

فلما مات بال أنطون (١٨ مارس ١٧٦٢) خلفة فى رآسة أسرة إسترهاتسى أخوه ميكلوس يوزف الذى كاد يحب الموسيقى حبه لحلته

المرصعة بالماس . وكان يحسن العزف على « الفيولادى بوردونى» . (وهى شكل مختلف من أشكال الفيولادا جامبا) ، وكان سيدا لطيفا لهايدن طوال عشرتهما التى إمتدت قرابة ثلاثين عاماً . يقول هايدن« كان أميرى على الدوام راضيا عن إعمالى فلم احظ منه بمجرد تشجيع الاستحسان الدائم ، ولكن بوصفى قائدا للاوركستر إستطعت أن أجرى التجارب والاحظ ما يحدث منها أثراً وما يضعف هذا الأثر ، وهكذا كنت فى وضع إتاح لى إن احسن ، وأغير . . وأغامر كما أشاء . لقد كنت مقطوع الصلة بالعالم وما من أحد يشوش على أو يعذبنى ، فاكرهت على الابتكار(٣١) .

ومات فرنر فى ٥ مارس ١٧٦٦ ، واصبح هايدن رئيسا لفرقة المرتلين. وسرعان ما انتقلت الأسره إلى القصر الجديد « قلعة استرهاتسى » التى كان ميكلوس قد بناها فى الطرف الجنوبى لنويزيدلر زى فى شمال غربى المجر . وكان الأمير شديد التعلق بهذا القصر حتى إنه كان يسكنه من مطلع الربيع حتى آخر الخريف ، ثم ينتقل شتاء إلى فيينا مصطحباً موسيقييه احيانا . وكان العازفون والمغنون يكرهون هـذه العزلة الريفية لاسيما لأنها كانت تفصلهم عن زوجاتهم وابنائهم ثلاثة فصول فى العام ، ولكنهم كانوا يتعاطون اجوراً حسنة ولم يجرؤا على الشكوى . وذات مرة إراد هايدن أن يلمح لميكلوس بأن موسيقييه مشتاقون إلى أخذ اجازة ، فألف « سمفونية الوداع » (رقم ٥) وفى ختامها كانت الآلة تلو الأخرى تختفى من المدونة والعازف يطفىء شمعته ويتناول موسيقاه وآلته ثم يغادر المسرح . وفطن الأمير إلى القصد فرتب رحيل الفرقة إلى فيينا فى وقت قريب .

وسمح لهايدن على سبيل الاستثناء بأن يصحب معه زوجته إلى إسترهاتسا، ولكنه لم يقدر هذا الامتياز . ففى ١٧٧٩ وقع فى غرام لويجا بولتسللى ، وكانت مغنية وسطا استخدمتها استرهاتسا مع زوجها عازف الكمان أنطونيو. ويبدو أن هايدن أحس أنه مادامت الكنيسة الكاثوليكية لم تسمح له بتطليق زوجته المتعبة فإن عليها من قبيل الرأفة أن تسمح له بانحرافة أو اثنتين ، ولم يبذل كثيراً من الجهد فى اخفاء علاقته الغرامية هذه . أما أنطونيو فقد بلغ

من الكبر والمرض ما منعه من الاحتجاج الفعال ، وكان يعلم أن الفضل فى بقائه فى وظيفته راجع إلى إن رئيس فرقته يستطب لويجا . وكانت قد قدمت إلى استرهاتسا بغلام فى الثانية ، وفى ١٧٨٣ ولدت صبيا اخر نسبته الشائعات إلى بابا هايدن ، وتعلق قلب هايدن بالغلامين جميعاً وكان عونا لهما طوال حياته .

وخلال تلك السنوات الحافلة بالشواغل فى استرهاتسا لم يتطور هايدن فى فن التلحين إلا تطورا بطيئا لأنه افتقد الحافز والمنافسة الخارجيين ، فلم ينتج شيئا يستحق أن يذكر به إلى أن بلغ الثانية والثلاثين — وهى سن كان موتسارت قد أكمل فيها « أعماله الكاملة »باستثناء «الناى السحرى » و « القداس الجنائزى » . وقد أنتج هايدن أبدع أعماله بعد بلوغه الخمسين ، وأولى سمفونياته الكبرى حين قارب الستين ، و « الخليقة » حين كان فى السادسة والستين . وكتب عدة أوبرات تؤدى فى استرهاتسا ، ولكن حين دعته براغ لتقديم أوبرا فيها ، ضمن سلسلة تقـــرر أن تحتوى على زواج فيجارو ودون جوفانى ، أحجم فى رسالة كلها تواضع نبيل (ديسمبر ١٧٨٧) ، قال :

« تريد منى أوبرا هازلة . . . فإذا كان قصدك إخراجها فى براغ فانى لا استطيع أن اسدى إليك هذا الصنيع . ذلك أن أوبراتى لا تنفصل عن المجتمع الذى كتبت له ، وان تحدث التأثير المقصود منها إذا عزلت عن بيئتها الأصلية . ولكن يكون أمرا آخر أن أشرف بتكليفى بكتابة أوبرا جديدة لمسرحكم . على أنه حتى فى هذه الحالة ، سيكون من المغامرة أن أضع نفسى منافسا لموتسارت العظيم . ولو اننى استطعت فقط أن الهم كل عاشق للموسيقى ، خصوصا بين العظماء ، بمشاعر تبلغ فى عمقها مشاعرى ، وفهم واضح كفهمى ، وهم يستمعون إلى أعمال موتسارت الممتنعة على التقليد . إذن لتبارت الأمم على حيازة هذه الجوهرة الكريمة داخل حدودها . وعلى براغ أن تجاهد للاحتفاظ بهذا الكنز فى قبضتها ، ولكن بمكافأته المكافأة اللائقة . واغفال هذا الجزاء كثيراً ما يكون مصدر حزن فى حياة عبقرى

عظيم ، وتثبيط للمزيد من الجهود ولمستقبل الأيام . وانى لأشعر بالسخط لأن موتسارت لم يستخدم إلى الآن فى أى بلاط امبراطورى أو ملكى . عفوا ان كنت قد خرجت عن الموضوع ، فموتسارت رجل عزيز على جداً » (٣٢) .

وكان هايدن نفسه يتوق إلى بلاط تنشر فيه موهبته جناحيها على نطاق أوسع ، ولكن كان عليه أن يقنع بالمجاملات الملكية . ووصلته الهدايا من فوديناند الرابع ملك نابلى وفردريك وليم الثانى ملك بروسيا وماريا فيودروفنا الأرشيدوقة الروسية . وفى ١٧٨١ بعث إليه شارل الثالث ملك أسبانيا علبة سعوط ذهبية مرصعة بالماس ، وسافر السفير الأسبانى لدى فيينا إلى استرهاتسا ليقدم إليه هذا الكنز الصغير بشخصه . ولعل لبوكيرينى يداً فى هذه اللفتة ، وكان يومها يقيم فى مدريد ، لأنه اقتبس أسلوب هايدن بحماسة شديدة حتى لقد لقب بـ « زوجة هايدن » (٣٣) . ولما قرر مجلس الكتدرائية فى قادس تكليف موسيقى بوضع الاطار الموسيقى لـ « كلمات مخلصنا السبع الأخيرة » رسا التكليف على هايدن ، فاستجاب بأوراتوريو (١٧٨٥) لم يلبث أن أدى فى أقطار كثيرة — فى الولايات المتحدة الأمريكية فى تاريخ مبكر (١٧٩١) . وفى ١٧٨٤ طلب مخرج باريسى ست سمفونيات ، فأتحفه هايدن بست « سمفونيات باريسية » . ووصلته عدة دعوات ليقود الحفلات الموسيقية فى لندن . وشعر هايدن بأنه مربوط باسترهاتسا برباط الولاء كما هو مربوط برباط التعاقد ، ولكن خطاباته الخاصة تشى بشوقه المتزايد إلى مسرح أرحب لفنه .

وفى ٢٨ سبتمبر ١٧٩٠ مات الأمير نيكاوس يوزف . ولم يكن الأمير الجديد انطون استرهاتسى ولوعا بالموسيقى ، ففصل كل الموسيقيين تقريبا ، ولكنه احتفظ بهايدن اسميا فى خدمته ، ومنحه معاشا سنويا قدره ألف وأربعمائة فلورين ، وسمح له بأن يسكن حيث يشاء . وانتقل هايدن إلى فيينا لتوه تقريبا ، وتلقى الآن عدة عروض ، أعجلها من يوهان بيتر سالومون ،

الذى صرح له بهذه العبارة « لقد جئت من لندن لآخذك معى ، وسنبرم اتفاقنا غدا » . وعرض عليه ٣٠٠ جنيه لقاء أوبرا جديدة ، و ٣٠٠ أخرى نظير ست سمفونيات ، و ٢٠٠ أخرى نظير حق تأليفها ، و ٢٠٠ أخرى نظير عشرين حفلة موسيقية فى إنجلتره ، و ٢٠٠ أخرى نظير حفلة موسيقية تحيا فيها لصالح هايدن — ومجموعها كلها ١٢٠٠ جنيه . وكان هايدن يجهل الانجليزية ويخشى عبور المانش . وتوسل إليه موتسارت ألا يضطلع بهذه الأعباء والمغامرات قائلا « يا أبت ، إنك لم تتلق أى تعليم يؤهلك للعالم الواسع ، وأنت لا تتكلم إلا القليل جدا من اللغات ! » وأجاب هايدن « ولكن لغتى مفهومة فى العالم كله . » (٣٤) وباع البيت الذى منحه إياه الأمير ميكلوس يوزف فى أيزنشتات ، ودبر معاش زوجته وخليلته ، ثم انطلق إلى مغامرته الكبرى . وأنفق مع موتسارت الأيام الأخيرة قبل الرحيل ، وبكى موتسارت حين رآه يرحل (إننى أخشى يا أبتاه أن يكون هذا آخر وداع انا) .

وغادر هايدن وسالومون فيينا فى ١٥ ديسمبر ١٧٩٠ ، ووصلا إلى لندن فى أول يناير ١٧٩١ . وكانت أولى حفلات هايدن الموسيقية (١١ مارس) انتصارا له . وختمت صحيفة « المورننج كرونكل» تقريرها عنها بهذه العبارة « لا نستطيع أن نخفى أملنا الوطيد فى أن يكون فى هذا الترحيب البالغ الذى لقيه منا أعظم عباقرة الموسيقى فى جيلنا هذا ما يغريه بأن يتخذ مقامه فى إنجلتره . » (٣٥) ونجحت كل الحفلات الموسيقية ، وفى ١٦ مايو أبهجت قلب هايدن حفلة أحييت لصالحه ب ٣٥٠ جنيه . وفى ذلك الشهر حضر حفلة تذكارية لهندل فى كنيسة وستمنستر . واستمع إلى (المسيا) وبلغ به التأثر حد البكاء ، وقال فى تواضع (هندل ، أستاذنا جميعا .) (٣٦) واقترح بيرنى على جامعة أكسفورد أن تمنح هندل الجديد درجة فخرية ، وقبل الاقتراح ، وذهب هندل إلى الجامعة فى يوليو ، وأصبح دكتورا فى الموسيقى ، وقاد هناك سمفونيته فى مقام G الكبير (رقم ٩٢) وكان قد ألفها قبل ثلاث سنوات ، ولكن التاريخ يعرفها منذ ذلك الوقت بسمفونية

أكسفورد . . وتذكرنا حركتها البطيئة الجميلة بالاغنية الشعبية الانجليزية القديمة « لورد راندول » .

ولقد اتيح لهايدن أن يستمتع بمشهد الريف الانجليزى الذى رأى فيه تمجيدا سماويا للنبات والمطر ؛ لذلك قبل مغتبطا عقب عودته إلى لنـــدن دعوات لبيوت ريفية . وهناك وفى لندن كسب الكثير من الأصدقاء بترحيبه بالعزف والغناء فى حفلات خاصة . واتخذ له تلاميذ متقدمين فى الموسيقى ليعلمهم التأليف ، ومن بينهم أرملة وسيمة غنية تدعى يوهانا شروتر . ومع أنه كان فى الستين ، فان هالة شهرته أدارت رأسها فعرضت عليه حبها . وقد ذكر هذا الحديث فيما بعد فقال « أغلب الظن أننى كنت متزوجها لوكنت عزبا . »[٣٧] وفى غضون هذا كانت زوجته تلح عليه فى العودة . وفى خطاب أرسله إلى لويجا بولتسيللى قال متذمرا (إن زوجتى — الوحش الجهنمى — كتبت لى أشياء بلغت من الكثرة ما أكرهنى على الجواب بأننى لن أعود أبدا .)[٣٨]

وراح يشتغل بهمة رغم ما أثقل ضميره وجيبه من النسوة الثلاث ، فألف الآن ستا (رقم ٩٣ — ٩٨) من سمفونياته اللندنية الأثنى عشرة . ونرى فيها تطوراً ملحوظا من إنتاجه فى إيزتشتات واسترهاتسا . ولعل سمفونيات موتسارت قد شحذت فنه ، أو لعل احتفاء انجلتره به قد أخرج خير ما فيه ، أولعل إستماعة إلى هندل حرك فيه أعماقا لم تمسها بيئته الساكنة الهادئة فى ربى المجر ، أو لعل علاقاته الغرامية قد رفعته إلى العواطف الرقيقة كما بعثت فيه الفرحة البسيطة . وشق عليه إن يبرح انجلتره ؛ ولكنه كان مرتبطا بعقد مع الأمير أنطون استرهاتسى الذى أصر الآن على عودة هايدن ليشارك فى المهرجانات الممهدة لتتويج الأمبراطور فرانسيس الثانى . ومن ثم نراه يقتحم المانش ثانية فى أواخر يونيو ١٧٩٢ ، وينتقل من كاليه إلى بروكسل إلى بون ، ويلتقى ببيتهوفن (الذى كان آنئذ فى الثانيه والعشرين) ، ويحضر التتويج فى فرانكفورت ، ثم يصل إلى فيينا فى ٢٦ يونيو .

ولم تشر صحيفة واحدة إلى عودته ، ولا نظمت له حفلات موسيقية ، ولا حفل به البلاط . ولو كان موتسارت موجودا لاحتفى بمقدمه ، ولكن موتسارت كان قد قضى . وكتب هايدن إلى أرملته ، ونطوع باعطاء دروس مجانية لابنه ؛ وحث الناشرين على طبع المزيد من موسيقى موتسارت . ثم ذهب ليعيش مع زوجته فى المنزل المحتفظ به الآن متحفاً لهايدن (هايدن — جاسى ١٩) . وأرادته الزوجة إن يكتب لها البيت فرفض . وازدادت مشاجراته معها حدة . وقدم بيتهوفن فى ديسمبر ١٧٩٢ ، ليدرس عليه . ولكن العبقريين لم ينسجما معا ، فقدكان بيتهوفن متكبراً مسيطراً ، وكان هايدن يلقبه « المغولى الأكبر » [٣٩] . وقد شغله استغراقه فى عمله هو عن تصحيح تمرينات تلميذه بأمانة ، ووجد بيتهوفن سراً معلما آخر ، ولكنه واصل تلقى الدروس عن هايدن . قال الجبار الصغير «لم أتعلم منه شيئا[٤٠]» ، ومع ذلك فكثير من قطعه الأولى تنهج نهج هايدن ، وقد أهدى بعضها لمعلمه الشيخ .

وازداد تقدير القوم لهايدن فى النمسا وفى روراو ، فأقام الكونت فون هاراخ فى روراو ، عام ١٧٩٢ ، تمثالا لابن البلدة الذى غدا الآن ذائع الصيت ، ولكن ذكرى إنتصاراته وصداقاته فى إنجلتره كانت لا تزال حارة ، ومن ثم لم يتردد الموسيقى فى الموافقة على العرض الثانى الذى قدمه له سالومون بالذهاب إلى لندن وتكليفه كتابة ست سمفونيات جديدة . فغادر فيينا فى ١٩ يناير ١٧٩٤ ووصل إلى لندن فى ٤ فبراير . وكانت إقامته هذه التى إمتدت ثمانية عشر شهراً فى إنجلتره نصراً مؤزراً شدد عزمه كنصره الأول . وظفرت المجموعة الثانية من « السمفونيات اللندنية » (أرقام ٩٩ — ١٠٤) باستقبال طيب ، وخرج هايدن من حفلة أحييت لصالحه بدخل صافى قدره ٤٠٠ جنية . وكان تلاميذه يدفعون له جنيها انجليزيا فى الدرس ، وكانت السيدة شروتر تسكن بقربة ، وعاد الأثير المقرب للطبقة الارستقراطية ، فاستقبله الملك وأعداء الملك على السواء ، وأمير ويلز ، وعرضت عليه الملكة مسكنا فى ونزر طوال الصيف إذا أطال مقامه فى إنجلتره موسما آخر . ولكنه إعتذر بأن

أمير استرهاتسى الجديد يدعوه للعودة ، وأنه لا يستطيع الغياب عن زوجته فترة طويلة كهذه (!) . وكان الأمير أنطون قد مات ، وأراد خلفه الأمير ميكلوس الثانى أن يعيد الحفلات الاوركسترالية فى ايزنشتات . وهكذا غادر هايدن لندن فى ١٥ أغسطس ١٧٩٥ بعد أن حزم حقائبه وجيوبه عامرة بالنقود ويمم شطر وطنه .

وبعد أن زار تمثاله فى روراو قدم نفسه لميكلوس الثانى فى أيزنشتات ونظم الحفلات الموسيقية لشتى المناسبات هناك . على أنه كان يقيم فى بيته فى أطراف فيينا باستثناء الصيف والخريف . وفى عامى ١٧٩٦ — ٩٧ كان نابليون يسوق النمساويين أمامه فى إيطاليا ، وهدد تصاعد المشاعر الثورية فى النمسا نظام هابسبورج الملكى ، وتذكر هايدن كيف شدت الحماسة التى أثارها إنشاد النشيد الإنجليزى « حفظ الله الملك » إزر اسرة هانوفر فى إنجلتره ، وساءل نفسه إلا يمكن أن يفعل نشيد قومى مثل هذا فى شد أزر الامبراطور فرانسيس الثانى ؟ وتقدم صديقه البارون جوتفريد فان زفيتن (ابن طبيب ماريا تريزا) بهذا الإقتراح إلى الكونت فون زاوراو وزير الداخلية . وعين زاوراو ليوبولد هاشكا ليؤلف نصا للنشيد ، وإستجاب الشاعر بنشيده «حفظ الله الإمبراطور فرنسيس ، إمبراطورنا الصالح فرانسيس»

ووفق هايدن لهذه الكلمات لحنا لأغنية كرواتية قديمة ، وكانت النتيجة نشيداً قومياً مؤثراً رغم بساطته . وأنشد علانية فى عيد ميلاد الإمبراطور فى ١٢ فبراير ١٧٩٧ فى جميع المسارح الكبرى فى مملكة النمسا والمجر . وقد ظل مع بعض التغيير فى الفاظه — النشيد القومى النمساوى حتى ١٩٣٨ . وطور هايدن اللحن ، مع تنويعات ، ليصبح الحركة الثانية فى رباعيته الوترية (٧٦ رقم ٣) .

ثم حاول أن ينافس « المسيا » وهو ما يزال أسيراً لسحر هندل . وكان

سالومون قد قدم له نصا مصنفا من قصيدة لمتن « الفردوس المفقود » ، وترجم فان زفيتن النص إلى الألمانية ، ولحن هايدن الأوراتوريو الضخم « دى شويفونج » (الخليقة) . وأدى إوراتوريو « الخليقة » أمام جمهور دعى إلى قصر الأمير فون شفارتسنبرج فى ٢٩ — ٣٠ إبريل ١٧٩٨ . وبلغ احتشاد الجمهور خارج القصر مبلغا إقتضى معه حفظ النظام إستخدام خمسين شرطيا من الخيالة (كما يؤكدون)[٤١] . ومول الأمير حفلة عامة فى المسرح القومى فى ١٩ مارس ١٧٩٩ ، ونفح مؤلف الموسيقى بكل دخلها (الذى بلغ أربعة آلاف فلورن) . وحيا السامعون الموسيقى بحماسة أشبه بالحماسة الدينية ، وما لبث الاوراتوريو أن أستمع إليه الناس فى كل مدينة كبرى تقريباً فى العالم المسيحى . وأدانت الكنيسة الكاثوليكية اللحن لأنه أخف وأجذل من إن يصلح لموضوع جليل كهذا ، ووافق شيلر بيتهوفن فى السخرية من تقليد هايدن لحيوانات جنة عدن ، أما جوته فقد أشاد بالعمل ، وظفر اللحن فى بروسيا بعروض فى القرن التاسع عشر فاقت فى كثرتها أى لحن كورالى آخر .

وقدم فان زفيتن نصا آخر إقتبسه من قصيدة جيمس طومسن «الفصول» . وعكف هايدن عليه بهمة قرابة عامين (١٧٩٩ — ١٨٠١) ، مما أضر كثيراً بصحته . وقد قال « أن « الفصول » قصمت ظهرى » . وحظيت حفلة العرض الأولى باستقبال طيب ، ولكن اللحن لم يثر حماسة واسعة أو دائمة . وبعد أن قاد هايدن « كلمات المسيح السبع الأخيرة » لصالح احد المستشفيات اعتزل حياته النشيطة .

وكانت زوجته قد ماتت فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، ولكنه كان الآن قد بلغ من الكبر حداً لا يتيح له الأستمتاع بحريته وإن لم يمنعه من الاستمتاع بشهرته . فقد إعترف به الناس إماما للمؤلفين الموسيقيين ، وتكاثرت عليه أسباب التشريف من شتى المدن ، ووفد عليه مشاهير الموسيقيين — أمثال كيروبينى ، وآل فيبر ، واجناز بلييل ، وهوميل — لتقديم واجب الاحترام والأجلال له . ولكن الروماتزم والدوار وغيرهما من الأوصاب أورثته

الاكتئاب وسرعة الغضب والتشبث الرهيب بأهداب الدين . وحين زاره كاميل بلييل فى ١٨٠٥ وجده « ممسكا بمسبحة فى يديه ، وأعتقد أنه يقضى أكثر يومه فى الصلاة ، وهو لا يفتأ يقول أن نهايته قد دنت . . . ولم نطل المكث معه لأننا رأينا أنه يريد أن يصلى[٤٢] . فى ذلك العام انتشرت شائعة كاذبة زعمت أن هايدن مات . وكتب كيروبينى كنتاتا عن موته ، وخططت باريس لحفلة موسيقية تذكارية يعزف فيها قداس موتسارت الجنائزى ، ثم وصل نبأ بان الشيخ ما زال على قيد الحياة . فلما سمع هايدن بالأمر قال معقباً « إذن لسافرت إلى باريس لأقود القداس الجنائزى بنفسى »[٤٣] .

وظهر آخر مرة أمام الجمهور فى ٢٧ مارس ١٨٠٩ حين رتلت «الخليقة» فى جامعة فيينا احتفالا بعيد ميلاده السادس والسبعين الوشيك . وأرسل الأمير استرهاتسى مركبته لنقل الرجل العاجز إلى الحفلة الموسيقية . وحمل هايدن على كرسى ذى مسندين إلى القاعة بين جمهور من النبلاء ومشاهير القوم ، ولفت الأميرات شيلانهن حول جسده المرتعش . وجثا بيتهوفن وقبل يده . وغلب التأثر المؤلف العجوز ، ولم يكن بد من اعادته إلى بيته فى فترة الاستراحة .

وفى ١٢ مايو ١٨٠٩ بدأت مدفعية نابليون تقصف فيينا . وسقطت قنبلة على مقربة من بيت هايدن فهزته هو وسكانه ، ولكن هايدن قال ليطمئنهم « ياأبنائى لاتخافوا ، فحيث يوجد هايدن لن يصيبكم سوء» . وصدق قوله إلا عن نفسه ، فقد حطم القصف جهازه العصبى . فلما استولى الفرنسيون على المدينة أمر نابليون بأن يرابط حرس شرف أمام بيت المؤلف . ورتل ضابط فرنسى عند دخوله لحنا من « الخليقة » بطريقة فيها كثير من الرجولة والسمو حتى أن هايدن عانقه وفى ٣١ مايو قضى نحبه وهو فى السابعة والسبعين ، وأقامت كبرى مدن أوربا كلها الصلوات تذكارا له .

يقتصر انجاز هايدن التاريخى على تطوير الأشكال الموسيقية . وقد أضفى على الأوركستر حيوية جديدة بما أوجده من توازن بين الأوتار وآلات النفخ والنقر . وإذ بنى فوق جهود سامارتينى وشتامتز وكارل

فليب ايمانويل باخ : فانه أرسى شكل الصوناتا باعتبارها عرضا وتفصيلا وتلخيصا لموضوعات متعارضة وأعد لموتسارت الموسيقى الخفيفة المسلية المسماة « ديفرتمنتو » باعتبارها أقل شكليةمن المتتالية وأنسب القاعات الاجتماعية. وأعطى الرباعية الوترية صورتها الكلاسيكية باطالتها إلى أربع حركات ، وباعطاء الحركة الأولى «شكل الصوناتا» . وهنا كان على خلفائه أن يستخدموا عدد ونوع الآلات التى استخدمها هايدن ، وقد حقق فى كثير من الحالات جمالا مشرقاً رقيقاً يعود إليه بعضنا متخففاً من التعقيدات العسيرة التى نجدها فى رباعيات بيتهوفن الأخيرة .

ولاتزال على قيد الحياة تسمع سمفونيات أو عشر من سمفونيات هايدن المائة والأربعة . ولم تكن الأسماء التى تحملها من اختياره ولكنها من وضع المعلقين أو الناشرين . وقد لاحظنا فى مكان سابق تطور «السنفونية» (أى الأصوات المجمعة) من المقدمة بفضل تجارب سامرتينى وشتامتز . وقد سبق كثيرون هايدن فى صياغة بناء السمفونية «الكلاسيكية» فلماخرج من استرهاتسا إلى عالم أرحب لم يكن قد بلغ من الكبر حداً يعجزه عن أن يتعلم من موتسارت كيف يملاء البناء مغزى وعاطفة . وتحدد « سمفونية أكسفورد » مرحلة صعوده إلى مدى أبعد وقوة أعظم،وترينا « السمفونيات اللندنية » هايدن فى قمة آفاقه السمفونية . والسمفونية رقم ١٠١ (سمفونية الساعة) مبهجة ، ورقم ١٠٤ لا يقل مستواها عن سمفونيات موتسارت .

ويمكن القول بوجه عام إننا نحس فى موسيقاه طبيعة لطيفة سمحة ربما لم تشعر قط بأعماق الحزن أو الحب ، طبيعة اضطرت إلى الانتاج فى عجلة لم تسمح بإنضاج الفكرة أو الموضوع أو الجملة . لقد كان هايدن أسعد من أن يبلغ العظمة العميقة ، ولقد تكلم أكثر مما يتيح له التعبير عن الكثير . ومع ذلك فـ ن فى هذه الانغام اللعوب ذخيرة من البهجة الصافية الهادئة ، فهنا كما قال « قد يستمتع المتعبون المكدودون ، أو الرجل الذى أثقلته هموم الحياة ، ببعض السلوى والانتعاش [٤٤] » .

وعقب موت هايدن انصرف العصر عن موسيقاه . فلقد عكست أعماله عالما اقطاعيا ثابتا وطيد الأركان ، وبيئة من الأمن والدعة الارستقراطيين ، وكان فى هذه الأعمال من المرح والرضى عن النفس ما لا يشبع قرنا ملؤه الثورات والأزمات والنشوات الرومانسية واليأس . ولكن الناس عادوا يقبلون عليه حين امتدحه براهز وكتب دبوسى « تحية اجلال لهايدن » (١٩٠٩) . عندها أدرك الناس أنه إذا كان رفائيل وميكلانجلو الموسيقى اللذان جاء بعده قد سكبا فكرا أعمق مع تمكن أرهف فى مؤلفاتهما الموسيقية ، فانهما لم يستطيعا ذلك إلا لأن هايدن ومن سبقوه صاغوا الأشكال التى تلقاها فنهما الرائع . قال هايدن « انى أعلم أن الله منحنى موهبة ، وأنا شاكر له هذه المنحة وأحسبنى قمت بواجبى وكنت ذا نفع . . فليصنع الآخرون كما صنعت . » (٤٥)

الفصل الخامس عشر

موتسارت

١ – الصبي العجيب : ١٧٥٦ – ٦٦

كانت سالزبورج مخفرا موسيقيا أماميا لفيينا ، شأنها فى ذلك شأن براغ وبرسبورج واستر هاتسا ، لها طابعها الخاص أولا بسبب مناجم ملحها التى تعلل اسمها ، وثانيا بسبب جبالها المجاورة ونهر زالتساخ الذى يشطرها شطرين ، وثالثا بسبب نموها حول الدير والكرسى الاسقفى اللذين أنشأهما هناك القديس روبرت الفورمزى حوالى عام ٧٠٠ م . وقد رقى رئيس أساقفتها لرتبة (الأمير الامبراطورى) فى ١٢٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٠٢ ظل حاكم المدينة المدنى والدينى جميعا . وفى ١٧٣١ – ٣٢ أكره نحو ثلاثين ألف بروتستنتى على الهجرة ، مخلفين سالزبورج كاثوليكية خالصة محكومة كلها بحكومة من رجال الدين الكاثوليك . وفيما عدا ذلك كان نير رئيس الاساقفة خفيفا على سكان سنيي العقيدة ، أقبلوا على المتع الجسدية وغيرها من مباهج الدنيا بعد أن أطمأنوا إلى حقائق الأبدية المؤكدة . وكان زيجسموند فون شراتنباخ رئيس الاساقفة أيام صبى موتسارت ، رجلا يتحلى بقدر كبير من الطيبة والشفقة إلا مع المهرطقين .

إلى هذه البلدة الجميلة إذن قدم ليوبولد موتسارت ، ١٧٣٧ وهو فى الثامنة عشرة من وطنه أوجزبورج ، ربما ليدرس اللاهوت ويمتهن القسوسية . ولكنه أسلم قلبه للموسيقى ، وخدم ثلاث سنين موسيقيا وتابعا فى بيت أحد النبلاء ، وفى ١٧٤٣ أصبح رابع عازفى الكمان فى أوركسترا رئيس الاساقفة . فلما تزوج آنا ماريا بيرتل (١٧٤٧) عدهما القوم أجمل عروسين فى سالزبورج . وقد ألف الكونشرتوات والقداسات والسمفونيات ، كما ألف كتابا مدرسيا لتقنية الكمان حظى طويلا بالتقدير . وفى ١٧٥٧ عين مؤلفا موسيقيا لبلاط رئيس الاساقفة . ولم يبق الموت إلا على اثنين من

أطفاله السبعة جاوزا سن الطفولة : ماريا آنا (ماريانا « نانيزل ») المولودة فى ١٧٥١ ، وفولفجانج أماديوس المولود فى ٢٧ يناير ١٧٥٦ (واسم الغلام الكامل — الذى تشفعت به الأسرة لدى قديسين عديدين — كان يوانس خريسوستومس فولفجانجس تيوفيلوس موتسارت ، وقد ترجم تيوفيلوس من اليونانية إلى اللاتينية بأماديوس أى محب الله .) وكان ليوبولد زوجا وأبا طيبا ، مخلصا ومجتهدا . وخطاباته لوالده تفيض محبة ولا تعوزها الحكمة . وكان بيت موتسارت — إذا أغضينا عن قليل من نابى الحديث يدور فيه — مرفأ للحب المتبادل ، والتقوى الأبوية ، والدعابات الطفلية ، والموسيقى التى لا تنقضى .

كان القوم يتوقعون من كل طفل ألمانى أن يصبح موسيقيا إلى حدما ، يعزف على إحدى الآلات . وعلم ليوبولد أطفاله الموسيقى مع مبادىء القراءة . فكانت ماريانا قد اتقنت فى الحادية عشرة العزف على الكلافيكورد . أما فولفجانج فقد عكف على الكلافير فى شغف بعد أن حفزته قدوتها ، فأستطاع فى الثالثة أن يميز بين الأوتار ، وفى الرابعة أن يعزف عدة قطع من الذاكرة ، وفى الخامسة ابتكر ألحانا سجلها أبوه أثناء عزفها . وأمتنع ليوبولد عن إتخاذ تلاميذ آخرين يلقنهم الموسيقى ليفرغ بجملته لطفلية وإن كلفه ذلك بعض التضحية . ولم يرسل « فولف » إلى المدرسة ، لأنه نوى أن يكون معلمه فى كل شىء . ولعل هذا التعليم إقتضى شيئاً من الضبط الألمانى ، ولكن لم تكن الحاجة لكثير منه فى هذه الحالة ، ذلك أن الغلام كان يلزم لوحة المفاتيح من تلقاء نفسه ساعات طوالا إلى أن يجبر على مبارحتها(١) . وقد كتب إليه ليوبولد بعد هذه الفترة بسنوات يقول :

« لقد كنت فى مرحلة الطفولة والصبى تسلك مسلكا جاداً يختلف عن مسلك سائر الأطفال ، وحين كنت تعزف الكلافير ، أو تعكف على الموسيقى ، لم تكن تسمح بأقل مزاح معك . لا بل إن سحنتك ذاتها كانت تتسم بطابع الجد الشديد ، حتى لقد تنبأ الكثيرون ممن راقبوك بأنك ستموت قبل أوانك بسبب نبوغك المبكر ومظهرك الجاد(٢) » .

وفى يناير ١٧٦٢ ، حين كانت ألمانيا مازالت تمزقها الحرب ، إصطحب ليوبولد إبنته وإبنه إلى ميونخ ليعرض على الأمير الناخب مكسمليان يوزف براعتهما فى العزف ، وفى سبتمبر إستصحبهما إلى فيينا . ودعيا إلى شونبرون ، وإبتهجت ماريا تريزا وفرانس الأول بالطفلين ، وقفز فولفجانج إلى حجر الأمبراطورة ، وضمها إليه وقبلها ، ولما تحداه الأمبراطور عزف على الكمان بأصبع واحدة ، وعزف على الكلافيكورد دون أن يخطىء رغم حجب المفاتيح بقطعة من قماش . وفيما كان فولفجانج يمرح وهو يجرى مع الأميرات ، زلت قدمه وسقط ، فالتقطته الأرشيدوقة ماريا أنطونيا — وكانت فى السابعة — وراحت تسرى عنه . فقال لها « أنت طيبة » ، ثم أضاف شاكراً « سوف أتزوجك(٢) » . وفتح الكثير من النبلاء بيوتهم لآل موتسارت وبهتوا للموسيقى التى سمعوها وأثابوا ثلاثتهم بالمال والهدايا . ثم ألزم الغلام الفراش أسبوعين لأصابته بالحمى القرمزية — وكان هذا أول الأمراض الكثيرة التى ستنغص عليه رحلاته . وفى ١٧٦٣ عادت الفرقة إلى سالزبورج .

وأغضى رئيس الأساقفة المتسامح عن تجاوز ليوبولد فترة أجازته ، لا بل رقاه نائبا لرئيس فرقة المرتلين ولكن فى ٩ يونيو شد ليوبولد رحالة مرة أخرى مضحيا بالمزيد من الترقيات ، مصطحباً هذه المره زوجته ، ليعرض ولديه على أوربا ، إذ لم يكن ممكنا أن يظلا أبد الدهــر طفلين معجزين . وقدم الطفلان حفلتين موسيقيتين فى ماينز وأربعاً فى فرانكفورت وقد استعاد جوته بعد ستين عاماً ذكرى استماعة إلى إحداها ، وكيف تعجب من « الرجل القصير ذى الباروكة والسيف » — لأنه هكذا ألبس ليوبولد إبنه فولفجانج كأنه عجيبة من عجائب السرك . ففى إعلان نشر فى جريدة فرانكفورتية بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٧٦٣ وعد المتفرجون فى حفلة ذلك المساء بالآتى :

« ستعزف الفتاة الصغيرة ذات الأحدى عشرة سنة أعسر مؤلفات كبار الموسيقيين ، أما الصبى الذى لم يبلغ السابعة بعد فسيعزف على الكلافيكورد

أو الهاربسيكورد . كذلك سيعزف كونشرتو للفيولينه ، ويصاحب سمفونيات على الكلافير ولوحة المفاتيح مغطاة بالقماش فى يسر بالغ كأنه يبصر المفاتيح. وسيسمى جميع النغمات التى تعزف عن بعد ، سواء مفرده أو متوافقة ، على الكلافير أو على اية آلة أخرى — جرسا كانت أو كأسا أو ساعة . وأخيراً سيرتجل على الهاربسيكورد والأرغن طوال ما يراد له أن يعزف ، وفى أى مقام[٤] » .

وربما أضرت هذه المطالب المرهقة التى فرضت على مواهب الصبى بعض الضرر بصحته أو أعصابة ، ولكن يبدو أنه استمتع بتصفيق الجمهور إستمتاع أبيه بدنانيره .

وقد عزفوا فى كوبلنتز ، وخاب أملهم فى بون وكواوينا ، ولكنهم أحيوا حفلة فى آخن . وفى بروكسل توقعوا أن يشرف الحاكم العام الأمير شارل اللوريني الحفل بحضوره ، ولكنه كان مشغولا . كتب ليوبولد غاضباً :

« لقد إنقضى علينا الآن قرابة ثلاثة أسابيع فى بروكسل . . دون أن نحدث شيء . . . وما من شغل لسموه غير الصيد والتهام الطعام والشراب ، وقد يتبين لنا فى النهاية أنه مفلس ... صحيح أننا تلقينا العديد من الهدايا هنا، ولكنا لانريد أن نحولها إلى نقود . . . وسيكون فى إستطاعتنا بعد قليل أن نفتح متجراً بكل هذه الهدايا من علب النشوق والحقائب الجلدية وما إليها من توافه رخيصة[٥] » .

وأخيرا وافق الأمير على الحضور فأحييت الحفلة ، وجمعت الدنانير ، وركبت الفرقة ميممة باريس .

وفى ١٥ نوفمبر ١٧٦٣ بلغوا باريس بعد معاناة ثلاثة أيام من السفر على طريق وعرة تملؤها الحفر . وكانوا يحملون خطابات تقديم إلى كثير من الأعيان ، ولكن تبين أن أثمنها خطاب إلى ملشيور جريم ، الذى رتب أن يستقبل آل موتسارت مدام ديمبادور ، والأسرة المالكة ، وأخيرا لويس الخامس عشر والملكة مارى لسزنسكا . وفتحت الآن أفخم البيوت للزائرين ،

وحالف التوفيق حفلاتهم الخاصة والعامة ، وكتب جريم إلى قرائه فى حماسة يقول :

« إن المعجزات الحقيقية نادرة ، ولكن ما أعجب أن تتاح لنا الفرصة لرؤية واحده منها ! لقد قدم لتوه رئيس فرقة مرتلين من سالزبورج أسمه موتسارت بصحبة إثنين من أجمل الأطفال فى العالم فى فاماً إبنتة البالغة من العمر أحد عشر ربيعاً فتعزف على البيان أروع عزف ، وتؤدى أطول المقطوعات وأصعبها بدقة مذهلة . وأما أخوها الذى سيبلغ السابعة فى فبراير القادم فظاهرة خارقة بحيث لا تكاد تصدق ما تراه بعينيك . . . فيداه صغيرتان جداً . . . وهـــو يرتجل ساعة ، مستسلما لوحى عبقريته ، بذخيرة من الأفكار المبهجة . . . وليس لدى أكفأ رئيس لفرقة موسيقى ما لهذا الطفل من المعرفة العميقة بتآلف الألحان والتنقل بين النغمات . . . وليس أيسر عنده من حل أى رموز تضعها أمامه . وهو يكتب ويؤلف بيسر مدهش ، ولا يجد ضرورة للذهاب إلى البيانو واختبار الأوتار التى يريدها . وقد كتبت له « منويتا » وطلبت إليه أن يضع باصاً لها . فأمسك بقلم وكتب الباص دون أن يذهب إلى البيان . . . أن الطفل سيدير رأسى إن استمعت إلى المزيد من عزفه . . . ومن أسف أن الناس فى هذا البلد لا يفقهون عن الموسيقى إلا أقل القليل(٦) » .

وبعد أن حققت الأسرة الكثير من الأنتصارات فى باريس غادرتها إلى كالية (١٠ أبريل ١٧٦٤) . وفى لندن استقبلهم جورج الثالث . وفى ١٩ مايو ، أمام الملك والحاشية ، طوال أربع ساعات عزف فوالفجانج موسيقى هندل وباخ ، غيرهما من كبار الموسيقيين بمجرد النظر إلى المدونة وصاحب غناء الملكة شارلوت ، وارتجل لحنا جديداً لباص أغنية لهندل . أما يوهان كرستيان باخ ، الذى كان قد إتخذ لندن مقاماً له فى ١٧٦٢ ، فأجلس الصبى على ركبته وعزف معه صوناتا ، وكان كل منهما يعزف فاصلة بدوره « فى دقة بالغة ما كان فى استطاعة أحد معها أن يحسب العزف من عازفين لا من عازف واحد(٧) » . وبدأ باخ « فوجة » ، وتابعها

فولفجانج ، كما لو كان العازفان العبقريان عازفا واحداً هنا أيضاً . وبعدها طلت مؤلفات موتسارت سنوات عديدة متأثره بيوهان كرستيان باخ . وفى ٥ يونيو أحيا الطفلان حفلة أبهجت قلب ليوبولد بمائة جنية انجليزى خالصة . ولكن الأب أصيب بالتهاب شديد فى الحلق ، واعتكفت الأسرة فى تشلسى للاستجمام أسابيع عدة ، ألف فيها فولفجانج سمفونيتين (ك١٦ و ١٩) ، وكان الآن يناهز الثامنة .

وفى ٢٤ يوليو ١٧٦٥ غادروا لندن إلى هولنده ، ولكن فى مدينة ليل مرض الوالد وولده ، وأرجئت الجولة شهرا ، وإن كان رئيس الأساقفة فون شراتنباخ قد طلب إلى ليوبولد أن يعود منذ زمن . ووصلوا إلى لأهاى فى ١١ سبتمبر ، ولكن فى الغد مرضت ماريانا بدورها ، ولم تلبث أن تدهورت حالها حتى أنها فى ٢١ أكتوبر تناولت الأسرار المقدسة الأخيرة . وفى ٣٠ سبتمبر أحيا فولفجانج حفلة بدون مساعدة أخته . وما إن تماثلت للشفاء حتى دهمته الحمى ، واضطرت الأسرة إلى تعطل كلفها غاليا حتى يناير ١٧٦٦ . وفى ٢٩ يناير و ٢٦ فبراير أحيوا حفلات فى امستردام ، وعزفت الأن لأول مره سمفونية لموتسارت (ك ٢٢) أمام الجمهور . وكان الصبى خلال هذه الشهور يؤلف فى نشاط محموم . وفى مايو قفلوا إلى باريس حيث كانوا قد تركوا كثيراً من حقائبهم . وهيأ جريم لهم مسكنا مريحا ، وعادوا يعزفون فى فرساى وفى حفلات عامة ، ولم يقتلعوا أنفسهم من العاصمة الفاتنة إلا فى ٩ يوليو .

وأطالوا المكث فى ديجون ضيوفا على أمير كونديه ، وأنفقوا أربعة أسابيع فى ليون ، وثلاثة فى جنيف ، وأسبوعا فى لوزان ؛ وآخر فى برن ، وأثنين فى زيورخ ، واثنى عشر يوما فى دوناوشنجن ثم وقفات قصيرة فى بيبراخ ، وأولم ، وأجزبورج ، وفترة أطول فى ميونخ ، حيث مرض فولفجانج مرة أخرى . وأخيراً ، فى آخريات نوفمبر ١٧٦٦ ، وبعد غيبة ثلاث سنين ونصف ، وصلت الأسرة إلى سالزبورج . وصفح عنهم رئيس الأساقفة الشيخ ، وإستطاعوا الآن أن ينعموا بأسباب الراحة المتاحة فى

بينهم . وبدا أن كل شيء على ما يرام ، ولكن موتسارت لم يستعد بعدها صحته موفورة قط .

٢ — مرحلة المراهقة : ١٧٦٦ — ٧٧

كان ليوبولد رب عمل صارما لا يعرف هوادة ولا تلين له قناة . درب ولده تدريبا شاقا على دراسة الكونترا بنظ ، والباص الدقيق الكامل ، وغير ذلك من عناصر التأليف الموسيقى التى تلقاها من الموسيقى الألمانيةوالايطالية. وحين سمع الأسقف أن فولفجانج يؤلف الموسيقى تساءل ألم يتعاون معه أبوه فى هذا التأليف . ولكى يقطع الشك باليقين دعا الغلام ليقيم معه أسبوعا ثم عزله عن كل معونة خارجية ، ودفع إليه ورقا وقلما وأعطاه هاربسيكوردا وطلب إليه أن يؤلف قسما من أوراتوريو عن الوصية الأولى . وفى ختام الأسبوع قدم إليه موتسارت نتيجة عمله ، وقيل لرئيس الأساقفه . إنها جديره بالثناء . وكلف رئيس أوركستراه ميخائيل (أخا يوزف) هايدن بأن يؤلف قسما ثانياً ، وعازف أرغنه أن يؤلف قسما ثالثاً ، ثم عزف الكل فى قصر رئاسة الأسقفية فى ١٢ مارس ١٧٦٧ ، ورؤى أنه يستحق الأعادة فى ٢ أبريل . وقسم موتسارت وارد الآن تحت رقم ٣٥ فى كتالوج كوشل(*)

وبلغ ليوبولد أن الأرشيدوقة ماريا يوزفا ستزف قريباً إلى فرد يناند ملك نابلى ، فخطر له أن الاحتفالات التى ستقام فى القصر الأمبراطورى ستتيح فرصة جديدة لولدية . وعليه قصدت الأسرة فيينا فى ١١ سبتمبر ١٧٦٧ . فأستقبلوا فى القصر ، وكانت النتيجة إصابة فولفجانج وماريانا كليهما بالجدرى الذى التقطا عدواه من العروس . وأخذ الأبوان التعسان طفليهما المعجزين إلى أولموتز بموراقيا ، حيث قدم لهما الكونت بوتستاتسكى

(*) صدر هذا أصلا فى ليبزج عام ١٨٦٢ تحت اسم Chronologisch-thematisches Verzeichniss sammtlicher Tonwerke W,A. Mozarts ونحن نستعمل الطبعة المنقحة من عمل ألفريد أينشتين فى كتابه « موتسارت شخصيته وآثاره (لندن ١٩٥٧) ، ٤٧٣ - ٨٣

المأوى والرعاية وظـــل موتسارت أعمى تسعة أيام . وفى ١٠ يناير عادت الأسرة إلى فيينا . واحتفلت بهم الأمبراطوره ويوزف الثانى ، ولـكن البلاط كان فى حداد على وفاة العروس ، ولم يكن هناك محل لأحياء حفلات موسيقية .

وبعد غياب طويل لا نفع فيه عادت الأسرة إلى ساليزبورج (٥ يناير ١٧٦٩) وواصل موتسارت دراساته مع أبيه ، ولـكن فى أواخر ذلك العام قرر ليوبولد أنه علم الصبى كل ما يستطيع أن يعلمة ، وأن ما يحتاج إليه فولفجانج الآن هو الألمام بحياة ايطاليا الموسيقية . ومن ثم حصل الأب وابنه على خطابات تقديم لـكبار الموسيقيين الأيطاليين من يوهان هاسى وغيره ، ثم انطلقا فى رحلتهما فى ١٣ ديسمبر ١٧٦٩ تاركين ماريانا وأمها ليحتفظا بموطىء قدم فى سالزبورج . وفى الليلة التالية أحيا موتسارت حفلة فى إنزبروك ، وعزف بمجرد الاطلاع على النوتة كونشرتو غير مألوف وضع أمامة إمتحانا لمهارتة ، وهللت الصحافة المحلية لـ « معلوماتة الموسيقية الخارقة[٨] » . وفى ميلان التقيا بسامارتينى وهاسى وبتشينى ، وحصل الكونت فون فرميان لفولفجانج على تـكليف بتأليف أوبرا ، وهذا معناه مائة دوقاتية تدخل خزانة الأسرة . وفى بولونيا استمعا إلى صوت فارينللى الذى لم يزل معجزا ، وكان قد عاد من انتصاراته فى أسبانيا ، ورتبا مع بأدرى مارتينى أن يعود فولفجانج ليدخل الاختبارات المؤهلة لدبلوم « الأكاديميا فيلارمونيكا » المرموق . وفى فلورنسة ، فى قصر الأرشيدوق ليوبولد ، عزف موتسارت على الهاربسيكورد مصاحباً فيولينة نارديني . ثم هرع الأب وولده إلى روما ليلحقا موسيقى أسبوع الآلام .

ووصلا فى ١١ أبريل ١٧٧٠ ، أثناء عاصفة رعدية برقية ، فحق لليوبولد أن يكتب أنهما « استقبلا استقبال عظماء الرجال بإطلاق المدافع[٩] » . وكان وصولهما بالضبط فى وقت سمح لهما بالذهاب إلى كنيسة السستين والاستماع إلى « ميزريرى » (لحن المزمور الخمسين « أرحمنى ») الذى ألفه جريجوربو الليجرى ، والذى كان يرتل هناك كل عام . وكان من العسير

الحصول على نسخ من هـــذا الـكورال الأشهر المكتوب لأربعة أصوات أو خمسة أو تسعة ، فأصغى إليه موتسارت مرتين ثم كتبه من الذاكرة . ومكثا فى روما أربعة أسابيع ، وأحييا حفلات موسيقية فى بيوت النبلاء مدنيين وكنسيين . وفى ٨ مايو انطلقا فى رحلتهما إلى نابلى . وكان الطريق خطرا لانتشار اللصوص فيه ، فسافر موتسارت وأبوه مع أربعة رهبان أو غسطينين ابنالا الحماية الدينية أو يظفرا بتناول القربان قبل الموت فى هذه الضرورة الملحة . واستبقتهما نابلى شهرا بأكمله لأن النبلاء ابتداء من تانوتشى فتازلا دعوهما لأمسيات ووضعوا كل أسباب الترف تحت تصرفهما. فلما عزف فولفجانج فى « الكونسرفاتوريو ديللا بييتا » عزا الجمهور المؤمن بالخرافات براعته لضرب من السحر كامن فى خاتم يلبسه . وأدهشهم أنه واصل العزف بالبراعة ذاتها بعد أن خلع خاتمة .

وبعد أن استمتعا بالمقام فى روما مره أخرى عبرا الأبنين ليصليا للعذراء فى كنيستها « سانتا كازا » بلوريتا ، ثم اتجها شمالا لينفقا ثلاثة أشهر فى بولونيا . وكان موتسارت يتلقى كل يوم تقريبا دروسا من بادرى مارتينى فى أسرار التأليف الموسيقى . ثم تقدم لاختبار القبول فى « الأكاديميا فيلارمونيكا » ، فأعطى قطعة من ترنيمة بسيطة جريجورية ، طلب إليه أن يضيف إليها وهـــو محبوس وحده فى حجرة نوتات عليا ثلاثا بالأسلوب التقليدى الدقيق « stile osserrato » وأخفق فى المحاولة ، ولكن البادرى الطيب صحح إجابته ، وقبل المحلقون الصورة المنقحة « نظرا إلى الظروف الخاصة » — ربما لصغر سن موتسارت .

وفى ١٨ أكتوبر كان الوالد والولد فى ميلان . هناك حقق فولفجانج أول إنتصاراتة مؤلفاً موسيقيا ، ولكن بعد الجهد الجهيد والمعاناة الكثيرة وكان موضوع الأوبرا التى كلف بها «متر داتى ، ملك بنطس» ، وقد أخذ النص من راسين . وراح الفتى الذى لم يجاوز الرابعة عشرة يكد ويكدح تأليفاً وعزفاً وتنقيحا حتى كلت أصابعه واستحالت حماسته ضربا من الحمى ، فاضطر أبوه إلى أن يحدد ساعات عملة ويهدىء من اضطرابه بنزهة على

الأقدام بين الحين والحين . وأحس موتسارت أن هذا الاختبار ، وهو أول أوبرا جاده يؤلف موسيقاها ، أشد خطرا له من ذلك الامتحان العتيق الذى أداه فى بولونيا . فقد يكون مستقبله مؤلفا لموسيقى الأوبرا رهنا بنتيجته . وترسل الآن إلى أمه واخته ان يصليا من أجل نجاح هذه المغامرة رغم انه لم يكن شديد الميل إلى التقوى والورع ، « حتى ننعم كلنا بالعيش معا مرة أخرى »[١٠]. وأخيرا حين كادت تضنيه كثرة البروفات ، قدمت الأوبرا للجمهور (٢٦ ديسمبر ١٧٧٠) ، وقادها مؤلفها، وكان انتصاره كاملا . وقوبلت كل أغنية هامة بالتصفيق الحاد ، وبعضها بهتافات يحى المايسترو يحى المايسترو الصغير . وأعيد عرض الأوبرا عشرين مرة . كتب الأب الفخور التقى « بهذا نرى كيف نعمل قوة الله فينا حين لاندفن المواهب التى منحنا إياها فضلا منه »[١١] .

واستطاعا الآن أن يعودا إلى موطنهما برؤس مرفوعه . ففى ٢٨ مارس ١٧٧١ وصلا إلى سالزبورج . وما إن بلغاها حتى تلقيا طلبا من الكونته فون فرميان ، باسم الأمبراطورة ، يرجو أن يكتب فولفجانج سريناتا أو كنتاتا ، ويحضر إلى ميلان فى أكتوبر ليقودها جزءا من الاحتفالات التى ستقام بمناسبة زفاف الأرشيدوق فرديناند إلى أميرة مودينا . ووافق رئيس الأساقفة زجسموند على أن يتغيب ليوبولد مرة أخرى عن أعماله ، وفى ١٣ أغسطس يمم الوالد والولد من جديد شطر ايطاليا ، فلما وصلا إلى ميلان وجدا فيها هاسى يعد أوبرا للاحتفالات ذاتها . وقد رتبه المديرون — ربما عن غير عمد منهم — لقاء للعبقرية يتنافس فيه أشهر مؤلفى الأوبرا الايطالية الأحياء ، البالغ آنذاك ثلاثة وسبعين عاما ، مع غلام الخامسة عشرة الذى لم يكد يفرغ من اختبار جناحيه فى التحليق الأوبرالى . وأديت أوبرا هاسى المسماة « رورجيرو » فى ١٦ اكتوبر فقوبلت بتصفيق حار وفى الغد رتلت كنتاتا موتسارت المسماة (Ascanio in Alba) تحت عصا قيادته ، وكان التصفيق خارقا . وكتب ليوبولد لزوجته « يؤسفنى ان سريناتا فولفجانج طمست أوبرا هاسى طمسا تاما[١٢] . وكان هاسى

كريما سمح النفس ، فشارك في الثناء على موتسارت ، وفاه بنبوءة مشهورة « ان هذا الفتى سيلقينا كلنا في زوايا النسيان »(١٣) .

وعاد الوالد والولد إلى سالزبورج (١١ ديسمبر ١٧٧١) . وبعد خمسة أيام مات زجسموند الطيب . وكان خلفه في رئاسة الأسقفية ، وهو هيرونيموس فون باولا ، كونت كولوريدو رجلا عقلاني الثقافة ، معجبا بروسو وفولتير ، مستبدا مستنيرا يتوق إلى تنفيذ الاصلاحات التي كان يعدها يوزف الثاني . ولكنه فاق حتى يوزف في استبداده مع استنارته : فكان يشترط الانضباط والطاعة ولا يطيق المعارضة . ولم يقنع من موتسارت إسهاما في حفل تنصيبه في ٢٩ ابريل ١٧٧٢ بأقل من أوبرا يؤلفها لهذه المناسبة . واستجاب الفتى الذي ذاع صيته الآن سريعا بأوبرا «حلم سكيبيو» ، وقد وفت بالغرض منها ثم نسيت . واغتفرها كولوريدو ، وعين فولفجانج رئيسا لفرقة الموسيقى براتب سنوي قدره ١٥٠ فاورينا . وعكف الفتى شهورا على تأليف السمفونيات والرباعيات والموسيقى الدينية ، ولكنه أكب أيضا على أوبرا « لوتشيو سيللا » التي طلبتها ميلان لتعرض في ١٧٧٣ .

ولم يحل ٤ نوفمبر ١٧٧٢ حتى كان ليوبولد وصانع ثروته في عاصمة لومبارديا مرة أخرى ، وراح فولف بعد قليل يكد ويكدح ليوفق بين أفكاره الموسيقية ونزوات المغنين وقدراتهم . وبدأت مغنية الأوبرا الأولى « البريمادونا » بالغطرسة والبرم بكل شيء ، وكان « المايسترينو » صبورا طويل الأناة معها ، وانتهت بحبه وصرحت بأنها « قد فتنتها المعاملة الفذة التي عاملها بها موتسارت »(١٤) . ولم تلق حفلة الافتتاح (٢٦ فبراير ١٧٧٢) النجاح الأكيد الذي لقيته « متريداتي » قبل عامين ، فقد مرض المغني التينور أثناء البروفات ، واقتضى الأمر إحلال مغن آخر محله لم يكن له سابق خبرة على خشبة المسرح ، ومع ذلك احتملت الأوبرا تسعة عشر عرضا . وكانت موسيقاها صعبة ، والأغاني منشودة بالانفعالات فوق ما ينبغي . ولعل أثرا من الحركة الأدبية الألمانية المسماة

Sturm und Drang (أى الدفع والجهاد ، وهى ثورة على التنوير الفرنسى) وقد دخل هنا دخولا معارضا إلى الأوبرا الايطالية[١٥] . على موتسارت جلب معه نظير هذا وضوح الغناء الايطالى الجميل (البيل كانتو) ، وزادت أجواء ايطاليا المشرقة وحياة هوائها الطلق من إشراق روحه السعيدة بفطرتها . وتعلم فى ايطاليا أن الأوبرا الهازلة ، كما سمعها فى أعمال بتشينى وبايزييللو ، يمكن أن تكون فنا رفيعا ، فدرس شكلها ، وأبلغه الكمال فى « فيجارو » و « دون جوفانى » . لقد كانت كل تجربة يمر بها تعليما للذهنه اليقظ وأذنيه المرهفتين .

وشهد ١٣ مارس ١٧٧٣ الوالد والولد مرة أخرى فى سالزبورج . ولم يكن رئيس الأساقفة الجديد متسامحا فى فترات غيابهما الطويل كما كان زجسموند ، ولم ير مبررا لمكافأة ليوبولد بترقيته ، وعامل فولفجانج كأنه مجرد فرد فى حاشيته الخاصة . وتوقع من موتسارت وأبيه أن يزودا كورسه وأوركستراه بالموسيقى فورية ، جديدة ، جيدة . فظلا يشقيان عامين ليرضياه . ولكن ليوبولد لم يدركيف يستطيع أن يعول أسرته دون هذه الجولات الاضافية ، أما فولفجانج الذى تعود على سماع تصفيق الاستحسان له فلم يستطع تقبل وضعه خادماً موسيقيا . ثم أنه أراد أن يكتب الأوبرات ، وكان مسرح سالزبورج ، وكورسها ، وأوركستراها وجمهورها — كل أولئك أصغر من أن يسمح لهذا الفرخ الألمعى بأن يرفرف جناحيه النامين .

ثم إنقشعت السحب فترة حين كلف مكسمليان يوزف أمير بافاريا الناخب موتسارت بأن يكتب أوبرا هازلة لكرنفال ميونخ لعام ١٧٧٥ ، وحصل على موافقة رئيس الأساقفة ، بمنح المؤلف وأبيه أجازة من العمل . فغادرا سالزبورج فى ٦ ديسمبر ١٧٧٤ . وعانى فولفجانج من البرد القارس الذى ابتلاه بوجع فى الاضراس أقسى من إن تخفف منه الموسيقى أو الفلسفة ولكن حفلة الافتتاح لأوبرا « البستانية المزعومة » التى قدمت فى ١٣ يناير ١٧٧٥ حملت كرستيان شوبارت — وكان مؤلفا مرموقا — على التنبؤ بأنه

« ما لم يثبت موتسارت فى النهاية أنه نبات ربى فى مستنبت زجاجى [أى عجلت بنموه العناية البيتية المكثفة] ، فلست أشك فى أنه سيصبح من أعظم المؤلفين الموسيقيين حتى يومنا هذا »[١٦] وعاد موتسارت إلى سالزبورج ورأسه يدوم بنشوة النجاح ليقوم بخدمة أحس أنهـا ضرب حقير من العبودية .

وأمر رئيس الأساقفة بدراما موسيقية احتفالا بزيارة الأرشيدوق مكسمليان ابن ماريا تريزا الأصغر ، وأخذ موتسارت نصا قديما لمتاستازيو وألف « الملك الراعى » . وقد أديت فى ٢٣ أبريل ١٧٧٥ . والقصة سخيفة ، أما الموسيقى فرائعة ، ومازالت مقتطفات منها تظهر فى ربرتوار الحفلات الموسيقية . وكان موتسارت فى غضون هـذا يتدفق بالصوناتات والسمفونيات والكونشرتوات والسرينادات ، والقداسات ، ومن مؤلفات هذه الأعوام التعسة قطع تعد من روائعة الخالدة — مثل كونشرتو البيانو فى مقام E الخفيض (ك ٢٧١) والسريناده فى مقام B (ك ٢٥٠) . على أن رئيس الاساقفة قال له إنه لا يفقة شيئاً فى فن التأليف الموسيقى ، وإن عليه أن يذهب ليدرس فى كونسرفتوار نابلى[١٧] .

وطلب ليوبولد الأذن بأن يأخذ ابنه فى جولة بعد أن عجز عن احتمال الموقف فوق ما احتمل ، فرض كولوريدو وقال إنه لا يسمح بأن يظل أفراد من موظفيه « يستجدون الرحلات » فلما عاود ليوبولد الطلب فصله رئيس الاساقفة هو وابنه من وظيفتيهما . واغتبط فولفجانج ، ولكن ليوبولد روعته فكرة القذف به وهو فى السادسة والخمسين فى خضم عالم لا يميز الطيب من الخبيث . ولانت قناة رئيس الاساقفة ورده إلى منصبه ، ولكنه لم يسمح له بأى غياب عن عمله . فمن تراه يصحب فولفجانج الآن فى الغزوة البعيدة التى اختطت له ؟ لقد بلغ موتسارت الحادية والعشرين ، وهى سن المغامرة الجنسية والقيود الزيجية ، ولقد كان الآن أحوج إلى الأرشاد منه فى أى وقت مضى . ومن ثم تقرر أن تصحبه أمه . أما ماريانا التى حاولت أن تنسى أنها هى أيضاً كانت فيما مضى فتاة عبقرية فقد مكثت لتبذل لأبيها

أكرم الرعاية والمحبة . وفى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ غادرت الأم وأبنها سالزبورج ليغزوا ألمانيا وفرنسا .

٣ — الموسيقى والزواج : ١٧٧٧ — ٧٨

كتب موتسارت لابيه — من ميونيخ فى ٢٦ سبتمبر يتغنى بما ظفر به من تحرر : « إننى فى أفضل حالاتى النفسية ، فرأسى تخفف من الأثقال كأنه الريشة منذ إنطلقت بعيداً عن ذلك الهراء ، وفوق ذلك أصبحت أسمن من ذى قبل»[١٨]. ولا بد أن هذا الخطاب تقاطع مع خطاب آخر من ليوبولد ، الذى قد يذكرنا انفعاله مرة أخرى بأن أحداث التاريخ كتبت على أجساد البشر :

« بعد أن رحلتما كلا كما صعدت سامنا فى غاية التعب ، وألقيت بنفسى على مقعد . وحين تبادلنا عبارات الوداع بذلت جهودا كبيرة لأتماسك حتى لا أجعل فراقنا شديد الأيلام ؛ وفى غمرة الزحام والأضطراب نسيت أن أمنح ولدى بركة الأب . فعدوت إلى النافذة وأرسلت بركتى خلفك ولكنى لم أرك . . . وقد بكت نانيرل بكاء مرا . . . وكلانا نرسل التحيات لأمك ونقبلك أنت وهى ملايين المرات »[١٩] .

وعلمت ميونيخ فولفجانج إنه لم يعد معجزاً فى عالم الموسيقى ، إنما هو موسيقى فرد فى بلد يفوق فيه المعروض من مؤلفى الموسيقى وعازفيها عدد المطلوب منهم . وكان الأمل قد راوده فى الحصول على وظيفة طيبة فى حاشية الناخب الموسيقية ، ولكن كل الوظائف كانت مشغولة . فمضت الأم وولدها إلى أوجزبورج ، حيث أفنيا نفسهما فى زيارة أصدقاء ليوبولد أيام شبابه إستجابة لألحاح ليوبولد ، ولكن الأحياء منهم كان أكثرهم الآن يشكو السمنة والركود ، ولم يجد فولفجانج فيهم ما يثير إهتمامه اللهم إلا ابنة عم مرحة تدعى ماريا أنا تكلا موتسارت سوف يخلد اسمها بعبارات بذيئة . وكان ادنى إلى غرضه صانع بيانات يدعى يوهان إندرياس شتاين ، هنا

ولأول مره بدأ موتسارت الذى كان إلى الآن يعزف على الهاربسيكورد يقدر إمكانات الآلة الجديدة ، وما إن بلغ باريس حتى كان قد تم إنتقاله إلى البيانو . وفى حفلة موسيقية فى أوجزبورج عزف على البيانو والفيولينة فظفر بتصفيق شديد وربح ضئيل .

وفى ٢٦ أكتوبر مضت الأم وابنها إلى مانهايم . هناك استمتع موتسارت بالصحبة والتشجيع من موسيقيين بارعين ، ولكن الأمير الناخب كارل تيودور لم يستطع أن يجد له وظيفة ، واكتفى بأن أثابه على أدائه فى البلاط بساعة ذهبية لا أكثر . وكتب موتسارت إلى أبيه يقول « كان أصلح لى أن ينفحنى بعشرة كارولينات . . . إن النقود هى ما يحتاج إليه المرء وهو فى رحلة ، واعلم أننى الآن أملك خمس ساعات . . . وأنا أفكر جدياً فى عمل جيب للساعات فى كل سروال من سراويلى ، وحين أزور شريفاً كبيراً سألبس ساعتين . . . حتى لا يخطر له أن ينفحنى بساعة[٢٠] » . ونصحه ليوبولد أن يبادر بالرحيل إلى باريس حيث يتلقى المساعدة من جريم ومدام دبينيه ، ولكن فولفجانج أقنع أمه بأن الرحلة أشق من أن تطيقها فى شهور الشتاء . وإذ إفترض ليوبولد أنهما راحلان عما قليل إلى باريس ، فقد حذر فولفجانج من نسائها وموسيقيها ، وذكره بأنه الآن الأمل المرجو فى أعالة الأسرة . وقال ليوبولد إنه إستدان سبعمائة جولدن ، وإنه يعطى دروسا خصوصية فى شيخوخته .

« وهذا أيضاً فى بلدة يبخس فيها أجر هذا العمل المرهق . . . إن مستقبلنا رهن بفطنتك الكبيرة . . . وأنا عليم بأنك تحبنى ، لا بوصفى أباك فحسب ، بل أصدق أصدقائك وأوفاهم ، وأنك تفهم وتقدر أن سعادتنا وشقاءنا ، وأكثر من ذلك طول أجلى أو التعجيل بموتى ، كلها . . . فى يديك أنت بعد الله . وإذا كنت قد أصبت فى قراءة أفكارك ، فإنى لا أتوقع منك غير الفرح والاغتباط ، وهذا وحده خليق أن يعزينى وأنا محروم لغيابك من بهجة الأب وأنا أسمعك وأبصرك وأضمك بين ذراعى.. من صميم قلبى أمنحك بركتى الأبويه[٢١] » .

وفى أحد خطابات ليوبولد (٩ فبراير ١٧٧٨) أضافت « نانيريل » التى بلغت الآن السادسة والعشرين والتى كانت لعدم توفر المهر تواجه مستقبل العوانس ، سطورا تكمل صورة هذه الأسرة المتحابة :

« إن بابا لايترك لى أبداً متسعا لأكتب لماما ولكن . . إنى أتوسل إليها إلا تنسانى ... وأتمنى لكما رحلة سارة إلى باريس مقرونة بالصحة السابغة . على أننى أرجو صادقة أن أستطيع عناقكما سريعاً . والله وحده عليم متى يحدث هذا. كلانا تواق لأن تحقق لنفسك الثراء ، فهذا معناه سعادتنا جميعاً . إنى أقبل يدى ماما وأعانقك ، وآمل أن تذكرنا وتفكر فينا دائماً . ولكن عليك إلا تفعل إلا إذا كان فى وقتك متسع ، ولو ربع ساعة تتخفف أثناءه من التأليف والتدريس »[٢٢] .

فى هذا المزاج من التفاؤل العظيم والثقة المشربة بالحب تلقى ليوبولد خطاباً كتبه فولفجانج فى ٤ فبراير يعلن إليه فيه وصول كيوبيد . ذلك أن رجلا من صغار الموسيقيين فى مانهايم يدعى فريدولين فيبر ، حباه الحظ وأثقل كاهلة بزوجة وخمس بنات وولد . وكانت السيدة فيبر تلقى شباكها لتقتنص الازواج ، لاسيما لكبرى بناتها يوزيفا ذات التسعة عشر ربيعاً ، التى بلغت سن الزواج وخيف إن تفوتها سوقه. ولكن موتسارت تعلق بألويسيا ذات الستة عشر ربيعاً ، التى جعلها صوتها الملائكى ومفاتنها الرائعة حلماً يراود خيال الموسيقى الشاب . ولم يكد يلحظ كونستانتسى ذات الأربعة عشر ربيعاً التى قدر لها أن تكون زوجته . وقد ألف لألويسيا بعضاً من أرق أغانيه . فلما غنتها نسى مطامحه وفكر فى مرافقتها — مع يوزيفا وابيهما — إلى ايطاليا حيث تستطيع الحصول على تدريب صوتى وتتاح لها فرص أوبراليه ، بينما يعينهم هو على العيش باحياء الحفلات الموسيقية وتأليف الأوبرات . كل هذا شرحه العاشق الصغير الشجاع لأبيه قال :

« لقد أحببت هذه الأسرة التعسة حبا جعل أعز أمانى أن أسعدهم .... ونصيحتى إليهم أن يقصدوا ايطاليا . والآن أود أن تكتب لصديقنا الطبيب

لوجاتى ، وخير البر عاجله ، وتستفسر منه عن أفضل الشروط التى تعطى لمغنية أوبرا أولى فى فيرونا . . . أما عن غناء ألويسيا فأنى أراهن بحياتى أنها ستجلب لى الشهرة . . فإذا نجحت خطتنا — فاننا — الهر فيبر ، وابنتاه وأنا — سنشرف بزيارة أختنا العزيزه أسبوعين فى طريقنا مرورا بسالزبورج . . . وسيسرنى أن أكتب أوبرا لفيرونا لقاء خمسين تسكينى (٦٥٠ دولارا) ولو لتتاح لها فرصة الشهرة . . . وسوف تكون الابنة الكبرى نافعة جداً لنا ، لأنها تستطيع أن تدير شئون بيتنا ، فهى خبيرة بالطهو . وبالمناسبة ، لا تدهش كثيرا إذا عرفت أنه لم يبق معى سوى اثنين وأربعين جولدينا من السبعة والسبعين ، وليس هـــذا إلا نتيجة أبتهاجى لوجودى مرة أخرى فى صحبة قوم شرفاء على شاكلتى فى التفكير . . .

« وافنى برد سريع . ولا تنس مبلغ شوقى لكتابة الاوبرات . وأنا أحسد أى إنسان يؤلف أوبرا . وأكاد أبكى غيظا حين أسمع . . . لحنا (آريا) . ولكن أوبرا أيطالية لا ألمانية ، وجادة لاهازلة . . والآن قد كتبت كل ما يثقل صدرى . وأمى راضية تمام الرضى عن أفكارى . . . وفكرة مساعدة أسرة فقيرة دون الأضرار بى تبهج نفسى فى الصميم . إنى أقبل يديك ألف مرة ، ومازلت حتى الموت ولدك المطيع جداً(٢٣) »

ورد ليوبولد فى ١١ فبراير :

« ياولدى العزيز : لقد قرأت خطابك المؤرخ ٤ الجارى بدهشة ورعب . . لقد جفانى النوم الليل كله . . . يا إلهى الرحيم ! ... لقد ولت تلك اللحظات السعيدة حين كنت وأنت طفل أو غلام لا تمضى إلى فراشك دون أن تقف على كرسى وترتل لى . . . وتقبلنى المرة بعد المرة على طرف أنفى وتقول لى إننى حين أشيخ ستضعنى فى صندوق زجاجى وتحمينى من كل نسمة هواء ، حتى تحتفظ بى دائماً معك وتكرمنى . أصغ إلى إذن وتذرع بالصبر ! . . .

ومضى يقول إنه كان يأمل أن يؤجل فولفجانج زواجه حتى يؤمن

لنفسه مكانا مكينا فى عالم الموسيقى ، وعندها يبنى بزوجة صالحة ، وينجب أسرة طيبة ، ويعين أبويه وشقيقته . ولكن هذا الابن ينسى الآن أبويه بعد أن فتنته « سيرانة » شابة ، ولا يفكر إلا فى أن يتبع فتاة إلى ايطاليا كأنه فرد فى بطانتها . فياله من هراء لايصدق !

« إنطلق إلى باريس ، ومن فورك ، وابحث عن مكانك بين عظماء القوم ، فأما أن تكون شيئاً عظيما أو لا شىء إطلاقا » ، فمن باريس يدوى اسم الرجل ذى الموهبة العظمى وشهرته ويجلجلان فى أرجاء الدنيا بأسرها . هناك يعامل النبلاء العبقريين بأعظم إحترام وتقدير ومجاملة ، وهناك سترى أسلوبا مهذباً من الحياة هـــو النقيض المذهل لخشونة رجال حاشيتنا الألمان ونسائهم ، وهناك تستطع التمكن من اللغة الفرنسية »(٢٤) .

وأجاب موتسارت فى تواضع بأنه لم يأخذ مأخذ الجد الشديد خطة مرافقة آل فيبر إلى ايطاليا ، ثم ودع الأسرة وداعا باكيا ، ووعد بأن يراهم فى طريقه إلى أرض الوطن . وفى ١٤ مارس ١٧٧٨ اتخذ هو وأمه طريقهما إلى باريس مستقلين المركبة العامة .

٤ — فى باريس ١٧٧٨

وبلغاها فى ٢٣ مارس ، وصادف وصولهما بالضبط حركة تمجيد فولتير التى طغت على نبأ قدومهما . واتخذا لهما مسكنا بسيطا ، وانطلق موتسارت باحثا عن عمل يكلف به . واستجمع جريم ومدام دبينيه جهدهما ليلفتا بعض النظر إلى الشاب الذى هللت له باريس عجيبة موسيقية قبل أربعة عشر عاما . فعرضت عليه فرساى وظيفة عازف أرغن البلاط لقاء ألفى جنيه لخدمة ستة أشهر كل سنة ونصحه ليوبولد بقبول العرض ، وعارض جريم ، ورفض موتسارت الوظيفة لأن الأجر بخس ، وربما لأنها لاتناسب موهبته . وفتحت له بيوت كثيرة إن قبل العزف على البيانو لقاء وجبة غداء أوعشاء . ولكن حتى الوصول إلى هذه البيوت اقتضى رحلة غالية فى عربة تشق طرقا موحلة . ولاح بصيص من الأمل

فى أحد النبلاء المدعو الدوق دجين ، والف موتسارت له ولإبنته الكونشرتو الرائع فى مقام (C) للفلاوته والهارب (ك٢٩٩) ، وأعطى الشابة النبيلة دروسا فى التأليف الموسيقى لقاء أجر طيب ، ولكنها لم تلبث أن تزوجت ولم يدفع الدوق سوى ثلاثة جنيهات ذهبية « لوى دور » (٧٥ دولارا) لكونشرتو كان خليقا بأن يطرح باريس تحت قدمى موتسارت . ولأول مرة فى حياته فارقته شجاعته . فكتب إلى أبيه فى ٢٩ مايو يقول « اننى فى صحة لا بأس بها ولكننى كثيرا ما أتساءل هل الحياة تستحق أن يعيشها المرء » . وانتعشت روحه المعنوية حين كلفه لجرو ، مدير الكونسير سبرتيويل بكتابة سمفونية (ك ٢٩٧) أديت بنجاح فى ١٨ يونيو .

ثم ماتت أمه فى ٣ يوليو . وكانت قد بدأت حياتها الجديدة بالاستمتاع بتخففها من متاعب سالزبورج وعناء الزوجية ، ولكن سرعان ماحنت إلى بيتها وواجباتها واتصالاتها اليومية التى تضفى على حياتها غنى ومغزى . وحطمت صحتها رحلة الأيام التسعة إلى باريس فى مركبة مهتزة ورفقة منفرة ومطر غزير ، وألقى فشل ابنها فى أن يجد له وظيفة فى باريس ظلا من الكآبة على روحها المرحة عادة . وراحت تقضى الأيام وحيدة وسط بيئة غريبة وألفاظ لاتفهمها ، بينما يذهب ابنها إلى تلاميذه وإلى الحفلات الموسيقية والأوبرات ... ورآها موتسارت الآن تذبل فى هدوء ، وانفق الأسابيع الأخيرة بجوارها يرعاها ويحنو عليها ولايكاد يصدق أنها قد تموت بهذه السرعة .

وقدمت له مدام دبينيه حجرة فى منزلها مع جريم ، ومكانا على مائدتها ، وحرية استعمال بيانها . ولم ينسجم تماما مع جريم فى هذه الجيرة ، القريبة فلقد كان جريم يمجد فولتير وموتسارت يحتقره ، وصدمه زعم مضيفيه وأصدقائهم بأن المسيحية ليست سوى أسطورة نافعة فى ضبط المجتمع . وأراده جريم أن يقبل التكليفات الصغيرة سبيلا إلى الكبيرة ، وأن يعزف دون أجر الأسر ذات النفوذ ، بيد أن موتسارت أحس أن عملا كهذا سينضب قوته التى يؤثر أن يدخرها للتأليف . وحكم

جريم بأنه كسلان ، وأخبر ليوبولد بحكمه هذا فأمن عليه[٢٥] . وزاد الموقف سوءاً اقتراض موتسارت المرة بعد المرة من جريم مبالغ بلغت جملتها خمسة عشر جنيها ذهبيا (٣٧٥ دولارا) . وأخبره جريم أن فى امكانه تأجيل السداد إلى أجل غير مسمى . وكذلك كان[٢٦] .

وحسم الموقف خطاب (٣١ أغسطس ١٧٧٨) من موتسارت الأب يقول إن رئيس الأساقفة كولوريدو عرض أن يرقى الأب رئيسا للمرتلين إذا عمل فولفجانج عازفا على الأرغن ورئيسا للموسيقيين ، على أن يعطى كل منهما خمسمائة فلورين فى العام ، يضاف إلى هذا « أن رئيس الأساقفة صرح أنه على استعداد لأن يسمح لك بالسفر حيث تشاء ان أردت كتابة أوبرا » . ثم أضاف ليوبولد طعما قدر أن موتسارت لابد مبتلعه . فقال ان ألويسيا فيبر ستدعى على الأرجح للانضمام إلى كورس سالزبورج ، وفى هذه الحالة « لابد ان تعيش معنا »[٢٧] . ورد موتسارت (١١ سبتمبر) حين قرأت خطابك هزنى الطرب لأننى شعرت بأنى أصبحت فعلا فى حضنك . صحيح أن العرض لايحمل أملا كبيرا لى فى المستقبل كما إخالك معترفا ، ولكن حين أتطلع إلى لقائك وعناق أختى العزيزة جدا لا أفكر فى أى أمل آخر » .

وعليه ففى ٢٦ سبتمبر استقل المركبة إلى نانسى . وفى ستراسبورج كسب بضعة جنيهات لقاء حفلات شاقة فى مسارح كادت تخلو من روادها . وتلبث فى مانهايم أملا فى تعيينه قائدا للأوبرا الألمانية ، ولكن هذا الأمل أيضاً خاب كغيره ومضى إلى ميونخ وهو يحلم بألويسيا فيبر . ولكنها كانت قد وجدت مكانا فى كورس الأمير الناخب ، ربما فى قلبه ، فاستقبلت موتسارت بهدؤ لم يبد فيه أى رغبة فى أن تكون عروسا له . فألف وغنى أغنية مره ، ثم راض نفسه على قبول سالزبورج .

٥ — سالزبورج وفيينا : ١٧٧٩ — ٨٢

وصل إلى البيت فى منتصف يناير ، واستقبل باحتفالات ألقى عليها ظلا من الحزن إدراكه الأليم الآن لحقيقة موت الأم . وسرعان ما شد إلى

نبره عازفا للأرغن ورئيسا لفرقة الموسيقى ، وسرعان ما أصابه القلق والتبرم وقد تذكر هذه الأيام فيما بعد :

« فى سالزبورج كان العمل عبئاً على ، ولم أكد أستطيع إن أسكن إليه قط . فلم ذلك ؟ لأننى لم أكن قط سعيداً . . . فليس فى سالزبورج — من وجهة نظرى على الأقل — تسلية لها أى قيمة . وأنا أرفض الاختلاط بأشخاص كثيرين هناك — أما غيرهم فأكثرهم لا يروننى صالحا لصحبتهم . أضف إلى ذلك إنه ليس هناك من حافز لموهبتى . وكأن الجمهور خشب مسندة لا تستجيب حين أعزف أو حين تؤدى قطعة من تأليفى . أتمنى لو كان فى سالزبورج ولو مسرح واحد متوسط الجودة[٢٨] » .

وتاقت نفسه إلى كتابة الأوبرات ؛ ورحب بطلب الأمير الناخب كارل تيودور أن يكتب أوبرا لمهرجان ميونخ التالى . فشرع يكتب « إيدومنيو ملك كريت » فى أكتوبر ١٧٨٠ ، وفى نوفمبر ذهب إلى ميونخ لعمل البروفات . وفى ٢٩ يناير ١٧٨١ أخرجت الأوبرا بنجاح رغم طولها غير العادى . ومكث موتسارت فى ميونخ ستة أسابيع أخرى ، يستمتع بحياتها الاجتماعية ، حتى أستدعاه رئيس الأساقفة كوللوريدو ليلحق به فى فيينا . هناك سره أن يسكن القصر الذى يسكنه رئيسه ، ولكنه كان يأكل مع الخدم . « يجلس التابعان على رأس المائدة ؛ وأنا أحظى بشرف الجلوس مقدما على الطباخين[٢٩] » . وكان هذا عرفا شائعا فى ذلك العصر فى بيوت النبلاء ، وقد احتمله هايدن باستياء مكظوم ، أما موتسارت فقد تمرد عليه فى علانية متزايدة . وقد سره أن تعرض موسيقاه وموهبته فى بيوت أصدقاء رئيس الأساقفة ؛ ولكنه استشاط غيظاً حين رفض كوللوريدو معظم توسلاته أن يأذن له بقبول ارتباطات خارجية قد تأتيه بدخل إضافى وشهرة أوسع . « حين أفكر فى أننى سأغادر فيينا دون أن يكون فى حوزتى ألف فلورين على الأقل يغوص قلبى فى باطنى[٣٠] » .

وصحت نيته على أن يترك خدمة كوالوريدو . ففى ٢ مايو ١٧٨١ ذهب ليسكن نزيلا مع آل فيبر الذين كانوا قد أنتقلوا إلى فيينا . ولما أرسل

إليه رئيس الأساقفة تعليماته بالعودة إلى سالزبورج ، أجاب بأنه لن يستطيع الرحيل قبل ١٢ مايو . وتلا ذلك لقاء مع رئيس الأساقفة ، روى موتسارت مادار فيه لأبيه فقال :

« إنه رماني بأقذع الشتائم — أوه ! إنني في الحق لا أستطيع حمل نفسي على أن أكتبها كلها لك ! وأخيراً ، حين أحسست بالدم يغلي في عروقي ، لم أطق أن أحتمل أكثر مما احتملت ؛ فقلت له « إذن فسموك لست راضيا عني » ماذا ! أتريد أن تهددني ، أيها الوغد ، أيها النذل ؟ دونك الباب إذن ، لن يكون لي صلة بعد اليوم برجل تعس مثلك ! « وأخيرا قلت » ولا أنا بك . « إذن فأخرج ! » وفيما أنا خارج قلت « فليكن ، وغدا سيصلك مني خطاب » . قل لي يا أبي العزيز أما كان لزاما علي أن أقول هذا عاجلا أو آجلا ؟ . . .

« اكتب لي سراً بأنك مسرور — لأن لك الحق في أن تسر حقيقة — وانتقدني إنتقادا قاسيا علانية ، حتى لا يقع عليك أي لوم أو تثريب . ولكن إذا نالك من رئيس الأساقفة أي اهانة فتعال إلى فورا في فيينا . ففي وسعنا نحن الثلاثة أن نعيش على دخلي[٣١] » .

ودفع بليوبولد في أزمة أخرى . وبدا أن منصبه تعرض للخطر ، وكان لابد أن ينقضي بعض الوقت حتى تصلة تأكيدات من كوللوريدو . وافزعه نبأ مساكنة ابنه لآل فيبر . فقد مات رب الأسرة ، وتزوجت اليوسيا الممثل يوزف لانجي ، ولكن كان الأرملة بنت أخرى تدعى كونستانتسى تنتظر زوجاً . أفهذا طريق مسدود آخر أمام فولفجانج ؟ وتوسل إليه ليوبولد أن يعتذر لرئيس الأساقفة ويعود . ورفض موتسارت لأول مرة أن يطيع أباه . « إنني في سبيل رضاك يا أبي مستعد لأن اتخلى عن سعادتي وصحتي بل وحياتي ذاتها ، ولكن شرفي فوق كل شيء عندي ، وكذلك يجب أن يكون عندك . يا أعز الآباء وأكرمهم ، طالبني بما شئت إلا هذا[٣٢] » . وفي ٢ يونيو بعث إلى ليوبولد بثلاثين دوقاتية عربونا لمساعدته المقبلة .

وتوجة ثلاث مرات إلى مسكن رئيس الأساقفة بقيينا ليقدم إستقالته الرسمية . ورفض حاجب كولوريدو أن ينقلها لسيده ، وفى المرة الثالثة « ألقى بموتسارت خارج حجرة الأنتظار وأردف ذلك بركلة فى ظهره » — وهى العبارة التى وصف بها موتسارت المشهد فى خطابه المؤرخ ٩ يونيو[٣٣]. ولكى يرضى أباه أنتقل من بيت فيبر إلى مسكن آخر . وأكد لليوبولد أنه إنما كان « يمزح » فقط مع كونستانتسى . « ولو كان على أن أتزوج كل من ضحكت معهن لكان لدى على الأقل مائتا زوجة[٣٤] » . على أنه كتب لأبية فى ١٥ ديسمبر يقول إن كونستانتسى غاية فى اللطف والسذاجة وحب البيت ، وهو لذلك يريد أن يتزوجها » .

« أترعبك الفكرة ؟ ولكنى أتوسل إليك يا أعز أب وأحبه أن تصغى إلى . . . إن صوت الطبيعة يتكلم فى باطنى عالياً كما يتكلم فى غيرى — بل ربما أعلى مما يتكلم فى رجل ضخم قوى غليظ . إننى ببساطة لا أستطيع أن أعيش كما يعيش معظم الشباب فى هذه الأيام . أولا لأننى متدين جداً ، وثانياً لأننى أشد حباً للجار وأرفع احساساً بالشرف من أن أغوى فتاة بريئة ، وثالثا لأن بى من الرعب والتقزز ، ومن رهبة الأمراض والخوف منها ، ومن الرعاية لصحتى ، ما يعصمنى من العبث مع النسوة الفاجرات . وفى وسعى أن أقسم أنه لم يكن لى قط علاقات من هذا النوع مع أى امرأة ... وأراهن بحياتى على صدق ما قلته لك . . .

« ولكن من هى موضوع حبى ؟ . . أليست إحدى بنات فيبر ؟ بلى.. إنها كونستانتسى . . . أرقهن كلهن وأذكاهن وأفضلهن جميعاً . . . قل لى هل فى إستطاعتى أن أتمنى لنفسى زوجة خيراً منها .. قصارى ما أطمع فيه أن يكون لى دخل مضمون صغير (وهذا رجائى الوطيد بحمد الله) ، وعندها لن أكف عن رجائك بأن تسمح لى أن أنقذ هذه الفتاه المسكينة وأن أحقق لى — ولنا جميعاً إن جاز لى القول — السعادة الكاملة . فلا أشك ن أن سعادتى تسعدك ؟ وستحظى بنصف دخلى الثابت . . . أرجوك أن تشفق على ولدك ! [٣٥] »

ولم يعرف لوبولد ماذا يصدق . فقد بذل كل جهد ليثنى ولده المفلس تقريباً عن الزواج ، ولكن موتسارت أحس بأنه بعد أن قضى ستة وعشرين عاماً من الطاعة لأبيه آن الأوان لينفذ مشيئته ويحيا حياته . وظل سبعة أشهر يلتمس عبثاً موافقة أبيه ، وأخيراً ، فى ٤ أغسطس ١٧٨٢ ، تزوج دون هذه الموافقه . وفى ٥ أغسطس وصلت الموافقة ، وأصبح موتسارت الآن حراً فى إن يكتشف إلى أى حد يستطيع المرء إن يعول أسرة بتأليف حشد من أكثر أنـــواع الموسيقى الرائعة تنوعاً فى تاريخ الإنسان .

٦ — المؤلف الموسيقى

كان له عذره فى الثقة بنفسه ، لأنه كان قد أشتهر عازفاً على البيان ، وحصل على دروس خاصة لتلاميذ يدفعون أجورا مجزية ، وأخرج أوبرات ناجحة ، فلم يمض شهر على تركه خدمة رئيس الاساقفة حتى تلقى من الكونت أورسينى — روزنبرج مدير مسارح بلاط يوزف الثانى ، تكليفا بتأليف (دراما منطوقة) تتخللها الأغانى . وعرضت النتيجة فى ١٦ يوليو ١٧٨٢ ، فى حضرة الامبراطور ، تحت اسم (الاختطاف من السراى) . وأداها فريق من خصومه ، ولكن كل السامعين تقريبا فتنتهم الأغانى المرحة التى ازدان موضوع عتيق : حسناء مسيحية يأسرها القراصنة ، ويبعوثها لحريم تركى ، ثم ينقذها حبيبها المسيحى بعد دسائس لا تصدق . وكان تعليق يوزف الثانى على الموسيقى « انها يا عزيزى موتسارت أجمل مما تحتمله آذاننا ، وأنغامها كثيرة جدا » . وهو تعليق أجاب عنه المؤلف المتهور « انها بالضبط يا صاحب الجلالة بالكثرة التى يقتضيها المقام » . (٣٦) وأعيد عرض الأوبريت ثلاثا وثلاثين مرة فى فيينا فى سنيها الست الأولى . وقد أطراها جلوك ، وإن أدرك أنها أغفلت تماما « إصلاحه » للأوبرا ، وأعجب بالتأليفات الآلية لهذا الشاب العنيف ، ودعاه لتناول الغداء معه .

وقد استمد موتسارت الهامه من إيطاليا لا من ألمانيا ، وآثر اللحن والتوافق البسيط على البوليفونية « تعدد الأصوات » المعقدة المتعمقة . ولم

يشعر بتأثيرات قوية من هندل ويوهان سبستيان باخ إلا فى عقده الأخير . وفى ١٧٨٢ انضم إلى الموسيقيين الذين كانوا يحيون الحفلات تحت رعاية البارون جوتفريد فان زفيتن ، وأكثرها من تأليف هندل وباخ ، فى المكتبة القومية أو فى بيت فان زفيتن . وفى ١٧٧٤ كان البارون قد جلب من برلين إلى فيينا كتاب (فن الفوجة) و(الكلافورد الحسن الضبط) وغيرهما من أعمال ى . س . باخ . واستنكر الموسيقى الايطالية لأنها تفتقر إلى الاتقان الشديد ، ورأى أن الموسيقى الحقة تتطلب الالتفات الدقيق للفوجة ، والبوليفونية ، والكونترابنط . أما موتسارت فهو وإن لم يسمح قط للبناء أو القاعدة أو الشكل بأن تكون غاية فى ذاتها ، فقد أفاد من نصيحة فان زفيتن وموسيقاه ، ودرس هندل وآل باخ الكبار بعناية . وبعد ١٧٨٧ قاد موسيقى هندل فى فيينا ، وسمح لنفسه بشىء من الحرية فى توفيق مدونات هندل لأوركسترات فيينا . وفى موسيقاه الآلية اللاحقة زواج بين الميلوديا الايطالية والبولفونية الألمانية فى وحدة متسقة .

والنظرة العجلى إلى كتالوج كوشل لمؤلفات موتسارت هى إحدى التجارب الشديدة الوقع فى النفس . فهناك قائمة ضمت ٦٢٦ عملا — وهى أكبر حجم من الموسيقى خلفه أى مؤلف عدا هايدن ، وكلها أنتج فى حياة صاحبها التى لم تتجاوز ستا وثلاثين سنة ، وتحوى روائع من شتى الأشكال : ٧٧ صوناتا ، و ٨ ثلاثيات ، و ٢٩ رباعية و ٥ خماسيات ، و ٥١ كونشرتو ، و ٩٦ قطعة خفيفة (ديفرتمنتى) أو رقصات أو سرينادات ، و ٥٢ سمفونية ، و ٩٠ لحنا أو أغنية ، و ٦٠ مؤلفا دينيا ، و ٢٢ أوبرا . وإذا كان بعض من كانوا قريبين من موتسارت حسبوه كسولا ، فربما كان السبب أنهم لم يدركوا تماما أن عناء الروح قد يضنى الجسد ، وأن العبقرية إذا حرمت فترات الكسل انزلقت إلى الجنون . وقد قال له أبوه (إن التأجيل خطيئتك التى لا تفتأ محدقة بك) (٣٧) . وكان موتسارت فى كثير من الحالات يؤجل إلى آخر ساعة تدوين الموسيقى التى كانت تتخلق فى رأسه . قال « إننى — إن شئت — منقوع فى الموسيقى . فهى فى عقلى طوال اليوم ، وأنا أحب أن أحلم بها ، وأدرسها ، وأتأملها . » (٣٨) وقد روت زوجته « كان دائم النقر على شىء ما — على قبعته ، أو كاتينة

ساعته — أو المائدة أو المقعد وكأنها لوحة المفاتيح . »[٣٩] وكان أحيانا يواصل هذا التأليف الصامت حتى وهو يبدو مصغيا لاحدى الأوبرات . وكان يحتفظ بقصاصات من ورق تدوين الموسيقى فى جيوبة أو فى جيب العربة الجانبى وهو مسافر ، ثم يدون عليها نوتات متناثرة ، وقد ألف أن يحمل علبة من الجلد تتلقى هذه الاشتات . فإذا تأهب للتأليف لم يجلس إلى لوحة المفاتيح بل إلى منضدة . تقول كونستانتسى « كان يكتب الموسيقى كما يكتب الخطابات ، ولم يحاول قط عزف حركة حتى تكتمل . » أو قد يجلس إلى البيان ساعات بأكملها يرتجل ويترك خياله الموسيقى حرا طليقا فى الظاهر ولكنه فى نصف وعى يخضعه لبناء متميز — كشكل الصوناتا ، أو الآريا ، أو الفوجة . . . وكان الموسيقيون يستمتعون بارتجالات موتسارت لأنهم كانوا يستطيعون أن يتبينوا فى ابتهاج خفى النسق المتوارى خلف أنغام تبدو عفوية فى ظاهر الأمر . قال نيمتشك فى شيخوخته « لو جرؤت على أن أصلى طلبا لفرحة أرضية أخرى لكانت أن أسمع موتسارت يرتجل»[٤٠]

وكان فى إستطاعة موتسارت أن يعزف أى موسيقى تقريباً بمجرد الاطلاع نوتتها لأن طول خبرته بارتباطات النوتات وتعاقباتها المعينة أتاح له قراءتها كأنها نوتة واحدة ، وكانت أنامله المدربة تعزفها كأنها جملة أو فكرة موسيقية واحدة ، تماماً كما يستوعب القارىء المدرب سطرا كأنه كلمة ، أو فقرة كأنها سطراً . واقترنت ذاكرة موتسارت بهذه القدرة على إدراك الكليات ، والأحساس بالمنطق الذى يلزم الجزء بالدلالة على الكل . وفى السنوات اللاحقة كان يستطيع أن يعزف أيا من كونشرتواته تقريباً عن ظهر قلب . وفى براغ كتب أجزاء الطبلة والبوق للخاتمة الثانية فى « دون جوفانى » دون أن تتاح له نوته الآلات الأخرى ، وكان قد حفظ تلك الموسيقى المعقدة فى ذاكرته . وذات مرة دون جزء الفيولينه فقط من صوناتا للبيانو والفيولينه ، وفى الغد ، ودون بروفا ، عزفت رجينا سترينا زاكى جزء الفيولينه فى حفلة ، وعزف موتسارت جزء البيانو من مجرد ذكرى تصوره دون أن يتسع له الوقت لتدوينها على الورق[٤١] . ولعل صحائف التاريخ لا تحوى ذكرى رجل آخر استغرقته الموسيقى إلى هذا الحد .

ونحن ننظر إلى صوناتات موتسارت على إنها أقرب إلى الخفة والمعابثة ، وأنها لا تقف فى صف مع ألحان بيتهوفن المشبوبة القوية من نفس النوع ، وقد يكون السبب أنها كتبت لتلاميذ محدودى المهارة فى العزف ، أو لها ربسيكوردات ذوات تصويت محدود ، أو لبيانو لم يؤت وسيلة لمواصلة نغمة[٤٢] . والصونات فى مقام A (ك ٣٣١) . وما حوت من « منويته » ممتعة ، و « الروندو اللاأتوركا » مازالت (١٧٧٨) بأسلوب الهاربسيكورد .

ولم يكن موتسارت أول الأمر يهتم بموسيقى الحجرة ، ولكن فى ١٧٧٣ وقع على رباعيات هايدن المبكرة ، وحسد ما فيها من براعة كونترابنطية ، وقلدها تقليدا قارب النجاح فى الرباعيات الست التى ألفها فى تلك السنة . وفى ١٧٨١ نشر هايدن سلسلة أخرى ، وحرك هذا موتسارت ثانية للمنافسة فأصدر (١٧٨٢ — ٨٥) ست رباعيات (ك ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ — ٦٥) يعترف الجمع الآن بأنها من أرفع الأمثلة فى بأبها . وشكا العازفون من صعوبتها الهائلة ، وانتقد النقاد الرباعية السادسة على الأخص لتنافراتها المتعارضة ومزجها الصاخب بين المفاتيح الكبيرة والصغيرة ورد موسيقى ايطالى النوتة للناشر محتجا بأن من الواضح أنها تزخر بالأخطاء الفظيعة . ومزق أحد المشترين أوراقها وقد استشاط غضباً حين وجد إن التنافرات متعمدة . ومع ذلك فإن هايدن قال لليوبولد موتسارت بعد عزفة الرباعيات الرابعة والخامسة والسادسة مع موتسارت وديترسدورف وغيرهما « أمام الله ، وبصفتى رجلا صادقا ، أقول لك إن إبنك أعظم من عرفت من المؤلفين قاطبة سواء شخصيا أو بالأسم . فهو ذواقة ، وأكثر من ذلك يملك أعمق معرفة بالتأليف الموسيقى[٤٢] » . فلما نشرت الرباعيات الست (١٧٨٥) أهداها موتسارت إلى هايدن بخطاب يتألق بتفرده حتى وسط ما تبادلا من رسائل كلها رائع :

« إن أبا قرر أن يدفع بأبنائة إلى الدنيا الواسعة فرأى من واجبه أن يكلهم إلى رعاية وارشاد رجل كان ذائع الصيت فى ذلك الحين ، واتفق فوق ذلك إنه كان أصدق أصدقائه . وبالمثل أدفع بأبنائى السته إليك ، أيها الصديق

الأعز الأشهر . حقاً أنهم ثمرة درس طويل شاق ، ولكن الأمل الذى عللنى به أصدقاء كثيرون بأن تعبى فيهم سيعوضة بعض الجزاء . . . يملؤنى زهواً بهـذه الفكرة ، وهى أن أبنائى هؤلاء سوف يكونون يوما ما مبعث عزاء لى .

« لقد اعربت لى أثناء مقامك بهذه العاصمة . . . عن استحسانك لهذه المؤلفات ، ويشجعنى تقديرك لها على أن اهديها إليك ويغرينى بالأمل بأنك لن تراها غير جديرة برضائلك . فأرجو أن تتفضل بقبولها ، وكن لها بمثابة الأب والمرشد والصديق . ومنذ هذه اللحظة أنزل لك عن جميع حقوق عليها . على أننى ألتمس منك أن تعفو عن الأخطاء التى ربما غابت عن عين مؤلفها المتحيزة ، وان تواصل برغمها صداقتك الكريمة لرجل يقدر هذه الصداقه اسمى تقدير(٤٤) » .

وكان لموتسارت ولـع خاص بخماسياته . وكان يرى أن خماسيته بمقام E المنخفض للبيانو والأوبوا والكلا رنيت والهورن والباصون (ك٤٥٢) « خير ما ألفت قاطبة(٤٥) » . ولكن هذا كان قبل أن يكتب أوبراته الكبرى . وكانت قطعة Einekleine Nachtmusik « موسيقى ليلية صغيرة » فى الأصل (١٧٨٧) مؤلفة كخماسية ، ولكن سرعان ما تلقتها الأوركسترات الصغيرة ، وهى الآن تصنف بين سرنادات موتسارت . وكان يقدر السريناده بمقام E المنخفض (ك ٣٧٥) لأنها مكتوبة « بشىء من العناية » ، وهى القطعة التى عزفت له هو نفسه ذات أمسية فى ١٧٨١ ، ولكن الموسيقين يؤثرون عليها فى المرتبة السرنادة بمقام C الصغير (ك ٣٨٨) — التى تعدل فى قتامتها ألحان بتهوفن وتشايكوفسكى الحزينة (الباتتيك) .

ووجة موتسارت الأوركستر بعد أن اكتشفه إلى عشرات التجارب : افتتاحيات ، وموسيقات حالمة ، ومتتاليات ، وكاسا سيونات cassations (وهى تنويعات للمتتالية) وموسيقات راقصة ، وأخرى خفيفة (ترفيهية divertimenti) ، وقصد بالأخيرة عادة إن تخدم هدفا عابرا لا أن يتردد

صداها فى أبهاء التاريخ ، وعلينا أن نستمتع بها لا أن نزنها . وحتى مع هذا ، فإن القطعة الخفيفة رقم ١٥ (ك ٢٨٧) ورقم ١٧ (ك ٣٣٤) عملان قيمان ، وأبعث للبهجة من معظم السمفونيات .

واستعمل موتسارت كما استعمل هايدن لسمفونياته « فرقة » من خمسة وثلاثين عازفا ، ومن ثم فهى تقصر دون توصيل قيمتها الكاملة لآذان ألفت الجهورية المضاعفة فى أوركسترات القرن العشرين ويطرى النقاد السمفونية رقم ٢٥ (ك ١٨٣) لأنها « مشبوبة العاطفة[٤٦] » و « آية فى التعبير العنيف .. [٤٧] » ولكن أقدم سمفونيات موتسارت المشهورة هى « باريس » (رقم ٣١ ك ٢٩٧) التى طوعها موتسارت لحب الفرنسيين للرقة والفتنة . أما سمفونية هافنر (رقم ٣٥ ك ٣٨٥) فقد ألفت أصلا على عجل لتزدان بها المهرجانات التى أعدها زجسموند هافنر ، عمدة سالزبورج السابق ، لزفاف ابنته (١٧٨٢) ، وفى تاريخ لاحق أضاف موتسارت إليها أدوارا للفلاوته والكلارنيت ثم قدمها فى فيينا (٣ مارس ١٧٨٣) فى حفلة حضرها يوزف الثانى « وصفق لى الأمبراطور تصفيقا حارا » ، ونفحة بخمس وعشرين دوقاتية[٤٨] . وفى هذه السمفونية ورقم ٣٦ ، التى كتبها فى لنتز فى نوفمبر ١٧٨٣ ، ظل موتسارت محافظا على الشكل والطابع — المبهجين دائماً ، العميقين فيما ندر — اللذين طبع بهما هايدن السمفونية ، وفى السمفونيتين تقع الحركة البطيئة من الآذان المسنة موقع الاغتباط والعرفان . وعلينا أن نتكلم باحترام أكثر على السمفونية رقم ٣٨ التى ألفها موتسارت لبراغ فى ١٧٨٦ ، هنا تبهج الحركة الأولى الموسيقى بمنطقها البنائى ومهارتها الكونترابنطية ، أما حركتها المعتدلة البطء (الأندانتى) التى أضافت التأمل إلى اللحن ، فقد حملت الخبراء على الاشادة بـ « كمالها الخالد[٤٩] » و « عالمها السحرى[٥٠] » .

وهنالك إجماع على أن أعظم سمفونيات موتسارت قاطبة هى الثلاث التى سكبها فى سيل متدفق من الالهام فى صيف ١٧٨٨ ، فى حقبة من حياته ألم به فيها فقر كئيب وأثقلته ديون متفاقمة . والأولى مؤرخة ٢٦ يونيو ،

والثانية ٢٥ يوليو ، والثالثة ١٠ أغسطس — ثلاثة أطفال أنجبت فى ثلاثة أشهر . وعلى قدر علمنا لم تعزف واحدة منها فى حياته قط ، ولم يسمعها قط ، بل ظلت فى ذلك العالم الخفى الغامض الذى كانت فيه البقع السوداء المسطورة على فرخ من الورق فى نظر مؤلفها — « قصائد معدة للغناء لا صوت لها » — علامات وايقاعات لا يسمعها غـير الذهن . والثالثة التى تسمى خطأ « جوبيتر » (رقم ٤١ بمقام C ك ٥٥١) تعد عادة خيرها ، ويرى شومان أنها تعدل أعمال شكسبير وبيتهوفن(٥١) ، ولكنها لا تصلح لتذوق الهواة . والسمفونية رقم ٤٠ فى مقام G الصغير (ك ٥٥٠) تبدأ بقوة ترهص بموسيقى Eroica ثم تتطور تطوراً دعا المعلقين — فى نضالهم للتعبير عن الموسيقى بالألفاظ دون جدوى — إلى إن يقرؤا فيها « ليرا » أو « مكبثا » من المأساة الشخصية(٥٢)، ولـكنها للاذان الأبسط تبدو مبهجة بهجة ساذجة تقريباً . وهذه الآذان نفسها تجد أن أعظم السمفونيات إشباعا لها هى رقم ٣٩ فى مقام E المنخفض (ك ٥٤٣) ، فهى لا يثقلها كرب ، ولا تعذبها التقنية ، إنما هى الايقاع واللحن ينسابان فى غدير هادىء مطمئن ، وهى من نوع الموسيقى التى قد تبهج قلوب الآلهة فى أجازة ريفية من الأعباء السماوية .

و « السنفونية كونشرتانتى » هى هجين بين السمفونية والكونشرتو ، وقد نبتت من الكونشرتو جروسو بمقابلة آلتين أو أكثر للأوركستر فى حوار بين الميلوديا والموسيقى المصاحبة . وقد ارتفع موتسارت بهذا الشكل إلى ذروته فى « السنفونية كونشرتانتى » فى مقام E المنخفض (ك ٣٦٤) للفلاوته والفيولينه والفيولا (١٧٧٩) ، وهى لا تقل روعة عن أى من سمفونياته الأخرى .

وكل الكونشرتوات مبهجة ، ففيها تعيين فقرات العزف المنفرد الأذن غير المدربة على تتبع مواضيع وانغام قد يحجبها فى السمفونيات التعقيد التقنى أو التفنن الكونترابنطى . والحوار فيها طريف ، ويزداد طرافة اذا كانت المناظرة بين واحد والكل « Solo contra tutti » كما نرى فى شكل الكونشرتو كما اقترحه كارل فليب ايمانويل باخ وطوره موتسارت . ولما كان موتسارت

يستطيب هذه المواجهات الهارمونية ، فانه كتب معظم كونشرتواته للبيانو ، ففيها كان يعزف دور العازف المنفرد بنفسه مضيفا عادة فى أواخر الحركة الأولى قفلة تتيح له ان يسرح ويمرح ، وان يتألق عازفا بارعا لآلته .

وأول ما بدأ يتفوق فى هذا الضرب كان فى كونشرتو البيانو رقم ٩ فى مقام E المنخفض (ك ٢٧١) . وأول كونشرتواته التى ما زالت محببة للسامعين هى رقم ٢٠ فى مقام D الصغير (ك ٤٦٦) الشهيرة بـ « الرومانتسى » الطفلية الطابع تقريبا . ويجوز لنا أن نقول انه فى هذه الحركة البطيئة بدأت الحركة الرومانسية فى الموسيقى . وسواء كان السبب هو الكسل أو الشواغل ، فان موتسارت لم يكمل تدوين موسيقى هذا الكونشرتو إلا قبل ساعة من الزمن المحدد لأدائه (١١ فبراير ١٧٨٥) ، ووصلت نسخة العازفون وأدى موتسارت دوره أداء خبير صناع ، حتى لقد طلبت اعادة الكونشرتو مرات كثيرة فى السنوات التالية .

وقدم موتسارت موسيقى رفيعة لآلات منفردة أخرى . ولعل الكونشرتو الرخيم فى مقام A للكلارينت (ك ٦٢٢) يصلنا مذاعا مرارا أكثر من أى من مؤلفاته الأخرى . وفى شبابه المرح (١٧٧٤) كان يستمتع أيما استمتاع بكونشرتو فى مقام B المنخفض للباصون . وكانت كونشرتوات الهورن فقاعات تنفخ فى مرح على النوتة — التى كانت أحيانا تحوى تعليمات مضحكة للعازف . « da brava ! corraggio ! bestia ! » لأن موتسارت كان خبيرا بأكثر من آله نفخ واحدة . ثم يرفعنا كونشرتو الفلاوته والهارب (ك ٢٩٩) إلى السماء الأعلى .

وفى ١٧٧٥ حين كان موتسارت فى التاسعة عشرة ألف خمسة كونشرتوات للفيولينه وكلها رائع ، وثلاثة منها ما زالت تحتويها ربرتوارات حية إلى اليوم . والكونشرتو رقم ٣ فى مقام G (ك ٢٢٦) فيه حركة بطيئة (أداجو) انتشى لها رجل كأينشتين (٥٣) ، ورقم ٤ فى مقام D من روائع الموسيقى ، ورقم ٥ فى مقام A فيـــه حركة غنائية معتدلة البطء تنافس معجزة صوت المرأة .

لا عجب إذا كان موتسارت قد أنتج بعضا من ألذ الألحان فى التأليف الموسيقى قاطبة ، لا سيما فى سنوات حبه لألويسيا فيبر . وهى ليست أغانى (ليدات) مكتملة التفتح كالتى حققت تطويرها الناجح على يد شوبرت وبرامز ، إنما هى أبسط وأقصر ، تزين فى الغالب كلمات سخيفة ، ولكن موتسارت إذا وجد شعرا بمعنى الكلمة كقصيدة جوته (البنفسجية) « ارتفع إلى ذرى الشكل (ك ٤٧٦) . فهنا هنا بنفسجة مرتعشة فرحا باقتراب راعية حسناء تقول فى نفسها ما أحلى الرقاد على صدرها ؟ ولكن بينما كانت الراعية تمشى وهى تغنى فى جذل إذا هى تسحقها تحت قدمها دون أن تلحظها . (٥٤) أكانت هذه ذكرى ألويسيا القاسية ؟ لقد كتب لها موتسارت من قبل لحنا من أرق ألحانه Non so d'onde viene . ولكنه لم يلق بالا إلى مثل هذه الأغانى المنعزلة ، فقد احتفظ بموارد فنه الصوتى الخفية لألحان أوبراته وللمؤلفات التى وضعها للكنيسة .

على أنه قل أن سمعت موسيقاه الدينية خارج سالزبورج ، لأن الكنيسة الكاثوليكية لم ترض عن المحسنات الأوبرالية التى كان رؤساء الأساقفة الذين خدمهم موتسارت يتوقعونها منه فيما يبدو . فالقداس المطول فى سالزبورج كان يرتل فى مصاحبة الأرغن ، والوتريات ، والأبواق ، والترمبونات ، والطبول ، وكانت فقرات من المرح تنطلق فجأة فى أكثر المواضع وقارا ورهبة فى قداسات موتسارت . ومع ذلك فان الروح الدينية لا بد تحركها موتيتات نسجد لك (ك . ٣٢٧) و « القديسة مريم أم الرب » (ك ٣٤١ ب) ، وأبدع نغم يفوق جماله الموصول كل أنغام موتسارت يظهر فى « سبحوا الرب » فى القسم الرابع من تسبيحة الاعتراف المسائية (ك ٣٣٩) (٥٥) .

ويمكن القول عموما ان موسيقى موتسارت هى صوت عصر أرستقراطى لم يسمع بسقوط الباستيل ، وحضارة كاثوليكية لم يكدر إيمانها مكدر ، حرة فى الاستمتاع بمباهج الحياة دون أن تسعى هذا السعى الحثيث لتجد مضمونا جديدا لحلم أفرغ من مضمونه القديم . وهذه الموسيقى فى جوانبها الأخف تتسق مع رشاقة الزخرف الروكوكى ، ومع رومانسيات فاتو التصويرية ،

وأولمب تيبولو الطافى فى هدوء ، وابتسامات مدام دبومبادور وأروابها وخزفها . وهى فى عمومها موسيقى هادئة صافية ، تشوبها بين الحين والحين لمسات من الألم والغضب ، ولكنها لا ترفع صلاة متذللة ولا تحديا بروميثيا للآلهة . لقد بدأ موتسارت موسيقاه فى طفولته ، وكانت تكمن فى مؤلفاته خصيصة طفلية حتى اتضح له أن القداس الجنائزى الذى كان يكتبه لرجل غريب كان قداسا لجنازته هو .

٧ ــ الروح والجسد

لم يوهب موتسارت فتنة الجسد . فقد كان قصير القامة ، رأسه أكبر مما يناسب جسمه ، وأنفه أضخم من أن يلائم وجهه ، وشفته العليا راكبة على السفلى ، وحاجباه الكثيفان يحجبان عيناه القلقتين ، لا يروع الناظر إليه غير شعره الأشقر الغزير . وفى سنى عمره اللاحقة حاول التعويض عن عيوب قامته وقسماته باللباس البهى : قميص من الدنتلا ، وسترة زرقاء ، ذات ذيول ، وأزرار ذهبية وسراويل تصل إلى الركبة ومشابك فضية فوق حذائه . (٥٦) ولم يكن الناظر إليه ينسى مظهره إلا وهو يعزف على البيانو ، عندها تضطرم عيناه بالتركيز الشديد ، وتخضع كل عضلة فى بدنه نفسها لحركة ذهنه ويديه .

وكان فى صباه متواضعا طيب القلب ، واثقا بالناس محبا لهم ، ولكن ما ظفر به من شهرة مبكرة ، وما اغتذى عليه كل يوم تقريبا من التصفيق والاستحسان ، أحدث عيوبا فى خلقه . وقد حذره ليوبولد (١٧٧٨) قائلا « انك يا بنى سريع الغضب مندفع . . . شديد التحفز للرد فى لهجة ساخرة على أول تحد » (٥٧) . واعترف موتسارت بهذا وبأكثر منه . فكتب يقول « لا بد أن انتقم لنفسى إن أساء إلى إنسان ، فاذا لم أرد اعدوى الصاع صاعين أرانى إنما جازيته صاعا بصاع ولم أعاقبه . » (٥٨) ثم كان أشد الناس غلوا فى تقدير عبقريته . « إن الأمير كاونتز أخبر الارشيدوق بأن أمثالى لا يجود بهم الزمان إلا مرة كل مائة عام (٥٩) .

وكان يسود خطاباته ويظهر في موسيقاه روح الفكاهة حتى آخر سني عمره . وكان هذا الروح عادة ضاحكا معابثاً في براءة ، يشتد أحيانا فيصبح هجاء جادا ، وفي شبابه كان بين الحين والحين ينحرف إلى فحش القول وهجره . وقد مر بمرحلة من الافتتان بالغائط . وحين كان في الحادية والعشرين كتب لابنة عمه ماريا أنا تكلا موتسارت تسعة عشر خطابا تلوثها سوقية لاتصدق[٦٠] . وأشاد خطاب كتبه لأمه بالتطبل [أي إمتلاء البطن بالغازات] نثراً وشعراً[٦١] ولم تكن أمه شديدة الاحتشام ، فقد نصحت زوجها في خطاب كتبته له فقالت « اعتن بصحتك ياحبيبي ، وادفع عجزك إلى فمك » ويبدو أن هذه العبارات « القذرية » كانت عرفا سائداً في أسرة موتسارت وبيئتها ، ولعلها كانت ميراثاً من جيل أشد شبقا . على أنها لم تمنع موتسارت من أن يكتب لأبوية وشقيقته خطابات تفيض بأرق الحب . وكان في زعمه عريساً بكراً . فهل كان زوجا وفيا ؟ لقد إتهمته زوجته بـ « مغازلات الخدم[٦٣] » ويقول كاتب سيرته المخلص :

« انتشرت الشائعات بين الجمهور وفي الصحف ، وبولغ في وصف لحظات نادرة من الضعف عنده ، فجعلت سمات مميزة لخلقه . فنسبت إليه مغازلة كل تلميذة من تلاميذه وكل مغنية كتب لهـا أغنيه ، وكان يعد من الفكاهات إن يلقب بالسلف الأول لدون جوان[٦٤] » .

وقد نجم عن كثرة لزوم زوجته الفراش للوضع ، وتكرار أسفارها إلى المنتجعات الصحية ، وغيابه عنها في جولاته الموسيقية ، وحساسيته لكل مفاتن النساء ، واختلاطه بالمغنيات الفاتنات والممثلات المتحررات — نجم عن هذا كله موقف كانت فيه المغامرة لا مفر منها تقريباً . وقد روت كونستانتسي كيف أنه إعترف لها بـ « حماقة » من هذا النوع ولم غفرتها له — « لقد كان طيباً جداً بحيث يستحيل على الإنسان أن يغضب منه » ولكن أختها تقص أنباء تفجرات عنيفة بينهما بين الحين والحين[٦٥] . ويلوح إن موتسارت كان شديد التعلق بزوجته ، وقد احتمل عيوبها ربة للبيت ، وكان يكتب لهـا أثناء فراقهما خطابات تفيض إعزازا كاعزاز الأطفال[٦٦] .

ولم يكن موفقا فى الناحية الاجتماعية . من ذلك إنه قسا فى الحكم على بعض منافسية « إن صوناتات كلمنتى عديمة القيمة . . . فهو مشعوذ ككل الايطاليين(٦٧) . » « بالأمس أسعدنى الحظ بالأستماع إلى الهر فريهولت يعزف كونشرتوا من تأليفه التعس . ولم أجد فيه إلا القليل جداً ممـا يستحق الأعجاب(٦٨) » . ولكنه إمتدح الرباعيات التى نشرها مؤخراً اجنازبلييل وإن نافست رباعياته . ووبخة أبوه لأنه يبغض الناس فيه بصلفه(٦٩) ، وأنكر موتسارت الصلف ، ولكن لا نكران فى أنه لم يكن له إلا قله ضئيلة من الأصدقاء بين موسيقى فيينا ، وأن روحه المتكبرة ألقت العقبات فى طريق تقدمة . ذلك إن حظ الموسيقى فى النمسا وألمانيا كان يعتمد على الطبقة الارستقراطية ، وقد رفض موتسارت إن يقدم النبالة على العبقرية .

ثم إنه عانى من معوق آخر هو أنه لم يختلف قط إلى المدرسة أو الجامعة . ولم يكن أبوه قد أتاح له متسعا من الوقت للتعليم العام . وقد اقتنى موتسارت فيما إقتنى من كتب قليلة دواوين شعر لجسنر وفيلاند وجلليرت ، ولكن يبدو أنه إستعملها فى الكثير الغالب مصدرا لنصوص ممكنة للاوبرات . وكان قليل الإكتراث للفن أو الأدب . وكان فى باريس حين مات فولتير ، فلم يستطع أن يفقه لم ضجت المدينة هذا الضجيج الكثير بسبب زيارة الثائر الهرم وموته . كتب لأبية يقول « إن هذا الوغد الكافر فولتير قد نفق كأنه كلب ، كأنه حيوان ! وهذا جزاؤه الحق(٧٠) . » وقد تشرب بعض العداء لرجال الدين من اخواته الماسون ، ولكنه شارك فى موكب لعيد القربان المقدس وهو يمسك شمعة فى يده(٧١) .

ولعل سذاجة عقله هى التى جعلته محبوباً رغم أخطائه . فالذين لم ينافسوه فى الموسيقى وجدوه انيس المعشر بشوشاً رفيقا هادىء الطبع عادة . كتبت أخت زوجته صوفى فيبر « لم أر موتسارت طوال حياتى هائج الطبع ، ولا حتى غاضباً(٧٢) . » ، ولكن هناك روايات تناقض هذه . وكان بمثابة الحياة لكثير من الحفلات الخاصة ، دائم الرغبة فى العزف ، دائم الاستعداد لنكتة أو لعبة . وكان يحب البولنج ، والبليارد ، والرقص ، ويبدو أحيانا فخوراً

برقصه أكثر من موسيقاه . [٧٣] وإذا لم يكن كريما سمح النفس مع منافسيه ، فإنه كان أريحيا دون تفكير تقريبا مع كل من عداهم . وندر أن رد سائلا . فاقترض منه ضابط أوتار البيانو المرة بعد المرة دون أن يرد قروضه . وكان موتسارت لا يخفى احترامه الشديد للمال ، ولكن مرد ذلك انه كان يفتقر أشد الافتقار إلى الوقت أو الميل للتفكير فى المال ، حتى انه كثيرا ما أعوزه هذا المال . وإذ اضطر إلى الاعتماد على وسائله فى كسب المال ،واضطر إلى أن يعول أسرة بمنافسة عشرات المرسيقيين الغيورين منه فقد أهمل شئون ماله، وسمح لمكاسبه ان تتسرب من بين أصابعه دون اكتراث منه ، وانحدر إلى درك الأملاق اليائس وهو يكتب أروع موسيقى جيله فى سمفونياته الثلاث الأخيرة وأوبراته الثلاث الأخيرة .

٨ — الأوج : ١٧٨٢ - ٨٧

لقد بدأ حياة الاحتراف موسيقيا مستقلا فى فيينا بنجاح قرت به عينه . فكان يتقاضى أجرا طيبا على الدروس التى يعطيها ، وأتاه كل كونشرتو عزف فى ١٧٨٢ — ٨٤ بنحو خمسمائة جولدن . [٧٤] ولم ينشر من مؤلفاته فى حياته سوى سبعين ، ولكنه تقاضى عنها ثمنا معقولا . وأعطاه الناشر أرتارين مائة دوقاتية نظير الرباعيات الست المهداة إلى هايدن — وكان ثمنا طيبا فى تلك الأيام . [٧٥] وخسر ناشر آخر يدعى هوفمايستر بطبعه رباعيات موتسارت للبيانو فى مقام G الصغير (ك ٤٧٨) و E الخفيض (ك ٤٩٣)، فقد وجدها الموسيقيون عسيرة جدا (وهى الآن تعد سهلة) ، وأنذر هوفمايستر موتسارت قائلا : « اكتب بشعبية أكثر وإلا فلن استطيع أن أطبع المزيد من مؤلفاتك أو أنقدك عنه » [٧٦] . وكان موتسارت يتقاضى الأجر العادى عن أوبراته ، وهو مائة دوقاتية ، ولكنه تقاضى عن « دون جوفانى » ٢٢٥ دوقاتية مضافا إليها حصيلة حفلة موسيقية أحييت لصالحه . واجتمع له فى هذه السنين « دخل طيب جدا » [٧٧] كتب أبوه وقد زاره فى ١٧٨٥ يقول « إذا لم يكن على ولدى ديون مستحقة ففى ظنى أنه يستطيع الآن أن يودع فى المصرف ألفى جولدن . [٧٨]

ولكن موتسارت لم يودع ذلك المال فى المصرف ، بل أنفقه على مصروفاته الجارية ، وعلى الترفيه ، والملابس الفاخرة ، وعلى تلبية حاجات الأصدقاء المتسولين . لهذه الأسباب وغيرها من أسباب أكثر غموضا وقع فى هوة الدين فى ذروة الطلب على خدماته ومؤلفاته . وفى تاريخ مبكر (١٥ فبراير ١٧٨٣) كتب إلى البارونة فون فالدشتيتن يقول إن أحد دائنيه هدده بأن « يقاضينى . . . وأنا فى هذه اللحظة لا أستطيع الوفاء بالمبلغ — ولا حتى بنصفه . . . أتوسل إليك يا سيدتى بحق السماء أن تعينينى على الاحتفاظ بشرفى وسمعتى . (٧٩) وجاءه الفرج المؤقت من نجاح حفلة موسيقية أحييت لصالحه فى مارس ، إذ أتته بألف وسمائة جولدن . وقد أهدى بعض هذا المال لأبيه .

وفى مايو ١٧٨٣ انتقل إلى منزل حسن فى رقم ٢٤٤ بميدان يودن . هناك ولد له طفله الأول (١٧ يونيو) « صبى جميل قوى ، ملفوف كالكرة . » ولان جانب الأب بفضل هذا الحدث والهدية بعد أن ساءه زواج ابنه ، واستغل فولفجانج وكونستانتسى هذا اللين لبزورا ليوبولد ونانيرل فى سالزبورج ، بعد أن تركا الطفل فى فيينا مع مربية . وفى ١٩ أغسطس مات الطفل . وبقى أبواه فى سالزبورج لأن موتسارت كان قد رتب أن يعزف فيها قداسه فى مقام C الصغير الذى سترتل فيه كونستانتسى . وأطال فولفجانج وكونستانتسى مكثهما فوق أصول الضيافة ، لأن ليوبولد كان عليه أن يحسب حساب كل درهم ، ورأى ان زيارة ثلاثة أشهر أطول مما يحتمل . وفى طريق عودتهما إلى فيينا تخلفا فى لنتز ، حيث كلف الكونت فون تون موتسارت بكتابة سمفونية .

فلما عاد إلى بيته عكف بهمة على التدريس والتأليف والعزف والقيادة . ففى ثلاثة أشهر (٢٦ فبراير إلى ٣ ابريل ١٧٨٤) أحيا ثلاثة حفلات موسيقية وعزف فى تسع عشرة حفلة أخرى. (٨٠) وفى ديسمبر انضم إلى أحد المحافل الماسونية السبعة بفيينا ، واستمتع باجتماعاتهم ، ولم يتردد فى الموافقة على تأليف الموسيقى لأعيادهم . وفى فبراير قدم أبوه فى زيارة طويلة بعد أن

ألانه مولد ولد آخر لكونستانتسى . وفى ١٧٨٥ دخل لورنتسودا بونتى حياة موتسارت .

وقد عاش لورنتسو هذا حياة فيها من المغامرة ما يقرب من مغامرة صديقه كازانوفا . كان قد ولد فى ١٧٤٩ ابنا لدباغ جلود فى حى يهود تشينيدا . فلما بلغ الرابعة عشرة أخذ أبو ايمانويلى كونليانو وأخوان له الأطفال إلى لورنتسودا بونتى ، أسقف تشينيدا ، ليعمدهم أتباعا للكنيسة الكاثوليكية . واتخذ ايمانويلى اسم الأسقف ، وأصبح كاهنا ، واتصل فى البندقية بامرأة متزوجة ، فنفى ، وانتقل إلى درسدن ، ثم إلى فيينا ، وفى ١٧٨٣ استخدمه المسرح القومى شاعرا وكاتبا لنصوص الأوبرات .

واقترح عليه موتسارت إمكان تأليف نص لأوبرا يؤخذ من كوميديا « زواج فيجارو » الحديثة التى ألفها بومارشيه . وكانت الكوميديا قد ترجمت إلى الألمانية لتمثيلها فى فيينا ، ولكن يوزف الثانى حظر عرضها بحجة احتوائها على نزعات ثورية تسيء إلى بلاطه . فهل فى الامكان إقناع الامبراطور ، الذى لم يكن هو نفسه مفتقرا إلى النزعة الثورية ، بأن يسمح بأوبرا تستخلص من التمثيلية بحكمة وحصافة ؟ وكان يونتى معجبا بموسيقى موتسارت ، وسيبدى فيه الرأى التالى فى تاريخ لاحق ، وهو أنه رجل « لم يستطع حتى الآن ، برغم ما أوتى من مواهب تفوق مواهب أى مؤلف موسيقى فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، أن يستغل عبقريته السماوية فى فيينا بسبب دسائس خصومه »(٨١) . ثم حذف من التمثيلية الحواشى المتطرفة التى كتبها بومارشيه ، وحول ما بقى إلى نص إيطالى يضارع خير نصوص متاستازيو .

كانت قصة «زواج فيجارو» هى المتاهة القديمة التى تتشابك فيها الاستخفاءات والمفاجآت والأكتشافات وإستغفال الخدم الذكى لسادتهم : وكل هذا مألوف فى الكوميديا منذ عهد ميناندر وبلوتس . وسرعان ما أحب موتسارت الموضوع ، وألف الموسيقى بسرعة تكاد تبلغ سرعة تشكل النص ، فتم الأثنان

فى ستة أسابيع . وفى ٢٩ إبريل ١٧٨٦ كتب موتسارت الافتتاحية ، وفى أول مايو حالف النجاح العرض الأول للأوبرا . وربما كان بعض الفضل فى نجاحها لبنوتشى ، الباصو المرح الجهورى الصوت ، الذى غنى دور فيجارو ولكن لابد أن الفضل الأكبر لحيوية الموسيقى وملاءمتها للمناسبة ، وللألحان رائعة مثل شكاة كيروبينو « ما الذى تعرفونه (Voi che sapete)، وتوسل الكونتيسة توسلا حارا فيه ضبط للنفس إلى إله الحب فى لحن الحب « Porgi amor » وقد إستعيدت الألحان غير مرة حتى إستغرق العرض مثلى الوقت العادى ، وفى نهايته طلب الجمهور موتسارت مرات ليظهر على خشبة المسرح .

كانت حصيلة أخراج « فيجارو » فى فيينا وبراغ خليقة بأن تعين موتسارت على الوفاء بديونه عاماً لولا اسرافه ولولا تكرار مرض زوجته وحملها . وفى إبريل ١٧٨٧ إنتقلا إلى بيت أقل تكلفة ، فى رقم ٢٢٤ شارع لاند شتراسى . وبعد شهر مات ليوبولد مخلفا لولده ألف جولدن .

وكلفته براغ بأوبرا أخرى . واقترح بونتى مغامرات دون جوان الجنسية موضوعاً لها . وكان ترسو دى مولينا قد عرض « الدون » الأسطورى على المسرح بمدريد فى ١٦٣٠ تحت اسم « مخادع أشبيليه » ، وروى موليير القصة فى باريس وسماها « وليمة الحجر » (١٦٦٥) وقدمها جولدونى فى البندقية باسم «دون جوفانى تنوريو » (١٧٣٦) وكان فنتشنتى ريجينى قد عرض « وليمة الحجر » فى فيينا عام ١٧٧٧ ، وفى عام ١٧٨٧ هذا نفسه كان جوزيبى جاتسانيجا قد أخرج بالعنوان ذاته أوبرا سطا بونتى على أسطر كثيرة منها ، ومن بينها قائمة مرحة بخطايا جوفانى .

وعرفت « أعظم الاوبرات قاطبة » (كما سماها روسينى) أول مرة فى براغ فى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٧ . وذهب موتسارت وكونستانتسى إلى العاصمة البوهيمية ليشهدا هـذا الحدث ، وكثرت الحفاوة بهما إلى حد دعاه إلى تأجيل تأليف الافتتاحية حتى عشية العرض الأول ، وفى منتصف الليل

« بعد قضاء أبهج أمسية يمكن تصورها[٨٢] » ألف قطعة أقرب ما تكون إلى موسيقى فاجنر فى إيذانها بالعناصر التراجيدية والكوميدية للتمثيلية . ووصلت نوتة الافتتاحية إلى الاوركستر بالضبط فى الوقت المحدد للأداء[٨٣] . كتبت جريدة فيينا تسايتونج تقول « مثلت يوم الأثنين أوبرا الموسيقار موتسارت « دون جوفانى » التى طال أنتظارها . . . . . ويجمع الموسيقيون وأهل الخبرة على أن مثل هذا العرض لم ير فى براغ قط من قبل . وقاد الهر موتسارت بشخصه الموسيقيين ، وكان ظهوره فى الاوزكستر إيذانا بترديد الهتاف الذى تكرر عند خروجه[٨٤] » .

وفى ١٢ نوفمبر عاد الزوجان السعيدان إلى فيينا . وبعد ثلاثة أيام مات جلوك ، وعين يوزف الثانى موتسارت ليخلفه رئيس موسيقى الحجرة للبلاط . وبعد معاناة شديدة مع المغنين أخرجت « دون جوفانى » بفيينا فى ٧ مايو ١٧٨٨ دون أن تلقى إستحسانا يذكر . وأدخل موتسارت وبونتى عليها المزيد من التغيير والتبديل ، ولكن الأوبرا لم تحظ قط فى فيينا بالنجاح الذى حظيت به فى براغ ومانهايم وهامبورج . وشكا ناقد برلينى فقال أن « التمثيلية الهازلة » عدوان على الفضيلة . ولكنه أردف « إن كان لأمة من الأمم إن تفخر بأحد أبنائها ، فإن لألمانيا أن تفخر بموتسارت مؤلف هذه الأوبرا[٨٥] » . وبعد تسع سنوات كتب جوته إلى شيلر « إن آمالك التى ترجوها للأوبرا تحققت بوفرة فى دون جوفانى[٨٦] » وتحسر على أن موتسارت لم يعش ليكتب موسيقى فاوست .

٩ — الحضيض : ١٧٨٨ — ٩٠

لم تلبث حصيلة دون جوفانى أن نفدت ، ولم يكف راتب موتسارت المتواضع لشراء الطعام إلا بالجهد . وقبل إعطاء بعض التلاميذ دروسا خصوصية ولكن التدريس كان عملا مرهقا مضيعا للوقت . وعليه فقد إنتقل إلى مسكن أرخص فى ضاحية فيرنجر شتراسى . ومع ذلك تكاثرت عليه الديون . فاقترض أينما أستطاع — خصوصا من تاجر كريم وأخ فى الماسونية يدعى

ميخائيل بوشبرج . وقد كتب إليه موتسارت فى يونيه ١٧٨٨ يقول : «

« ما زلت مدينا لك بثمانى دوقاتيات . ورغم أنى فى هذه اللحظة لست فى وضع يمكننى من سداد هذا المبلغ لك ، فان ثقتى فيك لا حد لها ، بحيث أجرؤ على التوسل إليك بأن تسعفنى بمائة جولدن حتى الأسبوع القادم وهو الموعد المحدد لبدء حفلاتى الموسيقية فى الكازينو . عندئذ سأكون بالتأكيد قد تسلمت نصيبى الذى وعدت به فاستطيع بغاية السهولة أن أرد لك ١٣٦ جولدنا مقرونة بأحر عبارات شكرى . [٨٧] »

وأرسل إليه بوشبرج المائة جولدن . وشجع هذا موتسارت ، فرجاه (١٧ يونيو) فى إقراضه « ألف جولدن أو ألفين لمدة عام أو عامين بفائدة مناسبة » وكان قد ترك متأخرات من إيجار بيته القديم دون أن يدفعها ، فهدده المالك بحبسه ، فاستدان موتسارت ليؤدى له دينه . والظاهر أن بوشبرج لم يوافه بكل ما طلب ، لأن المؤلف اليائس أرسل إليه توسلات جديدة فى يونيو ويوليو . فى تلك الشهور النكدة المزعجة ألف موتسارت « السمفونيات الكبرى » الثلاث .

ثم رحب بدعوة أتته من الأمير كارل فون لشنوفسكى ليركب معه إلى برلين . واقترض لتلك الرحلة مائة جولدن من فرانتز هوفدميل . وغادر الأمير والصعلوك فيينا فى ٨ ابريل ١٧٨٩ . وفى درسدن عزف موتسارت أمام الأمير الناخب فردريك أغسطس فظفر بمائة دوقاتية . وفى ليبزج عزف فى حفلة عامة على أرغن باخ ، وتأثر بترتيل فرقة « توماستولى » لموتيته باخ « أنشدوا للرب » Singet dem Herron . وفى بوتسدام وبرلين (٢٨ أبريل إلى ٢٨ مايو) عزف لفردريك وليم الثانى ، فنفحه بسبعمائة فلورين ، مع تكليف بست رباعيات وست صوناتات . ولكن مكاسبه انفقت بسرعة عجيبة ، وقد عزت شائعة غير مؤكدة بعض هذا الانفاق إلى صلة غرام بمغنية برلينية تدعى هنرييته بارونيوس . [٨٨] وفى ٢٣ مايو كتب إلى كونستانتسى يقول « أما عن عودتى فعليك أن تتطلعى إلى أنا أكثر من التطلع إلى النقود [٨٩] » ووصل أرض الوطن فى ٤ يونيو ١٧٨٩ .

واحتاجت كونستانتسى ، التي كانت حاملا مرة أخرى ، إلى الأطباء والعقاقير وإلى رحلة غالية للاستشفاء بمياه بادن - باى - فيين : وفزع موتسارت إلى بوشبرج مرة أخرى :

« يا إلهى العظيم ! لست أتمنى لأعدى أعدائى أن يكون فى موقفى الراهن . إنك لو تخليت عنى يا أعز صديق وأخ (ماسونى) لقضى علينا قضاء مبرما - نفسى التعسة البريئة وزوجتى المريضة المسكينة وأطفالى ::: فكل شىء رهن . . . بموافقتك على إقراضى خمسمائة جولدن أخرى ، وإلى أن تسوى أمورى أتعهد بأن أرد لك عشرة جولدنات كل شهر ، ثم أسدد لك المبلغ كله . يا إلهى ! لا أكاد أقوى على حمل نفسى على إرسال هذا الخطاب ، ومــع ذلك لابد مما ليس منه بد ! اغفر لى بالله ، فقط اغفر لى ! (٩٠) » .

وأرسل له بوشبرج ١٥٠ جولدنا أنفق أكثرها فى سداد فواتير كونستانتسى فى بادن . وفى ١٦ نوفمبر ، ولدت فى بيتهم بنتا ماتت فى اليوم نفسه . وأعانه يوزف الثانى بأن كلفة هو وبونتى بكتابة ، « مسرحية هازلة » عن موضوع قديم (إستخدمة ما ريفو فى لعبة الحب والحظ ١٧٣٠) : خلاصتها إن رجلين يتنكران لاختبار وفاء خطيبتيهما فيجدان فيهما لينا ورخاوة ، ولكنهما يغفران لهما على أساس أن كل النساء هكذا «cosi fan tutte» ومن هنا اسم الأوبرا «هكذا يفعلن جميعاً». ولم يكن الموضوع بالذى يتفق ومزاج موتسارت المأسلوى آنئذ (إذا استثنينا قليلا من العبث بلدر من كونستانتسى فى بادن) ، ولكنه قدم للنص البارع الظريف موسيقى هى التجسيد الكامل للبراعة والظرف ، وندر أن نجد هراء يمثل ما نجد به هذا الهراء . وقد لقى عرض الأوبرا الأول فى ٢٦ يناير ١٧٩٠ نجاحا لا بأس به ، وأعيد العرض أربع مرات فى شهر واحد ، وكانت الحصيلة مائة دوقاتية لموتسارت . ثم مات يوزف الثانى (٢٠ فبراير) ، واغلقت مسارح فيينا أبوابها حتى ١٢ أبريل .

وراود موتسارت الأمل فى أن يجد له الأمبراطور الجديد عملا ، ولكن

ليوبولد الثانى تجاهلة . وكذلك تجاهل بونتى فرحل إلى انجلترة وأمريكا ، وانتهى به المطاف (١٨٣٨) مدرسا الايطالية فى ما هو الآن جامعة كولومبيا بنيويورك[٩١] . واستنجد موتسارت بيوشبرج من جديد (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩ ، ٢٠ يناير ، ٢٠ فبراير ، ١ ، ٨ ، ٢٣ إبريل ١٧٩٠) ، ولم يرده خائبا قط ، ولكن ندران تلقى منه كل ما طلب . وفى أوائل مايو طلب سمائة جولدن ليؤدى ما استحق عليه من إيجار . فأرسل إليه بوشبرج مائة . واعترف ليوشبرج فى ١٧ مايو « إننى مضطر للألتجاء إلى المرابين » وفى ذلك الخطاب ذكر أنه لم يبق له من تلاميذه سوى اثنين ، ورجا صديقه « أن يذيع بين الناس أننى مستعد لإعطاء الدروس[٩٢] » على أن ما به من توتر الأعصاب وضيق الخلق كان يحول بينه وبين إجادة التعليم . وكان أحيانا يخلف مواعيده مع تلاميذه وأحيانا يلعب معهم البليارد بدلا من أن يعطيهم درساً[٩٣] . ولكنه كان إذا وجد طالبا ذا موهبة مبشرة بذل له نفسه دون تحفظ . وهكذا نراه يعلم يوهان هومل فى اغتباط وبنجاح ، وقد تتلمذ له (١٧٨٧) وهـــو لا يزال فى الثامنة ، وأصبح عازفا شهيرا للبيان فى الجيل التالى .

وأضافت الأمراض الخطيرة آلاما إلى أحزان موتسارت . وقد شخص طبيب أوجاعة بأنها « التهاب مفرز لحويصلة الكلية مصحوب بتقيح ، وتضررات بؤرية كامنة ، تفضى بالضرورة إلى عجز كلوى تام[٩٤] » . وهذا معناه التهاب فى الكلى صديدى مضعف . كتب إلى بوشبرج فى ١٤ أغسطس ١٧٩٠ يقول « إننى اليوم فى منتهى التعاسة . لم يغمض لى جفن فى الليله البارحة لشدة الألم . . . تصور حالى — عليل تتوشنى الهموم والمنغصات . . . . ألا تستطيع إعانتى بمبلغ تافه ؟ إننى أرحب جداً بأقل مبلغ . » وأرسل اه بوشبرج عشرة جولدنات .

واتخذ موتسارت رغم سوء حالته الصحية خطوة يائسة ليعول أسرته . ذلك أنه تقرر تتويج ليوبولد بفرانكفورت فى ٩ أكتوبر ١٧٩٠ . وكان فى حاشية الإمبراطور سبعة عشر موسيقيا للبلاط ، ولكن موتسارت لم يدع . ومع ذلك ذهب بصحبة فرانتز هوفر زوج أخته وعازف الفيولينه . ورهن موتسارت آنية الأسرة الفضية ليغطي نفقة الرحلة . وفي فرانكفورت عزف

وقاد فى ١٥ أكتوبر كنشرتو البيانو فى مقام D (ك ٥٣٧) ، الذى ألفه قبل ثلاث سنوات ، ولكن شاعت نزوة من نزوات التاريخ أن تسمية « كونشرتو التتويج » — وهو ليس من أفضل موسيقاه . كتب لزوجته يقول « لقد نجح نجاحاً باهرا من حيث الشرف والمجد ، ولكنه أخفق من حيث المال[٩٥] » . وقفل إلى فيينا دون أن يزيد ما كسبة عما أنفق إلا قليلا ؟ وفى نوفمبر أنتقل إلى مسكن أرخص فى راوهنشتاينجاسى حيث قدر له أن يلقى منيته .

١٠ — القداس الجنائزى : ١٧٩١

وأعانته على الحياة عاماً آخر ثلاثة تكليفات وافته فى تتابع سريع . ففى مايو ١٧٩١ عرض عليه إيمانويل شيكانيدر ، الذى كان يخرج الاوبرات والتمثيليات الألمانية فى مسرح بإحدى الضواحى ، مخططاً لنص يدور حول ناى سحرى ، ورجا أخاه فى الماسونية أن يؤلف موسيقى للنص ، فقبل موتسارت . ولما ذهبت كونستانتسى وهى حبلى مرة أخرى إلى بادن — باى فيين فى يونيو ، قبل دعوة شيكانيدر أن ينفق نهاره فى بيت وسط حديقة قرب المسرح حيث يستطيع تأليف « الناى السحرى » تحت حث المدير وإلحاحه . أما الأمسيات فقد صحب فيها شيكانيدر فى حياة الليل بالمدينة . يقول يان «كانت الحماقة والسرف الرفيقين الحتميين لمثل هذه الحياة ، وسرعان ما وصلت أنباؤهما إلى إذان الجماهير . . » فلوثت اسمه شهورا بقدر من القدح فوق ما يستحق[٩٦] » . ووسط هــذه الاسترخاءات وجد موتسارت وقتا للركوب إلى بادن (على أحد عشر ميلا من فيينا) ليزور زوجته التى ولدت له فولفجانج موتسارت الثانى فى ٢٦ يوليو .

فى ذلك الشهر وافاه طلب من غريب مجهول الاسم ، يعرض عليه مائة دوقاتية يؤلف لقاءها سراً قداسا جنائزيا ، ثم يرسله إليه دون أى اعلان لاسم المؤلف . وتحول موتسارت من مرح « الناى السحرى » إلى موضوع الموت ، وإذا هو يتلقى فى أغسطس تكليفا من براغ بتأليف أوبرا « La clemenza di Tito » « شفقة تيتو» تمثل هناك فى مناسبة وشيكة هى تتويج ليوبولد الثانى ملكا على بوهيميا . ولم يتح له غير شهر واحد لوضع موسيقى جديدة لنص متاستازيو القديم . وعكف عليه فى مركبات مهتزة

وفنادق صاخبة أثناء رحلته مع زوجته إلى براغ . وغنيت الأوبرا فى ٦ سبتمبر دون أن تحظى إلا باستحسان وسط . وكانت الدموع تترقرق فى عينى موتسارت وهو يغادر المدينة الوحيدة التى ناصرته من قبل ، ويدرك أن الإمبراطور شهد فشله . ولم يكن له من عزاء إلا أجر المائتى دوقاتية ، والنبأ اللاحق بأن إعادة عرض الأوبرا فى براغ فى ٣٠ سبتمبر لقى كل نجاح .

فى ذلك اليوم قاد من البيانو أول عرض للناى السحرى . والقصة كانت فى بعضها من قصص الجان ، وفى بعضها تمجيدا لشعائر الدخول فى الماسونية . وأفرغ موتسارت خير فنه فى تأليف موسيقاها وإن أتبع معظم الألحان لخط ميلودى بسيط يناسب جمهوره المؤلف من الطبقة الوسطى . وقد أغدق فيضا من الزوقات (الكولوراتورا) على « ملكة الليل » ، ولكنه كان بينه وبين نفسه يسخر من غناء الكولوراتورا ويشبهه بـ « الشرائط المتقطعة » . (٩٧) ومارش الكهنة الذى يفتتح الفصل الثانى موسيقى ماسونية ، ولحن كبير الكهنة « in diesen Leiligen Hallen » « فى هذه القاعات المقدسة لا نعرف شيئاً عن الانتقام ، ومحبة الداخلين فى الإيمان لإخوانهم من البشر هو المبدأ الهادى » — هذا اللحن هو زعم الماسونية بأنها ردت أخوة البشر التى بشرت بها المسيحية من قبل . (قارن جوته بين الناى السحرى والجزء الثانى من فاوست ، الذى بشر هو أيضا بالأخوة ، وإذ كان هو نفسه ماسونيا فقد قال عن الأوبرا إن لها « معنى أسمى لن يغيب عن أعضاء الجماعة . » (٩٨) ولقى العرض الأول نجاحا قلقا ، وصدم النقاد ذلك المزج بين الفوجة والمرح(٩٩)، على أن الناى السحرى ما لبث أن أصبح أحب أوبرات موتسارت إلى الناس ، وأحب الأوبرات قبل فاجنر وفردى. وقد أعيد أداؤه مائة مرة خلال أربعة عشر شهرا من العرض الأول .

وجاء هذا النصر الأخير وموتسارت يشهر بيد الموت تمسه . وكأن القدر أراد أن يؤكد سخريته ، إذ تلقى الآن من جماعة من نبلاء المجريين تعهدا باشتراك سنوى قدره ألف فلورين ، ثم عرض عليه ناشر أمستردامى مبلغا أكبر حتى من هذا نظير اختصاصه بحق طبع بعض أعماله . ثم تلقى فى سبتمبر دعوة إلى لندن من بونتى ، فرد عليه قائلا « كان بودى أن أتبع نصيحتك ، ولكن كيف أستطيع ؟ ... إن حالتى تنبئنى بأن ساعتى قد

حانت ، فأنا موشك على فراق الحياة . وقد أتت النهاية قبل ان أستطيع إثبات موهبتى . ومع ذلك كانت الحياة جميلة » [١٠٠] .

وفى شهوره الأخيرة أفرغ عافيته المتداعية فى تأليف « القداس الجنائزى » وراح يعكف عليه أسابيع عديدة عكوفا محموما . فلما حاولت زوجته أن تصرفه عنه إلى شواغل أقل جهامة قال لها « إننى أكتب القداس الجنائزى لنفسى ، وسيصاحب صلاة مأتمى » [١٠١] وألف لحن « يا رب أرحم » Kyric وأجزاء من « يوم الغضب » والبوق السماوى Tuba Mirum « والملك الموهوب » Rex Tremendae واذكرنى Recordare و « الباكية » Lacrimosa و « أيها الرب » و « المدانون Confutatis » و « القرابين » Hostias . وقد ترك هذه الأجزاء المتناثرة دون مراجعة ، وهى تشى باضطراب عقل يواجه الانهيار . وقد أكمل فرانتز زافير زوسماير « القداس الجنائزى » على نحو رائع .

وفى نوفمبر بدأت يدا موتسارت ورجلاه تتورم ورما مؤلما ، وأصابه شلل جزئى . فاضطر إلى لزوم فراشه ، فى تلك الامسيات حين كانت أوبرا « الناى السحرى » تمثل كان يضع ساعته إلى جواره ويتابع كل فصل فى خياله ، مدندنا بالألحان أحيانا . وفى آخر يوم فى حياته طلب نوتة القداس الجنائزى ، ورتل دور الألتو ، ورتلت السيدة شاك السوبرانو ، وفرانتز هوفر التنور ، والهر جيرل الباص . فلما بلغوا « الباكية » بكى موتسارت . وتنبأ بأنه سيموت الليلة . وناوله كاهن الأسرار المقدسة الأخيرة . وقرب المساء فقد الوعى ، ولكنه فتح عينيه بعد منتصف الليل بقليل ثم أدار وجهه إلى الحائط وسرعان ما إنتهت آلامه (٥ ديسمبر ١٧٩١) .

ولم تستطع زوجته ولا أصدقاؤه أن يشيعوه كما ينبغى أن يشيع . صلى على الجثمان فى كنيسة القديس إسطفانوس فى ٦ ديسمبر ، ودفن فى فناء كنيسة القديس مرقص . ولم يشتر له قبر ، بل أدلى الجثمان فى قبوه عام صنع ليتلقى أجساد خمسة عشر أو عشرين من الفقراء المعدمين . ولم تحدد الموضع علامة من صليب أو نص ، فلما ذهبت إليه أرملته بعد أيام لتصلى ، لم يستطع أحد أن يدلها على البقعة التي ضمت رفات موتسارت ؟

المراجع الافرنجية

CHAPTER IX

1. Vaussard, *La Vie quotidienne en Italie au xviii^e siècle*, 27.
2. *Ibid.*, 107.
3. 105.
4. 125.
5. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 519.
6. Baedeker, *Northern Italy*, 471.
7. James, E. E., *Bologna*, 178-80.
8. Casanova, *Memoirs*, I, 14.
9. Rolland, Romain, *Musical Tour through the Land of the Past*, 167.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*
12. *Réalités*, November, 1954, p. 45.
13. Láng, *Music in Western Civilization*, 354.
14. Grout, D. J., *Short History of Opera*, 196.
15. Kirkpatrick, R., *Domenico Scarlatti*, 94.
16. Einstein, Alfred, *Gluck*, 101.
17. Lee, Vernon, *Studies of the 18th Century in Italy*, 206.
18. Vaussard, 82.
19. De Sanctis, *History of Italian Literature*, II, 825.
20. Vaussard, 83.
21. *Ibid.*, 86.
22. 88.
23. Campbell, T. J., *The Jesuits*, 424.
24. McCabe, Jos., *Candid History of the Jesuits*, 287.
25. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 276.
26. Chesterfield, *Letters*, Feb. 28, 1749.
27. Einstein, *Gluck*, 15.
28. Gatti-Cazazza Collection, Venice.
29. Private collection, Venice.
30. *Ibid.*
31. Museo Civico, Bassano.
32. Voltaire, *Works*, VIIIa, 5.
33. Molmenti, P., *Venice*, Part III: *The Decadence*, I, 37.
34. *Ibid.*, 49.
35. Molmenti, *The Decadence*, II, 17, 146.
36. *Ibid.*, 48.
37. 49.
38. Rousseau, *The Confessions*, I, 301; Molmenti, II, 93.
39. Vaussard, 180.
40. Goldoni, *Memoirs*, 178.
41. Rousseau, *The Confessions*, I, 292.
42. Molmenti, I, 169; Vaussard, 195.
43. *Grove's Dictionary of Music*, III, 314.
44. Pincherle, *Vivaldi*, 16.
45. *Ibid.*, 17.
46. Rolland, *Musical Tour*, 187.
47. Pincherle, 67.
48. E. g., Violin Concerto in E, Concerto Grosso in D Minor.
49. Pincherle, 61.
50. *Ibid.*, 229-32.
51. *Time*, Nov. 29, 1963.
52. Lord Walpole Collection.
53. Brera Gallery, Milan.
54. Boston Museum of Fine Arts; Wallace Collection.
55. National Gallery, London.
56. Wallace Collection.
57. London, Vienna, Geneva.
58. New York.
59. Turin.
60. Louvre.
61. Duke of Devonshire Collection.
62. Levey, *Painting in 18th-Century Venice*, 92.
63. Anon., *Tiepolo*, 34.
64. Ospedaletto, Venice.
65. E.g., Sitwell, S., *Southern Baroque Art*, 35.
66. Molmenti, *Tiepolo*, 19; Venturi, L., *Italian Painting from Caravaggio to Modigliani*, 74.
67. Letter of Mar. 13, 1734, in Rolland, *Musical Tour*, 149.
67a. Goldoni, *Memoirs*, 184.
68. Casanova, *Memoirs*, II, 276.
69. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 29; Vaussard, 193.
70. Goldoni, *Memoirs*, 1, 4.
71. *Ibid.*, 179.
72. 183.
73. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 323.
74. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 110 f.
75. Molmenti, *Venice: Decadence*, I, 168.
76. Goldoni, *Memoirs*, 346.
77. *Ibid.*, introd., *xi*.
78. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 7.
79. Goldoni, *Memoirs*, *xxi*.
80. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 70.
81. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, VI, 675.
82. Ranke, *History of the Popes*, III, 472.
83. *New Cambridge Modern History*, VII, 284.

84. Funk, F. X., *Manual of Church History*, II, 180.
85. Macaulay, Essays, II, 179.
86. De Brosses in McCabe, Jos., *Crises in the History of the Papacy*, 354.
87. *Correspondance de Benoit XIV*, II, 268, in McCabe, *Crises*, 354.
88. *CMH*, VI, 591.
89. Ford, Miriam de, *Love Children*, 205.
90. Lanfrey, P., *L'Église et les philosophes*, 190.
91. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 60.
92. Sime, James, *Lessing*, I, 92.
93. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, IV, 1393.
94. Gershoy, Leo, *From Despotism to Revolution*, 146.
95. *CMH*, VI, 598.
96. *Ibid.*, 599.
97. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 369.
98. Vico, Giambattista, *Autobiography*, 111.
99. Croce, B., *Philosophy of Giambattista Vico*, 252.
100. Vico, *The New Science*, No. 31.
101. *Ibid.*, Nos. 916–18; we have ventured to improve the translation.
102. Nos. 922–24.
103. 925–27.
104. Vico, *Autobiography*, 171.
105. *The New Science*, No. 1104.
106. 1105.
107. 417–24.
108. 873–80.
109. 361.
110. *Autobiography*, 173.
111. *The New Science*, No. 1110.
112. Croce, *Philosophy of Vico*, 269.
113. *Ibid.*, 274.
114. Croce, *Filosofia di G. B. Vico* (1911).
115. Grout, *Opera*, 200.
116. *Ibid.*, 208.
117. *Oxford History of Music*, IV, 185.
118. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 917.
119. *Grove's Dictionary*, II, 785.
120. *Ibid.*
121. *Ibid.*
122. Beckford, Wm., *Travel Diaries*, II, 167.
123. Lee, Vernon, *Studies*, 194.
124. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 21.
125. *Ibid.*, 32.
126. 33.
127. Introd. to the Victor Album of Scarlatti's Sonatas.
128. Kirkpatrick, 58.
129. *Ibid.*, 103.
130. Especially delightful: Nos. 13, 23, 25, 104, and 338, in the Longo numbering.
131. Coxe, Wm., *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 231.

CHAPTER X

1. Beckford, *Travel Diaries*, II, 171.
2. Cheke, Marcus, *Dictator of Portugal*, 4.
3. Day, Clive, *History of Commerce*, 186; *History Today*, November, 1955, p. 730.
4. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 28; Stirling-Maxwell, IV, 1385.
5. *New CMH*, VII, 289.
6. Stephens, H. M., *Story of Portugal*, 354.
7. *Enc. Brit.*, XX, 681b.
8. *History Today*, November, 1955, p. 731.
9. Campbell, *The Jesuits*, 431.
10. Cheke, 50.
11. *Ibid.*, 111.
12. *History Today*, November, 1955, p. 733.
13. See *The Age of Reason Begins*, 249-51.
14. Cheke, 106.
15. McCabe, *The Jesuits*, 262.
16. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 258; Cheke, 114.
17. Our account follows Cheke, 118 f.
18. Lanfrey, 259.
19. Cheke, 132.
20. Lanfrey, 260.
21. McCabe, *Jesuits*, 263.
22. Campbell, *Jesuits*, 462.
23. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 152; Cheke, 140.
24. Voltaire, *Works*, XVIa, 243.
25. Cheke, 155.
26. *Ibid.*, 157.
27. Voltaire, XVIa, 243.
28. Gershoy, 153; Cheke, 204.
29. Gershoy, 154.
30. Stephens, *Portugal*, 367.
31. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 310n.
32. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 277.
33. Cheke, 251.
34. *Ibid.*, 268.
35. *Ibid.*

CHAPTER XI

1. Altamira, R., *History of Spain*, 482, 466; Ogg, D., *Europe in the 17th Century*, 22; *New CMH*, VII, 271.
2. Herr, Richard, *The Eighteenth-Century Revolution in Spain*, 106; see also Altamira, 467-68.
3. Herr, 96.
4. Altamira, 460; Stokes, Hugh, *Francisco Goya*, 187.
5. Klingender, F. D., *Goya in the Democratic Tradition*, 4n.
6. *Ibid.*, 4-5; Campbell, *Jesuits*, 424.
7. Kany, C. E., *Life and Manners in Madrid, 1750–1800*, 375.
8. Vallentin, A., *This I Saw*, 26.
9. Lea, *Inquisition in Spain*, III, 308-10; IV, 523.

10. Martin, H., *France*, XV, 114-15.
11. Ticknor, Geo., *History of Spanish Literature*, III, 244.
12. Lea, IV, 530.
13. Buckle, H. T., *Introd. to the History of Civilization in England*, IIa, 61.
14. *CMH*, VI, 124.
15. Voltaire, XIXa, 214.
16. Burney, Charles, *History of Music*, II, 815-16.
17. Kany, 392.
18. Coxe, *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 141-43.
19. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 268.
20. Herr, 75.
21. Letter of d'Alembert to Voltaire, May 13, 1773, in Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 372.
22. Herr, 63.
23. *Ibid.*, 77.
24. Ségur, *Lespinasse*, 254.
25. Altamira, 508.
26. Lea, *Inquisition*, IV, 307.
27. Herr, 210.
28. Michelet, *Histoire de France*, V, 439.
29. Stokes, *Goya*, 147.
30. Coxe, *Kings of Spain*, IV, 235.
31. Letters of an English officer, 1788, in Buckle, IIa, 92.
32. Coxe, IV, 236.
33. Hume, Martin, *Spain: Its Greatness and Decay*, 397.
34. Coxe, IV, 408.
35. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 163.
36. Coxe, IV, 341.
37. *Ibid.*, 361.
38. Campbell, *Jesuits*, 511-12.
39. *Ibid.*; Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 280.
40. Coxe, IV, 362.
41. *Ibid.*, 363.
42. Lanfrey, 282.
43. Campbell, 517-18.
44. *Ibid.*, 519; Lanfrey, 281.
45. Coxe, IV, 368.
46. Herr, 23.
47. *Ibid.*
48. 205.
49. 29.
50. 208.
51. Kany, 356-57.
52. Buckle, IIa, 86; Robertson, *Freethought*, II, 372.
53. Herr, 210; Robertson, 373.
54. Herr, 35; Trevor-Roper, 264.
55. Coxe, IV, 412-16; Casanova, *Memoirs*, II, 344.
56. Altamira, 438.
57. Fitzmaurice-Kelly, *History of Spanish Literature*, 357.
58. Rev. Geo. Edmundsen, in *CMH*, VI, 384.
59. Vallentin, 5.
60. Herr, 54.
61. *Ibid.*, 57.
62. Buckle, IIa, 98.
63. *Ibid.*, 94.
64. Herr, 128.
65. *CMH*, VI, 383.
66. Herr, 148.
67. *Ibid.*, 141-42.
68. 150.
69. Kany, 24; Vallentin, 26.
70. Kany, 38.
71. *Ibid.*, 18.
72. Hume, Martin, *Spain*, 411.
73. Stokes, 188; Kany, 214.
74. Laborde, *Spain*, in Buckle, IIa, 114.
75. Kany, 24.
76. *Ibid.*, 280.
77. Casanova, II, 348.
78. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 132.
79. Altamira, *History of Spanish Civilization*, 183.
80. Trevor-Roper, 264.
81. Kany, 345; Buckle, IIa, 95.
82. Ticknor, III, 256; Herr, 165.
83. Ticknor, III, 262.
84. *Ibid.*, 273.
85. Vallentin, 144.
86. Calvert, A. F., *Royal Palaces of Spain*, 97.
87. Cathedral of Salamanca.
88. Prado.
89. Private collection, Zurich.
90. Prado.
91. Poore, Charles, *Goya*, 156.
92. Calvert, *Goya*, 55.
93. Poore, 48.
94. One in Frick Collection, New York.
95. Prado.
96. Prado.
97. Vallentin, 93.
98. Trevor-Roper, 266.
99. Vallentin, 111.
100. *Ibid.*, 112.
101. E.g., Malraux in Goya, *Drawings from the Prado*, *xiv*.
102. Lassaigne, J., *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 89.
103. Vallentin, 112.
104. *Ibid.*, 119.
105. Duke of Alba Collection.
106. Goya, *Drawings*, Plate 4.
107. Collection of the Hispanic Society, New York.
108. Vallentin, 195.
109. *Ibid.*, 203.
110. Prado.
111. Vallentin, 183.
112. Academy of San Fernando, Madrid.
113. National Gallery, Washington.
114. Academy of San Fernando, Madrid.
115. Klingender, *Goya*, 92.
116. Goya, *Drawings*, 123.

117. *Ibid.*, 130.
118. 170.
119. Academy of San Fernando.
120. Goya, *Drawings*, 112.
121. *Ibid.*, 89-117.
122. 118.
123. Vallentin, 223.
124. Both in the Prado.
125. Metropolitan Museum of Art, New York.
126. In Goya, *The Disasters of War*, No. 23.
127. *Ibid.*, No. 12.
128. No. 44.
129. No. 47.
130. No. 18.
131. These pictures from the Quinta del Sordo are in the Prado.
132. Lassaigne, *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 106.

CHAPTER XII

1. Goethe, *Letters from Italy*, Sept. 16, 1786.
2. *Ibid.*, Sept. 12 and 13, 1786.
3. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 7.
4. *Ibid.*, 100-03.
5. Hazlitt, W. C., *The Venetian Republic*, II, 323.
6. Casanova, *Memoirs*, II, 110.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 275.
8. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 171.
9. Goethe, *Letters from Italy*, Oct. 25, 1786.
10. *CMH*, VI, 601.
11. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 48.
12. Goethe, *Letters from Italy*, Mar. 17, 1787.
13. Vaussard, 74.
14. Friedländer, Ludwig, *Life and Manners under the Early Empire*, II, 78.
15. Goethe, Oct. 27, 1786.
16. Vaussard, 84.
17. *Ibid.*, 89.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 122.
19. McCabe, *The Jesuits*, 346.
20. E.g., Lanfrey, *Histoire politique des papes*, 384; *id.*, *L'Église et les philosophes*, 105.
21. Campbell, *Jesuits*, 536.
22. McCabe, *Jesuits*, 346.
23. Ranke, *History of the Popes*, II, 449-50.
24. Campbell, 538.
25. *Ibid.*, 541.
26. McCabe, 355.
27. Campbell, 563.
28. Mozart, letter of Aug. 4, 1770, in Anderson, Emily, *Letters of Mozart*, I, 227.
29. Jahn, *Life of Mozart*, I, 151.
30. Blom, Eric, *Mozart*, 57.
31. Goethe, *Letters from Italy*, Nov. 24, 1786.
32. Vaussard, 141-43.
33. Beccaria, *Dei delitti e delle pene* (1766 ed.), p. 11.
34. Carlyle, "Count Cagliostro," in *Essays* (*Works*, III), 187-92.
35. Goethe, *Letters*, Apr. 13 and 14, 1787.
36. Casanova, I, 13.
37. *Ibid.*, 14.
38. 123.
39. Introd. *xx*.
40. 210.
41. 211.
42. 219.
43. 287.
44. 330.
45. 406-7.
46. II, 370, 393.
47. *Ibid.*, 340.
48. Gilbert, O. P., *The Prince de Ligne*, 157.
49. Winckelmann, I, 3.
50. *Ibid.*, 9.
51. 18.
52. 21.
53. Pater, Walter, *The Renaissance*, 155.
54. In Brandes, *Goethe*, II, 244.
55. Winckelmann, I, 31.
56. In Muther, *History of Modern Painting*, I, 81.
57. Pater, *Renaissance*, 148.
58. Winckelmann, I, 46.
59. *Ibid.*, 60.
60. II, 319.
61. I, 64.
62. *Ibid.*
63. *Ibid.*
64. *Ibid.*
65. I, 70.
66. 287.
67. 77.
68. 76, 84.
69. 86.
70. In Pater, 147.
71. Both in Museo Correr, Venice.
72. Good examples in Morgan Library, New York, and Metropolitan Museum of Art.
73. Levey, *Painting in Venice*, 103.
74. Poldi-Pezzoli Museum, Milan.
75. Louvre.
76. Altere Pinakothek, Munich.
77. Muther, I, 86.
78. Winckelmann, I, 407.
79. Prado.
80. Jahn, *Mozart*, III, 1, 15.
81. Burney, Fanny, *Diary*, 72-73.
82. Burney, Charles, *History of Music*, II, 886-91.
83. Einstein, Albert, *Gluck*, 151.
84. *Grove's Dictionary*, IV, 174.
85. *Ibid.*, 509.
86. Einstein, *Gluck*, 149.
87. *Grove's*, I, 650.
88. Translation by Richard Garnett (*History of Italian Literature*, 300).

89. In De Sanctis, II, 831.
90. Alfieri, Vittorio, *Autobiography*, Epoch I, Ch. i.
91. *Ibid.*, Epoch II, Ch. iv.
92. III, iii.
93. III, xii.
94. Alfieri, *Of Tyranny*, 102.
95. *Ibid.*, Book I, Section 1.
96. II, vii.
97. II, viii.
98. I, ix.
99. I, viii.
100. "Forethought" to *Of Tyranny*.
101. *Autobiography*, Epoch IV, Ch. viii.
102. Epoch I, Ch. viii.
103. IV, v.
104. IV, xx.
105. IV, xvi.

CHAPTER XIII

1. Gilbert, *Prince de Ligne*, 29, 57.
2. *Ibid.*, 135.
3. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 96.
4. Frederick the Great, *Guerre de Sept Ans*, 386.
5. Gooch, G. P., *Maria Theresa*, 3.
6. Jahn, *Mozart*, I, 65.
7. Voltaire, *Works*, XVIa, 167.
8. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 89.
9. Campbell, *Jesuits*, 433.
10. Paulsen, F., *German Education*, 147-49.
11. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 297.
12. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 100.
13. Casanova, *Memoirs*, I, 147.
14. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
15. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 305.
16. Padover, 20.
17. Stryienski, *Eighteenth Century*, 64.
18. *Ibid.*
19. *Jahn*, I, 67.
20. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
21. Casanova, I, 148.
22. *Enc. Brit.*, XIII, 151b.
23. Padover, 34.
24. *Enc. Brit.*, 1. c.
25. Padover, 34.
26. *Ibid.*, 37.
27. 41.
28. Gooch, *Maria Theresa*, 14.
29. Padover, 47.
30. Mann, Thos., *Three Essays*, 165.
31. Gooch, 21-29; Padover, 67.
32. Gooch, 29.
33. Padover, 134.
34. *Ibid.*, 134, 30.
35. 136.
36. 84; Gooch, 29.
37. Padover, 89.
38. Gooch, 65.
39. *Ibid.*, 66.
40. Padover, 77.
41. Gooch, 41.
42. Padover, 90-93.
43. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 202.
44. Gershoy, 89.
45. Riedl, Frederick, *History of Hungarian Literature*, 77-81.
46. Hazard, *European Thought*, 109.
47. Padover, 73.
48. *Ibid.*, 74.
49. 81.
50. Gooch, 70.
51. Martin, *France*, XVI, 392.
52. *Ibid.*, 391.
53. Padover, 94; *CMH*, VI, 628.
54. Parton, James, *Daughters of Genius*, 402.
55. *Cf.* Coxe, *History of the House of Austria*, III, 485-86.
56. Richard, Ernst, *History of German Civilization*, 380.
57. Padover, 181.
58. *Ibid.*, 178.
59. 279.
60. 281.
61. 285; Gershoy, 100.
62. Gershoy, 101.
63. Padover, 286.
64. Coxe, *House of Austria*, III, 491n.
65. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 356.
66. Padover, 212.
67. Jahn, *Mozart*, II, 401.
68. Padover, 214-15.
69. *Ibid.*
70. *History Today*, September, 1955, p. 615.
71. Padover, 246.
72. Coxe, III, 493.
73. Padover, 243.
74. Vambéry, *The Story of Hungary*, 385.
75. Padover, 299.
76. *Ibid.*, 311.
77. Coxe, III, 526.
78. Padover, 329.
79. *Ibid.*, 345.
80. 373.
81. 360.
82. 364.
83. 383.
84. *History Today*, September, 1955, p. 620.
85. Gilbert, O. P., *Prince de Ligne*, 193.
86. Coxe, III, 541.
87. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, VII, 492.
88. Padover, 287.

CHAPTER XIV

1. Jahn, *Mozart*, II, 202.
2. Weinstock, Herbert, *Handel*, 268.

3. Rolland, *Musical Tour*, 208.
4. Rolland, *Essays in Music*, 176.
5. Einstein, *Gluck*, 59.
6. In Brockway and Weinstock, *The Opera*, 66.
7. Einstein, *Gluck; Grove's Dictionary of Music*, II, 401.
8. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 659.
9. Faguet, E., *Rousseau artiste*, 191; Einstein, *Gluck*, 137.
10. Brockway and Weinstock, *Opera*, 97.
11. Einstein, 138.
12. Faguet, *Rousseau artiste*, 191.
13. *Grove's*, II, 400.
14. Rolland, *Essays*, 197-98.
15. *Kobbé's Complete Opera Book*, 42.
16. Rolland, *Essays*, 179.
17. Einstein, 146.
18. Burney, C., *History of Music*, II, 973.
19. Einstein, 151.
20. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 70.
21. *Kobbé's*, 52.
22. *Grove's*, IV, 174.
23. Einstein, 182.
24. Pratt, W. S., *History of Music*, 362.
25. Clark, Robert, *Herder*, 108, 429.
26. *Grove's*, II, 566.
27. Geiringer, Karl, *Haydn*, 44.
28. *Grove's*, II, 568.
29. Geiringer, 52-54.
30. *Ibid.*, 55.
31. *Grove's*, II, 570.
32. Jahn, II, 349.
33. Geiringer, 77.
34. *Ibid.*, 89.
35. 99.
36. *Grove's*, II, 574.
37. Geiringer, 108.
38. *Ibid.*, 110.
39. 121.
40. Jacob, H. E., *Joseph Haydn*, 212.
41. *Ibid.*, 267.
42. Geiringer, 168.
43. *Ibid.*, 167.
44. McKinney and Anderson, *Music in History*, 465.
45. *Grove's*, II, 582.

CHAPTER XV

1. Jahn, *Mozart*, II, 437.
2. *Ibid.*, I, 21n.
3. I, 28.
4. 33.
5. Blom, *Mozart*, 26.
6. Biancolli, *Mozart Handbook*, 129.
7. Jahn, I, 39.
8. *Ibid.*, 107.
9. 119.
10. 129.
11. 132.
12. 137.
13. *Ibid.*
14. Wyzewa and Saint-Foix, *W. A. Mozart*, I, 470.
15. *Ibid.*, 474.
16. Jahn, I, 149.
17. *Ibid.*, 344.
18. Anderson, E., *Letters of Mozart*, I, 403.
19. *Ibid.*, 395.
20. Einstein, *Mozart*, 41.
21. Anderson, II, 686-88.
22. *Ibid.*, 695.
23. 681-83.
24. 700-09.
25. Einstein, *Mozart*, 30-31.
26. Anderson, II, 925.
27. Blom, 88; Jahn, II, 65-66.
28. Letter of May 6, 1781, in Einstein, 54.
29. Jahn, II, 171.
30. *Ibid.*, 176.
31. 179.
32. 184.
33. Anderson, II, 1100.
34. Letter of July 25, 1781, in Anderson, II, 1121.
35. Anderson, III, 1166-69.
36. Einstein, 458.
37. Jahn, II, 413.
38. *Ibid.*, 419.
39. 420.
40. 439.
41. 337, 422.
42. Einstein, 238.
43. Letter of Leopold Mozart, Feb. 14, 1785, in Anderson, III, 1321.
44. Anderson, 1329.
45. Letter of Apr. 10, 1784, in Einstein, 265.
46. *Grove's*, III, 563.
47. Einstein, 223.
48. Biancolli, 345.
49. Einstein, 214.
50. Biancolli, 355.
51. *Ibid.*, 374.
52. 367-69; Blom, 183.
53. Einstein, 280.
54. Goethe, *Poetical Works*, 120. In *Works*.
55. "His Master's Voice" Record C 2736.
56. Jahn, II, 440; Nettle, Paul, *Mozart and Masonry*, 112.
57. Biancolli, 132.
58. Rolland, *Essays*, 246.
59. *Ibid.*
60. E.g., in the letter of Nov. 5, 1777: "I wish you good night, but first shit into your bed." And on Nov. 13: "I've been shitting, so 'tis said, nigh twenty-two years through the same old hole, which is not yet frayed one bit." (Anderson, II, 525, 546).
61. Letter of Jan. 31, 1778.
62. Letter of Sept. 26, 1777.
63. Nettle, 122.

64. Jahn, II, 269-71.
65. *Ibid.*
66. E.g., letters of Apr. 13, 1789, and Sept. 30, 1790.
67. Letter of June 7, 1783.
68. Letter of Feb. 20, 1784.
69. Letter of July 31, 1782.
70. Anderson, II, 826.
71. Nettle, 115; Ghéon, *In Search of Mozart*, 216.
72. Anderson, III, 1450.
73. Jahn, II, 304; Nettle, 120.
74. Einstein, 57.
75. Jahn, II, 295.
76. *Ibid.*
77. 298.
78. Einstein, 57.
79. Anderson, III, 1253.
80. *Ibid.*, 1296.
81. In Biancolli, 138.
82. Jahn, II, 412.
83. Einstein, 442.
84. Jahn, III, 134.
85. *Ibid.*, 140.
86. Goethe to Schiller, Dec. 30, 1797.
87. Anderson, III, 1360.
88. Blom, 138.
89. *Ibid.*
90. Letters of Dec. 14, 1789, in Anderson, III, 1383-85.
91. Brockway and Weinstock, *Opera*, 91.
92. Anderson, III, 1398-99.
93. Jahn, II, 278-80.
94. Nettle, 116.
95. Biancolli, 421.
96. Jahn, III, 285.
97. Einstein, 363.
98. Grout, *Short History of Opera*, 294.
99. Biancolli, 554.
100. Nettle, 117.
101. Stendhal in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, [illegible].

فهرس

الكتاب الثالث

صفحة

الفصل الحادي عشر :

الفصل الثاني عشر :

الصفحة

الفصل الثالث عشر :

الفصل الرابع عشر :

الفصل الخامس عشر :